

التفسير الكاشف

محمد جواد مغنّية

الجزء الخامس

سورة الأعراف إلى آخر سورة الشعراء



مجلس الشورى الإسلامي



التفسير الكاشف

مَجْمَعُ جَوَاهِرِ مَعْنِيَّتِهَا

التفسير الكاشف

المجلد الخامس

من سورة الأبراء

إلى آخر سورة الشعراء

مجمع

دار الكتاب الإسلامي

مكتبة أم العيث للتراث
البيروت - لبنان
٢٠٠٥ - ٢٠٠٦

مقدمة

مؤسسة آل العيث للتراث
بمكتبة أم العيث العامة

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر
مكتبة أم العيث للتراث

الكتاب مؤسسة الدراسات الإسلامية
التفسير الكاشف (ج ٥)
المؤلف العلامة محمد جواد مغنية
الناشر دار الكتاب الإسلامي
الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
المطبعة مطبعة ستار
عدد النسخ (٢٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي للمجموعة: ٩ - ٠٨٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 085 - 9

الترقيم الدولي (ج ٥): ٣ - ٠٩١ - ٤٦٥ - ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 091 - 3

الجزء الخامس عشر

سورة الأبرار

سُورَةُ الْأَسْرَاءِ

مكية ، وعدد آياتها ١١١ إلا ٥ وقيل إلا ٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاسراء الآية ١ :

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *

اللغة والإعراب :

سبحان منصوب على معنى أصبح تسيحاً ، ومعنى التسيح التنزيه ، وفيه معنى التعجب ، والاسراء يكون بالليل ، وليلاً ظرف لأسرى ، وجيء به هنا للتوكيد ، وقيل : للإشارة إلى ان الاسراء كان في بعض الليل ، لا في كله ، والمراد بعبده محمد (ص) ، والمسجد الحرام البيت العتيق بمكة ، وقال صاحب روح البيان وغيره : « أصبح الروايات ان الاسراء كان من بيت ام هاني أخت علي بن أبي طالب » . والمسجد الأقصى هيكل سليمان ، وسمي مسجداً لأنه محل للسجود ، وهو أقصى لبعده عن مكة . وحوله ظرف لباركنا ، وهو محفوف بركات الدين والدنيا ، أي بموطن الأنبياء ، وبالأنهار والأشجار . وضمير انه هو السميع البصير يجوز ان يعود الى الله تعالى على معنى انه يعلم من يؤمن ومن يكفر بحديث الاسراء ، ويجوز ان يعود الى محمد (ص) على معنى انه يعلم جلال الله وعظمته . أما زمن

سورة الاسراء

الاسراء فقيلاً : انه ليلة ٢٧ من رجب ، وقيل : ليلة سبع عشر من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة .

الاسراء بالروح والجسد :

يطلق كثير من العلماء كلمة الإسراء على رحلة النبي (ص) من المسجد الحرام في مكة الى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ويطلقون كلمة المعراج على رحلته من بيت المقدس الى السموات العلى ، لأن كلمة المعراج تسمى الى الارتقاء والصعود.. والبعض منهم لا يفرق بين الكلمتين ، فيستعمل الاسراء في الصعود الى السماء ، والمعراج في الإسراء الى بيت المقدس .

وقد اتفقوا على وقوع الاسراء والمعراج لوجود النص عليهما في الكتاب والسنة ، واختلفوا : هل كان ذلك بالروح دون الجسد أو بهما معاً ، ونحن مع الذين قالوا : انه بهما معاً ، ونتكلم هنا عن الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، أما المعراج الى السماء فيأتي الحديث عنه في سورة النجم . واستدل القائلون بأن الاسراء كان بالروح والبدن بالأدلة التالية :

١ - ان الاسراء بالبدن ممكن عقلاً ، وقد دل عليه ظاهر الوحي ، حيث قال تعالى : اسرى بعبده ، ولم يقل بروح عبده ، وكلمة العبد تطلق على مجموع الروح والبدن ، كما قال تعالى : « رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى - ١٠ العلق » . ومن الأصول المقررة في الاسلام ان كل ما دل عليه ظاهر الوحي ، ولم يعارض بحكم العقل وجب الايمان به .

٢ - لو كان الاسراء بالروح فقط لما كان فيه أي شيء من العجب ، ولم يبادر المشركون الى تكذيبه ، فلقد جاءت الروايات ان أم هانئ قالت للرسول الأعظم (ص) : لا تخبر قومك بذلك ، فأخشى أن يكذبوك .. ولكنه لم يسمع لتخوف أم هانئ ثقة منه بالحق الذي جاء به ، وصارح قومه بما رأى ، فدهشوا وأنكروا ، ولو كان مناماً لما دهشوا وأنكروا .

٣ - ان الاسراء بالروح والبدن يرمز إلى أن على الانسان أن يعمل لحياته

الجزء الخامس عشر

المادية والروحية ، لا لاحدهما دون الأخرى .

٤ - اشتهر عن الرسول (ص) انه قال : اسري بي على دابة يقال لها البراق . ومن الواضح ان الاسراء بالروح فقط لا يحتاج إلى الدابة ولا إلى غيرها . وهذه المناسبة نشير إلى مقال نشرته جريدة « الجمهورية » المصرية لمحمد فتحي أحمد بعنوان « المضمون العلمي للاسراء والمعراج » جاء فيه :

« امتطى الرسول الكريم راحلة يقال لها البراق، وهي على ما ذكر الحديث دابة فوق الحمار ودون البغل ، وفي ذلك تلقين إلهي لنا بوجود التعاقب بالأسباب ، فلم يكن عزيزاً على ربنا أن ينقل رسوله من مكة إلى القدس دون وسيلة من وسائل النقل بحيث يجد الرسول نفسه فجأة على أبواب المسجد الأقصى ، ولكنه جلت حكمته قضى بأن يجري كل شيء على قوانين لا تتبدل ولا تتحول .. وفي استخدام هذه الراحلة التي قطعت المسافة الطويلة في سرعة مذهلة تحريض للعقول على النظر في ابتداء وسائل جديدة تقطع المسافات البعيدة في مدة وجيزة .. ثم نسأل الذين يعلمون : ما هي أقصى سرعة تجري في كون الله طبقاً لما انتهى إليه العلم ؟ . ويأتينا الجواب بلا تردد انها على وجه اليقين سرعة الضوء، وهي ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية الواحدة .. والبراق الذي امتطاه الرسول كان ينطلق بسرعة صوتية لأن كلمة البراق مشتقة من البرق .. ومن خلال المحاولات العلمية في دراسة الفضاء توصل الانسان إلى معرفة كثير من الأسرار ، واستطاع بسلطان العلم أن ينفذ من أقطار الأرض إلى عجائب الملكوت ، ولكن العلم المادي وحده ينسي الانسان خالق الكون ، وحادث الاسراء والمعراج يعطينا درساً بأن المادة والروح متلازمان فقد كان الرسول بعروجه إلى الملأ الأعلى على هيئته بشراً من مادة الكون وقبساً من روح الخالق الأعظم ، وكان جبريل يمثل الدليل الأمين ، ولا مانع من أن نرمز إليه في الرحلة بسلطان العلم الذي يجب أن يقودنا في رحلتنا بهذه الحياة إلى خالق الأكوان » .

وأغرب ما قرأته في هذا الباب قول من قال : ان اسراء النبي (ص) كان بروحه ، لا بجسده الشريف مستدلاً بما روي عن عائشة ان جسد النبي لم يفارقها تلك الليلة .. مع العلم بأن عائشة كانت صغيرة حين الاسراء، ولم تكن زوجة لرسول الله (ص) .. فالرواية تكذب نفسها بنفسها .

سورة الاسراء

بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى :

المسجد الأقصى يشبه المسجد الحرام من وجوه :

- ١ - انهما في الشرق .
- ٢ - يربيع تاريخ كل منهما إلى عهد قديم الا ان المسجد الحرام أقدم وأعظم ، لأنه أول بيت وضع للناس ، وقد أوجب الله حجه على من استطاع اليه سبيلاً : « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً - ٩٧ آل عمران » .

٣ - ان كلاً من الكعبة ومدينة القدس التي فيها المسجد الأقصى قد أسسها وأنشأها العرب أو شاركوا في بنائها أو تأسيسها ، أما الكعبة فقد بناها ابراهيم وولده اسماعيل (ع) : « وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود - إلى قوله - وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل - ١٢٧ البقرة » . والمعروف ان اسماعيل أول نبي تكلم باللغة العربية خلاف لغة أبيه ، واليه تنتسب قريش وغيرها من العرب ، وبلغتها نزل القرآن الكريم ، أما القدس فقد نزع إلى أرضها قبيلة اليوسيين ، وهي من القبائل الكنعانية العربية ، وقد حطت رحالها على الجبل المعروف باسم صهيون سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد بزعامه شيخها سالم اليوسبي ، وهذه القبيلة العربية هي التي وضعت أول لبنة لمدينة القدس التي أصبحت فيما بعد قبلة العالم .. وبعد أن فتح المسلمون القدس بنوا مسجد عمر ، ومسجد قبة الصخرة داخل الحرم القدسي ، والأول أسسه عمر ابن الخطاب ، والمسجد الثاني بناه عبد الملك بن مروان ، وكان المسلمون لا يبيعون لغير المسلم أن يطأ أرضها .

٤ - ان المسلمين يقدسون كلاً من المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، حيث توجهوا اليه في صلاتهم ثلاثة عشر عاماً بمكة وبضعة أشهر بالمدينة ، وإذا أضفنا

١ من تحقيق نشره الأستاذ ميخائيل خليل في جريدة « أخبار اليوم » عدد ٢٥ - ٥ - ١٩٦٨ .

الجزء الخامس عشر

إلى ذلك اسراء النبي (ص) اليه لم يكن عجباً ان يتخذهُ المسلمون مكاناً مقدساً لهم وان يكون عندهم بالمتزلة الثانية من الحرم المكّي والمدني من حيث القداسة والصيانة والرعاية .

وقد جاء في كثير من الروايات ان رسول الله قيّد البراق بالصخرة المقدسة حين بلغ به الإسراء الى بيت المقدس وحتى الآن يسمى الجدارُ الغربي للحرم القدسي بجدار البراق ، وجاء في الروايات أيضاً ان النبي (ص) صلى على أطلال هيكل سليمان اماماً لابراهيم وموسى وعيسى ، وانه عرج الى السماء بعد ذلك متخذاً من صخرة يعقوب مركزاً لمعراجه الى السماء . ومن أجل هذا وغيره كانت مأساة القدس سنة ١٩٦٧ م. على أيدي الصهيونية والاستعمار الأمريكي والانكليزي هي مأساة المسلمين والمسيحيين أيضاً .. فلقد لوثت تلك الأيدي القذرة الأماكن المقدسة عند الديانة الاسلامية والمسيحية، واستهانت بها ، فأحيت فيها الليالي الحمراء مع الفاجرات ، وأقامت حفلات الرقص والحلاعة .

وغريبة الغرائب ان يدعي الامريكان والانكليز انهم حماة الأديان وأعداء الاحداد.. وفي نفس الوقت يناصرون الصهاينة الذين لا يؤمنون بالقيم ، ولا يحترمون الأخلاق ، ولا يقيمون وزناً للدين من الأديان ، ولا يعترفون بحق من حقوق الانسان . لقد ناصر الامريكان والانكليز اسرائيل وأمدوها بالمال والسلاح ، وآزروها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وشجعوها على انتهاك المقدسات الدينية عند المسلمين والمسيحيين ، وتحذوا بموقفهم هذا العالم بأسره .. ولسنا نشك في ان دائرة السوء ستدور على المستعمرين وحلفائهم الصهاينة بأيدي الثائرين الأحرار ، تماماً كما دارت الآن على رؤوس الامريكان بيد الفيتناميين ، ودارت من قبل على اليهود بيد مختصر الرومان والنبي (ص) والخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، وهذه الصحف والاذاعات في الشرق والغرب لا تخلو يوماً من أخبار المقاومة الفلسطينية وعملياتها الفدائية التي جعلت كل اسرائيلي يعيش في كابوس من الخوف والرعب .

الدرس العملي في الاسراء :

ان هذا القرآن المكتوب الذي نتلوه ونستمع اليه هو دروس ألقاها الخالق ،

سورة الاسراء

جلت عظمته ، على رسوله الكريم ليلتغها بدوره الى الناس كافة ، وهذه الدروس على انواع ، منها في الأحكام ومعرفة الحلال والحرام ، ومنها الأمر بالجهاد في سبيل الله والاخلاص والمثابرة والصبر على الشدائد من أجل الحق ، وأهمها جميعاً الايمان بالله وعظمته إيماناً صحيحاً مبنياً على العلم ، لا على التقليد ، وقال ويقول ، ولا على الأوهام والشطحات .. وقد أرشد سبحانه الى طريق العلم واليقين به ، وهو التفكير في خلق الكون بأرضه وسماؤه ، وما فيها من تدبير وإحكام وتنسيق بين أجزائه وكياناته : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق - ٨ الروم » .

وبعد أن أوحى الله الى عبده ورسوله بتلك الدروس في عظمة الكون وخلق السموات والأرض - خصه من دون الخلق أجمعين برحلة أرضية من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ورحلة سماوية من المسجد الأقصى الى السموات العلى.. أما الغرض من هاتين الرحلتين فهو ان يتلقى الرسول الكريم (ص) درساً عملياً بعد أن تلقى درساً نظرياً في الكون ، وان يشاهد من عوالمه وعجائبه ما لا تدركه العقول ، ولا تبلغه الأوهام .. وهذه هي الطريقة المتبعة في التربية الحديثة ، حيث يهيء الأساتذة لتلاميذهم الرحلات ونحوها من الدروس العملية بعد الدروس التي يتلقونها في المدارس والمعاهد .. وبالتالي ، فإن الدرس البليغ في رحلتي الرسول الأرضية والسماوية هو حض العقول على النظر في ملكوت السموات والأرض للتعرف على قدرة الخالق وعظمته : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء - ١٨٥ الأعراف » .. وقال الامام علي (ع) : عجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلق الله !.

وآتينا موسى الكتاب الآية ٢ - ٣ :

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَنَجَّدُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا * ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *

الإعراب :

ان لا تتخذوا (ان) بمعنى أي مفسرة لما في الكتاب كما لو قلت : كتبت اليه ان افعل كذا ، وتتخذوا تتعدى إلى مفعولين : الأول وكيلاً ، والثاني دوني، ومن زائدة اعزاباً أي لا تتخذوا وكيلاً غيري . وذرية منادى أي يا ذرية من حملنا .

المعنى :

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل الا تتخذوا من دوني وكيلاً) . المراد بالكتاب التوراة ، وباسرائيل يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (ع) ، والمعنى ان الله أنزل التوراة على موسى ليهدي بها بنو اسرائيل إلى الحق والصواب، وليتكلوا على الله وحده، ولا يتخذوا من دونه ولياً ولا نصيراً . ولكنهم حرفوا كلام الله ، وعبدوا العجل ، وقتلوا الأنبياء ، وملأوا الدنيا شرّاً وفساداً، وسخروا لهذه الغاية جميع ما يملكون من طاقات .

(ذرية من حملنا مع نوح) . حمل نوح معه في السفينة أولاده الثلاثة ، وهم حام وسام ويافت ، ونسأهم، ومنهم تناسل الناس بعد الطوفان، ومنهم الاسرائيليون في عهد موسى ، وفي هذا النداء تذكير لبني اسرائيل بأنعم الله التي جمحدوها وكفروا به وبها. (انه كان عبداً شكوراً) . ضمير انه يعود إلى نوح (ع) أي كونوا أيها اليهود شاكرين ذاكرين كما كان نوح .. ولكن لا يشكر النعمة إلا أهل الصدق والوفاء، وما عرف الاسرائيليون منذ كانوا إلا الكذب والغدر والحيانة . وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) ان نوحاً كان اذا أصبح أو أمسى قال : اللهم اني اشهدك ان ما أصبح وأمسى بي من نعمة في دين أو دنيا فهو منك لا شريك لك ، لك الحمد ، ولك الشكر بها عليّ حتى ترضى .

سورة الاسراء

بنو اسرائيل والافساد مرتين الآية ٤ - ٨ :

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ
وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا
أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ
رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا *

اللغة :

للقضاء معان ، منها فصل الأمر ، ومنها الخلق والاحداث كقوله تعالى :
فقضاهن سبع سموات ، ومنها الايجاب كقوله : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ،
ومنها الإخبار والاعلام ، وهو المراد بقوله : وقضينا الى بني اسرائيل . والمراد
بالعلو هنا الطغيان . والجوس خلال الديار وطأها والتردد بينها . والكرة العودة
والرجعة . والمراد بالتبير هنا العدد من الرجال . والتبير الاهلاك ، والتبار الهلاك .
والحصير يستعمل في البساط والسجن ، وكل من المعنيين جائز في الآية .

الإعراب :

قضينا تضمنت معنى الإيحاء ، ولذا تعدت بإلى . واللام في لتفسدن جواب

الجزء الخامس عشر

قسم محذوف أي والله لتفسدن . ومرتين نائبة مناب المفعول المطلق ، أي افساداً بعد افساد ، أو افسادتين . والوعد هنا اسم مفعول أي الموعود . ونخلال ظرف مكان متعلق بجاسوا . وكان وعداً اسم كان ضمير مستتر يعود الى الجوس ووعداً خير . ونفراً تمييز . فإذا جاء وعد الآخرة جواب إذا محذوف دل عليه جواب إذا الأولى أي فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم عليكم . وليسوءوا واو الجماعة عائد الى المبعوثين ، ويسوءوا منصوب بان مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور بها ، ويتعلق ببعثنا المحذوفة . وأول مرة منصوب على الظرف . وما علوا (ما) مفعول ليتبروا أي يهلكوا ما غلبوا عليه من البلاد .

المعنى :

المعنى الجملي لهذه الآيات ان الله أخبر بني اسرائيل انهم يفسدون في الأرض أولاً ، فيسلط عليهم من يذلهم بالقتل والأسر والسلب والنهب ، ثم يستردون قوتهم ، ولكن يعودون الى الافساد ثانية ، فيسلط عليهم أيضاً من يضربهم الضربة الثانية ، وفيما يلي التفصيل :

١ - (وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب) . المراد بالقضاء هنا الاعلام والايحاء ، لا القضاء بمعنى الحكم والأمر لأن الله لا يقضي بالفساد : « قل ان الله لا يأمر بالفحشاء - ٢٨ الأعراف » ، والمراد بالكتاب التوراة التي انزلت على موسى بدليل قوله تعالى : (وآتينا موسى الكتاب) . والمعنى ان الله سبحانه أخبر بني اسرائيل ان خلفهم سيفسدون في الأرض مرتين .

٢ - (لتفسدن في الأرض مرتين) . وليس المقصود بافسادهم هنا الافساد بمعناه العام الذي يشمل الكفر والكذب وأكل الربا ، وتدبير المؤامرات ونحوها .. فان هذا هو دينهم ودينتهم في كل عصر وجيل ، وكل طور من أطوار حياتهم ، فلقد قال تعالى فيما قال عنهم : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غات ايديهم ولعنوا بما قالوا - الى قوله - كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين - ٦٤ المائدة » . ليس المقصود الافساد العام ، وانما المقصود

سورة الاسراء

الافساد الخاص ، وهو الحكم والسيطرة : وان حكمهم هو الافساد بالذات بدليل قوله تعالى مخاطباً بني اسرائيل :

٣ - (ولتعلنّ علواً كبيراً) . والقرآن الكريم يستعمل العلو في الطغيان والافساد قال تعالى : « ان فرعون علا في الأرض - ٤ القصص » . وقال : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين - ٨٣ القصص » . والمعنى انكم يا بني اسرائيل ستحكمون مرتين ، وتتخذون الحكم وسيلة للفساد الكبير الخطير الذي لا يقاس به أي فساد.. فتستبيحون المقدسات، وتنتهكون الحرمات ، وتستهينون بالقيم والاخلاق ، وبكل حق لله وللانسان .

ولم ينص القرآن الكريم على مكان وزمان افسادهم الكبير بسبب الحكم مرتين ، ولكن المؤرخين وجماعة من المفسرين قالوا : ان بني اسرائيل اغاروا على فلسطين بعد التيه بقيادة يوشع بن نون خليفة موسى بن عمران ، واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات بعد أن ابادوا معظم أهلها الكنعانيين، واستعبدوا من بقي منهم ، وكانت سيرتهم مع يوشع تماماً كسيرتهم مع موسى : العصيان والعناد .. وهذه هي المرة الأولى ، أما المرة الثانية فمن قائل : انها لم تقع بعد ، وانها ستقع في المستقبل على أيدي العرب والمسلمين في فلسطين ، ويأتي البيان ، ومن قائل : انها وقعت ومضى أمدها . وهذا القول هو الأرجح .

وفي كافة الأحوال فان القرآن الكريم ينص صراحة على ان بني اسرائيل اذا حكموا وسيطروا طغوا وبغوا وافسدوا في الأرض وعلوا علواً كبيراً .. اذن ، فلا بدع أن تبقر الدولة الصهيونية الاستعمارية بطون الجبالى في فلسطين، وتدفن الشباب أحياء ، وتطلق النار على المساجين ، وتلقي قنابل النابالم على الآمنين، وتهدم البيوت على أهلها، وتكتم الأفواه بالأموال والضغط العنيف .. ثم تتباكى وتنظم من الاعتداء عليها .. نقول هذا مع العلم بأن القرآن لا يشير اطلاقاً الى هذه العصاة المرتزقة التي باعت نفسها لكل من قاد ويفقد قوى الشر والاستعمار .. ولكن جاءت الاشارة اليها لأن هذه العصاة تحمل اسم اسرائيل ، وتدعي الانتماء إلى بنيه مسخة القروود والخنازير .

(فإذا جاء وعد أولاهما) . ضمير أولاهما يعود إلى المرتسين من افساد بني

الجزء الخامس عشر

اسرائيل ، والوعد هنا بمعنى الموعود أي إذا جاء الوقت الموعود لإفساد بني اسرائيل في المرة الأولى (بعثنا عليكم عبادة لنا أولي بأس شديد) . الخطاب في عليكم لبني اسرائيل ، وبعثنا سلطنا ، ولا يشرط في العباد أن يكونوا مؤمنين - كما زعم البعض - بل قد يكونون كافرين بدليل قوله تعالى : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون - ٣٠ يس » ، وأولي بأس شديد أصحاب شوكة وقوة ، وهم البابليون بقيادة نخنصر أو أبيه سنحاريب، الذين قتلوا اليهود ، وأحرقوا التوراة ، وسبوا منهم عدداً كبيراً رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وكان ذلك سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، وقيل: ٥٩٦ (فجاسوا خلال الديار) لم يأت في القرآن لفظ جاسوا إلا في هذه الآية، والجوس طلب الشيء بالاستقصاء والتردد أي ان أولي البأس كانوا يترددون وسط ديار اليهود ذهاباً وإياباً يبحثون عن اليهود ليقتلوهم (وكان وعداً مفعولاً) نافذاً لا خلف فيه ، ولا مرد له .

وخلاصة المعنى من مجموع هذه الآية ان بني اسرائيل حين أفسدوا في المرة الأولى بعث الله عليهم قوماً أقوياء أشداء قتلوا وأسروا وشردوا رجالهم ، وسبوا نساءهم ، ونهبوا أموالهم ، وخربوا ديارهم .. ونخلص من هذا ان الافسادة الأولى وضربتها من الله على يد قوم أشداء قد مرت قبل الاسلام .

(ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً) . الخطاب لبني اسرائيل ، والضمير في عليهم للبابليين ، والمعنى ان بني اسرائيل يكرتون ويتحررون من أسر البابليين وإذلالهم .. والمعروف ان بني اسرائيل لم يحاربوا البابليين في ديارهم ، ولم ينتصروا عليهم ، ولكن في سنة ٥٣٨ قبل الميلاد فتح ملك الفرس بلاد بابل ، وحرر من فيها من الأسرى الاسرائيليين ، وعليه تكون الكرة من بني اسرائيل على البابليين بواسطة ملك الفرس ، قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره « المحيط » : « إن ملكاً غزا أهل بابل ، وكان نخنصر قد قتل من بني اسرائيل أربعين ألفاً ، وأبقى منهم بقية عنده ببابل في الذل، فلما غزاهم ذلك الملك ، وغلب على بابل تزوج امرأة من بني اسرائيل، فطلبت منه أن يرد قومها إلى بيت المقدس ، ففعل »^١ .

١ ويشهد هذا الزواج على اليهود بأنهم منذ القديم يتوصلون الى غاياتهم عن طريق الرقيق الأبيض .

سورة الاسراء

ولما عاد بنو إسرائيل إلى فلسطين أمدهم الله بالمال والبنين، وجعلهم أكثر عدداً مما كانوا ، ولكن ما ان استردوا قوتهم حتى عادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه من الافساد والانحراف عن الدين، وقتلوا زكريا ويحيى، وهمتوا بقتل السيد المسيح (ع) .
(إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) . وفي هذا المعنى قوله تعالى :
« من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد - ٤٦ فصلت » .
وقوله : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - ٢٨٦ البقرة » .

(فإذا جاء وعد الآخرة) . بعد أن مضى الافساد الأول من بني إسرائيل ، ومضت محتتهم الأولى جاء الافساد الثاني ، وحل محله وقت المحنة الثانية ، فبعث الله على بني إسرائيل قوماً (ليسوءوا وجوهكم) الخطاب لبني إسرائيل ، وضمير يسوءوا راجع إلى المبعوثين لكي ينزلوا المحنة بالاسرائيليين .. ومساءة الوجوه كناية عن محتتهم وإذلالهم ، لأن الأعراض النفسية يظهر أثرها في الوجه فرحاً كانت أو حزناً ، ومثله قوله تعالى : « سيئت وجوه الذين كفروا - ٢٧ الملك » .

(وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً). المراد بالمسجد هنا مدينة القدس ، لأن فيها هيكل سليمان ، وسمي مسجداً لأنه محل للسجود ، والمراد بالتبشير الاهلاك ، وما علوا أي ما أخذه الفاتحون وتغلبوا عليه ، والمعنى ان بني اسرائيل حين أفسدوا في المرة الثانية ساط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ويجعل مصيرهم في هذه المرة تماماً كمصيرهم في المرة الأولى من القتل والاسر والتشريد والتخريب والتدمير .. ونخلص من هذا ان الافسادتين والمحتتين قد مضتا جميعاً قبل الاسلام .

وفي مجمع البيان ان الذي أغار على بني اسرائيل أولاً ، وخرّب بيت المقدس هو بختنصر ، والذي أغار عليهم ثانية هو ملك الروم ، فخرّب بيت المقدس وسبى أهله ، ويتفق هذا مع ما نقله المراغي عن تواريخ اليهود ، وقال : كان بين الاغارتين نحو من خمسمئة سنة .

(عسى ربكم ان يرحمكم) على شريطة أن تتوبوا وترحموا ، لأن من لا يرحم لا يرحم ، كما جاء في الحديث الشريف (وان عدتم) إلى الافساد والتعالي والاستكبار على أمر الله (عدنا) إلى عقابكم وإذلالكم ، وقد عادوا وأفسدوا ،

الجزء الخامس عشر

فكذبوا محمداً (ص) ، وهموا بقتله ، كما هموا بقتل المسيح (ع) من قبل ، فسلط الله عليهم المسلمين ، فقتلوا بني قريظة ، وأجلوا بني النضير ، واستولوا على خيبر ، وطرّدوا اليهود من الجزيرة العربية .

(وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) . قيل : الحصر هنا بمعنى البساط ، وقيل : بمعنى الحصر والحبس ، ومهما يكن فإن المراد ان جهنم محيطة بهم ، ولا رجاء لهم بالخلاص منها ، تماماً كقوله تعالى : « أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً - ١٢١ النساء » .

قضاء الله ودولة اسرائيل :

في كانون الثاني « يناير » من هذا العام ١٩٦٩ دار نقاش هادىء على صفحات جريدة الأخبار المصرية حول قضائه تعالى : « الى بني اسرائيل لتفسدن في الأرض مرتين الخ » . واشترك في هذا النقاش عدد كبير من أهل العلم والرأي الغيورين على الحق ، واستمر الحوار والجدال أمدأ غير قصير ، ونشرته الجريدة في أربعة أعداد ، وهي أعداد أيام الجمعة من الشهر المذكور ، وقد انقسم المشتركون في هذا الحوار إلى فريقين :

الفريق الأول يقول : ان أولى الضربتين على بني اسرائيل وقعت بيد المسلمين أيام عمر بن الخطاب لأنه فتح القدس ، وجاس هو والمسلمون خلال الديار الفلسطينية ، وفسر هذا الفريق المفسدة الثانية من بني اسرائيل بما فعلته عصابة الصهاينة في حزيران سنة ١٩٦٧ وما تفعله الآن ، وفسر الضربة الثانية بأن الله سيمكّن في المستقبل العرب والمسلمين من رقاب الصهاينة ، فيسترجعون منهم الأرض السلبية التي وثبوا عليها في حمى الاستعمار .. وقال هذا الفريق : ان هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » أي ان العرب والمسلمين يحرمون المسجد الأقصى في المستقبل من اسرائيل الحالية كما حرره المسلمون من قبل .

ولا مصدر لهذا التفسير إلا العاطفة والتنبؤات التي يجب تنزيه القرآن عنها ، لأنه كتاب علم ونور من الله يكشف عن السنن والقوانين الكونية التي لا تتغير ولا

سورة الاسراء

تتبدل ، وتطرّد في جميع الكائنات من الذرة الصغيرة الى المجرات الكبيرة .. وفي الوقت نفسه يحتمل القرآن كل فرد مسؤولية العمل والجهاد والحساب عليه أمام الله والضمير والناس أجمعين .

أما الفريق الثاني فيقول : إن الافسادتين من بني إسرائيل قد مضتا ، ومضت معها الضربتان قبل الاسلام ، وان الضربة الأولى سبقت ظهور الاسلام بنحو ألف عام وانها كانت بيد ملك بابل يختصر أو أبيه سنحاريب السذي دمر القدس ، وأحرق الهيكل ، وقتل من اليهود مقتلة عظيمة ، وساق من بقي منهم رجالاً ونساء وأطفالاً سبياً ذليلاً إلى بابل .

أما الضربة الثانية فيقول هذا الفريق : انها وقعت على بني إسرائيل سنة ٧٠ للميلاد بيد تيطس الروماني الذي حاصر مدينتهم ، ودك أسوارها ، ثم دخلها فحرب منازلها ، ودمر هيكلها ، وقتل مليون نسمة على ما قرره يوسفوس الذي شهد الواقعة بنفسه ، عدا من باعه رقيقاً في الأسواق ، وهام الباقون على وجوههم مذعورين إلى شتى أنحاء الأرض .

وأيضاً قال هذا الفريق : إن النص القرآني لا يشير من قريب أو بعيد إلى العصاة الموجودة الآن على أرض فلسطين ، والتي تحمل اسم إسرائيل، لأنها ليست طائفة دينية ، ولا هيئة سياسية ، ولا دولة حقيقية ، وإنما هي في واقعها عدو جديد للعرب والمسلمين ، وهو الاستعمار الصهيوني ، أو الصهيونية الاستعمارية التي تلبس أثواب داود ، عليها الخريطة المشتهة، والمسجلة في التوراة الموضوعة المحرفة « من النيل إلى الفرات » . والغرض الأول والأخير هو أن يقضي الاستعمار الجديد بقيادة الولايات المتحدة على الكيان العربي والاسلامي ، ويستنزف موارد الشعوب تحت ستار اليهود .

ونخلص من هذا ان القرآن الكريم لم يشر إطلاقاً إلى إسرائيل الحالية ، وان الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل إنما عنت الاثني عشر سبطاً من نسل يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم الذين كانوا في عهد موسى وهارون .. وهؤلاء الذين اقتحموا

١ من كلمة البهي الخولي . «الأخبار» المصرية ٣١ - ١ - ١٩٦٩ .

الجزء الخامس عشر

أرضنا بأسلحة الاستعمار ، وأموال الصهيونية ليسوا من نسل إسرائيل بن اسحق ، ولا على دينه ودين موسى ، وإنما هم مخلوق جديد .. عجيب غريب .. لم يسبق له مثيل ، لأنه مكون من أشقات لا يربط بينها رابط ، ولا يجمعها جامع من وطن أو لغة ، أو أي مبدأ إلا مبدأ العمالة لقوى الشر والاستعمار .

هذا ، إلى أن تفسر قوله تعالى : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » تفسيره بأن الله قضى وقدر بطرد الصهاينة من فلسطين يؤدي بنا من حيث نريد أو لا نريد إلى التواكل وطرح أسباب النصر الطبيعية التي بينها الله في كتابه ، وعلى لسان نبيه ، وحثنا عليها بكلمة الجهاد تارة ، والتعاون تارة ، وإعداد العدة أخرى ، وعدم اليأس حيناً ، والصبر والمثابرة أحياناً ، وبذل المال واسترخاخص كل غال في سبيل الذود عن الدين والوطن، تماماً كما فعل محمد وصحابة محمد(ص) والذين اتبعوهم باحسان ، وكما يفعل الفدائيون الآن .

وبعد ، فإن الله لا ولن يتولى عنا حرب إسرائيل ، ولا حرب الاستعمار والصهيونية ، وإن صلينا له ورجونا ، لأن أفضل أنواع العبادة عنده هي التضحية بكل القدرات والطاقات ضد الظلم والطغيان ، والفساد والعدوان .. ونحن نملك القدرة الكافية الوافية على طرد العدو من أرضنا السليبة ، نملك هذه القدرة بعددنا وديننا وتراثنا ومواردنا ، وما علينا إلا أن نستعملها .. ولا بد أن نستعملها في يوم من الأيام إن عاجلاً أو آجلاً ، لأن حب البقاء يحتم ذلك .. فلقد وضعنا الاستعمار والصهيونية أمام أمرين لا ثالث لهما : إما الموت ، وإما الحياة .. ولا أحد يفضل الموت على الحياة ، والاستعباد على الحرية ، والهوان على الكرامة .

القرآن يهدي للتي هي أقوم الآية ٩ - ١٢ :

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا

سورة الاسراء

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلًا *

اللغة :

مبصرة أي تبصر بها ، مثل ليل نائم أي نائم فيه . ومحونا طمسنا .

الإعراب :

التي هي أقوم أي للملة التي . والمصدر من ان لهم أجراً مجرور بباء محذوفة أي يبشر المؤمنين بأن لهم . وان الذين معطوف على ان لهم . واعتدنا أصلها أعددنا . ودعائه قائم مقام المفعول المطلق أي يدعو بالشكر دعاءً مثل دعائه بالخير . وكل شيء مفعول لفعل محذوف دل عليه الموجود أي وفصلنا كل شيء فصلناه .

المعنى :

(ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً) . للتي هي أقوم أي للملة أو الطريقة التي هي أقوم ، ومعنى يهدي يرشد ويوجب ، وكلمة أقوم تعني الأصلح والأنتفع ، وهي بتعميمها تشمل الأصلح في كل شيء ، وفي كل زمان ومكان ، ولكل انسان من غير استثناء .

وهذه الآية دعوى صريحة وواضحة يسجلها القرآن ، ويؤمن بها كل مسلم ..

الجزء الخامس عشر

وملخصها ان الاسلام هو خير الأدبان كلها ، أما الدليل على صحة هذه الدعوى وصدقها فهو القرآن بعقيدته وشريعته وسائر تعاليمه بالاضافة الى سيرة صاحب الرسالة محمد بن عبدالله (ص) الذي ملأ الأرض علماً وإيماناً وبراً وعدلاً بعدما ملئت جهلاً وكفراً وفساداً ، وقد أثبت العلماء هذه الحقيقة : ووضعوا لذلك مئات الاسفار في تفسير كلام الله ، وحديث رسول الله وسيرته ، وفي العقيدة والشريعة والأخلاق الاسلامية ، وفيما حققه الاسلام في شتى الميادين ، وذكرنا طرفاً من ذلك في المجلدات السابقة من هذا التفسير . وفيما يلي نشير الى بعض المبادئ على سبيل المثال :

الاسلام دين الفطرة :

١ - ان كل أصل من عقيدة الاسلام ، وكل فرع من شريعته ، وكل حكم من أحكامه - يرتكز على الفطرة النقية الصافية : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٣٠ الروم » . فهذه الآية تقرر بصراحة ووضوح ان الاسلام يستجيب لمطالب الفطرة الانسانية ، ويبسط ذراعيه لكل جديد مفيد ، سواء أ جاء من الشرق أو الغرب . قال الإمام علي (ع) : « الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق » وقال : انظروا الى القول ، لا الى من قال ، وفي هذا المعنى كثير من الأحاديث .

إيمان الاسلام بالعلم :

٢ - يؤمن الاسلام بالعلم ، ويتركز الحياة عليه في شتى مظاهرها ، قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم - ٣٦ الإسراء » : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين - ١١١ البقرة » : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون - ٤٣ النحل » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم

سورة الاسراء

الشهداء . وقال الإمام علي (ع) : « العلم دين يدان به » . ومعنى الايمان بالعلم الايمان بالتطور ، وبالعمل من أجل حياة أفضل وأكمل .

اطلاق العقل :

٣ - الاسلام يدعو العقل الى التأمل والتفكر والملاحظة لهذه الطبيعة باحثاً ومنتقياً عن أسرارها وفوائدها ومنافعها ، وعن علاقتها بالخالق وبالانسان ، ويدعو الى تركيز الدين والعلم والفلسفة على هذه المشاهدة والمعرفة الحسية التي سار عليها المسلمون من قبل، والتي انتقلت منهم الى الأوروبيين ، فكانت أساس العلم التجريبي عندهم: « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء - ١٨٥ الأعراف » .

حرية الفكر :

٤ - لقد أطلق الاسلام الحرية في القول والتفكير إلى حدٍ سمح الله فيه لعبيده الملائكة أن يراجعوه ويقولوا له : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - ٣٠ البقرة » . وأيضاً سمح لابراهيم (ع) أن يجادله في قوم لوط، كما في الآية ٧٤ من سورة هود ، بل سمح لابليس أن يحتج لديه ويقول : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين - ١١ الأعراف » .

الشمول والعموم :

٥ - كل تعاليم الاسلام تقوم على الشمول والعموم لا تختص بفرد ولا فئة ولا بعنصر : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. كلكم من آدم ، وآدم من تراب .

الجهاد :

٦ - فرض الاسلام الجهاد بالنفس والمال ضد الظلم والفساد على كل قادر ،

الجزء الخامس عشر

قال تعالى : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون - ٤١ التوبة » . ويقول الإمام علي (ع) : « والله لولا ما أخذ الله على العلماء من الميثاق ألا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ، ولستيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه عندي أهون من عقطة عنز^١ » . قال الأستاذ محمد سعاد جلال في مجلة «الكاتب» المصرية عدد ٦٣ معلقاً على هذا القول ما نصه بالحرف :

« ومراد الإمام انه لولا عهد الله على العلماء أن لا يقبلوا بين الناس التفاوت الفاحش في أكل لقمة العيش بحيث يتختم بعضهم ليجوع البعض الآخر لما جاهد في الابقاء على حقه الثابت في الخلافة التي هي أداة لتحقيق العدل المانع من التفاوت المذكور ، فما كان جهاده لأجل شهوة الحكم ، ومنفعة نفسه ، وإنما كان من أجل تنفيذ حكم العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة بين المسلمين بحيث لا يبقى فيهم مترف متختم ، ولا كادح سغب » .

المال لله :

٧ - كل ما في الكون هو ملك لله ، والانسان وكيل على ما في يده ، وعليه أن لا يتصرف إلا بإذن الأصيل وأمره : « له ما في السموات وما في الأرض وما بينها وما تحت الثرى - ٦ طه » : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه - ٧ الحديد » . أنظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧ .

الاسلام مع الحياة :

٨ - الاسلام يستهدف أن يعيش الانسان في اتزان وتناسق كامل مع نظام الكون ومتطلبات الحياة : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما

^١ ألا يقاروا أن لا يوافقوا والكظة هي الشبع لحد التخمة . والسغب شدة الجوع . وعقطة عنز بعض حشائشها أو ما تنثره من أنفها .

سورة الاسراء

يحبيكم - ٢٤ الأنفال . أنظر ج ٣ ص ٤٦٥ . وصدر كتاب جديد بقلم « ويلفريد سميث » جاء فيه « إن المسلمين قادرون بحسب دينهم على التكيف الحضاري مع متطلبات العلم الحديث، والاسهام في خلق مجتمع يسوده التقدم الاجتماعي والعدل والكرامة » .

(وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً) . لا فرق بين من كفر بالله ، ومن كفر باليوم الآخر ، لأن الكفر بإعادة الخلق بعد فثائه معناه ان الله عاجز عن ذلك ، وهذا عين الكفر بالله . قال الإمام علي (ع) : عجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلقه ، وعجبت لمن أنكر النشأة الآخرة ، وهو يرى النشأة الأولى .

(ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير) . في هذه الحياة حزن وفرح ، ولذة وألم ، ولا شيء منها بدائم ، ومن هنا قيل : الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك . ولكن بعض الناس إذا تألموا من شيء انهارت أعصابهم ، وظنوا انهم في مشكلة لا تحل ، فيدعون بالشر على أنفسهم ، كما يدعون لها بالخير .. وهذا ضرب من الجهل والحمق ، ولو صبروا قليلاً لذهبت آلامهم مع الأيام (وكان الانسان عجولاً) في دعائه بالشر على نفسه من غير صبر وتروي .. وتجدر الاشارة إلى أن المراد بالانسان بعض أفراده . وفي نهج البلاغة : « لا تستعجلوا ما هو كائن مرصداً ، ولا تستبسطوا ما يجيء به الغد ، فكم من مستعجل بما أدركه ودّ أنه لم يدركه » .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين) داليتين على وجود الله ، لأن تناسقها وتعاقبها وفقاً لقوانين ثابتة ، ونظام دائم ، من ألوف السنين لا يختلف سنة عن سنة ، كل ذلك وما اليه دليل قاطع على وجود مدبر حكيم ، ومهندس عليم . وتجدر الاشارة الى أن الله سبحانه يدعو العلماء وأهل الفكر الى الايمان به عن طريق التدبر والتفكر في خلق السموات والأرض ، وما فيها من نظام ودقة واحكام ، كتعاقب الليل والنهار وغيره من المظاهر الكونية ، أما البسطاء السذج فيدعوهم إلى الايمان عن طريق التذكير بنعمته وأفضاله عليهم ، كقوله تعالى : « وليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » - قريش . نقول هذا مع علمنا بأنه لا مانع من الجمع .

الجزء الخامس عشر

(فحونا آية الليل) . اضافة الآية الى الليل بيانية ، مثل نفس الشيء ،
والمسجد الجامع أي الآية التي هي الليل ، والمسجد الذي هو الجامع .
وتسأل : الظاهر من كلمة المحو هو الذهاب والازالة من الأساس ، مع العلم
بأن الليل موجود بالحس والعيان ؟ .

الجواب : المراد بالمحو هنا عدم الأثر من حيث العمل ، لأن الناس تسكن
فيه ولا تعمل على عكس النهار . قال تعالى : « وجعل الليل سكناً - ٩٦ الأنعام » .
وقال : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً - ١١ النبا » .

(وجعلنا آية النهار مبصرة) نيرة تكشف كل شيء للأبصار (لتبتغوا فضلاً
من ربكم) .. الليل للسكون والراحة ، والنهار للعمل وطلب الرزق بكد اليمين
وعرق الجبين ، لا بالغش والاحتيال ، ولا بالخيانة والعمالة لتبتغوا فضلاً من
ربكم ، لا من السفارات ومكاتب الاستخبارات .. وفضل الله مبذول لكل طالب
وراغب ، وهو خير وأبقى ، واطهر وأزكى .. اللهم أغننا بحلالك عن حرامك ،
وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك .

(ولتعلموا عدد السنين والحساب) . تكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير
الآية ٣٦ من التوبة ، فقرة الأشهر القمرية هي الأشهر الطبيعية ج ٤ ص ٣٩
(وكل شيء فصلناه تفصيلاً) . فأبان لنا سبحانه الحلال والحرام ، وأقام علينا
الحجة بالدلائل والمواعظ ، والسعيد من نزع عن شهوته ، وقع هوى نفسه .

طائره في عنقه الآية ١٣ - ١٥ :

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنشُورًا * إقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنْ
اهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا *

سورة الاسراء

اللغة :

المراد بالطائر هنا عمل الانسان من الخير والشر ، وكان العرب يسمون بالطير السانح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين لأن الرامي يتمكن من رميه، ويتشاءمون بالطير البارح ، وهو الذي يأتي من جهة اليسار ، لأن الرامي لا يتمكن من رميه، فاستعير الطائر لعمل الخير والشر . وفي عنقه كناية عن انه لازم له لزوم القلادة لجيد الفتاة . والكتاب صحيفة العمل . والوزر الأثم والذنب .

الإعراب :

وكل انسان مفعول لفعل محذوف أي الزمنا كل انسان الزمناه . وبنفسك الباء زائدة اعراباً، ونفسك فاعل كفى . واليوم ظرف منصوب بكفى . وحسباً تمييز .

المعنى :

هذه الآيات الثلاث تختلف في اللفظ ، وتتشابه في المعنى ، فقوله تعالى : (وكل انسان أَلزَمناه طائره في عنقه) كناية عن انه وحده المسؤول عن عمله . وقوله : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) معناه ان الانسان غداً لا يملك اخفاء شيء من عمله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً - ٣٠ آل عمران » . انظر ج ٣ ص ٤٤ .

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . فلا يحتاج الانسان غداً إلى شاهد أو حسيب ، لأنه هو يشهد ويحاسب نفسه بنفسه ، قال الطبرسي : « وانما جعله محاسباً لنفسه لأنه إذا رأى أعماله يوم القيامة كلها مكتوبة ، ورأى جزاءها مكتوباً أيضاً بالعدل لم ينقص من ثوابه شيء ، ولم يزد على عقابه شيء أذعن عند ذلك وخضع واعترف ، ولم تنهياً له حجة ولا انكار ، وظهر لأهل المحشر انه لا ظلم ، قال الحسن : يا ابن آدم لقد أنصفك من جعلك حسيب نفسك » .

الجزء الخامس عشر

(من اهتدى فلإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) . تقدم نظيره في سورة الأنعام الآية ١٠٤ ج ٣ ص ٢٣٨ ، وفي سورة هود الآية ١٠٨ ج ٤ ص ١٩٩ (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . تقدم في سورة الأنعام الآية ١٦٥ ج ٣ ص ٢٩٣ (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . أنظر فقرة «قبح العقاب بلا بيان» في ج ١ ص ٢٤٧ .

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها الآية ١٦ - ٢١ :

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ
وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ
عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا
مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ
كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّهُمُوهُلاًءَ وَهُوَلاًءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا
كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا *

اللغة :

المترفون الذين يتنعمون كما يشاءون . وأمرناهم أي بالطاعة . وفسقوا عصوا
وتمردوا . وفحق عليهم أي وجب لهم العذاب . والتدمير الإهلاك . والقرون جمع

سورة الاسراء

قرن ، ويعبر به عن أهل عصر انقضى أكثرهم . والعاجلة دار الدنيا . ويصلاها يقاسي حرها . ومدحوراً مطروداً . ومحظوراً ممنوعاً .

الإعراب :

كم هنا خبرية : ومحلها النصب بأهلكتنا . ومن القرون تبيين لابهام (كم) وتمييز لها . وبربك الباء زائدة لإعراباً وربك فاعل ، وخبيراً بصيراً تمييزاً ، وبدنوب عباده متعلق بخبير أو ببصير . ولمن نريد بدل من الضمير في (له) مع إعادة حرف الجر . وجملة يصلها حال من الضمير في (له) وليس من جهنم كما قال أبو البقاء في كتاب « الاملاء » . ومذموماً حال من الضمير المستتر في يصلها . وكلاً نمد (كلاً) مفعول مقدم لنمد . وهؤلاء بدل من (كلاً) ، والمعنى نمد كل واحد من هؤلاء وهؤلاء . وكيف مفعول لفضلنا ، وليس لأنظر ، لأن الاستفهام لا يعمل ما قبله فيه .

الترفون :

حين بلغت بالتفسير إلى قوله تعالى : « أمرنا مترفيها الخ . » تذكرت سؤالاً وجهته إلي أحد خطباء العراق قائلاً : لماذا تصب جام غضبك على المترفين في كتاباتك ومؤلفاتك ؟ فقلت له : ولماذا أنت تدافع عنهم ؟ . ألأنك منهم ، أو لأنهم أولياء نعمتك ؟ . فراجع عن سؤاله واعتذر .. وهذا ما دعاني أن أعرض تفسير الآية على النحو التالي :

١ - وردت كلمة المترفين ومشتقاتها في القرآن بثماني آيات - كما في المرشد - وجاءت في نهج البلاغة في العديد من الموارد .. هذا عدا عن كلمة الغنى ، وما يتفرع منها ، وما ذكرت كلمة الترف في كلام الله وأوليائه إلا مقرونة بالذم .

٢ - قال أهل اللغة : ترف الرجل تنعم ، وأترفه المال أبطره وأفسده ، واستترف بغى وتغترف . هذا هو تعريف المترفين في اللغة ، أما صفاتهم كما

الجزء الخامس عشر

جاءت في كتاب الله وغيره فغفلة عن الله ، وبغي على عباد الله ، واستكبار على أمر الله ، وحرب لأوليائه الله .. حديثهم التكاثر والتفاخر ، وطبعهم الجفساء والتهاثر .. إلى كثير من ألقاب الذم .. إلا من رحم الله ، ورحم نفسه .

٣ - (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) . المأمور به محذوف أي أمرنا مترفيها بالعدل والطاعة ، وذكر أهل التفسير أربعة أقوال في معنى هذه الآية ، أرجحها ان الله سبحانه أطلق كلمة المترفين على جميع أهل القرية ، من باب استعمال الجزء في الكل . ومثل هذا الاستعمال كثير في كلام العرب إذا كان الجزء عضواً رئيسياً في الكل ، كالعين بالنسبة إلى جسم الانسان ، فقد استعملوها في طليعة الجيش ، لأن للعين مزية على سائر أعضاء الجسم ، ولما كان المترفون أقدر وأسرع إلى الفسق ، وأجراً على المعصية من غيرهم ، وهم في الوقت نفسه متبوعون تقلدهم العامة فيما يفعلون ، لما كان كذلك - صح إطلاق كلمة المترفين على جميع أهل القرية كما صح إطلاق كلمة العين على الانسان .

وعلى هذا يكون معنى الآية ان الله لا يهلك أهل قرية إلا إذا استحقوا الهلاك والدمار ، وهم يستحقون ذلك بعد ان تقوم عليهم الحجة بارسال الرسل ، يأمرونهم بالخير ، وينهونهم عن الشر ، ويحذرونهم من المخالفة والعصيان ، فإذا فسقوا وخرجوا عن الطاعة حقت عليهم كلمة العذاب ، وأنزل الله بهم الهلاك والدمار .

ومع العلم بأن هذا المعنى محتمه اللفظ ، ولا ياباه العقل فإننا نذهب في تفسير الآية مذهباً آخر ، وهو ان أي مجتمع يوجد فيه مترفون بالمعنى الذي ذكرناه فهو مجتمع يعيش في ظل نظام فاسد جائر ، لأن وجود المترفين فيه تماماً كوجود السرطان في الجسم ، والمسؤول الأول عن وجود الفاسدين في المجتمع هو المجتمع بالذات ، حيث لم يقف منهم موقف المقاوم ، أو المستخف بشأنهم - على الأقل - بل أضفى عليهم ألقاب الشرف والسيادة ، وأحاطهم بالتكريم والتعظيم ، ومنحهم ثقته أيام الانتخاب ، واختارهم لمنصب الحكم والقيادة ، وبهذا يكون المجتمع الذي عبر عنه سبحانه بالقرية - شريكاً للمترفين الفاسقين في جميع جرائمهم وآثامهم ، ومستحقاً للهلاك والدمار تماماً كالمترفين .. فتداء جاء في الحديث الشريف: «الراضي

سورة الاسراء

بالظلم كفاعله .. الساكت عن الحسق شيطان أخرس « فكيف إذا كان مناصراً للباطل ؟ وقال السيد الافغاني : « أيها الفلاح الذي تشق الأرض بمحراثك، لماذا لا تشق به قلب من يستعبدك ؟ ». انظر ما قلناه عند تفسير الآية ١١ من سورة الرعد : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وتجدر الاشارة إلى ان الهلاك على أنواع، فيكون بالطوفان أو الحسف والزلازل والصواعق ، وأيضاً يكون بالاذلال وتسليط الأشرار ، وهذا أوجع وأفظع . وقد عاقب الله به أمة محمد (ص) لما تركوا الجهاد ، وتغاضوا عن أهل الشر والفساد، ورضوا لأنفسهم المذلة والهوان ، قال الإمام علي (ع) : « ان في سلطان الاسلام عصمة لامركم ، فاعطوه طاعتكم .. والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام، ثم لا ينقله اليكم أبداً حتى يارز - يرجع - الأمر الى غيركم » . أي إذا اطعنا الاسلام عشنا في حصن حصين من المناعة والكرامة، والا انتقل عنا الحكم والسلطان الى اعدائنا ، ثم لا يرجع الينا أبداً .. وما قرأت هذا الانذار إلا اعترتني رعدة هزتني من الأعماق .

(وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح) . هذا تهديد ووعيد للذين كذبوا محمداً (ص) بأن الله سبحانه قادر أن يجعل مصيرهم كمصير الذين كذبوا أنبياءهم في القرون الخالية كعاد وثمود : « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون-٩٨ الأعراف». قال الإمام علي (ع) : « ان رضا الله فيما بقي واحد، وسخطه فيما بقي واحد ، واعلموا انه لن يرض عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ، ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم » ... (وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) بإساءة من أساء فيعاقبه بما يستحق . قال رسول الله (ص) لأبي ذر : « ان المؤمن يرى ذنبه تحت صخرة يخاف ان تقع عليه ، وان الكافر يرى ذنبه كأنه ذبابة تمر على أنفه » .

(من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) . ليس المراد ان كل ما يطلبه الانسان يحققه له الله .. كلا ، فإننا نريد أشياء وأشياء ، ولا نرى منها شيئاً ، بل في كثير من الأحيان لا نرى بعض ما نريد ، وإنما المقصود من الآية ان من يعمل للدنيا فقط غير مؤمن بشيء إلا بمنفعته فإنه يستثمر نتيجة عمله

الجزء الخامس عشر

وجهده .. هذا مع مشيئة الله واراادته ، وإلا فإن العبد لا يصل إلى شيء إذا أبى الله ذلك حتى ولو عمل ليله ونهاره .. إن الله لا يعطي ما أردنا إلا إذا أراد ، وهذا معنى قوله تعالى : « ما نشاء لمن نريد » .. (ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً) لأنه لا يؤمن إلا بمصلحته ، ولا بهم إلا بنفسه ، ولا يعمل إلا لها .

(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) . وسعى لها سعيها أي أراد الخير وفعله وآمن به لا للهيب إلا لوجه الله والخير ، وهذا هو الذي يستحق الدرجات العلى عند الله وعند الناس ، أما من يعمل للربح والتجارة فإن له نار جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . قال الرسول الكريم (ص) : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ونخلص من هذا ان للاسلام منهجاً يوجه الانسان إلى فعل الخير وهجر الشر لذاتيهما ، فيلتزم الصدق - مثلاً - لأنه يجب أن يلتزم ، ويلتزم اجتناب الكذب لأنه يجب أن يجتنب ، وهكذا سائر الفضائل والردائل ، وقد عبر الرسول الأعظم (ص) عن هذا المنهج بأبلغ تعبير ، حيث قال : « انما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . ومن الواضح ان الخلق لا يكون كريماً إلا إذا كان خالصاً من كل شائبة .

(كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء) اشارة إلى كل من الفريقين ممن يعمل لنفسه وحدها ، ومن يعمل لوجه الله والخير (من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً) . وعطاء الله للانسان يتبدى بخلقته وإيجاده الذي لا يُعطى إلا منه ، ثم بأسباب بقائه ونموه ، وهذا العطاء يعم الصالح والطالح، أما عطاؤه في الآخرة فيختص بالصالحين المتقين .

(أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) . إن الله سبحانه لا يتسم الناس إلى طبقات ، ولا يعطي امتيازاً في الحقوق الانسانية لفرد ، دون فرد ، أو فريق دون فريق ، كيف وهو القائل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ . وعلى هذا يكون التفضيل بين الناس في الدنيا في غير الحقوق الانسانية ، كالصحة، والعمر، والرزق عن طريق العمل أو الأثر أو غيره، من الأسباب التي أحلها الله سبحانه ، أما

سورة الاسراء

الثروات التي تأتي بالغش والاحتيايل والسلب والنهب فهي من الشيطان ، ولا يجوز نسبتها اليه تعالى بحال .

(وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) . بعد أن ذكر سبحانه ان الناس يتفاوتون في الدنيا قال : انهم كذلك في الآخرة أيضاً .. ولكن الفرق كبير وعظيم بين تفاوتهم هنا ، وتفاوتهم هناك ، فالصفات التي يفرقون بها في الدنيا هي الغنى والفقير ، والعلم والجهل ، والصحة والمرض ، والعمر الطويل والعمر القصير ، ثم ينتهون جميعاً إلى الموت الذي يساوي بين الجميع ، حتى بين الأشرار والأخيار ، أما الصفات التي يفرقون بها في الآخرة فهي الحريق بنار السموم ، والحلود في النعمة والمسرة ، وأين تلك من هذه ؟ .

فلا تقل لها اف الآية ٢٢ - ٢٥ :

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تُنهرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ ارْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا *

اللغة :

مخذولاً أي غير منصور . وقضى أمر وأوجب . وأف كلمة تدل على التضجر .

الجزء الخامس عشر

وخفض الجناح كناية عن التواضع والتذلل . والأوتاب الراجع الى الله في شؤونه وأمره .

الإعراب :

فتتعد منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لأنه جواب للنهي . وقضى ربك أن لا تعبدوا. أي بأن لا تعبدوا وبالوالدين عطف عليه، أو متعلق بمحذوف أي وبأن تحسنوا للوالدين احساناً . وإما مركبة من كلمتين: ان الشرطية، وما الزائدة . وأف اسم فعل لا محل له من الإعراب ، والمعنى لا تقل لها : كفاً . وكما ربياني الكاف بمعنى مثل قائمة مقام المفعول المطلق أي ارحمها رحمة مثل رحمة تربيتها . وصغيراً حال .

المعنى :

(لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتتعد مذموماً محذولاً) . الخطاب هنا للانسان ، كل انسان ، وليس للنبي (ص) بدليل قوله تعالى : « اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما » ، ومعلوم ان النبي (ص) عاش يتيم الأبوين . (وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه) أي أمر بالاخلاص في العبادة اليه وحده، وليس المراد بالعبادة مجرد الصوم والصلاة ، فكل من أطاع انساناً في معصية الله فقد عبده ، قال رسول الله (ص) : من أصغى الى ناطق فقد عبده ، فان كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله ، وان كان الناطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان .

البر بالوالدين :

(وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لها أف ولا تنهرهما وقل لها قولاً كريماً واخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) . قرن الله سبحانه شكر الوالدين بشكره ، وأوجب

سورة الاسراء

البر بهما والاحسان اليهما . وجاء في الحديث : « ان رجلاً جاء الى النبي (ص) يستأذنه بالجهاد معه ، فقال له : أحيان والذاك ؟ . قال : نعم . قال : ففيها جاهد » .

وقوله تعالى : كما ربياني صغيراً يشير الى انهما عند صغره آثراه على أنفسهما ، فسهرنا الليالي كي ينام ، وجاعاً كي يشبع . وتعرياً كي يكتسي ، وهذا دين في عنقه ، عليه أن يفي به حين يقوى ويضعفان ، وان يعاملهما عند كبرهما تماماً كما عاملاه عند صغره ، ولهما فضل السبق والتقدم .

قال الإمام زين العابدين (ع) يدعو لوالديه : « يا إلهي أين طول شغلها بتريتي ؟ وأين شدة تعبها في حراستي ؟ وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة عليّ ؟ هيهات ما يستوفيان مني حتمها ، ولا ادرك ما يجب عليّ لهما ، ولا أنا بقاضٍ وظيفة خدمتهما » .

يضحي كل من الأب والأم بالفس والنفيس في سبيل الولد ، ثم لا يتغني منه جزاء ولا شكوراً ، وكل ما يتمناه أن يكون ولده شيئاً مذكوراً .. وقد ابتلاني الله بأن أكون أباً ، ولكن أبوي لم يتلياً بي ، لأنني عشت يتيم الأب والأم ، وأقول : ابتلاني لأنني لا أرى السعادة في شيء من أشياء هذه الحياة إلا في هناء ابني وابنتي .. فابتسامه واحدة من أحدهما تعادل عندي الدنيا بما فيها ، وما تألم أحدهما إلا أحسست بأن يبدأ تنتزع نفسي من بين جنبي .

(ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً) . ان الله سبحانه يعلم النوايا تماماً كما يعلم الأقوال والأفعال ، ويجازي كلاً حسب نيته، ومن أساء ثم تاب وأناب فإن الله غفور رحيم ، وهذا تحذير من الله سبحانه لمن عقى والديه ، وكان وجودهما ثقيلاً عليه ، كما انه تحذير على ترك الاخلاص في جميع الأقوال والأفعال .

الوصايا العشر الآية ٢٦ - ٣٩ :

وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ

الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا
 تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا *
 وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
 مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
 خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ
 إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
 وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ
 مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا *
 وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
 بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنْتُمْ
 بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا *
 وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ
 طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ
 إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ
 مَلُومًا مَدْحُورًا *

سورة الاسراء

اللفظة :

التبذير وضع المال في غير موضعه قليلاً كان أو كثيراً . والمراد باخوان الشياطين من سلك طريقهم . والميسور السهل اللين . والمغلولة المقيدة والمراد بها هنا الامساك عن الانفاق ، وضدها البسط فيه . والمحسور المنقطع الذي لا شيء عنده . والخطء كالأثم لفظاً ومعنى . والفاحشة الفعلة القبيحة . والاسراف تجاوز الحد . والمراد بالسلطان هنا التسلط . والقسطاس المستقيم العدل . ولا تقف لا تتبع . والمرح بفتح الراء الكبر . والمدحور المبعد من رحمة الله .

الإعراب :

اما تعرضن (اما) كلمتان ان الشرطية وما الزائدة إعراباً . وابتغاء مفعول من أجله . وجملة ترجوها صفة لرحمة أو حال من فاعل تعرضن . وكل البسط مفعول مطلق لأن كل مضافة اليه . وملوماً محسوراً حال، وخشية إملاق مفعول لأجله . وساء سيلاً فاعل ساء ضمير مستر أي ساء سبيل الفاحشة ، وسيلاً تمييز ، ومثله تأويلاً . وكل مبتدأ، والخبر كان عنه مسؤولاً ، وأولئك في محل جر باضافة كل ، ويشار بها إلى العقلاء وغيرهم . ومرحاً مصدر في موضع الحال أي لا تمش في الأرض متكبراً ، مثل جاء زيد ركضاً أي راكضاً، ومثله طولاً . وملوماً مدحوراً حال .

المعنى :

١ - (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً) . نقل الطبرسي في مجمع البيان عن السدي ، وهو من كبار المفسرين ان المراد بذوي القربى قرابة الرسول (ص) ، ونقل أبو حيان الأندلسي عن الإمام علي بن الحسين (ع) انه قال : هم قرابة رسول الله (ص) أمر الله بإعطائهم حقوقهم من بيت المال . وقال أبو بكر المعافري المالكي في أحكام القرآن : « ويدخل في

الجزء الخامس عشر

ذي القربى قرابة الرسول دخولاً متقدماً وبطريق أولى من جهة ان الآية للقرابة الأدين بالرجل ، فأما قرابة رسول الله فقد أبان الله على الاختصاص حقهم ، وأخبر ان محبتهم هي أجرة النبي على هداه لنا .

وقيل : المراد بذى القربى القريب الذي له حق النفقة والميراث . والمسكين المحتاج ، وابن السبيل المنقطع في السفر ، ولا يملك نفقة العودة إلى بلاده، ولهذين الحق في الزكاة لقوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل - ٦٠ التوبة » . (إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً) . عبر سبحانه عن المبذرين باخوان الشياطين لأن التبذير مكروه عند الله ، وكل ما هو مكروه عند الله فهو محبوب عند الشيطان .. ولا يختلف اثنان في ان التبذير هو انفاق المال في غير وجهه ، ووضعه في غير موضعه قليلاً كان أو كثيراً، وبتعبير أهل المنطق ان التبذير من مقولة الكيف ، لا من مقولة الكم .

وتسأل : ان قولك : في غير وجهه ، وغير موضعه ، أشبه بالكلام المبهم الذي يحتاج إلى التحديد والتوضيح ، فما هو وجهه وموضعه ؟ .

الجواب : ان كل من أنفق شيئاً من ماله فيما يعود عليه بالضرر، أو لا يعود عليه بأية منفعة فهو مسرف وسفيه عرفاً وشرعاً - وعلى الهامش الا المسال الذي يبذل ثمناً للتدخين - وأشرنا إلى السفية والتحجير عليه في التصرفات المالية عند تفسير الآية ٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٢٥٣ و ٢٥٦ .

أين العدول ؟ :

سؤال ثانٍ : رجل أنفق من ماله على شرب الخمر وأكسل لحم الخنزير ، وما إلى ذلك من المحرمات التي تعود عليه بالنفع العاجل والضرر الآجل ، فإن كثيراً من الناس لا يرون هذا مبذراً وسفياً ، فهل توجب الشريعة الاسلامية التحجير عليه في التصرفات المالية لأنه سفيه مسرف ؟ .

الجواب : ان للانسان العاقل أن يتصرف في أمواله دون معارض، مؤمناً كان

سورة الاسراء

أو كافرين ، فاسقاً أو عادلاً ، قال تعالى : « فإن أنتم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم - ه النساء » ، ولم يقل : فإن أنتم منهم ديناً أو عادلاً ، وتواتر عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : « الناس مسلطون على أموالهم » ولم يقل : المؤمنون أو العادلون ، فالشرط الوحيد لصحة هذا التصرف هو الرشد في المال ، لا في الدين ، ولو كانت العدالة والرشد شرطاً لصحة تصرف الانسان في ماله لاختل النظام ، وتعطلت الحياة : لأن أهل الأرض كما نعلم وتعلمون ، فمن أين تأتي بأهل الدين والعدالة .

وعلى رأينا هذا الحنفية والمالكية والحنابلة ، أما الشافعية فقد ذهبوا إلى أن الرشد هو الصلاح في الدين والمال (المعنى لابن قدامة) .

(واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً) . ضمير عنهم يعود الى ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، والقول الميسور هو القول السهل اللين ، والمعنى إذا سألك واحد من هؤلاء الثلاثة شيئاً من المال ، ولم تجد ما تعطيه ، ودعوت الله ان يغنيه ويغنيك من فضله ورحمته ، إذا كان كذلك فقل له قولاً سهلاً ليناً ، وذلك بأن تعده عدة حسنة تبعث في نفسه الأمل والرجاء .. وفي الحديث : ان لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . ويقول انشاعر : فليسعد النطق ان لم يسعد الحال .

الاسلام ونظرية الاخلاق :

٢ - (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) . التوازن والتعادل أساس كل شيء في الاسلام ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً . لا الحاد ، ولا تعدد آلهة .. لا الغاء ملكية ، ولا ملكية طاغية .. لا دكتاتورية للفئات والأفراد ، ولا حكم لكل من شاء وأراد .. لا رهبانية ، ولا اندفاع مع الشهوات . « وكل شيء عنده بمقدار - ٨ الرعد » . وقوله : وكل شيء يشمل الخلق والابجاد ، ويشمل التحليل والتحريم ، وقوله : بمقدار أي بتقدير ونظام موافق للحكمة والمصلحة ، ليس فيه افراط ولا تفريط ، ولا جزاف ولا

سورة الاسراء

بينهما .. وتكلمنا عن الأخلاق عند تفسير الآية ٥٤ من سورة المائدة ج ٣ ص ٧٩ .
 (إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر - أي يُضيق - انه كان بعباده خبيراً بصيراً) . كل شيء بيده تعالى الارزاق وغير الارزاق لأنه مالك الملك .. ولكن شاءت حكمته وقضت ارادته أن لا يرزق إلا بالأسباب الكونية التي خلقها ووضعها سبيلاً لكسب المال .. أنظر تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ج ٣ ص ٩٤ .
 والآية ١٠٠ من سورة المائدة أيضاً ج ٣ ص ١٣١ . وتفسير الآية ٢٦ من سورة الرعد .

٣ - (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيراً) . تقدم مثله في الآية ١٣٧ و ١٥١ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧١ و ٢٨٣ .

٤ - (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلاً) . وما فشا في مجتمع الا كان مصيره الى الانحلال ، بالإضافة الى اختلاط الأنساب، وكفى بالزنا قبحاً انه من أفقر صفات الشتم والذم .

٥ - (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) . تقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة المائدة ج ٣ ص ٤٧ (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً) . كل من قتل دون أن يأتي بجناية تستوجب القتل فقد قُتل ظلماً، وأولياء القتيل هم أقرباؤه من أبيه ، وعند عدمهم الحاكم الشرعي، وعدم الاسراف في القتل ان لا يقتل اثنين بإزاء واحد ، كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، والمنصور المعان ، والمعنى ان لأولياء المقتول ظلماً الحق في قتل القاتل أو أخذ الدية منه، كما في الحديث الشريف : « من قتل قتيلاً فأهله بين خيرتين : ان احبوا قتلوا ، وان احبوا أخذوا الدية » . وبما ان الأولياء الحق في ذلك فعلى الحاكم وكل مسلم أن يكونوا عروناً لهم على استيفاء هذا الحق . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٧٤ .

٦ - (ولا تقربوا مال اليتيم الا با تي هي أحسن حتى يبلغ أشده) مرّ بالحرف الواحد في الآية ١٥٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٨٣ .

٧ - (ووفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً) . وكل ما أمر الله به ،

الجزء الخامس عشر

ونهى عنه فهو عهد بحب الوفاء به ، ومنه عقود البيع والاجارة ونحوها . أنظر تفسير الآية ١ من سورة المائدة ج ٣ ص ٦ .

٨ - (واوفوا الكيل اذا كلمم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً) . أي مآلاً من آل يؤول ، وإيفاء الكيل والوزن واجب شرعاً وعرفاً ، ولا يختص بدين دون دين ، ولا بعرف دون عرف . وقد حث سبحانه على إيفاء الكيل والميزان بأساليب شتى منها « وزنوا بالقسطاس المستقيم » أي العدل ، ومنها « اوفوا الكيل والميزان » ، ومنها « ولا تنقصوا » ، ومنها « لا تطغوا » . والسر أن الحياة الاجتماعية لا تنتظم الا بذلك .

القول بغير علم :

٩ - (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) . تقول العرب : قفوته اذا اتبعت أثره ، وقافية كل شيء آخره ، ومن أسماء النبي (ص) المقفي لأنه آخر الأنبياء وخاتمهم .. والقول بلا علم قبيح ، حتى عند من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وذكر سبحانه السمع والبصر والفؤاد ، وأراد صاحب هذه الأدوات الثلاث ، وانه تعالى يسأله عنها ، ويعاقبه اذا أسند اليها ما لا تعلم ، كما لو قال : سمعت دون أن يسمع ، ورأيت وهو لم ير ، واعتقدت وعزمت ، وهو لم يعتقد ولم يعزم ، أو عزم على الباطل .. ولا فرق بين من يتعمد الكذب ، ومن يسرع الى القول من غير تثبيت وروية ، فإن القول بالظن والشبهة قول بغير علم ، قال تعالى : « ان الظن لا يغني من الحق شيئاً - ٣٦ يونس » . وقال : « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون - ١١٧ الأنعام » . والحراص الافتراء ، وقد ساوى الله بينه وبين الظن .. ويتفرع عن هذه الآية المسائل التالية :

أ - بطلان التقليد ونحرمة على الكفو القادر على استنباط الأحكام من مصادرها حيث ترك علمه ، وعمل بعلم غيره . وعلى هذا الرأي الشيعة الإمامية والزيدية والمعتزلة وابن حزم والشيخ محمد عبده والشيخ شلتوت وغيرهم ، وتكلمنا عن التقليد مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩ .

سورة الاسراء

ب - تحريم العمل بالقياس والاستحسان ، واستخراج الاحكام الالهية منها ..
والقياس هو الحاق أمر - في الحكم - غير منصوص عليه بآخر منصوص عليه
لاتحاد بينهما في العلة المستنبطة ، ومثال ذلك ان ينص الشارع على ان الجدة لأم
ترث ، ويسكت عن الجدة لأب ، فنلحق هذه بتلك في الميراث قياساً لأن
كلاهما جدة .

والاستحسان المحكي عن أبي حنيفة هو الحكم بما يستحسنه المجتهد بغير دليل
إلا استحسانه هو أي حدسه وهجسه (كتاب اللع في أصول الفقه لأبي اسحق
إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزبادي ص ٦٥ طبعة سنة ١٩٣٩) . ومثل له
صاحب الكتاب المذكور بمن قال : ان فعلت كذا (فأنا) يهودي ، فيحنت
هذا القائل ، وتجب عليه الكفارة استحساناً لأنه بمنزلة من قال : والله ان فعلت
كذا فهو يهودي .

ج - ان كل من تصدى للافتاء ، وبيان الحلال والحرام ، وهو غير كفؤ
فقد كذب وافترى على الله ورسوله ، وكان من المعنين بقوله تعالى : « تالله
لنُسألن عما كنتم تفترون - ٥٦ النحل » ، وقول الرسول الأعظم (ص) : « من
كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . فان الكذب على الله ورسوله كما
يكون بالرواية عنها يكون أيضاً بنسبة الحلال والحرام اليها .. وقد كثر في زماننا
المفتون المفترون على الله ورسوله الذين اتخذوا من سمة الدين وسيلة للارتزاق ،
وستاراً للخيانة والعمالة .. ومنهم من ألف المنظمات والأحزاب تعمل بوحى من
الصهيونية والاستعمار، وفي الوقت نفسه تحمل اسم الاسلام والمسلمين للخداع والتضليل.

سألني أحد الشيوخ عن زوجتي هابيل وقابيل ابني آدم ، هل هما من حور
الجنة ، أو من غيرهن ؟ قلت : هذه مسألة تعرف بالنقل ، لا بالعقل ، والنقل
في مثلها لا يعمل به إلا إذا كان نصاً في القرآن أو السنة المتواترة ، ولا نص
فيها على ذلك فعلينا السكوت عما سكت الله عنه ورسوله . قال : كيف ؟ وهل
نقف موقف العاجز اذا سئلنا ؟ قلت : وهل يُطلب منا ان نعلم كل شيء لأننا
معممون ؟ .

١٠ - (ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال

الجزء الخامس عشر

طولاً) . قد يزهو الجاهل ويتعاضم إذا ملك شيئاً من حطام هذه الحياة ، كالجاه والمال ، ولكن ان عرض له عارض من المخيبتات والمفاجآت وهن وحرار لا يدري ماذا يصنع .. والعاقيل من عرف قدره ، وتفكر واعتبر ، ولم يجد عن قصد السبيل .. وقوله تعالى : (ولا تمش في الارض مرحاً) نهى عن التكبر ، وأمر بالتواضع ، وقوله : (انك لن تحرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً) كناية عن عجز الانسان ، وانه أضعف من أن يبلغ ما يريد بالجاه والمال ، كما انه أضعف من أن يبلغ الجبال بجسمه ، ويحرق الأرض بقدمه .

(كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) . ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره مما أمر الله به ، ونهى عنه ، والمراد بسيئه ما نهى عنه خاصة ، والمعنى ان كل هذه الأشياء التي نهى عنها مكروهة عند الله ، وفاعلها ممقوت يستحق العذاب والعقاب (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) . أيضاً ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من الأوامر والنواهي ، والحكمة وضع الشيء في محله ، وليس من شك ان جميع احكامه تعالى في محلها ، وان من أخذ بها فقد أخذ بالحق والخير والعدل (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً) . تقدم تفسيره في الآية ٢٢ من هذه السورة .. وقد ابتدأ سبحانه بالنهي عن الشرك ، ونخم به لأن التوحيد هو البداية والغاية للاسلام دين الله الحق ، ولأن جميع الأحكام تناط به وحده ، فلا حلال الا ما حلال ، ولا حرام الا ما حرم .

افاصفاكم ربكم بالبينين الآية ٤٠ - ٤٤ :

أَفَاصِفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ
قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا
نُفُورًا * قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ

سورة الاسراء

السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا *

اللغة :

أصفاكم خصم . وصرنا بيتنا . وليذكروا ليتدبروا . ونفوراً بعداً . ولابتغوا
لطلبوا . لا تفقهون لا تفهمون .

الإعراب :

مفعول صرنا محذوف أي صرنا المواظ . وليذكروا أصلها يتذكروا فادغمت
التاء بالذال لقرب مخرجهما . وعلواً أي تعالياً . وان من شيء (ان) نافية .
ومن زائدة وشيء مبتدأ أي ما شيء .

المعنى :

(أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً) . يُعتبر القرآن حجة لا تقبل
الجدل في كل ما قاله وسجله عن العصر الجاهلي، وتسجل هذه الآية على المشركين
بأنهم كانوا يعتقدون ان لله بناتاً من نوع الملائكة .. وأيضاً كانوا يعتقدون بأن
الذكر أفضل من الانثى بدليل قوله تعالى: « وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه
مسوداً وهو كظيم - ٥٧ التحل » ومع هذا نسبوا الافضل لانفسهم ، والادنى
اليه تعالى .. فوبخهم سبحانه على هذا الجهل وقال : (انكم لتقولون قولاً عظيماً)
لانه تعالى لا شريك له ولا شبيهه ، ولو كان له ولد لكان ولده وارثاً له وشبيهاً
به ، ولو كان له والد لكان والده شريكاً له في العز ، بل أعز لانه علة وجوده .
وغير بعيد عن منطق الجاهليين أن يكون السر الذي دعاهم الى ان ينسبوا

الجزء الخامس عشر

الاناث الى الله والذكور إلى أنفسهم - ان الله تعالى لا يخاف الفقر لكثرة العيال، ولا العار من وجود الاناث .

(ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا وما يزيدهم إلا نفوراً) . أقام سبحانه الدلائل والبيّنات على وجوده ووحدانيته ، وأوضحها بضرب الامثال ، وأساليب متنوعة ليفهموها ويدركوها ، ولكنهم استمسكوا بالاوهام والتقاليد ، وازدادوا بعداً وعناداً . قال الرازي « وانما أكثر الله سبحانه من ذكر الدلائل في القرآن لانه تعالى أراد من المشركين فهمها والايان بها ، وهذا يدل على أنه تعالى يفعل أفعاله لأغراض حكيمة ، ويدل على انه تعالى أراد الايمان من الكل ، سواء آمنوا أم كفروا » .

وهذا القول من الرازي يناقض ما صرح به مراراً من ان أفعال الله لا تعلل بالأغراض ، وأنه سبحانه أراد الكفر من الكافر ، كما هو مذهب الأشاعرة .. ولكن أبى الله ألا ان ينصر الحق ويظهره ، حتى على لسان جاحديه من حيث لا يشعرون .

(قل لو كان مع آلهة كما يقولون إذأ لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً) . ذكر أهل التفاسير هذه الآية معينين : الأول انه إذا فرض ان مع الله آلهة فلا تعدو أن تكون هذه الآلهة كوكباً أو انساناً أو جماداً أو أي شيء آخر ، وهذه كلها مخلوقات لله تعبدته وتتقرب اليه ، فعليكم أيها المشركون ، وهذه هي حال معبودكم ، ان تعبدوا الله انتم كما يعبدونه من تدعونهم من دون الله .

المعنى الثاني أو التفسير الثاني ، وهو الأرجح ، انه لو كان فيها آلهة غير الله لطلبت هذه الآلهة طريقاً الى النزاع والشجار مع الله ليصفوها الملك .. وما من شك ان نزاع الرؤساء يؤدي الى الفوضى والفساد ، كما قال تعالى : « لو كان فيها آلهة الا الله لفسدتا - ٢٢ الأنبياء » . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) نزه عز وجل نفسه عن قول الظالمين والمشركين من ان له شركاء وأولاداً .

كل شيء يسبح بحمده :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده) .

سورة الاسراء

أجل ، كل شيء يسبح بحمد الله تعالى ، ما في ذلك ريب ، وتسبيح الشيء يختلف باختلاف صفاته وخصائصه ، فالعاقل يسبح الله بلسان المقال ، وغيره يسبحه بلسان الحال ، وبكلام آخر يسبحه بدلالة وجوده وصورته واحكامه على وجود المصور الحكيم ، تماماً كما يدل الرسم الجميل على وجود الرسام ومهارته ، ولسان الحال أقوى وأبلغ في الدلالة من لسان المقال ، لأن هذا يحتاج الى دليل ، أما الحال فهي بذاتها دليل يؤدي حتماً الى العلم واليقين ، وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٤ من سورة الرعد .

(ولكن لا تفتهمون تسبيحهم انه كان حليماً غفوراً) لا يفقه الملاحدون والمشركون تسبيحهم للانصراف عن الله وعظمته في خلقه ، أو اقصر النظر عن ادراك ما في الكون من عجائب وأسرار ، قال ابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية ما تلخيصه وتوضيحه : ان لله آيات متنوعة ، منها ما يدرك بالعقل ، ومنها ما يدرك بالسمع ، ومنها ما يدرك بالبصر ، وعلى الانسان أن يستعمل هذه الأدوات لمعرفة آيات الله التي ذكرها في كتابه ، ومضى علم وآمن بها وعمل بموجبها كان من أهل القرآن، وأهل الله وخصائه .. ثم قال ابن عربي: نخذ الوجود كله على انه كتاب ناطق بالحق عن الحق .. وهذا كقول أحد العارفين : ان لله كتابين : أحدهما ينطق بلسان المقال ، وهو القرآن ، والآخر ينطق بلسان الحال ، وهو الكون .

وإذا قرأت القرآن الآية ٤٥ - ٤٨ :

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا *
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ

الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ
الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً *

اللغة :

الوقر بفتح الواو الصمم ، وبكسرهما الثقل . والأكنان جمع كنان ، وهو
الغطاء . ونفوراً بعداً . مسحوراً مخبول العقل .

الاعراب :

مستوراً اسم فاعل بصيغة اسم المفعول أي ساتراً ، وقد تأتي ايضاً صيغة اسم
الفاعل بمعنى المفعول مثل ماء دافق أي مدفوق . والمصدر من ان يفقهوه مفعول
من اجله لجعلنا أي كراهة ان يفقهوه . وفي آذانهم وقرأ عطف على جعلنا أي
وجعلنا في آذانهم وقرأ . ووحده حال أي منفرداً غير مقرون بذكر آلتهم .
ونفوراً مصدر في مكان الحال اي نافرين ، ويجوز ان يكون مفعولاً مطلقاً
لأن ولوا بمعنى نفروا فيكون مثل جلست قعوداً . واذ الأولى ظرف لستمعون ،
واذ الثانية بدل من الأولى . ونجوى خبر لهم بمعنى « متناجون » ويجوز أن يكون
الخبر محذوفاً اي اصحاب نجوى . وكيف مفعول ضربوا .

المعنى :

(واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً
مستوراً) أي ساتراً .. وفي تفسير هذه الآية اقوال ، ارجحها ان جماعة من
المشركين كانوا - اذا قرأ محمد (ص) القرآن - يتصدون له بالأذى ،
ويحاولون منعه عن تلاوته ، فقال سبحانه لنبيه الكريم : امض في قراءة القرآن

سورة الإسراء

والدعوة الى الله ، ولا تكثرت بهم ، فنحن نحرسك منهم ، ونمنعهم عنك .
(وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً) . هذا كناية عن
تمرد المشركين على الحق وعنادهم له ، اما نسبة الاكنة والوقر الى الله فقد تكلمنا
عنها مفصلاً عند تفسير الآية ٢٥ من الأنعام ج ٣ ص ١٧٦ ، وهي نظير هذه
الآية نصاً ومعنى .

(واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفوراً) . كان
المشركون اذا سمعوا رسول الله يقول : لا إله إلا الله ، ونحو ذلك ، يعرضون عنه
مدبرين ، ويقولون : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب . وانطلق
الملا منهم ان امشوا واصبروا على آتكم - ٥ ص . » ولا سر لهذا النفور والاعراض
إلا لأن كلمة التوحيد تنطوي على المبدأ القائل : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .
لا طبقات ولا امتيازات .

(نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون إلا
رجلاً مسحوراً) . ضمير به يعود الى (ما) وهي هنا اسم موصول بمعنى
الشيء .. وتفسير الآية ان الله سبحانه بعد ان قال : « وفي آذانهم وقراً »
قال : نحن اعلم يا محمد انك حين تتلو القرآن لا يستمع اليك المشركون بقلوب
واعية وآذان صاغية ، بل يستمعون اليك بروح الحقد والكراهية ، والعناد
والمكابرة ، ثم يقول بعضهم لبعض وللناس ايضاً : ان محمداً ساحر ومسحور
تأبسته الجن ، ونطقت على لسانه بهذه الحكمة والبلاغة ، وإلا فن اين مثله ،
وهو الأمي أن يأتي بهذا الاعجاز ؟ . وفوق هذا لا كثر له من ذهب أو
فضة ، ولا جنة من نخيل واعناب ..

وهكذا ذهب بهم التفكير الطبقي الى ان صاحب المال وحده هو صاحب
المناصب الشريفة ، دينية كانت او زمنية : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل
من القريرتين عظيم - ٣١ الزخرف » .. اما العقل والصدق والامانة فكلام فارغ .
(انظر كيف ضربوا لك الامثال) استكثروا على محمد (ص) أن يكون
رسولاً لله ، وان ينطق بلسان الله فضربوا له الامثال بجعله مجنوناً تارة ، وساحراً
تارة ، ومرة كاهناً ، وحيناً شاعراً .. محمد الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق
ساحر مجنون ... فكيف بغيره من الطيبين الأخيار ؟ .. ولماذا محمد ساحر

الجزء الخامس عشر

ومجنون ؟ .. لأنه نطق بالحق ودعا إليه ، ولم يستجب لأهواء المبطلين ، وشهوات
المفسدين .. وفوق ذلك لا خيل لديه ولا مال .. ونخلص من هذا الى ان ارباب
الأغراض والشهوات تنحصر مشاعرهم واحاسيسهم في جانب واحد تحده الاهواء
والمصالح الخاصة .. فلا يعقلون ولا يسمعون ولا يبصرون إلا من خلالها حتى
استحالوا بجميع ما فيهم الى الاهواء والشهوات .. وبهذا وحده نجد تفسير عنادهم
للحس والعيان ، وموقفهم من اهل الصدق والاخلاص في كل زمان ومكان ،
وبالتالي نجد فيه تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى
ابصارهم غشاوة » وتفسير كل ما جاء بهذا المعنى في كلامه جل وعلا (فضلوا
فلا يستطيعون سبيلاً) الى تكذيب المحققين إلا الافتراء والبهتان ، والتضليل
والعدوان ، والذم والمؤامرات ، وشراء الذم والرشاوى .

انذا كنا عظاماً ورفاتاً الآية ٤٩ - ٥٢ :

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ
كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ
مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ
فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا *

اللغة :

الرفات هو الذي يلي حتى صار فتاتاً. وفسينغضون اليك رؤوسهم أي يحركونها
استهزاء .

الأعراب :

أثذا كلمتان : همزة الاستنهام ، واذا ، وهي ظرف متعلق بمحذوف أي أنبعثُ في ذلك الوقت . والذي فاعل لفعل محذوف أي قل يعيدكم الذي فطركم . واسم عسى ضمير مستتر يعود الى الوقت الذي دل عليه سياق الكلام . وبمحمد في موضع الحال أي فتستجيون حامدين . وجملة تظنون خبر لمبتدأ محذوف أي وأنتم تظنون ، والجملة من المبتدأ وخبره حال من فاعل فتستجيون . وان نافية بمعنى ما .

المعنى :

(وقالوا أثذا كنا عظاماً ورفاناً أنسا لمبعوثون خلقاً جديداً) . هذه هي حجة من ارتاب بالبعث تديماً وحديثاً : كيف يعود الانسان الى الحياة بعد ان يصبح هباءً منثوراً ؟ . والجواب هو : من قدر على خلق الشيء وابتجاده فبالأولى ان يقدر على جمعه بعد تفرقه . وقد ذكر سبحانه شبهة المنكرين هذه ، وجوابها هذا في العديد من الآيات ، بعبارات شتى ، منها الآية ٧٨ من يس : « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم » . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ٧٧ و ج ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ عند تفسير الآية ٥ من الرعد ، فقرة « الماديون والحياة بعد الموت » .

(قل كونوا حجارة او حديداً او خلقاً مما يكبر في صدوركم) . يقول سبحانه لمنكري البعث : لو كنتم حجارة او حديداً ، او ما هو اكبر عندكم من ذلك - لخلقنا منكم انساناً حياً مثلكم ، ومن يخلق من الحجارة والحديد ومما هو اصعب واصعب انساناً حياً فبالأولى ان يعيد الحي بعد موته الى ما كان عليه من قبل ، لأن جمع الشيء بعد تفرق اجزائه ايسر من ان يخلق منه طبيعة جديدة مبانة لطبيعته الأولى .. واختصاراً ان احياء الانسان بعد موته ايسر من جعل الحديد انساناً ، فمن قدر على هذا فبالأولى ان يقدر على ذلك .

(فسيقولون من يعيدنا) الى الحياة بعد ان نصبح هباءً منثوراً ؟ . وهذا السؤال يحمل جوابه معه وهو (قل الذي فطركم اول مرة) . فالمعيد هو المبدىء ،

الجزء الخامس عشر

ونسبة البدء والاعادة اليه واحدة ، بل الاعادة بطبعها أيسر لأنها ارجاع ما كان الى ما كان ، اما البدء فخلق وإيجاد .. نقول هذا مع علمنا بأن الله يخلق القليل والكثير ، والعظيم والحقير بكلمة « كن فيكون » .

(فسينغضون اليك رؤوسهم) يحركونها استهزاء وتكديباً (ويقولون متى هو) هذا البعث ؟ . ومرادهم من السؤال الاستبعاد والاستنكار (قل عسى ان يكون قريباً) والمراد بالقرب هنا التحقق والوقوع لأن كل آت قريب .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) . المراد باليوم يوم البعث ، وبالبدء النفخ في الصور والاستجابة هنا كناية عن خروجهم من القبور ، وبحمده أي طائعين متقادين : « ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون - ٥١ يس » (وتظنون ان لبثتم إلا قليلاً) حين يخرج الناس من القبور يظنون انهم ما اقاموا في دار الدنيا إلا يوماً أو بعض يوم : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم - ١١٣ المؤمنون » .

وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن الآية ٥٣ - ٥٧

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا * قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى

سورة الإسراء

رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا *

الغة :

يتزغ يفسد . والزبور الكتاب على وزن فعول اسم مفعول أي مكتوب ، وغُلِّبَ على الكتاب الذي انزل على داود (ع) . والمراد بالوسيلة هنا القرية الى الله . ومحذوراً من الخذر ، وهو الخوف اي يحذره العاقل ويحترس منه .

الاعراب :

يقولوا مجزوم بلام الامر المحذوفة أي ليقولوا . والتي هي احسن اي الكلمة التي هي احسن . واولئك مبتدأ ، والذين يدعون صفة او عطف بيان ، ويبتغون خبر . وايهم مبتدأ واقرب خبر .

المعنى :

(وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن) . امر سبحانه نبيه الكريم بأن يأمر المؤمنين او الناس اجمعين بأن ينطقوا بالحسنى ، ويقولوا كلمة الحق والعدل أياً كان الثمن . انظر تفسير الآيتين ٢٤ و ٢٦ من ابراهيم : « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة » . (ان الشيطان يتزغ بينهم) يتلمس عثرات اللسان ليتخذ منها وقوداً لنار العداوة والبغضاء بين الناس.. ولا تنحصر عثرات اللسان بالسب والهجاء ، بل تكون ايضاً بالمدح والثناء في غير موضعه ، وفي الفاظ الفسق والفجور (ان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً) . وقد صرح هو بهذه العداوة حيث قال : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم

الجزء الخامس عشر

لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم - ١٧ الاعراف .
(ربكم اعلم بكم ان يشأ برحمتكم او ان يشأ يعذبكم) . الله عالم وعادل
وحكيم ، يعلم احوال عباده : ما يصلحهم وما يفسدهم ، ويعاملهم بعسده
وحكمته ، فيرحم من يستحق الرحمة ، وهو من يمثّل ويطيع ، ويعذب من
يستحق العذاب ، وهو من يعصي ويتمرد ، هذا بعد ان يلقي عليه الحجّة بتبليغ
الحلال والحرام بلسان النبي الكريم (وما ارسلناك عليهم وكيلاً) بل مبلغاً وكفى :
« فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب - ٤٠ الرعد .

(وربك اعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض
وآتيننا داود زبوراً) الله يعلم اهل السماء والارض ، ويعلم مؤهلات كل واحد
منهم ، وعلى اساسها يصطفي من الملائكة رسولاً الى انبيائه كجبريل (ع) ،
ويبعث من البشر رسلاً مبشرين ومنذرين ، وكما فضل بعض الملائكة على بعض
فقد فضل ايضاً بعض الانبياء على بعض .

وتسأل : ان الاسلام يقوم على مبدأ المساواة ، فما معنى هذا التفضيل ؟ . ثم
كيف يتحقق التفضيل ويتصور بين الملائكة ، وبين الانبياء ، مع العلم بأن الجميع
عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ؟ .

الجواب : اجل ، لا تفضيل على اساس الطاعة والعصمة والولاية من حيث
هي ، بل من حيث وصفها تماماً كالذهب .. فانه ثمين بشئى افراده ، ولكن
بعضها اثن من بعض ، وهكذا سائر الأشياء الحسنة الجميلة فانها تتفاوت في
مقدار الجمال ودرجاته ، لا في كنهه وحقيقته ، ومن هنا قيل : نور على نور ..
وخير على خير .

سؤال ثان : لماذا افرد الله داود بالذكر ، وقال : وآتيننا داود زبوراً . مع
انه آتى موسى التوراة وعيسى الانجيل ومحمداً القرآن ؟ .

الجواب : افرد داود بالذكر للرد على المشركين الذين قالوا : كيف يكون
محمد نبياً ، وقد عاش يتيماً فقيراً ؟ . ووجه الرد ان المعنى انه سبحانه يجعل
رسالته عند من يستحقها سواء اكان المستحق يتيماً فقيراً كمحمد ، ام كان غنياً
كداود .. وفي كثير من كتب السير والتاريخ يعبر عن داود النبي بـداود الملك .
(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) .

سورة الإسراء

قال كثير من المفسرين : ان هذه الآية والتي بعدها نزلتا في الذين عبدوا الملائكة وعيسى وعزيراً ، وان عبدة الاصنام غير مقصودين لأنه تعالى وصف المعبودين بانهم (يتغنون الى ربهم الوسيلة) وابتغاء الوسيلة اي القرية اليه لا يليق بالاصنام ، وعليه يكون المعنى قل يا محمد لمن عبد الملائكة وعيسى وعزيراً : اذا اصابك الضر كالفقر او المرض فاسأل معبودك ان يكشفه عنك ، ثم انظر : هل يقدر على دفعه او تحويله الى غيرك ؟ .. وما من شك في عجزه لأنه لا يملك ذلك لنفسه فكيف يملكه لغيره .

(اولئك الذين يدعون يتغنون الى ربهم الوسيلة) . اولئك اشارة الى الذين اتخذهم المشركون ارباباً ، والمعنى ان الذين تعبدونهم ايها المشركون يتوسلون الى الله بالطاعة لا يستكبرون عن عبادته ويسبحون له ويسجدون ، فكيف تعبدونهم؟ . (ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) اي ان كلاً من الملائكة وعيسى وعزير يجد ويجتهد في عبادة الله والاخلاص له ليكون قريباً من عفوه ورحمته ، بعيداً من سخطه وعذابه . ذلك (ان عذاب ربك كان محذوراً) تحذره الانبياء والاولياء ، فكيف بغيرهم ، وكل عاقل يحذر ويخاف من العواقب ، ويعد لها العدة مهما كانت منزلته ومقدرته ، وبخاصة اذا كان الطالب والمحاسب يعلم السر وأخفى .

وان من قرية الآية ٥٨ - ٦٠

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مَهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً * وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً * وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ

الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ قَمًا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ★

اللغة :

الناقة مبصرة اي دلالة واضحة عند من يبصرها ، فالابصار وصف لمن يراها حقيقة ، ولها مجازاً . فظلموا بها اي فكفروا بها ، والقرآن يُطلق الظلم على الكفر في كثير من الآيات .

الاعراب :

ان من قرية (ان) نافية ، ومن زائدة اعراباً ، وقرية مبتدأ اول ، ونحن مبتدأ ثان ، ومهلكوها خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منه ومن خبره خبر الأول . والمصدر من ان نرسل مجرور بمن محذوفة ، والمصدر من ان كذّبت فاعل معنا . ومبصرة حال من الناقة . ونحويها مفعول من اجله لنرسل . واذ قلنا (اذ) متعلقة بفعل محذوف اي واذكر اذ قلنا . وفتنة مفعول ثان لجعلنا . وفاعل يزيدهم ضمير مستتر يعود الى التخويف المفهوم من نخوفهم . وطغياناً مفعول ثان ليزيدهم كما في جمع البيان .

المهدي المنتظر :

(وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) . ظاهر الآية يدل على ان الناس كلهم يفنون قبل يوم القيامة ، بحيث يأتي ذلك اليوم ، ولا انسان على وجه الأرض اطلاقاً .. وان هذا أمر قد خُط بالقلم في كتاب القضاء والقدر الذي لا مفر منه ولا محيص عنه ، ولكن بعض المجتمعات يفنيهم الله بالموت الطبيعي ، وبعضهم بالعذاب الشديد ، ولم يبين سبحانه وصف هؤلاء ، ولا اولئك .. هذا هو ظاهر الآية ،

سورة الإسراء

ولكن المفسرين قالوا: ان المجتمع الصالح يفنى بالموت الطبيعي، والفساد بالعذاب، وقولهم هذا لا يتفق مع قولهم في تفسير قوله تعالى في اول سورة الحج : « يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » .

والذي نراه أن المراد بالقرية في قوله تعالى: « وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة » الخ . المراد خصوص القرية الظالم اهلها أي المجتمع الفاسد فقط، وانه يهلك هذا المجتمع او يعذبه قبل ان تقوم الساعة ، اما المجتمع الصالح فيستمر في الوجود والبقاء الى يوم القيامة حيث تذهل كل مرضعة عما ارضعت ... وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، وبهذا يتحقق الجمع بين ما جاء في اول الحج، وبين الآية التي نحن بصدددها ، ويكون معناها ان الله سيححو المفسدين والظالمين من وجه الأرض قبل القيامة ، ولا يبقى إلا الصالحون الطيبون ، يعيشون جميعاً في طاعة الله مؤمنين آمنين على انفسهم وجميع اشيائهم ، وفي ذلك احاديث كثيرة عن رسول الله (ص) .

منها ما جاء في سنن ابي داود السجستاني ، وهو احد الصحاح الستة عند السنة ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ وما بعدها: « قال رسول الله (ص) : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من اهل بيبي يواطىء اسمه اسمي ، واسم ابيه اسم ابي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » . ومحل الشاهد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً .

ومنها ما جاء في كتاب السنن لابن ماجه ، وهو احد الصحاح الستة ايضاً ج ٢ طبعة ١٩٥٢ الحديث رقم ٤٠٨٣ : « قال رسول الله يكون في امتي المهدي تنعم فيه امتي نعمة لم تنعم مثلها قط » .

والثورات والانتفاضات في كل مكان لتحرر من الظلم والفساد ، والجهل والفقر تدل بصراحة ووضوح على ان هذا كائن لا محالة في المستقبل القريب أو البعيد . (وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) . اقترح مشركو قريش على رسول الله (ص) أن يأتيهم بالحواريق التي يريدون ، وقالوا له فيما قالوا : فجر لنا من الأرض نبوعاً ، واثنا بالله

الجزء الخامس عشر

والملائكة ، وأنزل علينا من السماء كتاباً نقرأه .. واجابهم سبحانه في هذه الآية بأنه قد سبق في قضائه وقدره ان يستأصل بالعذاب كل قوم كذبوا بآية جاءت وفق ما طلبوا واقترحوا ، فلقد اقترحت ثمود من قبل على نبيها صالح ناقصة خارقة ، ولما جاءتهم على الوصف الذي اقترحوه كفروا بها وعفروها ، فاخذتهم الرجفة وكانوا من الهالكين . وسبق التفصيل في سورة الاعراف الآية ٧٣ و ٧٩ ج ٣ ص ٣٥٠ .

وقد سبق في قضاء الله وقدره أن لا يستأصل قريشاً التي اقترحت ما اقترحت على رسول الله ، لأن رجالاً منها سيتوبون ويؤمنون ، وآخرين يولد لهم من يجاهد في الله حق جهاده ، وفوق هذا فان الله سبحانه قضى وقدر أن تبقى امة محمد (ص) وشريعته الى يوم يبعثون ، ولهذا وغيره من الأسباب لم يستجب سبحانه الى مقترحات قريش (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) . فما من آية ظهرت أو تظهر على يد نبي من الانبياء إلا والغاية منها العظة والزجر والتخويف من عذاب ليس له دافع ولا رافع .. فما بالهم يقترحون الخوارق ويستعجلونها ، وهي نقمة عليهم وعذاب .

(واذا قلنا لك ان ربك احاط بالناس) . سبق أن المشركين اقترحوا الخوارق على رسول الله (ص) وأن الله أوحى اليه انه لو استجاب لهم وعصوا لهلكوا.. ولكن هذا الجواب لم يُقنع المشركين ، وقالوا لرسول الله لو كنت نبياً لجتنا بما اقترحنا .. ولما بلغ الأمر بهم الى هذا الحد خاطب سبحانه نبيه الكريم بقوله : (واذا قلنا لك ان ربك احاط بالناس) أي امض في دعوتك ، ولا تكترث بمن يعاند ويكابر ، فنحن اعلم بالناس وما يقولون ويفعلون ، وهم جميعاً في قبضتنا نصدهم عنك وعن ايدائك ، وفي هذا المعنى قوله تعالى : « والله يعصمك من الناس » .

(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) . ذكر سبحانه أنه قد أرى نبيه رؤيا في منامه ، وانها فتنة للناس ، ولكنه لم يبين ما هي هذه الرؤيا ، ولا المراد من الفتنة . ومن هنا اختلف المفسرون في معناها ، وذكر الرازي في تفسيره الكبير ، وابو حيان الاندلسي في البحر المحيط ، ومحمد بن احمد الكلبي في كتاب التسهيل ، ذكروا وغيرهم ايضاً اقوالاً في تفسير الرؤيا والفتنة، منها أن النبي(ص)

سورة الإسراء

رأى أنه سيدخل مكة مع الصحابة، ولكنه لما قصدها عام الحديبية صده المشركون، فشك من شك من المسلمين في رؤيا النبي وقال له : ألم تخبر بأننا ندخل المسجد الحرام آمنين ؟ . قال : أجل ، ولكن هل قلت : ندخله هذا العام ؟ . قال : لا . قال النبي (ص) : لندخله ان شاء الله . فدخلوه في العام المقبل .

ومن الأقوال في تفسير الرؤيا كما جاء في التفسير التي اشرنا اليها : ان النبي (ص) رأى بني امية ينزون على منبره نزو القرود ، فساءه ذلك ، واغتم به ، ولم يُر ضاحكاً . وذهب الى هذا التفسير جماعة من الصحابة ، منهم سعيد ابن المسيب وابن عباس كما في تفسير الرازي ، وسهل بن سعد كما في تفسير البحر المحيط . وفي صحيح البخاري ج ٩ كتاب الفن - أن النبي (ص) قال : « هلاك امي على يدي اغلطة سفهاء من قريش » . وهذه الرواية تدعم تفسير الرؤيا ببني امية ، وعليه يكون المراد بقوله تعالى : (والشجرة الملعونة في القرآن) هم بنو امية بالذات . وفي تفسير الرازي ان من المفسرين جماعة يقولون : « ان الشجرة الملعونة في القرآن هم اليهود » . وقد اثبتت حوادث التاريخ قديماً وحديثاً أن اليهود مصدر الفن وأصل الفساد .

(ونخوفهم فما يزيدهم - التخويف - إلا طغياناً كبيراً) . انذر الله المشركين وخوفهم بشئ الأساليب ... ولكن لا حياة لمن تنادي ، بل زادهم الانذار والتخويف تمادياً في الغي والضلال ، لأنهم لا يتحركون إلا بوحى المصالح والمنافع ، أما الحجج الدامغة والأخلاق والقيم فكلام وأحلام .

فسجدوا إلا ابليس الآية ٦١ - ٦٥

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآتِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ

الجزء الخامس عشر

مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ
مِنْهُمْ بَصُوتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بَخِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا *

اللغة :

لاحتنكن أي لأقودنهم مأخوذ من تحنك الدابة اذا شد على حنكها الأسفل
بحبل يقودها به . وموفوراً تاماً . والاستفزاز الاستخفاف . واجلب من الجلبة
وهي الصياح .

الاعراب :

طيناً حال ، وقيل : تمييز . وأرأيتك الكاف حرف خطاب لا محل له من
الاعراب مثل الكاف في ذاك ، وجاءت لتأكيد تاء المخاطب ، ومعنى أرأيتك
عرفني . وهذا مفعول لأرأيتك . والذي نعت لهذا أو عطف بيان . وجزاء منصوب
على المصدر والعامل فيه جزاؤكم أو تجزون محذوفة . وبربك الباء زائدة اعراباً ،
وربك فاعل كفى ، ووكيلاً تمييز .

لمعنى :

(واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس قال أسجد لمن خلقت
طيناً) تقدم مع التفسير في الآية ٣٤ من البقرة ج ١ ص ٨٢ ، والآية ١١ من
الاعراف ج ٣ ص ٣٠٧ .

تقديم الأفضل على المفضول :

(قال أربنتك هذا الذي كرمت عليّ) ابليس يحتجّ بصلف ووقاحة ، ويقول للعلي الأعلى : من هو هذا الذي فضلته عليّ ؟ وبأي شيء جعلته أكرم واكمل ؟ . بل العكس هو الصحيح « انا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين - ١٢ الأعراف » .. برر الخبيث منطقته بأمر ارسله ارسال المسائات ، وهو أنه افضل واكمل ، واذا كان ابليس افضل فكيف يسجد للمفضول أي لمن هو دونه .. أليس معنى الأمر بالسجود لآدم ان المفضول مقدم عند الله على الأفضل ، وغير الأكمل على الأكمل ؟ .

وقد غالط ابليس في منطقته هذا لأنه ليس أفضل من آدم ، بل العكس هو الصحيح ، بل لا فضل له ولا فيه على الاطلاق ، وعليه فان الله لم يقدم المفضول كما زعم ابليس .. وأي عقل يجيز على الله أن يقرب الأبعد ، ويبعد الاقرب ؟ . وقد خفيت هذه الحقيقة على المعتزلة والأشاعرة ، حيث قالوا : يجوز تقديم المفضول على الأفضل (المواقف ج ٨ ص ٣٧٣) .

وقال الأشاعرة : ان العقل يجيز على الله أن يعاقب المطيع ، ويشيب العاصي لأنه لا يقبح منه شيء ، ولا يجب عليه شيء (المواقف ج ٨ ص ١٩٥) . أما الشيعة الامامية فقالوا : ان العقل لا يجيز على الله ان يعاقب المحسن ، ويجيز عليه العفو عن المسيء ، تماماً كما يجوز لصاحب الحق أن يعفو عنه كلاً أو بعضاً . وقالوا ايضاً : لا يجيز العقل تقديم المفضول لأنه في رتبة ادنى ، والأفضل في رتبة أعلى بحسب الترتيب الطبيعي ، فجعل الأعلى أدنى ، والأدنى أعلى مخالف لمنطق العقل والطبيعة .

(لئن اخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلاً) . ابليس يهدد بالانتقام لنفسه من ذرية آدم لا لشيء إلا لأن الله كرمه عليه ، ينتقم منهم بأن يقودهم معه الى معصية الله ، كما تقاد الدابة بحنكها إلا القليل منهم ، وهم من آمن واخلص .. ثم يطلب ابليس من الله أن يمهل ويمد في حياته ليغوي ويفسد ، فاستجاب الله لطلبه و (قال اذهب فن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً) . لما هدد ابليس باغواء الآدميين هده الله ومن اتبعه من الغاوين ، وقال له : افعل

الجزء الخامس عشر

ما شئت وليتبعك في الضلالة والغواية من أراد ، فاني لا أكره أحداً على طاعة ولا معصية .. وأزود الجميع بالقدره والعقل والارادة ، وأبين لهم طريق الخير وطريق الشر ، أنهى عن هذا وأمر بذلك ، فمن امتثل وأطاع فان الجنة هي المأوى ، ومن تمرد وعصى فان جهنم مثوى للعاصين يُجزون فيها جزاءً تاماً ، لا نقصان فيه عما يستحقون .

(واستفز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك) . استفزز استخف واستنهض ، والجلبة الصياح .. ولا جنود حقيقة لابليس ، بعضهم راكب ، وبعضهم راجل ، وانما هذا كناية عن المفسدين وأرباب الأهواء ، والحائنين والعملاء . وفي نهج البلاغة ، « احذروا ان يستفزكم - الشيطان - بندائه وأن يجلب عليكم بخيله ورجله ، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد وأغرق لكم بالنزع الشديد » . وقال الشيخ محمد عبده معلقاً على ذلك بتولاه : « استفزكم يستنهضكم لما يريد ، فان تباطأتم عليه اجلب عليكم بخيله ورجله ، والمراد بهم اعوان السوء » . وتقدم نظير ذلك في سورة الاعراف ، الآية ٨٤ وما بعدها ج ٣ ص ٣٠٨ . واجبنا هناك عن ثلاثة تساؤلات ، وهي : هل خاطب الله ابليس مباشرة او بالواسطة ؟ . وهل الغواية من الله أو من ابليس ؟ . ولماذا امهله الله وهو يعلم أن في امهاله فساداً وإفساداً ؟ . فراجع . (وشاركهم في الاموال والأولاد) . المشاركة في الأموال كناية عن كل مال يؤخذ من غير حق ، كالسلب والنهب والربا والغش وثنم الحيانة والعمالة ، أو ينفق في غير وجهه ، كالاسراف وفي الخمر والميسر والمظاهر الزارعة ، أما المشاركة في الأولاد فهي كناية عن الزنا وقتل الأولاد خوفاً من فقر والبنار ، وتربيتهم تربية فاسدة (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) . ووعد الغرور هو لباس الباطل ثوب الحق ، والخطأ لباس الصواب ، مثل أن يوسوس الشيطان لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويقول له : لا تخف من المعصية فان الله كريم وغفار .. وما زلت في مقتبل العمر ، وغداً تستغفر وتتوب .. وفي بعض الأخبار أن ابليس وسوس لعابد من بني اسرائيل أن يذنب ويتوب ليقوى على العبادة . (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً) . تقدم مع التفسير في سورة الحجر الآية ٤٢ .

يزجي لكم الفلك الآية ٦٦ - ٦٩ :

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ
بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا
نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا *
أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ
الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا *

اللفظة :

يُزْجِي يُجْرِي . قال تعالى : « والفلك التي تجري - ١٦٤ البقرة » . وضم
هنا بمعنى غاب وذهب . ويخسف يغيب ، والمراد انه تعالى قادر على ادخالهم في
الأرض احياء بحيث يغرقون بها تماماً كما يغرقون في الماء . والحاصب من حصبه
بالحجارة أي رماه بها . والقاصف الكاسر . والتبيع المطالب بالدم ونحوه .

الاعراب :

ربكم مبتدأ والذي خبر . والمراد بآياه الله جل وعلا ، ومحلّه النصب على
الاستثناء المنقطع أي ذهب كل معبود إلا الله . والمصدر من أن يخسف مفعول
امنتم . وجانب مفعول يخسف . وتارة ظرف متعلق بيعيدكم أي وقتاً غير الوقت
الأول .

المعنى :

(ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيماً) . السفينة تجري على وجه البحر بالأسباب الطبيعية ، ما في ذلك ريب ، ولكن هذه الأسباب تنتهي اليه تعالى لأنه خالق الكون بما فيه ، ومن هنا صح أن يسند جريان السفينة اليه تعالى ، والحكمة في ذلك أن يكون الانسان دائماً على ذكر بأن الله هو الفاعل المنصرف في الكون ، وليس الطبيعة . أما الغرض من الفلك فهو تسهيل المواصلات (واذا مسكم الضر في البحر ضل - أي ذهب - من تدعون إلا آياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً) . تقدم نظيره مع التفسير في سورة يونس ، الآية ٢٢ وما بعدها ج ٤ ص ١٤٧ .

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكياً) . الناس كلهم في قبضته تعالى ايما كانوا ، حتى ولو تحصنوا في بروج مشيدة ، فان كانوا في البحر اهلكهم بالغرق ان شاء ، أو في البر خسف بهم الأرض أو أمطر عليهم حجارة من السماء ، وان كانوا في قلعة محصنة هدمها على رؤوسهم .. ولا يأمن العواقب إلا جهول .

(أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة اخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيهاً) . ضمير فيه يعود الى البحر ، والقاصف من الريح هو الهواء الذي يكسر السفينة ويحطمها ، والمراد بالتبيح المطالب بالدم ونحوه ، والمعنى لنفرض انه لا وسيلة للهلاك إلا البحر ، فان الله سبحانه قادر على أن يعيدكم اليه ، ويغرقكم فيه بريح عاصفة قاصفة ، ولا أحد يتبعه ويطلبه بما يفعل بكم .

ويتلخص معنى الآيات أن الجاهل ان يخاف دعا الله مضطراً ، وان أمن أعرض عنه مغترأ ، مع أن الله سبحانه قادر على نفعه وضره في شتى احواله ، أما المؤمن العاقل فيتعظ بالضر والسراء معاً : يخافه في هذه ، ويرجو عونه في تلك .

كرمنا بني آدم الآية ٧٠ - ٧٢

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ

سورة الإمراء

الطِّيبَاتِ وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا * يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ
أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا
يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ
سَبِيلًا *

اللغة :

بامامهم أي بمن اتبعوه واثموا به . وفتيلاً أي لا يُنقصون شيئاً ، والفتيل
ما كان في شق النواة ، والنقير النقطة في ظهر النواة ، والقمطر القشرة عليها .
والمراد بالأعمى أعمى البصيرة .

الأعراب :

يوم متعلق بفعل محذوف دل عليه قوله تعالى لا يظلمون اي لا يظلمون يوم
ندعو كل اناس ، أو متعلق بأذكر محذوفة . وفتيلاً قائم مقام المفعول المطلق أي
ظلماً مقدار فتيل . وسبيلاً تمييز مثل أقبح فعلاً .

بماذا كرم الله بني آدم ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نبين معاني الفاظ الآية :
أ - (ولقد كرمنا بني آدم) . ان الله سبحانه كرم ابن آدم بما زوده به من
مؤهلات تجعله محترماً مكرماً . وسنذكر طرفاً من هذه المؤهلات بعد تفسير
الفاظ الآية .

ب - (وحملناهم في البر والبحر) . هذا الحمل بعض ما كرم الله به بني
آدم ، ومن الواضح أن تيسير المواصلات من دعائم الحياة الانسانية .

الجزء الخامس عشر

ج - (ورزقناهم من الطيبات) . وكل ما يجلب للانسان نفعاً بجهة من الجهات ، أو يدفع عنه ضرراً كذلك فهو طيب وخير وحسن ، مادياً كان أو معنوياً .

د - (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) . قال كثير من المفسرين : ان المراد بكثير في الآية الجميع ، ورتبوا على ذلك تفضيل الانسان على الملائكة ، واستغرقت هذه المسألة الصفحات الطوال من التفاسير ، مع العلم بأنه لا أثر عملي من اثارها وتحقيقها إلا تكثير الكلام .

والصحيح أن الآية بعيدة كل البعد عن التفضيل بين الملائكة والانسان ، وان المراد بكلمة (كثير) المعنى الظاهر منها ، اذ لا موجب لتأويلها والتصرف بدلالاتها . بل العلم يحتم بقاءها على ظاهرها لأن الكشوف العلمية قد أبطلت النظرية القائلة : ان الأرض هي مركز الكون ، والانسان هو سيد الكون بكامله ، وأكدت هذه الكشوف ضلالة الانسان بالنسبة الى الكون من حيث الضخامة وكثير غيرها من الصفات ، وهذه الكشوف يقرها ويعترف بها القرآن ، فلقد جاء في الآية ٥٧ من غافر قوله تعالى : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » بأن هذا الكوكب الأرضي الذي يعيشون عليه إن هو إلا واحد من ملايين ملايين الكواكب التي لا يعرف العلم الحديث عددها على الرغم من انه اكتشف ابعاداً لا نهاية لها .. هذا ، الى أن كثيراً من العلماء يقولون : ان هناك كواكب تسكنها كائنات عاقلة ربما أعقل وأرقى من الانسان ..

وبالتالي فان الانسان سيد كريم ، ما في ذلك ريب ، ولكنه ليس سيد المخلوقات كلها ، بل واحداً من السادات .. ولا شيء أدل على ذلك من جهل الانسان بأكثر الكائنات علاوة عن ضعفه وعجزه عن التصرف فيها ، بل هو جاهل بأكثر الكائنات الأرضية زيادة على جهله بالكائنات العلوية التي تتكون من بلايين المجرات .. وبدية أن أول شرط للسيد قدرته على التصرف في المسود .. وبعد أن شرحنا ألفاظ الآية الكريمة نشير فيما يلي الى طرف من الخصائص التي كرم الله بها بني آدم :

١ - خلق الله سبحانه الانسان ، فأحسن خلقه وصورته ، قال تعالى :

سورة الإسراء

« وصوركم فأحسن صوركم - ٦٤ غافر » . وقال : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم - ٤ التين » .

٢ - العقل ، ولولاه لم يكن الانسان شيئاً مذكوراً ، بل لولا العقل ما عرف الخالق .. فيه نعرف عظمة الله ، وعظمة الكون ، وعظمة العقل ايضاً .. قال أحد العقلاء : « اذا كان في الكون نجوم تلمع فان في العقل نجوماً تلمع وتبهر ، واذا كانت الأكوام المحيطة بنا اجساماً مشتعلة مترابطة بقوانين دقيقة فان العقل اعظم وأروع ، واذا كان علماء الفلك يرون في دقة الكون وعظمته دليلاً على عظمة الخالق فان تكوين الانسان اكبر دليل على عظمة الله ، واذا كان النظر الى السماء يجعل الانسان يشعر بضآلته فان تأمل الانسان في نفسه يجعله يشعر بعبقريته ، وبعظمة الذي خلقه ، وخلق الأكوام كلها » .

فالكون عظيم ، والعقل عظيم .. والكل لا شيء أمام عظمة الحقيقة الكبرى .. والطريق الوحيد لمعرفة هذه العظمة ، عظمة الله والكون والانسان هو العقل .. (ولا تنس أن العقل ليس وقفاً على الانسان وحده) .

٣ - الانسان مستودع حافل بالغرائر والاسرار : علم وجهل . دين وكفر . حب وبغض . حلم وغضب . خوف وجرأة . بخل وكرم . تواضع وعظمة . أمانة وخيانة . ثبات وتقلب .. الى ما لا نهاية .. ولست أدري هل بالغ من قال : « ليس الانسان كائناً واحداً ، وانما هو ملايين الكائنات العاقلة والمجنونة ، والمتحضرة والمتوحشة » .

٤ - يتطلع الانسان باستمرار الى حياة افضل ، حتى ولو كان في حياة فاضلة ، وفي الحديث : « لو كان للانسان جبل من ذهب وجبل من فضة لتمنى لها ثالثاً » . واذا كان هذا مثلاً لطمع الانسان فانه يصلح ايضاً مثلاً لطموحه الى أعلى .

٥ - للانسان شريعة وقيم ، عليه أن يخضع لها ، ويعمل بها ، وعلى أساسها يسأل ويحاسب ، ويكون شريفاً أو وضيعاً .

٦ - يتأثر الانسان بمن مضى ، ويؤثر فيمن يأتي ، ويتفاعل مع أهل عصره ، يؤثر بهم ، ويتأثرون به .. ومن هنا كان له تاريخ وتراث وآثار ، دون كثير من الكائنات .

الجزء الخامس عشر

٧ - للانسان حياة اخرى هي ساحة الحكم والجزاء على ما قدمه في حياته الأولى .. الى غير ذلك من النعم التي أشار اليها سبحانه بقوله : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها -- ٣٤ ابراهيم » .

(يوم ندعو كل انسان امامهم فمن اوتى كتابه يمينه فاولئك يقرأون كتابهم) .
الامام من يؤتم به ، ويؤتمر بأمره وحياً كان أو انسان أو عقلاً أو هوى ، وفي الحديث : « يدعى الناس يوم القيامة بامام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم » .
والمراد بالكتاب في الآية كتاب الأعمال ، وأصحاب اليمين هم أهل الطاعات والحسنات ، وأصحاب الشمال هم أهل المعاصي والسيئات ، والمعنى أن المنادي ينادي يوم القيامة : اين اتباع الانبياء والمصلحين ؟ اين العاملون بوحى العقل والدين ؟ . فيأتون ويأخذون كتاب الحسنات وثوابها بأيمانهم فرحين مستبشرين ، ينادي المنادي وايضاً : اين أتباع الظلمة الطغاة وأعوانهم ؟ اين الحاسنون والمفسدون ؟ . فيأتون ويأخذون كتاب السيئات وعقابها بشمائلهم اذلاء خاسئين (ولا يظلمون فتيلاً) . الفتيل تعبير عن الشيء الحقيق التافه ، والمعنى أن الله يجزي كلاً بعمله ، لا ينقص من ثواب من أحسن ، ولا يزيد في عقاب من أساء .
(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) هذه اشارة الى الدنيا ، والأعمى فيها عند الله سبحانه هو الذي يتخبط في الجهالة والضلالة ، وأبلغ وصف له ما قاله الامام علي (ع) : « جائر عن القصد مشغوف بكلام بدعة ، ودعاء ضلالة ، فهو فتنة لمن افتتن به ، وضال عن هدى من كان قبله ، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته » . ويتلخص معنى الآية بأن من ساء عمله في هذه الحياة ساء مصيره في الآخرة . وتدل هذه الآية دلالة واضحة على أن كل ثواب أو عقاب في الآخرة يرتبط ارتباطاً كلياً ووثيقاً بالعمل في الحياة الدنيا ، ومن هنا قيل : الدنيا مزرعة الآخرة ، وكفى دليلاً على ذلك قول الرسول الأعظم : « يُحشر الناس على نياتهم » . انظر تفسير الآية ١٤٢ من آل عمران ج ٢ ص ١٦٥ .

سورة الإسراء

هل يتخذ النبي عن دينه الآية ٧٣ - ٧٧

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ
شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ
لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا *

اللغة :

كادوا قربوا . ليفتنونك ليصرفونك . لتفتري لتتخذ . لا يلبثون لا يقون .
تحويلاً تبديلاً .

الاعراب :

ان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي انه ، وجملة كادوا
خبر ان ، وجملة يفتنونك خبر كاد ، واللام في ليفتنونك هي اللام الفارقة بين
ان المخففة وان النافية . واذا حرف جواب وجزاء . واللام في لا تأخذوك واقعة
في جواب قسم محذوف أي والله اذا لا تأخذوك . والمصدر من أن ثبتناك مبتدأ
وخبره محذوف أي لولا تثبيتنا اياك كائن أو حاصل . وجواب لولا لقد كدت .
وشيئاً مفعول مطلق أي شيئاً من الركون . ولأذقناك متضمن معنى عذبتناك ،
وضعف مفعول مطلق لأنه مضاف الى كلمة عذاب محذوفة ، أي لعذبتناك ضعف
عذاب الحياة ، وضعف عذاب الممات . وليخرجوك منصوب بأن بعد اللام ، ولم

الجزء الخامس عشر

ينصب لا يلبثون بالعطف على ليخرجوك لوجود اذاً . وخلافك ظرف منصوب
بلا يلبثون لأنها بمعنى بعدك أو بعد إخراجك . وقليلاً صفة لمحذوف أي إلا زمناً
قليلاً . وسنة مفعول مطلق لفعل محذوف أي سن الله سنة .

المعنى :

(وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفترى علينا غيره اذاً لاتخذوك
خليفةً) . ضمير كادوا ويفتنونك يعود الى المشركين ، فلقد حاولوا أن يساوموا
رسول الله (ص) في أن يستجيبوا له ، ويتخذوه ولياً وصديقاً لبعض ما
يريدون ... من ذلك أن يتمسح بآلتهم ، كما في بعض الروايات ، أو يترك
التنديد بها - على الأقل - ولكن النبي لم يستجب لطلب المشركين لأنه معصوم ،
والمعصوم لا يساوم على دينه ورسالته .

وتسأل : ان قوله تعالى : (كادوا ليفتنونك) يدل على انه هم واوشك
أن يستجيب لمساومتهم ؟ .

الجواب : ان هذه الآية تتصل اتصالاً وثيقاً بالآية التي تليها بلا فاصل ،
وهي قوله تعالى : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً) ولولا
حرف امتناع تدخل على جملتين ، وتربط امتناع الجملة الثانية بوجود الأولى ،
والجملة الممتنعة هي لقد كدت ، والجملة المانعة هي ثبتناك أي عصمتناك ، وعليه
يكون المعنى انك يا محمد لولا عنايتنا بك بالعصمة عن الذنب لأوشكت أن
تركن الى المشركين ، وتستجيب لهم ، فالعصمة هي التي منعتك عن الاستجابة ..
وهذا تماماً كقول القائل : لولا فلان لهلك . وتقدم نظيره في ج ٤ ص ٣٠٣
عند تفسير الآية ٢٤ من سورة يوسف : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى
برهان ربه » .. هذا الى ان التفكير بالفعل شيء ، ومباشرته شيء آخر ، وقد
تواتر عن النبي انه قال : « وضع عن امتي ما حدثت به نفسها ما لم تفعل أو
تتكلم » أي ان مجرد حديث النفس لا اثر له ، وفي رواية ان المشركين حين
عرضوا على النبي ما عرضوا سكت عن جوابهم .
(اذاً لاذقناك ضعف الحياة وضعف المات) . ضعف الشيء ما زاد عليه

سورة الإسراء

بمقداره ، والمعنى لو ركنت الى المشركين يا محمد لعذبتك بمثلي عذاب غيرك في الدنيا والآخرة لو فعل ذلك ، لأن عقوبة العطاء تكون على مقدار عظمتهم ومكانتهم ... هذا مجرد فرض ، وفرض المحال ليس بمحال (ثم لا تجد لك علينا نصيراً) يدفع عنك العذاب . وفي نهج البلاغة : « يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر ، فيلقى في جهنم ، يدور فيها كما تدور الرحي ، ثم يربط في قعرها » .

(وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذأ لا يلبثون خلافاك إلا قليلاً) . لما عجز المشركون عن استدراج النبي (ص) الى المساومة حاولوا أن يستخفوه ويزعجوه بكل وسيلة لكي يخرج من مكة ، ولو اخرجوه لأهلكهم الله بعد خروجه بزمن قليل .

وتسأل : من المعلوم ان المشركين اتفقوا على قتل النبي حتى اضطر الى الخروج من مكة خائفاً يترقب ... ذكرنا ذلك في ج ٣ ص ٤٧٢ .
الجواب : المراد ان المشركين لو اخرجوا النبي عنوة وقسراً بحيث يصبح شريداً طريداً لا يدري أين يتجه لعجل الله في هلاكهم .. ولكن النبي حين خرج من مكة انما خرج منها بأمر الله الى قوم يقدونه بالأنفس والمال والعيال . (سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستنا تحويلاً) . لقد سبق في حكم الله وقضائه ان أي قوم يُخرجون نبيهم من دياره قسراً وعنوة أن يعجل في هلاكهم ... وهذي هي سنته في خلقه لا تتغير ولا تتبدل ، بل تطرد في كل زمان ومكان .

أقم الصلاة لدلوك الشمس الآية ٧٨ - ٨١

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي

مُخْرِجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *

اللغة :

دلوك الشمس زوالها . وغسق الليل ظلمته . وقرآن الفجر صلاة الصبح .
والهجوم النوم ، والتهجد ترك النوم والسهر للصلاة لأن صيغة التفعّل تأتي للترك
مثل التأم ترك الأثم . والنافلة الزيادة . والزهوق المضمحل .

الاعراب :

اللام في لدلوك لام التعليل أي بسبب زوال الشمس . أو بمعنى عند مثل كتبه الخمس
خلون منه .

وقرآن الفجر معطوف على اقم الصلاة أي واقم قرآن الفجر . وتهجد به نافلة
الضمير في به ، يعود الى القرآن ، ويجوز ان تكون تهجد بمعنى صل ، وعليه تكون
نافلة مفعولاً به ، ويجوز ان تكون بمعنى تنفل ، وعليه تكون نافلة مفعولاً
مطلقاً ، ويجوز أن تكون نافلة حالاً بمعنى « متنفلاً » . وعسى تامة ، والمصدر
من ان يبعثك فاعل عسى . ومقاماً حال على حذف مضاف أي ذا مقام ، وقال
صاحب البحر المحيط : « الظاهر انه معمول لبعثك لأنه مصدر من غير لفظ
الفعل لأن يبعثك بمعنى يقيمك » . ومدخل مصدر بمعنى الادخال ، وكذا مخرج
بمعنى الانخراج ، وكل منها مفعول مطلق .

المعنى :

الآية الأولى والثانية هما من آيات الأحكام ، حيث نزلتا لبيان أوقات الصلاة ،
وللفقهاء في ذلك اقوال تشير الى مجملها فيما يلي :

سورة الإسراء

١ - (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل) . اللام للتعليل أي بسبب دلوك الشمس ، او بمعنى عند ، مثل كنيته لخمس خلون من شهر كذا . واختلفوا في المراد من الدلوك ، قيل : هو غروب الشمس ، وقيل : بل زوالها عن كبد السماء ، وهو قول الأكثر ، أما غسق الليل فهو سواده وظلمته ، وعن الامام جعفر الصادق (ع) انه انتصاف الليل ، وفي تفاسير السنة والشيعة ان هذه الآية تشمل الصلوات الخمس : الظهر والعصر ، ويدخلان في دلوك الشمس ، والمغرب والعشاء ، ويدخلان في غسق الليل ، اما صلاة الصبح فهي قرآن الفجر كما يأتي . قال الطبرسي - من الشيعة - في مجمع البيان : « هذه الآية جامعة للصلوات الخمس فصلانا دلوك الشمس هما الظهر والعصر ، فصلانا غسق الليل هما المغرب والعشاء الآخرة ، والمراد بقرآن الفجر ، صلاة الفجر فهذه خمس صلوات » . وقال الرازي - من السنة - « اقم الصلاة أي أدمها من وقت زوال الشمس الى غسق الليل ، فتدخل الظهر والعصر والمغرب والعشاء - ثم قال - اجمعوا على ان المراد من قرآن الفجر صلاة الصبح » . وتجدر الاشارة الى أن الفقهاء يبدأون في كتبهم بالكلام عن صلاة الظهر تبعاً لقوله تعالى : « اقم الصلاة لدلوك الشمس » حيث بدأ سبحانه بوقتها . بالاضافة الى ما جاء في الروايات من ان الظهر اول ما فرض من الصلاة في الاسلام ثم غيرها على الترتيب ، وكان ذلك بمكة ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة . واتفقت المذاهب الاسلامية على ان الصلاة لا تجوز قبل دخول وقتها ، وعلى ان الشمس اذا زالت دخل وقت الظهر ، ولكن اصحاب المذاهب اختلفوا في مقدار هذا الوقت ، والى متى يمتد ؟ . قال الامامية : تختص صلاة الظهر من عقب الزوال بمقدار ادائها ، وتختص صلاة العصر من آخر النهار بمقدار ادائها ، وما بين الأول والأخير مشترك بين الصلاتين . وظاهر الآية معهم لأن الله قال : « لدلوك الشمس الى غسق الليل » ولم يفصل كما في المذاهب الاخرى . وقال غيرهم : يبدأ وقت الظهر من الزوال الى أن يصير ظل كل شيء مثله ، فاذا زاد عن ذلك ذهب وقت الظهر . ودخل وقت العصر .. والتفصيل في كتابنا : الفقه على المذاهب الخمسة .

٢ - (وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً) . اتفقوا على أن المراد

الجزء الخامس عشر

بقرآن الفجر ما يقرأ في صلاة الفجر أي الصبح ، وايضاً اتفقوا على أن وقتها
يبتدىء من طلوع الفجر الصادق الى طلوع الشمس إلا المالكية فانهم قالوا :
للصبح وقتان : اختياري ، وهو من طلوع الفجر الى تعارف الوجوه ،
واضطراري ، وهو من تعارف الوجوه الى طلوع الشمس .. ومن الطريف قول
بعض الصوفية : ان المراد بالفجر انفجار القلب .

واجمع المفسرون بشهادة الطبرسي والرازي على أن المراد بقوله تعالى :
(مشهوداً) ان ملائكة الليل والنهار يجتمعون ليشهدوا صلاة الصبح استناداً الى
رواية رواها البخاري عن ابي هريرة في ج ٦ ، فصل سورة بني اسرائيل ..
ونحن في شك من هذه الرواية ، ونفسر (مشهوداً) بحضور الحواس لأن الانسان
عند الصباح يكون حاضر الحواس بعد أن أخذت قسطاً من الراحة بالنوم ، وبقيت
امداً بلا عمل ، ولذا قيل : ما انقض النوم لغزائم اليوم .

٣ - (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) . تهجد اسهر ، والخطاب خاص
بمحمد (ص) وحده ، وضمير به للقرآن ، والنافلة الزيادة ، ولك اللام
للاختصاص ، والمعنى أن الله قد فرض عليك يا محمد صلاة اخرى تصليها في
الليل زيادة على الصلوات الخمس المفروضة عليك وعلى غيرك . قال تعالى : « يا
ايها المزمل قم الليل إلا قليلاً - أول المزمل . وقال : « ومن الليل فاسجد له
وسبحه ليلاً طويلاً - ٢٦ الدهر » .. وتسمى هذه الصلاة صلاة الليل ، ووقتها
من نصف الليل الى الفجر ، وهي واجبة على النبي (ص) كما قلنا ، ومستحبة لغيره .
(عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . عسى تدل على الرجاء في كلام
المخلوق ، وعلى الوجوب والحتم في كلام الخالق ، والخطاب في يبعثك لمحمد
(ص) .. ولا شيء فوق محمد ، ومقام محمد ، وآل محمد إلا الذي ليس
كمثله شيء ، وفي بعض الأحاديث ان النبي (ص) فسر المقام المحمود في هذه
الآية بالمقام الذي يشفع فيه غداً لأمة .

(وقل رب ادخلي مدخل صدق واخرجني مخرج صدق) . امر الله نبيه
الكريم أن يدعو بهذا الدعاء .. وصدق المدخل والمخرج كناية عن الحق والايصال
في العقيدة والقصد والأفعال وجميع الحركات والسكنات ، وما من شك أن من
تسلح بالحق ، واخلص لله وحده ثبته الله بالقول الثابت ، وامده بالحجة الدامغة ،

سورة الإسراء

ويمكن له في القلوب البريئة الطاهرة (واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً) وأي نصر وسلطان اعظم من ذكر النبي العظيم مقروناً باسم الله خمس مرات في الاذان وفي كل صلاة واجبة ومستحبة ؟ . واية قوة وقداسة اعظم من هذه القوة والقداسة التي منحها الله لكلام محمد ، حيث قال عز من قائل : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - ٧ الحشر .

(وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً) . الحق هو رسالة محمد عقيدة وشريعة ، وكل ما عداها باطل وهباء في الواقع وعند الله ، حتى ولو آمن به اهل الأرض جميعاً . وقال المفسرون : المراد بالحق هنا الاسلام ، وبالباطل الشرك ، وان النبي (ص) لما فتح مكة دخل الكعبة ، وكان فيها ٣٦٠ صنماً ، فجعل يطعنها ويقول : جاء الحق ، وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً .

قوة الحق وقوة الباطل

وتسأل : ان ما نراه ونشاهده في احيان كثيرة أن اهل الباطل هم الغالبون ، واهل الحق مغلوبون ، ويتنافى هذا مع ظاهر قوله تعالى : « ان الباطل كان زهوقاً » ؟ .

الجواب : ان للحق قوة ذاتية لا تنفك عنه بحال ، وهي تفعل فعلها ، وتؤثر أثرها في القلوب النقية الزاكية .. وكثيراً ما يبلغ هذا الأثر من النفوس الطيبة حدّاً لا تقوى على مقاومته سيوف الجلادين ، ومشانق الطغاة الجائرين .. وقد حدثنا التاريخ عن شهداء العقيدة : كيف اقدموا على الاستشهاد بوجوه باسمه ، ونفوس راضية ، بل حصل ذلك في عصرنا بفيتنام وكوريا وفلسطين وغيرها ، اجل ان هؤلاء قليلون شأن كل كريم وثمين ، ولو كانوا الأكثر عدداً أو كثيرين - نسبياً - لامتلات الأرض قسطاً وعدلاً ، وما كان للظلم والجور فيها عين ولا اثر ، ولسنا نشك ان الانسانية تسير في هذا الطريق وان طال ، مادام الصراع قائماً بين المحقين والمعتدين .

أما الباطل فلا حول له ولا طول ، وانما يستمد قوته وبقائه من الرشوات

الجزء الخامس عشر

وشراء الذم ، ومن الظلم والطغيان بالتقتيل والتشريد ، ومن المؤامرات واللدائس ، وهذه تزول مع الأيام ، وتتبدل مع الظروف ، أما قوة الحق فهي هي في شتى الأحوال لأنها تستمد من ذات الحق ، من طبيعته وهويته .. ومن أجل هذا نقول مرة ثانية : انا نؤمن إيماناً لا يشوبه ريب بأن العقبي والكلمة ~~العلم~~ للحق وحده .

القرآن شفاء ورحمة الآية ٨٢ - ٨٥

وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
إِلَّا خَسَارًا* وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
كَانَ يُوَسْوِسًا* قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
سَبِيلًا* وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا*

اللغة :

نأى بَعُدَ ، وجانب الانسان احد شقيه اليمين أو اليسار ، ونأى بجانبه كناية عن استكباره وتعاضمه . وشاكلة الانسان طريقته ومذهبه ، ولكن المراد بها هنا النية ، ويأتي البيان .

المعنى :

(ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . القرآن رحمة لمن طلب

سورة الإسراء

الرحمة ، واراها لنفسه ، وشفاء من الكفر والاحاد ، ومن الجهل والفساد ،
ومن كل رذيلة لمن اخلص لله والحق. قال الامام علي (ع) في وصف القرآن :
« انه الحبل المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والري الناقع ، والعصمة
للمتمسك ، والنجاة للمتعلق » . ومن خالف حكماً من احكام القرآن فما هو منه
في شيء بل هو من الظالمين الحاسرين (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) . القرآن
رحمة للمؤمنين ، ونقمة على الظالمين والمفسدين لأنهم كلما عصوا حكماً من احكامه
ازدادوا اثماً وعذاباً .

(واذا انعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤوساً) .
ويتلخص معنى هذه الآية بقول الامام علي (ع) في وصف الانسان : « ان
استغنى بطن وفطن ، وان افتقر قنط ووهن » . وتقدم نظيره في سورة يونس
الآية ١٢ ج ٤ ص ١٣٩ والآية ٩ من هود ج ٤ ص ٢١٢ .

(قل كل يعمل على شاكلته فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلاً) . قال
المفسرون : « الشاكلة الطريقة والمذهب ، ومعنى الآية أن كلاً من المؤمن
والكافر يعمل على طريقته وخليقته » . أما نحن فنشرح الآية - كما فهمناها -
بما يلي :

١ - ان كلمة كل تدل على استغراق الأفراد ، فأية قضية تعلق الحكم فيها
بكلمة « كل » فإنها تنحل الى قضايا بعدد ما شملت من الأفراد - مثلاً - اذا
قلت : كل انسان يفهم هذا فكأنك قلت : زيد يفهمه وبكر وهند الخ . أما
اذا قلت : جميع الناس يفهمونه فالقضية واحدة ، والحكم واحد تعلق بالمجموع ،
لا بكل فرد فرد ، وعليه يكون المعنى أن لكل فرد من افراد الانسان شاكلة
تخصه وحده تماماً كبصمة ابهامه .

٢ - روي عن جعفر الصادق (ع) انه فسر الشاكلة بالنية ، ويدل على
صحة هذا التفسير قوله تعالى بلا فاصل : « فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلاً »
أي ان الله اعلم بمن يبتغي الهداية ، ويسلك سبيلها مجرداً عن كل قصد إلا وجهه
الكريم . وعليه يكون المعنى ان كل انسان يعمل على نيته ، وان الله سبحانه
يعامله بحسبها ان خيراً فخيراً ، وان شراً فشراً ، فمن تظاهر بالخير ليخدع الناس ،
ويبتغي بعمله مآرب شريرة فهو عند الله من المجرمين الأشرار ، ومن سرق رغيفاً ليقم

الجزء الخامس عشر

به الأود بعد ان انسدت عليه المسالك والمذاهب فهو عند الله بريء لا يستحق العذاب والعقاب .

الروح من أمر ربي

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) للروح معان ، والمراد بها هنا الحياة ، وقد سئل النبي (ص) عن حقيقتها ، فأمره الله ان يقول للسائلين : ان الروح من الاشياء التي يوجدها الله بأمره ، وهو قوله للشيء « كن فيكون » وبتعبير اوضح ان الاشياء على نوعين : النوع الاول يوجده الله عن طريق اسبابه الطبيعية كجسم الانسان وغيره من الماديات . النوع الثاني يوجده الله بمجرد الأمر ، وهو كلمة «كن» والروح من هذا النوع ، والآية صريحة في ذلك ، لان كلمة الامر في قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربي » اشارة الى الامر الذي في قوله : « انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون - ٨٢ يس » .

وقد اثبت التجارب هذه الحقيقة ، وآمن بها الذين تخصصوا وتفرغوا السنوات الطوال للبحث عن اصل الحياة ، آمنوا بهذه الحقيقة بعد ان تبين لهم ان السبب المباشر للحياة لا يمت الى المادة بصلة ، ولو كان من نوع المادة لاستطاعوا ان يصنعوا الحياة في مصانعهم ومختبراتهم وقد حاولوا فاخفقوا . (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) أي مهما اخرجت مصانعكم من عجائب المخترعات فانها ليست بشيء اذا نسبت الى خلية من خلايا الذبابة فضلا عن الذبابة نفسها « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب - ٧٢ الحج » . وتكلمنا عن ذلك عند تفسير الآية ٩٥ من الانعام ج ٣ ص ٢٣٢ .

الله وعلم الخلايا

وتشاء الصدق ان اقرأ - وانا افسر هذه الآية - مقالا في مجلة روز اليوسف

سورة الإسراء

المصرية^١ عدد ٧ نيسان «ابريل» ١٩٦٩ جاء فيه :

« يتألف جسم الانسان من بلايين الخلايا ، ولا تُرى الخلية لشدة صغرها الا بالميكروسكوب ، ومنذ اعوام قليلة كان محالاً ان ينشأ علم الخلايا لان العلماء لا يستطيعون ان يفتحوا الخلية ، او يحقنوها بمادة معينة ، لان هذه العملية تحتاج الى جراح ، له اصبع تبلغ من الدقة بمقدار جزء من ألف من المليمتر ، وايضاً تحتاج حقنة هذه الخلية الى ابرة تبلغ من الدقة بمقدار جزء من مليون من المليمتر ..

واخيراً اهتدى العلماء الى فتح الخلية عن طريق الضوء تماماً كما نعمل عندما نشعل سيجارة من ضوء الشمس بواسطة زجاجة تجمع الاشعة في نقطة صغيرة تحرق طرف السيجارة ، وبهذه الطريقة وحدها امكن فتح الخلية ، وتبين للعلماء انها مجتمع مشحون بعشرات من المخلوقات المختلفة لكل مخلوق منها سمات خاصة ، وادوار يقوم بها وعلاقات تربطه بغيرها من سكان الخلية ، ويحتاج فهم هذه الادوار والعلاقات الى سنوات من البحث ، وربما الى اجيال .. وهكذا نشأ علم الخلايا ، واصبحنا الآن نعرف ان الخلية لها اعضاء وجسيمات واغشية وخيوط وغير ذلك مما يحير العقول »

« وقد ظهر من خلال الأبحاث أن كرات الدم مجتمع من الخلايا السابحة يبلغ عددها عشرة اضعاف عدد البشر ، وهي تؤلف اجيالاً تتجدد كل اربعة اشهر ، ومع ذلك تحافظ الأجيال على العدد ذاته ، بحيث يكون عدد الجيل الآتي بمقدار عدد الجيل الذاهب لا يزيد ولا ينقص ، ولا يعاني مجتمع الخلايا ما تعانيه المجتمعات الانسانية من انفجار السكان .. وهنا العجب ، ولا عجب أن يتولد من خلايا النخاع العظمي أنواع من كرات الدم مختلفة متفاوتة شكلاً ونوعاً ووظيفة .. حمراء وبيضاء .. مقاتلة ومسائلة .. فكيف تنشأ اجناس متعددة من جنس واحد ؟ . كيف يمكن أن تنجب الزرافة جيلاً بعضه ثعالب ، وبعضه أفيال ، وبعضه تماسيح ؟ . وباختصار شديد أصبحت الخلية الآن نجم البحث العلمي وطريقه الجديد ، وربما الوحيد لفهم اسرار الحياة » .

١ نظمت اوقاتى على هذا النحو : ساعة ونصف قبل الظهر لقراءة الصحف وشراء لوازم البيت ، وساعة ونصف من الليل لقراءة الجديد من البحوث العلمية والاجتماعية ، وما عدا ذلك للتأليف .

الجزء الخامس عشر

ارأيت الى هذا الاعجاز ؟ .. مخلوق بلغ من الصغر الى حسد لا يرى إلا بمكبر يضاعف الحجم الف مرة أو أكثر ، ويستحيل فتحه وشقه إلا بمشرط ضوئي أي بأشعة الضوء لأن نسبة الشعرة اليه كنسبة الفيل الى الذرة ، ومع ذلك لهذا المخلوق الذي لا تراه العين اعضاء وعروق وأغشية وغيرها تماماً كما للانسان.. ثم تؤلف افراد هذا المخلوق العجيب مجتمعاً يستوطن جسم الانسان ، وهي تُعد بالبلايين ، وتعيش بمجموعها اربعة اشهر ، ثم يأتي بعدها مجتمع عدد افراده بمقدار عدد السابق ، لا تزيد واحداً ، ولا تنقص واحداً ، ثم غيره وغيره وهكذا دواليك .. فهل هذا صدفة ؟ .. وهل تتكرر الصدفة بلايين المرات ؟ .. وهل جاءت الأعضاء والحيوط والأغشية منظمة منسقة صدفة ؟ .. وهل عدم زيادة العدد ونقصانه صدفة ؟ .. وهل تولدت الأشياء المتباينة من شيء واحد صدفة ؟ .. كل هذه الأسئلة وغيرها كثير تطلب اجوبتها .

ابدأ ، لا جواب .. لا تفسر إلا بوجود علم قدير خلق الكون والحياة بكلمة « كن فيكون » .. وبعد ، فكلمة خطأ العلم خطوة الى الأمام تابعت الدلائل ، وتضافرت الشواهد على وجود من له الخلق والأمر .. تبارك الله رب العالمين الذي قال : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

لئن شئنا لنذهبن الآية ٨٦ - ٨٩

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا
وَكَيْلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُلْ لَئِنْ
اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا *

سورة الإسراء

اللغة :

الظهير المعين . والمراد بصرفنا هنا بيّننا أو كررنا . والكُفُور الجحود .

الاعراب :

لئن اللام للقسم وان شرطية . وإلا رحمة (رحمة) مفعول مطلق لفعل محذوف أي إلا أن يرحمك الله وقيل : مستثنى منقطع . ولا يأتون مرفوع لأنه جواب القسم وساد ايضاً مسد جواب الشرط في « لئن » .

المعنى :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك) . قال الرازي : لما بين تعالى في الآية السابقة انه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بين هنا انه لو شاء ان يأخذ منهم هذا القليل لقدر عليه ، وذلك بأن يحو حفظه من القلوب ، وكتابه من الكتب (ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً) تعتمد عليه في رد ما اخذناه منك (إلا رحمة من ربك) فهو وحده القادر على رد ما يأخذه منك وارجاعه اليك (ان فضله كان عليك كبيراً) يا محمد بما اعطاك من العلم والسيادة على الناس اجمعين .

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . تكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ٦٦ عند تفسير الآية ٢٣ من البقرة .

(ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) فيما يعود الى العقيدة والشريعة والاخلاق ، واقنا البراهين القاطعة ، والأدلة الواضحة (فأى أكثر الناس إلا كفوراً) ونفوراً من الحق لأنه مرّ وثقيل لا يصبر عليه إلا المتقون .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا *
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّيْلِ وَالْمَلَائِكَةِ
قِيْلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ
نُؤْمِنَ لِرُفُوقِكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ
مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا *
قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *

اللغة :

الينبوع عين الماء . وكسفا بكسر الكاف جمع كسفة ، وهي القطعة من
الشيء . والقبيل المقابل أي تأتي بهم مقابلين لنا وجهاً لوجه . والزخرف الذهب
أو الزينة . وترقى تصعد .

الأعراب :

حتى هنا بمعنى إلا ، وتفجر منصوب بأن مضرة بعدها . أو تكون عطف
على تفجر . وكسفا حال من السماء . وقبيلاً حال من الملائكة . والمصدر من

سورة الإسراء

أن يؤمنوا بمرور بمن محذوفة . والمصدر من أن قالوا فاعل منع . ومطمئنين حال من الملائكة . ومفعول كفى محذوف ، وبالله الباء زائدة اعراباً وشهيداً تمييز . والتقدير كفاك الله من شهيد .

حب الذات

كلنا نحب أنفسنا وذواتنا رجالاً ونساء ، شيوخاً واطفالاً ، اتقياء واشقياء .. وأي انسان لا يحرص على حياته ، ويدافع عن وجوده وكيانه ؟ . ولولا هذا الحب لما استمر وجود الحياة ، ولا نمت وتقدمت .. ابداً لا فرق في حب الذات بين انسان وانسان ، وانما الفرق في نوع هذا الحب :
فنه القائم على اساس الفطرة والعقل والوجدان .. ويستدل على وجود هذا الحب المهذب بتعفف الانسان عن حق غيره ، وقناعته بما كتب له من كسب اليمين وعرق الجبين ، وبالتعاون مع كل من يأمل فيه الخير والنفع للناس بجهة من الجهات ، بل وبالايثار وبالتضحية ايضاً لأن من يعطي ويضحى لوجه الله والحق فقد احب نفسه ، وعمل لها من حيث يريد أو لا يريد، لأن الله لا يضع اجر من احسن عملاً ، وكذلك المجتمع فانه يمجد ويعظم من يضحى من اجله .
ومن حب الذات ما يطغى على العقل والدين والوجدان .. ويستدل على هذا الحب المنغرس بالطمع والجشع الذي لا يري صاحبه هماً غير همة ، ولا نفعاً غير نفعه ونفع ذويه ، وهذا لا يجدي معه أي منطق حتى الحس والمشاهدة والعيان ، تماماً كما قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون - ١٧٨ .. الاعراف » وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان، ومنهم الذين اشار اليهم بقوله :
١ - (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) . اقترح المترفون من المشركين على رسول الله ان يفجر لهم لا غيرهم - لنا - انهاراً أو عيوناً ليزدادوا مكاسباً وأرباحاً وتحكماً بالمعوزين والمستضعفين ، فقد روي أن عتاة قريش ومترفها قالوا : يا محمد ان ارض مكة ضيقة فأزح جبالها ، وفجر لنا عيوناً لننتفع بالأرض .

الجزء الخامس عشر

٢ - (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها - أي بينها - تفجيراً) . وإذا لم تفجر الأرض لنا عبوناً ففجرها لك - على الأقل - كي تكون كفوفاً للمناصب الشريفة العالية، أما ويدك فارغة من المال فعليك أن تسمع لأهل المال وتطيع .. وهكذا ذهب بهم التفكير المالي الى أن المال وحده هو الذي يجعل صاحبه كفوفاً لتولي القيادة والسيادة .. ولم يدركوا أن رسالة محمد (ص) هي ثروة الانسانية وحياتها وعظمتها ، وان محمداً رحمة مهداة الى أهل الأرض لينقذهم من الفقر والجهل ، والظلم والطغيان .. واننى لعبدة المال وصرعى المطامع أن يدركوا الرحمة والحق والخير ؟ .

٣ - (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً) . اقترحوا عليه أن يفجر الأرض ينبوعاً لهم او له ، فان لم يكن ههنا أو ذاك فليأتهم بالعذاب من السماء أو بالله والملائكة يشهدون له بالنبوة والرسالة .. وهذا ايضاً من وحي تفكيرهم في ان المنصب الشريف حق للاغنياء دون الفقراء ، والدليل على هذا التفكير أنهم علقوا ايمانهم بمحمد على امر يرونه محالاً .. ومن الواضح ان التعليق على المحال معناه الاصرار وعدم التنازل عن طلبهم لتفجير الأرض ينبوعاً ، تماماً كما لو قلت : لا افعل هذا حتى يلج الجمل في سم الخياط .

٤ - (او يكون لك بيت من زخرف) مبني من الذهب ، او مزين ومنقوش به .. وهذا ايضاً من التفكير المالي (او ترقى في السماء) وهو من التعليق على المحال ايضاً بزعمهم ، ومعناه الاصرار على ان المال هو المبرر الوحيد لتولي المنصب الشريف كما اشرنا .

(ولن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) . قال بعض المفسرين الجدد ، معلقاً على هذا بقوله : « وتبدو طفولة الادراك والتصور كما يبدو التعت في هذه المقترحات الساذجة » . كلا ، ليست هذه بطفولة ، ولا هي بساذجة ، وانما هي من وحي الترف الفاسد ، والامتيازات الجائرة ، والسلب والنهب ، وعبادة المال ، ولا شيء ادل على ذلك من اقتراحهم وشرطهم لاتباع الرسول ان يكون له من بيت من ذهب .. معبودهم الاول ، ومثلهم الأعلى (قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا) يأتمر بامر من ارسله ، وينتهي بنهيته : « وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله - ٣٨ الرعد » .

سورة الإسراء

(وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله : بشرا رسولا) . نظر المفسرون ، ومنهم الطبرسي والرازي ، نظروا الى هذه الآية على انها مستقلة عما تقدمها من الآيات ، وقالوا في تفسيرها : ان مشركي قريش لم يؤمنوا بمحمد (ص) لانهم كانوا يعتقدون بان الرسول يجب ان يكون من جنس الملائكة ، لا من جنس البشر . . وهذا تفسير بعيد عن الآية لوجوه :

« منها » : ان مشركي قريش كانوا يعتقدون بنبوة ابراهيم ، وبانهم من نسله « ملة ايكم ابراهيم - ٧٨ الحجج » .

و « منها » ان قول المشركين ان تؤمن لك حتى تفجر الخ يدل انهم كانوا يؤمنون برسالة البشر ، ولكنهم يشترطون في النبي ان يكون من الاغنياء : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ٣١ الزخرف » . ومرادهم بالرجل العظيم الوليد بن المغيرة من زعماء مكة ، او عروة بن مسعود من زعماء الطائف .

و « منها » : انه لو كان معنى الآية ما قاله المفسرون لكان المشركون معذورين في انكارهم نبوة محمد (ص) لانهم فعلوا ما يعتقدون ، مع ان الله سبحانه وصفهم في اكثر من آية بانهم يبذون غير ما يخفون : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل - ٢٨ الانعام » « وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا - ١٤ النمل » .

ونخلص من هذا اني ان المعنى الصحيح لتفسير الآية ان المشركين لما قامت الحجة عليهم بنبوة محمد (ص) وعجزوا عن ردها لجأوا الى التضييل وتمويه على الجهلاء والبسطاء شأن المبطل العاجز ، وقالوا في مكر وخداع : ان الله لا يبعث للناس رسولا من البشر ، بل من الملائكة ، قالوا هذا ، وهم يعلمون بانهم لكاذبون ، ولذا قال سبحانه : (الا ان قالوا) ولم يتل الا ان ظنوا ونحوه اشعارا بان انكارهم انما هو مجرد عناد وقول من غير اعتقاد .

(قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئين - أي لو كانوا من اهل الارض يسعون فيها كالآدميين - لتزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) . لقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى ان يبعث رسله الى خلقه من جنس المرسل اليهم ، فان كانوا بشرا فرسولهم منهم وإليهم ، وان كانوا ملائكة فكذلك ، لان الجنس الى الجنس اميل : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم - ١٦٤ آل عمران » . والمشركون يعرفون ذلك ، ولكنهم يمكرون ويخادعون . وتقدم

الجزء الخامس عشر

نظير هذه الآية في سورة الانعام الآية ٩ ج ٣ ص ١٦٤ .

وتسأل : ان جبريل ملك ، ومحمد بشر ، ومع هذا كان جبريل رسولا من الله الى محمد ؟

الجواب : ان بين الاثنين تجانسا وتشابها من حيث ان كلا منهما رسول من عند الله .. ولا تجانس بين الملك والامة من وجه .

(قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا) الله يشهد لمحمد بما اظهر على يده من خوارق العادات ، والتاريخ يشهد له بما اسداه للانسانية من الحيرات ، ورسائله تشهد بانه رحمة للعالمين .. وما جهة من سيرة محمد الا وهي حجة كافية بالدلالة على صدقه وعظمته .

ومن يهد الله الآية ٩٧ - ١٠٠

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَهْتَدِ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمُقًا وَصُمْمَا مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
وَقَالُوا أَوْذَا كُنَّا عُظَامًا وَرَفَاتًا أَوْنَا لَمَسْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا * قُلْ لَوْ
أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ قَتُورًا *

سورة الإسراء

اللغة :

الحبو السكون . والقمر التضييق .

الاعراب :

من يهد ومن يضل (من) اسم شرط لفظها خاص ومعناها عام ، والضمير في يهد ويضل يعود الى من على اللفظ ، وضمير لهم ونحشرهم يعود اليها على المعنى . ومن الأولى مفعول يهد ، ومن الثانية مفعول يضل . وعمياً حال . والذي خلق السموات صفة لله . وقادر خبير . وانتم فاعل محذوف يفسره الفعل الموجود ، والأصل لو تملكون ، فحذف تملك وانفصل الضمير وهو الواو فصار انتم ، هذا ما قاله بعض المفسرين ، وليس بجيد لأن المعنى يكون على هذا لو تملكون . والأرجح ان يكون (انتم) اسماً لكان ، ثم حذفت وانفصل الضمير ، والتقدير لو كنتم تملكون . واذا حرف جواب وجزاء . ومفعول امسكنم محذوف أي لأمسكنم الأموال . ونخشية مفعول من اجله .

المعنى :

(ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضل فلن تجد لهم أولياء من دونه) . هذا تحديد للمهتدي الصالح بأنه من كان كذلك عند الله ، لا من يقول الناس عنه : انه من أهل الهداية والصالح ، وكذا الضال ، وفي الحديث : الظاهر للناس ، والباطن لله ، وفي نهج البلاغة : « الغنى والفقر بعد العرض على الله .. وليس لأهل الضلالة والفساد من ناصر ولا شفيع عند الله .. » وتقدم نظيره في الآية ١٧٨ من الأعراف ج ٣ ص ٤٢٣ . أما عقاب الضالين المضلين فقد اشار اليه سبحانه بقوله : (ونحشرهم على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) . هذا كناية عن أليم العذاب وشدته على من انكر الحساب والعقاب ، حتى يعرف ما انكر : « ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به

الجزء الخامس عشر

تكذبون - ٢٠ السجدة « (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) بالرغم من وضوحها على وقوع البعث ، جحدوا وانكروه لا لشيء إلا لمجرد الاستبعاد : (وقالوا ائذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا) . تقدم بالحرف الواحد مع التفسير في الآية ٤٩ من هذه السورة .

(او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لا ريب فيه فاي الظالمون الا كفورا) . المراد بأجل هنا اجل البعث والنشر ، وانه كائن لا محالة ، وقد انكروه ، وهم يرون خلق السموات والارض ، ويعترفون بان الله هو الذي خلقها وأبدعها واتقنها بقدرته ، ولكنهم قالوا : لا يعيدها بعد الفناء لان ذلك صعب عسير .. فقال الله لهم : من قدر على ايجاد الشيء من لا شيء فهو على جمع اجزائه بعد تفرقتها اقدر .. وتقدم هذا المعنى في العديد من الآيات ، انظر فقرة : الماديون والحياة بعد الموت ج ٤ ص ٣٧٩ .

وتعال معي لنقرأ هذا الاحتجاج المفحم ، والالزام الدامغ لمنكري البعث باروع اسلوب .. ثم قل : ويل للمكذبين :

« قالوا ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا إلا أساطير الاولين » .

« قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون » .
« سيقولون لله »

« قل افلا تذكرون »

« قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم » .
« سيقولون لله »

« قل افلا تتقون » .

« قل من بيده ملكوت كل شيء . وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون » .
« سيقولون لله » .

« قل فأنى تُسحرون » أي تخدعون . - المؤمنون ٨٢ - ٨٩ .

وهذا شاهد عيان بأن عقيدة الاسلام تقوم على العلم ، وحرية العقل والرأي .. انظر ج ٣ ص ١٦١ فقرة لا دكتاتورية في الأرض ولا في السماء .

سورة الإسراء

(قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكم خشية الانفساق) .
رحمة الله من حيث هي نعم الادراك والصحة والاموال وجميع النعم ، ولكن
المراد بها هنا المال بالخصوص بدليل قوله تعالى ، «لامسكم خشية الانفاق» اي
النفاد .. وهذه الآية ٩٠ ، وهي «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض
ينبوعا» . وبيان الصلة ان الله سبحانه أمر نبيه ان يقول للمحترفين : طلبتم
ان يزيد الله في اموالكم وثرانكم بتفجير الارض انهارا وعيونا ، وهو يعلم انكم
لو ملكتم خزائن السموات والارض التي لا نفاد لها لبتيم على الشح والتقتير خوف
النفاد .. وهذا يؤكد ما قلناه من ان المترفين لا يفكرون الا من خلال المال
(وكان الانسان قنورا) من التقتير والتضييق . وعند تفسير الآية ٩ من هود ج ٤
ص ٢١٣ قلنا : ان القرآن لا يريد بمثل هذا الوصف التحديد لحقيقة الانسان
وطبيعته التي تشمل جميع الافراد ، وانما يذكر هذا الوصف تفسيرا لسلوك الانسان
في بعض مواقفه . فراجع .

آيتنا موسى تسع آيات ١٠١-١٠٤

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ
فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَنِي
مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ
مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا *

الجزء الخامس عشر

اللغة :

مسحورا اسم مفعول لفظاً واسم فاعل معنى اي ساحرا ، ويجوز ان يكون اسم مفعول لفظا ومعنى أي أعطيت علم السحر . ومثورا هالكا . وبصائر دلائل يبصر بها الناس . والمراد يستفزههم من الارض يخرجهم منها . وجثنا بكم لفيضا اي جسعا من اخلاط شتى ، او ملتفين كما تلتف اغصان الشجر وينضم بعضها الى بعض .

الاعراب :

اذ جاءهم (اذ) ظرف بمعنى حين متعلق بآتيننا . وهؤلاء اشارة الى الآيات التسع أي هذه الآيات . وبصائر حال من هؤلاء . والمصدر من ان يستفزههم مفعول ارد . وجميعا ، ولفيضا حال .

المعنى

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) . تقدم الكلام في العديد من الآيات عن موسى (ع) وقومه ومعجزاته ، وعن فرعون وملاه وطفيلانه .. وقد تكون المناسبة هنا في الاشارة الى معجزات موسى ان الله سبحانه لما ذكر مقترحات المشركين على محمد (ص) عقب بالاشارة الى ما اقترحه فرعون على موسى ، وان مجيئها كان وبالاً عليه .. ونفس الشيء كان يحصل لو استجاب الله الى مقترحات المشركين على رسول الله (ص) لانهم يكفرون بها لو جاءتهم ، تماما كما كفر فرعون ، ويهلكون كما هلك .. فعدم الاستجابة - اذن - خير لهم واصلاح ، والله اعلم بما يصلح العباد ويفسدهم .

ولموسى (ص) آيات ومعجزات كثيرة ، منها ما كان لتيسير رسالته كحل العقدة من لسانه ، ومنها للإنعام والتفضيل على بني إسرائيل كإخراج الماء من الحجر ، وانزال المن والسلوى ، او تخويفهم كاظلال الجبل ، ومنها ليعتبر

سورة الإسراء

فرعون وقومه ويؤمنوا ، او جزاءً على عنادهم وعتوهم ، وهي الآيات التسع المشار اليها في الآية ، واطهرها انقلاب العصا حية ، واليد البيضاء ، ثم اغراق الكافرين بالبحر ، أما الست الباقية فقد اشارت الى خمس منها هذه الآية :
« فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم - ١٣٣ الاعراف » ج ٣ ص ١٨٥ . والسادسة الطمس على الاموال : « ربنا اطمس على اموالهم » الى قوله « قال قد اجيبت دعوتكما - ٨٨ يونس ج ٤ ص ١٨٦ » .

(فاسأل بني اسرائيل) الخطاب لمحمد (ص) ، والمراد ببني اسرائيل من آمن به منهم كعبدالله بن سلام واصحابه ، والغرض من السؤال والجواب ان يظهر اليهود وغير اليهود صدق الرسول الكريم في كل ما جاء به من عند الله (اذ جاءهم) الضمير في جاء يعود الى موسى ، وضمير (هم) يعود الى بني اسرائيل لان الله ارسل موسى (ع) لامور ، منها ان يحزر بني اسرائيل من ظلم فرعون الذي كان يسومهم سوء العذاب .. وطلب موسى من فرعون ان يؤمن بالله ، ويرسل معه بني اسرائيل (فقال له فرعون اني لاظنك يا موسى مسحورا) اي ساحرا بدليل الآية ١٠٩ من الاعراف : « قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم » . قالوا هذا بعد أن شاهدوا العصا تتحول الى ثعبان مبين ، واليد السمراء الى بيضاء من غير سوء .

(قال لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر واني لاظنك يا فرعون مشبورا) . هؤلاء اشارة الى الآيات التسع ، ومعنى بصائر دلائل تُبصرك وتُعرف بصدقي ونبوتي .. لما قال فرعون لموسى : اظنك ساحرا أجابه موسى انت تعلم علم اليقين صحة الآيات والمعجزات التي اتيت بها ، وانها دلائل من الله واضحة ، وبراهين ظاهرة تُبصرك انت وجميع الناس بانبي رسول من عند الله ، ولكنك تعاند وتكابر حرصا على عرشك ومنصبك .. واذا ظننتني ساحرا يا فرعون فاني اظنك هالكا جزاء تكذيبك للحق الصريح ، ومن يعيش يرا .. وكل من عاند الحق واستثقل ان يقال له فهو من حزب فرعون وعلى ملته . (فأراد ان يستفزهم من الارض) . الضمير المستتر في اراد يعود الى فرعون ، وضمير الجمع في يستفزهم يعود الى موسى وقومه ، والمعنى ان فرعون اراد ان يخلّي ارض مصر من بني اسرائيل بالقتل والاسر والتشريد ، فدارت عليه دائرة

الجزء الخامس عشر

السوء كما تدور على كل طاغية (فاغرقناه ومن معه جميعاً) . أغرقهم الله بعد ان اعذر اليهم بحجج واضحة ، ودلائل ظاهرة ، فأبوا الا تماديا في الكفر والطغيان . (وقلنا من بعده - اي بعد فرعون - لبني اسرائيل اسكنوا الارض) . لقد اتسعت الارض لبني اسرائيل بعد ان اتسع لهم الامن بهلاك فرعون .. وخيرهم الله في ان يقيموا ابن شاءوا من الارض .. وكان المفروض ان يشكروا الله على هذه النعمة .. ولكنهم طغوا وبغوا ، فعبدوا العجل من دون الله ، وقالوا : يد الله مغلولة ، وهو الفقير ، وهم الاغنياء ، وقتلوا الانبياء ، واكلوا السحت والربا ، وحرفوا التوراة ، وحاولوا قتل السيد المسيح (ع) ، ورموا امه بالمجور .. الى غير ذلك من المفاسد التي سجلها الله في التوراة والانجيل والقرآن ، وسجلها الناس في كتب التاريخ القديم والحديث .. وكفى بالصهيونية شاهدا على حقيقة هذه الفئة الباغية ، وانها شر ووبال على الانسانية كلها .

(فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم نصيفاً) . الخطاب لبني اسرائيل ، والآخرة يوم القيامة ، ولفيفاً مجتمعين مختلفين ، والقصد هو الانذار والوعيد على ما سيكون من بني اسرائيل من اثاره الفتن والافساد في الأرض .. هذا هو الظاهر من لفظ الآية . ولو جاز تفسير القرآن بالرأي لقلنا : ان كلمة لفيف تشير في الآية الى تجمع اليهود والصهاينة في ارض فلسطين من هنا وهناك ، وان الله سبحانه سيسلط عليهم اولي بأس شديد يسوؤوا وجوههم ، وكان وعداً مفعولاً .. والحق ما قلناه عند تفسير الآية ٤ وما بعدها من هذه السورة فراجع .

وبالحق انزلناه الآية ١٠٥ - ١١١

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *
 وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ
 آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ
 يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ

سورة الاسراء

رَبَّنَا لِمَفْعُولًا * وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا * قُلِ
ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا
تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا *

اللغة :

فرقناه أي ما انزلناه دفعة واحدة ، بل آية آية وسورة سورة ، وبدل على ذلك قوله تعالى : « لتقرأه على الناس على مكث » أي تمهل وتأن . ويخرون يسقطون ، والأذقان جمع ذقن .

الاعراب :

قرآناً مفعول لفعل محذوف أي وفرقناه قرآناً فرقناه ، وعليه تكون جملة فرقناه مفسرة لا محل لها من الاعراب . وعلى مكث متعلق بمحذوف حال أي لتقرأه على الناس متهملاً شيئاً بعد شيء . واللام في للأذقان بمعنى على . وسجداً مصدر في موضع الحال ساجدين . وان كان (ان) مخففة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي انه . واياً مؤلفة من كلمتين أولاهما أي وهي مفعول تدعوا وتدعوا مجزوم بها ، و (ما) الزائدة اعراباً .

المعنى :

(وبالحق انزلناه وبالحق نزل) . للمفسرين اقوال في بيان الفرق بين هاتين

الجزء الخامس عشر

الجمليتين ، وارجحها ما قاله الطبرسي والرازي ، ويتلخص - مع شيء من التصرف بقصد التوضيح - بان المراد من قوله : (وبالحق انزلناه) ان القرآن متضمن للحق ، والمراد من (وبالحق نزل) ان الله اراد من نزول القرآن أن يؤمن ويعمل به الناس ، وقد حصل ذلك ووقع ، حيث آمن به المسلمون ، وعمل به المخلصون منهم .

ونحن مع الرازي والطبرسي في تفسير الجملة الأولى ، أما الجملة الثانية فالذي نراه في تفسيرها ان كل ما كان عليه الناس قبل انزال القرآن ، وما يكونون عليه بعد انزاله فان القرآن يقرهم عليه اذا كان حقاً وخيراً وصلاحاً ، وبكلام آخر : ان الله سبحانه بعد ان قال في الجملة الأولى : نزل القرآن بالحق والخير والصلاح قال في الجملة الثانية : ويقر القرآن ايضاً كل ما هو حق وخير وصلاح من أي كان ويكون تقدم على نزول القرآن أو تأخر عنه . وفي هذا المعنى قوله تعالى : « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - ١٧ الرعد » . وقوله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - ١٨٥ البقرة » . وقال الامام جعفر الصادق (ع) : كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز . (وما ارسلناك إلا مبشراً ونذيراً) . تبشر بالجنة من اطاع ، وتنذر بالنار من عصى ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر : « ان ربك هو اعلم بمن يفضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين - ١١٧ الأنعام » .

هل نزل القرآن نجوماً ؟ .

(وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً) لم ينزل القرآن على محمد (ص) جملة واحدة ، بل نزل نجوماً يتابع احياناً ، ويبطئ احياناً اخرى حسب المصالح والوقائع التي تحدث آنأ بعد آن ، أما قوله تعالى : « انا انزلناه في ليلة القدر » فعناه ان ابتداء النزول كان في هذه الليلة ، ثم استمر الى وفاة الرسول الأعظم (ص) .. وكان بين أول نزوله وآخره ثلاثة وعشرون عاماً ، وقد بين سبحانه الغاية من ذلك بقوله : « لتقرأه على الناس على مكث »

سورة الاسراء

أي على تمهل آية آية ، ليسهل فهمه وحفظه .. وهذه الآية دليل واضح على خطأ من قال : نزل القرآن على محمد جملة واحدة ، وبلغه هو على دفعات ، وقد رد سبحانه على من قال هذا بقوله : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة كذلك لنثبت به فؤادك - ٣٢ الفرقان » أي لتقوي قلبك على ادراك معاني القرآن واسراره .. هذا بالإضافة الى كثير من الآيات التي حكمت قصة الحوادث المتجددة أو بينت احكامها كقصة بدر وأحد والأحزاب وحنين ، وقصة نصارى نجران ، ويهود المدينة ، وكحادثة ازواج النبي ، والمرأة التي جادلته في زوجها الى غير ذلك .

وقال الشيخ المفيد : نزل القرآن على الأسباب الحادثة حالاً بعد حال ، ويدل على ذلك ظاهر القرآن ، والتواتر من الأخبار ، واجماع العلماء .

(ونزلناه تنزيلاً) . في كتب اللغة تنزل أي نزل على مهل ، وعليه تكون هذه الجملة تفسيراً وبياناً لما قبلها .

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) . الضمير في (به) للقرآن ، والخطاب في آمنوا او لا تؤمنوا للمشركين الذين قالوا لمحمد (ص) : ان تؤمن لك حتى تفجر الخ .. اقرأ الآية ٩٠ وما بعدها من هذه السورة ، والضمير في قبله للقرآن ، ويخرون للاذقان أي يسجدون على وجوههم ، وذكر السجود مرتين لأن الأول كان تعظيماً لله ، والثاني لتأثير القرآن في نفوسهم ، أما الذين اوتوا العلم من قبل القرآن فالمراد بهم المنصفون من اهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد (ص) ، واصحاب الفطرة الصافية من غيرهم كالحنفاء الذين نشير الى بعضهم في الفقرة التالية :

الحنفاء

الحنفاء جمع الحنيف ، وهو الذي ترك الباطل ، واتبع الحق ، والحنيفية

الجزء الخامس عشر

الطريقة المستقيمة ، وكان في الجاهلية افراد تمردوا على عصرهم وبيئتهم ،
وادركوا بفطرتهم المصافية أن هذا الكون خالقاً قديراً واحداً ، وان بعد الموت
بعثاً وحساباً وثواباً وعقاباً ، وان عبادة الأصنام جهالة وضلالة ، وممن اشعار
بعضهم كما في الجزء الثالث من الأغاني ، والأول من سيرة ابن هشام طبعة
سنة ١٩٣٦ .

أرباً واحداً أم الف رب ادين اذا تقسمت الامور
ولكن اعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور
تري الأبرار دارهم جنان وللكفار حامية سير

قال ابن هشام في الجزء الأول من السيرة النبوية : اجتمعت قريش في عيد
لهم عند صنم كانوا يعظمونه ، فاعتزل منهم اربعة ، وهم ورقة بن نوفل ،
وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وقال بعضهم
لبعض : والله ما قومكم على شيء ، لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم ؟ . ما حجر
نظيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ .

أما زيد بن عمرو فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، فارق دين قومه معتزلاً
الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤودة ،
وكان يقول لأبيها : لا تقتلها ، انا اكفيك مؤونتها ، وكان يجاهر قومه بعبادته ما
هم عليه ، ويقول : انا اعبد رب ابراهيم .. يا قوم ما أصبح منكم احد على
دين ابراهيم غيري .. اللهم لو اني اعلم اي الوجوه احب اليك لعبادتك به ،
ولكني لا اعلمه ، ثم يسجد على راحته .

ومضى زيد يسفه قريشاً وما يعبدون ، ولما ايقنوا بخطرهم طلبوا من عمه
الخطاب ابي عمر بن الخطاب ان يمنعه ويردعه ففعل ، ولكن زيدا ظل على
دعوته ، فأذاه عمه واغرى به سفهاء قريش وشبابها ، من بينهم ابنه عمر ،
وقال لهم : اطرده ، ولا تركوه يدخل مكة ، فخرج منها هائماً في الأرض
يطلب دين ابراهيم (ع) ، وما برح طريداً شريداً ينتقل من بلد الى بلد ،
حتى اعترضته جماعة من لحم فقتلوه .. فابتهجت قريش لقتله ، اما صديقه ورقة
ابن نوفل فذرف عليه الدموع ، ورثاه بايات ، منها :

سورة الاسراء

رشدت وانعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثلها وتركك اوثان الطواغي كما هيا
وقد تدرك الانسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

قتل زيد قبل ان يبعث رسول الله (ص) ، ولكن ابنته آمن بالرسول الأعظم (ص) ، وسأل هو وابن عمه عمر بن الخطاب الذي كان يؤذي عمه من قبل ، سألا رسول الله : انستغفر لزيد ؟ . قال : نعم ، انه يُبعث امة واحدة .

وأما عبد الله بن جحش فبقي حتى بعثه الرسول (ص) ، واسلم وهاجر هو وزوجته ام حبيبة بنت ابي سفيان الى الحبشة ، ومات فيها بعد ان ارتد الى النصرانية .. وتزوج النبي (ص) بعده ام حبيبة .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم وتنصر ، وكان يقال له البطريق ، ومات بالشام ، سمه احد ملوك الغساسنة ، ولا عقب له .

أما ورقة فعاش في مكة كالرهبان ينهى قومه عن عبادة الأوثان ، وهو ابن عم خديجة زوجة الرسول (ص) ، وحين نزل الوحي على زوجها انطلقت به الى ابن عمها ورقة ، فقال له : يا ابن اخي ماذا ترى ؟ . ولما اخبره رسول الله قال له ورقة : هذا هو الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً - شاب - ليتني اكون حياً اذ يخرجك قومك . فقال الرسول (ص) : او مخرجي هم ؟ . قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وان يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً .

لقد نطق ورقة بوحي من فطرته الصافية ، فطرة الله التي فطر الناس عليها .. وكل انسان يرجع الى فطرته هذه يؤمن بمحمد (ص) وينصره نصراً مؤزراً اذ « لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون - ٣٠ الروم » لأن الأهواء تختم على فطرتهم. وتنحرف بها عن طريقها القويم .

(قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنی) . كان للمشركين اصنام شتى ، سموها باسماء ما انزل الله بها من سلطان ، وما كانت كلمة الرحمن من هذه الاسماء ، ولذا لما دعاهم الرسول الاعظم (ص) الى عبادة الرحمن قالوا : وما الرحمن : « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن

الجزء الخامس عشر

٦٠ الفرقان» . اي ما هذا الوصف الذي لا اثر له عند آلهتنا ؟ . وقوله تعالى :
«ادعوا الله او ادعوا الرحمن» يصلح جواباً لاستنكارهم ، لان معناه ان الاسماء والالفاظ
إن هي الا وسيلة للتعبير ، والعبارة بالمسمى ، فادعوا الله بما شتم من اسمائه ،
فكلها حسنة ، لانها تعبر عن احسن المعاني ، وهي على مستوى واحد في الحسن
«ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها - ١٨٠ الاعراف» وتكلمنا عن ذلك مفصلاً
عند تفسير هذه الآية ، فقرة هل اسماء الله توقيفية او قياسية ج ٣ ص ٤٢٥ .
(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً) . لا تجهر بصلاتك
اي بالقراءة في صلاتك ، والجهر رفع الصوت ، والمخافتة الإسرار ، وعن الامام
جعفر الصادق (ع) انه قال في تفسير الآية : الجهر بها رفع الصوت ، والمخافتة
ما لم تسمع اذنيك ، واقرأ قراءة بينهما .
(وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له
ولي من الذل وكبره تكبيراً) نحمد الله على عظيم احسانه ، ونير برهانه ،
وننزهه عن الولد لأنه غني عن كل شيء ، ولان الولد يشبه اباه ويرثه ، ولا
شبيه لله ولا وارث ، وننزهه عن الشريك لانه دليل العجز : «وما كان الله
ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض انه كان عليماً قديراً - ٤٤ فاطر» . وكل
قوي عنده ضعيف ، وكل عزيز لديه ذليل . وبالتالي فان الله اكبر شأننا ،
واعلى مكانا من ان يصف عظمته الواصفون ، ويؤدي حقه الشاكرون .

سورة الكهف

مكية الا آية واحدة كما في مجمع البيان ، وعدد آياتها ١١١

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

انزل على عبده الكتاب الآية ١-٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قِيمًا
لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُمَّمٌ * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا
اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ
إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً
لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
مُجْرَجًا .

اللغة :

العوج بفتح العين يختص بالاعيان ، وبكسرهما بالمعاني ، تقول : في ساقه عوج

الجزء الخامس عشر

بالفتح ، وفي رأيه عوج بالكسر . والقيم المستقيم المعتدل . والبأس هنا العذاب .
ومن لدنه من عنده ، والضمير يعود اليه تعالى . ويخضع نفسه انهكها وكاد يهلكها من
الغم والغضب . على آثارهم اي بعدهم . والصعيد هنا التراب . والجرز الارض
التي لا نبات فيها .

الاعراب :

الحمد مبتدأ وخبر والجملة مفعول لفعل محذوف اي قولوا الحمد لله . قيا مفعول
لفعل محذوف اي بل جعله قيا ، او حال من الكتاب اي انزل على عبده الكتاب
قيا ولم يجعل له عوجا . ولينذر منصوب بان مضمرة بعد اللام ، والمصدر المجرور
باللام متعلق بقيم او بأنزل . وماكثين حال ضمير (لهم) . وابدأ ظرف منصوب
بماكثين . ومن علم (من) زائدة اعرابا وعلم مبتدأ مؤخر ، وهم به خبر .
وفاعل كبرت محذوف يدل عليه (قالوا اتخذ الله ولدا) او كلمة ، والتقدير
كبرت المقالة كلمة او كبرت الكلمة كلمة . وكذبا صفة لمفعول مطلق محذوف
اي قولا كذبا . وأسفا مفعول من اجله لباخع . وايهم مبتدأ ، واحسن خبر ،
وعملا تمييز .

المعنى

(الحمد لله الذي انزل على عبده - محمد - الكتاب ولم يجعل له عوجا : قيا -
اي بل جعله مستقيما - لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات ان لهم اجرا حسنا ماكثين فيه ابدًا) اي خالدين في ذلك الاجر ، وهو
الجنة لا ينتقلون عنها بحال ..

ذكر سبحانه القرآن في العديد من آياته ، ووصفه بالحق والهدى والنور ، وهنا
وصفه بالاستقامة وعدم الاعوجاج ، وانه يبشر الصالحين والمصلحين بالثواب والنعيم
الدائم ، وينذر الفاسدين والمفسدين بالعذاب والجحيم الخالد ، والغرض من ذلك
ان يبين سبحانه انه انزل القرآن لنسير على منهجه ، لا لنحفظ آياته وكلماته ،

سورة الكهف

ونحسن تجويدها وتفسيرها فقط ، كما هو شأننا .. قال الرسول الاعظم (ص) ، ونحن المعنيون بما قال : « يأتي على الناس زمان لا يبقى من الايمان الا رسمه ، ولا من القرآن الا درسه » . واقسم ما قرأت هذا الوعيد والتهديد من نبي الرحمة الا اقشعر جسمي .. واي تهديد ووعيد اعظم من ان نكون المقصودين بهذا الوصف ؟ .. لا شيء فينا من الايمان الا الاسم ، ومن الاسلام الا الرسم ، ومن القرآن الا الدرس .. لقد طعن في القرآن من طعن ، وكفروا به من الاساس ، وآمنا به نحن ، ولكن خالفنا احكامه وتعاليمه جهارا نهارا .. والفرق بيننا وبين من طعن وجحد تماما كالفرق بين يقول : انا لا ارى هذا حقا ، ولو علمته حقا لعملت به ، وبين من قال : اما انا فاعتقد انه الحق الذي لا ريب فيه ، ومع ذلك لا التزم به ولا احترمه .

(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم) . وينذر الذين معطوف على لينذر بأسا شديدا ، والانتذار الاول عام لكل من عصى واستحق العقاب ، والانتذار الثاني خاص بمن نسب الولد الى الله تعالى علوا كبيرا ، وكثيرا ما يعطف الخاص على العام للتنبيه على ان الفرد المعطوف افضل من بقية الافراد ، مثل الملائكة وجبريل ، او اقبح مثل العاصين والقائلين ان لله ولدا .. لان هذا القول اقبح انواع المعصية . قال الرازي : الذين قالوا هذا ثلاث طوائف « الاولى كفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله . والثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله . الثالثة اليهود الذين قالوا : العزيز ابن الله » . والمراد بقوله : ما لهم به من علم انهم لا يعتمدون في هذا القول على دليل ، بل قام الدليل على العكس ، اما قوله : ولا لآبائهم فهو مبالغة في الذم ، تماما كما تقول : جاهل ابن جاهل ، وملعون ابن ملعون .

(كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا) . لا شيء اعظم من الكذب ، واعظمه الكذب على الله ، ونسبة التحليل والتحريم اليه من غير دليل ، واعظم الكذب عليه نسبة الولد اليه .

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفاً) . على آثارهم أي على بعدهم وإعراضهم ، والمراد بالحديث هنا القرآن بالاتفاق ، وفي وصف القرآن بالحديث دليل على فساد قول من قال : ان القرآن قديم .. وما

الجزء الخامس عشر

من شك أن النبي (ص) يريد الخير والهداية لكل انسان بلا استثناء ، تماماً كما تريدها انت لولدك ، وأريدها أنا لولدي .. وكان النبي يتألم ويحزن اذا سلك سالك سبيل الهلاك والضلال ، كما يتألم الوالد لهلاك ولده .. وفي هذه الآية عاتب الله سبحانه نبيه الكريم على وجدته وحسرتة المهلكة من اجل اعراض من أعرض عن الهداية واتباع الحق ، وقال له : لا تحزن عليهم .. ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم .

(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) . الزينة تعم الجاه والمال والأولاد ، وكل ما يتهالك عليه الناس ، ويتطاحنون من اجله .. وهذه المغريات هي المحك الذي يميز الخبيث من الطيب ، فمن قنع منها بنصيبه ، وعاش بكده وجدته فهو طيب كريم ، ومن حاول أن يحتكر كل شيء لنفسه ، ويعيش على حساب غيره بكل طريق ، ولو باثارة الحروب والفتن فهو معتد ائيم ، ومعنى ابتلاء الله الناس بزينة الأرض أن تظهر بسببها وتبرز الى الوجود افعالهم واعمالهم التي يستحقون بها الثواب والعقاب . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة ، فقرة معنى الاختبار من الله ج ٣ ص ١٢٦ .

(وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً) . ضمير عليها يعود للارض ، والصعيد التراب ، والجرز الأرض التي لا تنبت شيئاً ، والمعنى كل من عليها فان ، والسعيد من أطاع الله ، والشقي من انخدع لهواه .

اصحاب الكهف والرقم الآية ٩ - ١٢

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا *
إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ
لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا *
ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا *

سورة الكهف

اللغة :

المغارة المحفورة في الجبل يقال لها كهف ان كانت كبيرة ، وإلا قيل لها : مغارة وغار . والرقيم بمعنى المرقوم من الرقم ، ومن معانيه الكتابة ، قال تعالى : « كتاب مرقوم - ٩ المطففين » أي مكتوب ، والمراد بالرقيم هنا اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف . والفتية جمع الفتى من الفتوة والشباب . وضربنا على آذانهم أي انمناهم نومة عميقة لا تنبههم معها الأصوات .

الاعراب :

أم حسبت (أم) هذه منقطة أي بل أحسبت . وسنين ظرف والعامل فيه ضربنا . وعدداً صفة لسنين أي معدودة أو ذوات عدد . وقيل : مصدر أي تعدها عدداً . واي الحزبين مبتدأ ، واحصى خبر ، وامداً مفعول لأحصى مثل أحصيت الأيام وعددت الشهور ، ولا يصح جعله تمييزاً لأن التمييز في مثله بمعنى احسن وجهاً ، واكثر مالاً أي حسن وجهه وكثر ماله ، والأمد لا يحصي نفسه .

المعنى :

نفسر المعنى الظاهر من الآيات المتعلقة بأصحاب الكهف ، في ضوء ما دلت عليه بالدلالة الصريحة ، أو بدلالة الاقتضاء وطبيعة الحال^١ ونطرح ما عداها من المصادر أو الأساطير ، فلقد ذكرنا أكثر من مرة أن الحوادث التاريخية وامثالها لا تثبت إلا بنص القرآن أو بحديث متواتر ، وان اخبار الآحاد ليست بشيء وان صحت اسانيدها إلا في الأحكام الشرعية .
(أم حسبت أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) . الكهف

١ الدلالة الصريحة مثل أسأل أهل القرية ، ودلالة الاقتضاء مثل أسأل القرية ، فان الكلام لا يصح إلا بتقدير أهل القرية .

الجزء الخامس عشر

المغارة الكبيرة ، والرقيم اللوح الذي رُقت فيه أسماء اهل الكهف ، وطريف قول من قال : ان الرقيم اسم كلبهم .. والمعروف عند الرواة ان اسمه قمطير .. ومهما يكن فقد جاء في الكتب القديمة قصة اصحاب الكهف ، وتعجب الذين قرأوها أو سمعوها : كيف ظلوا نائمين السنين الطوال ، وبقوا احياء بلا غذاء . فقال سبحانه في هذه الآية لكل من تعجب واستغرب : لا تعجب من ذلك ، فكل آيات الله عجب يحير العقول .. ان الذي أوجد اصحاب الكهف والكون بما فيه من لا شيء يهون عليه أن يُبقي فتية في النوم امدأ طويلاً ، ثم يعثهم كما كانوا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهي ء لنا من امرنا رشداً) . يشير سبحانه في هذه الآية واللتين بعدها الى قصة اهل الكهف على الاجمال ، ثم يشرع بالتفصيل .. تقول هذه الآية : كان فيما مضى فتية تركوا كل شيء في هذه الحياة وآووا الى الكهف ، وطلبوا من الله ان يرحمهم ، ويدبر شؤونهم ، وهم في الكهف .

ولم يشر سبحانه في هذه الآية الى السبب الذي دعاهم ان يتركوا كل شيء ، ويلوذوا بالكهف ، ويطلبوا من الله ان يدبر امورهم .. والذي نفهمه من طبيعة الحال ، وما تشير اليه الآيات الآتية هو ان هؤلاء الفتية اهتموا بفطرتهم السليمة الى ان مجتمعهم على ضلال في عبادة الاصنام ، وانهم رفضوا ان يعبدوا ما يعبد آباؤهم ، فحاول المترفون - كما هو ديدنهم - ان يقتلوا الفتية او يفتنوهم عن دينهم ، ولما انسدت على الفتية جميع المسالك ، ولم يجدوا اية وسيلة الا اللجوء الى الكهف آووا اليه ، وقالوا لله : لقد أودينا فيك حتى بلغ بنا الأمر الى ما ترى ، ونحن في اشد الحاجة الى عونك ورحمتك ، فايك نسترحم ، وبك نستعين . (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً) انماهم نوموا لا ينبههم معه شيء . وبقوا كذلك سنين معدودة ، ويأتي الكلام عن عدد هذه السنين في الآية ٢٥ (ثم بعثناهم) ايقتناهم من نومهم (لنعلم اي الحزبين احصى لما لبثوا امداء) . عرف الناس قصة اهل الكهف ، وهم ما زالوا غارقين في سباتهم ، وتداولت اخبارهم الاجيال ، واختلفوا في مدة لبثهم ، فمن مقل ومن مكثر ، فايقظ الله اهل الكهف ليعرف الفريقان ان اهل الكهف لبثوا في نومهم امدأ غير قصير

سورة الكهف

فيؤمنوا او يزدادوا ايمانا بقدره الله على احياء الموتى ، وقوله تعالى : (لتعلم)
معناه ليظهر علمنا للناس بمقدار ما لبث اهل الكهف . تقدم نظيره في تفسير الآية
١٤٠ من آل عمران ج ٢ ص ١٦٢ .

وتسأل : من اين علم الناس مدة لبثهم ، والمفروض انهم كانوا نياما وحين
استيقظوا تساءلوا وقال بعضهم لبعض لبثنا يوما او بعض يوم ؟ .
الجواب : لقد عرف الناس مدة مكثهم من الدراهم التي كانت معهم ، فقد
ذهب بها احدهم الى المدينة ليشتري طعاما ، ولما رآها اهل المدينة تبين انها من
عهد احد الملوك السابقين ، ويأتي البيان في الآية ١٩ .

نبأهم بالحق الآية ١٣-١٨

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى *
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَاقَدُ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا * هُوَ لَاءِ قَوْمَنَا اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُّوا إِلَى
الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا *
وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ
تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ
اللَّهُ فَمَا هُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ
أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلِّبُهُمْ بِأَسْطُ

ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمْلَمْتَ
مِنْهُمْ رُغْباً *
*

اللغة

النبأ الخبر العظيم . وربطنا على قلوبهم قوتنا عزائمهم . والشطط التجاوز عن الحد . والسلطان البين الحجة الظاهرة . والاعتزال الترحي ، والتعزل مثله . والمراد بالمرفق هنا كل ما يُنتفع به مأخوذ من الرفق واللفظ . وتراور تميسل . وتقرضهم تجاوزهم . والفجوة المتسع من الارض . والأيقاظ جمع يقظ . والرقود جمع راقد . ومن معاني الوصيد عتبة البيت وفناؤه ، وكل من المعنيين جائر هنا .

الاعراب

اذ ظرف بمعنى وقت ، ومحلها النصب بربطنا . واذ حرف جواب وجزاء . وشططا صفة لمفعول مطلق محذوف أي قولاً شططا . وهؤلاء مبتدأ وقومنا عطف بيان وجملة اتخذوا خبر . ولو اداة طلب بمعنى هلا . وكذبا مفعول مطلق لافترى لان الكذب والافتراء بمعنى واحد . واذ اعتزلتموهم (اذ) متعلقة بمحذوف أي وقال بعضهم لبعض اذ اعتزلتموهم . وما يعبدون عطف على مفعول اعتزلتموهم اي واعتزلتم ما يعبدون . والا الله (الا) بمعنى غير مثل لو كان فيها إلا الله لفسدنا ، وهي وما بعدها بمنزلة الكلمة الواحدة ، ويعرب الاسم الذي يليها بحسب العامل المتقدم ولذا نصب لفظ الجلالة في قوله : وما يعبدون الا الله . وقيل : إن (لا) هنا اداة استثناء ، ولفظ الجلالة بعدها منصوب على انه مستثنى متصل ان كان القوم يعبدون مع الله الها آخر ، ومنفصل ان كانوا يعبدون الاصنام فقط . وتراور اصلها تتراور . وذات اليمين وذات الشمال ظرفان لان المعنى جهة اليمين وجهة الشمال .

سورة الكهف

وذراعيه مفعول باسط ، وعمل هنا اسم الفاعل مع انه ماضٍ لانه حكاية حال .
وفراراً مفعول مطلق لان ولى وفرّ بمعنى واحد . ورعباً تمييز عند الطبرسي ،
ومفعول ثانٍ عند ابي البقاء وابي الحيان الاندلسي .

المعنى

(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) . كان الناس قبل رسول الله (ص) يتداولون
قصة اهل الكهف ، وقد دوت في بعض الكتب ، وجاء ذكر اهل الكهف في
الشعر ، فن قصيدة لأمية بن ابي الصلت :

وليس بها الا الرقيم بجاورا وصيدهم والقوم في الكهف مهجد
وبالمناسبة كان رسول الله (ص) يسأل رواة الشعر ان يقرأوا له من شعر ابن
ابي الصلت هذا ، فيستمع اليه ويقول : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه .
وقد انشأ الناس الاساطير حول اصحاب الكهف ، كما انشأوها حول كثير
من الغابرين ، ولذا قال تعالى لنبيه الكريم : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » .
الذي لا ريب فيه .. ومن اصدق من الله حديثا . وبعد ان اجمل سبحانه قصتهم
في الآيات السابقة بدأ بالتفصيل ، وتنقسم قصة اهل الكهف - كما جاءت في
الآيات - الى اربعة فصول : الاول اهداء اهل الكهف الى الله . الثاني حالهم
مع قومهم وفرارهم الى الكهف . الثالث ايقاظهم من النوم الطويل . الرابع
موتهم والبناء عليهم .. والآيات التي نحن الآن بصددتها تتضمن الفصل الاول
والثاني ، والمقطع الآتي من الآيات يتضمن الفصلين الاخرين .

الفصل الاول

(انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم) . من الشباب من هو
تام وكامل في عقله وتفكيره ، تماما كما هو قروي وتام في جسمه ونشاطه ، وهذا
النوع وان كان قليلا نادرا ، ولكنه موجود ، ومنه اهل الكهف ، فقد كانوا
فتية يعيشون في مجتمع وثني فاسد ، ومع هذا رفضوه ولم يهضموه ، واهتدوا

الجزء الخامس عشر

بصفاء فطرتهم الى ان قومهم على ضلال ، وقالوا : كيف تكون الاحجار آلهة ، وهي لا تفني شيئاً ؟ . وكيف تمنح المترفين القوة والغنى ، وتسلبهم على الضعفاء والمعدمين - كما يزعم الاقوياء - وهي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ .. وانتهى الفتية من هذا الشك والتساؤل الى عقيدة التوحيد والبعث ، ولما علم الله منهم الصدق في النية ، والاخلاص للحق ثبتهم على ايمانهم ، وزادهم بصيرة في امرهم . (اذ قاموا) . لم يبين سبحانه اين قاموا ، ولذا اختلف المفسرون ، فمن قائل : انهم قاموا بين يدي ملك زمانهم دقيانوس الجبار ، وهو يحاكمهم على ايمانهم بالله ، ومن قائل : انهم قاموا من النوم .. وغير بعيد ان يكون المراد بقيامهم خروجهم على عادات قومهم ، وتمردهم على ما هم فيه من الشرك والفساد .. وهذا هو شعار ثورتهم وتمردهم على عادات قومهم : (فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا) . آمن الفتية بالله الواحد الأحد ، واعلنوا ايمانهم على الملأ ، وقالوا : ان الطغاة من قومهم يفترون الكذب على الله وعلى عقولهم ايضاً ، لأنهم اضعفوا على الأصنام صفة الآلهة ، وهم يعلمون انها لا تضر ولا تنفع .. ولكنهم يموهون على البسطاء بأن هذه الآلهة هي التي اختارتهم ، ومنحتهم الامتياز والتفوق على الناس ، وان من خالفها في ذلك فلا جزاء له إلا القتل والتعذيب .. بهذا الزعم اراد الطغاة أن يقتلوا الفتية ، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ، وكفروا بالأصنام أي بامتياز الطغاة وتفوقهم على المستضعفين .

تنبيه ، وانا اكتب هذه الكلمات ، الى تفسير ظاهرة غريبة برزت في ايماننا ، وهي هذا الجيش العرمرم من المعممين الذين لا يمتون بسبب قريب أو بعيد الى الدين واهله .. تنبيه الى أن هناك بدأ خبيثة تعمل في الخفاء ، وتضع التصاميم ، وتخصص الأموال لتجنيد المزيفين عن طريق المأجورين والعملاء ، وحشدهم أو حشرهم في صفوف اهل العلم ، فيلبسونهم العمام ، لا لشيء إلا ليحموا مصالح الطغاة والمستعمرين باسم الدين ، تماماً كما اضعى عتاة الشرك صفة الآلهة على الأصنام ليقولوا للبسطاء انها هي التي اختارتهم ، واعطتهم السلطان والأموال ، وحرمت البؤساء والمستضعفين .

سورة الكهف

الفصل الثاني

(واذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من امركم مرفقاً) . ضاق بالفتية المؤمنین الطغاة من قومهم ، وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم .. فقال بعض الفتية لبعض : لا نجاة لنا من القوم الظالمين إلا بالفرار منهم ومما يعبدون ويفعلون . وبعد التسداول والتشاور اتفقوا على اللجوء الى الكهف ، حيث لا يملكون مقرأ سواه .. فدخلوه وأوكلوا أمرهم الى الله راضين بما يختاره لهم ، حتى ولو امامهم جوعاً وعطشاً .. وهكذا المؤمن الصادق يبقى مع ايمانه وقيماً له ، ولا يبالي بما يحدث ويواجه الصعاب بثقة وامل وحماسة ، ومتى بلغ الانسان من الايمان هذا المبلغ كان الله معه اينما يكون ، وجعل له فرجاً عاجلاً ، حتى ولو تظاهر عليه اهل السماء والأرض كما فعل مع اصحاب الكهف بعد ان انسدت امامهم جميع المسالك والمذاهب ، فاختار لهم الراحة والأمن والتحرر من هم الحياة وآلامها ، فأنامهم نومة لا ينبههم معها شيء ، ولا يخافون من شيء .

(وترى الشمس اذا طلعت تزاور - أي تنحرف - عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم - أي تعدل عنهم - ذات الشمال وهم في فجوة منه) أي في مكان واسع من الكهف ، فقد كان كبيراً ، وله كوة يتفد منها الهواء الطيب ونور الشمس ، وكانت الشمس لا تصل الى اجسامهم ، لا عند طلوعها ، ولا عند غروبها ، لأنهم كانوا في مكان من الكهف لا يصل اليه نور الشمس ، أو لأن الله كان يصرفها عنهم بقدرته (ذلك من آياته) ذلك اشارة الى انحراف الشمس عنهم كأنها متعمدة ، والى وضعهم لا ايقاظ يحسون بمرور الزمن وما فيه ، ولا أموات بغير حراك وانفاس .. ولا تفسير لهذا إلا قدرة الله وحكمته . (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) . المراد بمن يهد الله هنا اهل الكهف ، وبمن يضلل من اراد التنكيل بهم . انظر تفسير ١٧٨ من الأعراف ج ٣ ص ٤٢٣ .

(وتحسبهم ايقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) . كانت عيونهم مفتوحة كأنها تنظر الى الامام ، واجسادهم

طرية يجري الدم في عروقها ، يتقلبون من جنب الى جنب ، وكلبهم بفناء الكهف أو ببابه باسط ذراعيه يحرسهم كالقواب الأمين (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً وملتت منهم رعباً) لأنهم في وضع عجيب وغريب لا عهد لأحد بمثله .

وكذلك بعثناهم الآية ١٩ - ٢٢

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ
بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ *
وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا
رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ
أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا * سَيَقُولُونَ
ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ
وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ
إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا *

اللغة :

الورق بفتح الواو وكسر الراء ، وكسر الواو وسكون الراء ايضاً ، والمراد

سورة الكهف

بها هنا الدراهم المضروبة . ولا يشعرون من الإشعار ، وهو الإعلام . يظهرها عليكم يطلعوا عليكم . واعرثنا عليهم أطلعنا عليهم . والرجم بالغيب القول بغير علم ، ومنه قول الشاعر : « وما هو عنها بالحديث المرجم » . والمراد بالمرء هنا الجدل . والاستفتاء السؤال .

الاعراب :

كم في موضع نصب مفعول مقدم للبتم ، والمميز محذوف أي كم يوماً لبتم . ولينظر اللام للطلب وأياها مبتدأ وازكى خبر وطعاماً تمييز . اذ يتنازعون (اذ) متعلقة بليعلموا ، وقيل : يجوز تعلقها باعثرنا . وضمير سيقولون عائد الى المتنازعين . وثلاثة خبر لمبتدأ محذوف أي هم ثلاثة اشخاص . ورابعهم كلبهم مبتدأ وخبر الجملة صفة لثلاثة ، ومثله خمسة سادسهم كلبهم . ورجماً مفعول مطلق ليقولون لأنه هنا بمعنى يرجمون ، أي هم سبعة اشخاص ، وثامنهم كلبهم مبتدأ وخبر والجملة عطف على ما قبلها ، فان الصفة اذا تعددت يجوز فيها العطف وعدمه ، تقول : هو الرجل العالم العاقل ، وهو الرجل العالم والعاقل .

الفصل الثالث

اشرنا فيما سبق الى أن الآيات المتعلقة بأهل الكهف تنقسم الى اربعة فصول ، وقد تضمن المقطع السابق من الآيات الفصلين الأول والثاني ، وهذا المقطع يتضمن الفصلين الأخيرين الثالث والرابع ، ومن الفصل الثالث قوله تعالى :

(وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم) استمروا في نومهم ثلاثمائة وتسع سنين ، كما يأتي في الآية ٢٥ ، ثم ايقظهم الله من هذا النوم الطويل العجيب ، ويدل ظاهر الآية أن الله ايقظهم ليتساءلوا عن مدة نومهم ، ومتى انكشفت لهم الحقيقة ازدادوا ايماناً بالله وبالبعث .

وتسأل : قال الله تعالى في الآية ١٦ أن الغرض من بعثهم أن يعلم مدة مكثهم في الكهف الذين تنازعوا في ذلك قبل ايقاظهم ، وقال في هذه الآية : انه

الجزء الخامس عشر

أيقظ أهل الكهف لئلا يناموا هم عن أمد مكثهم ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟ .
الجواب : لا تصادم بين الآيتين لاحتياج الى عملية الجمع ، فإن الله أيقظ أهل الكهف للأمرين معاً ، أشار الى أحدهما في الآية السابقة ، وإلى ثانيها في هذه الآية ، وعليه يكون معنى الآيتين ان الله أيقظ أهل الكهف ليعلموا هم وغيرهم ان الله قادر على إحياء الموتى ، مهما طال الزمن .

(قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) .
حين استيقظوا قال بعضهم : أتدرون كم لبثنا في الكهف ؟ . فأجابه البعض الآخر يوماً أو بعض يوم ، وفي هذا القول إيماء إلى أنه لم يتغير شيء من ثيابهم وأشعارهم ووظفارهم ووجوههم وأبدانهم وألوانهم على الرغم من طول الأمد ، ولو تغير شيء من ذلك - كما في تفسير الرازي - لظهر للعيان ، ولم يقل قائلهم يوماً أو بعض يوم .. ثم قالوا : دعونا من هذا التساؤل .. لا يعلم كم لبثنا إلا الله .. وجائز أن يكونوا في الظلام لا يرى أحدهم الآخر .

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً) . المراد بالورق الدراهم المضروبة ، وكان عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم ، وقيل : اسمه دقيانوس ، واسم المدينة طرسوس .. استيقظوا فأحسوا بالجوع بعد ذلك الأمد الطويل ، فاخترتوا واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً شهيماً ، وأوصوه باليقظة والحذر كيلا يشعر أحد بمكانهم ، فيقتلهم الطغاة أو يفتنهم عن دينهم ، وهم لا يدرون انهم في أمة غير أمتهم ، وعالم غير عالمهم .

الفصل الرابع :

(وكذلك اعترنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) . وكذلك إشارة الى انه كما زدناهم هدى ، وربطنا

سورة الكهف

على قلوبهم وانماهم ثم أيقظناهم أيضاً، اعثرنا عليهم، أي أطلعنا الناس أو أهل المدينة المجاورة على حقيقة أصحاب الكهف ، والضمير في يتنازعون وفي أمرهم يعودان الى أهل المدينة المجاورة للكهف ، لأنهم اختلفوا : هل أهل الكهف ناثون أو ميتون ؟. وقع هذا الاختلاف بين أهل المدينة لما رأوا النقود القديمة مع الذي أراد أن يشتري بها الطعام ، وذهبوا الى الكهف ورأوا أجساماً على الأرض لا تتحرك ولا تتكلم . أما قوله تعالى : «قال الذين غلبوا على أمرهم .. الخ» فإنه يشير الى أن أهل المدينة انقسموا في شأن أهل الكهف ، فمن قائل : نتركهم كما هم عليه . وقائل : بل نسد الكهف عليهم . وقال فريق ثالث : نبني عليهم مسجداً يصلي فيه الناس . وقد غلب هذا الرأي على بقية الآراء .

وبعد بيان المراد من كلمات الآية نبدأ بالتفصيل .. من عادة القرآن الكريم أن يحذف كل ما يمكن فهمه من سياق الكلام ، أو من اللوازم التي لا تنفك عن طبيعة الحادثة ، وعلى هذا الأساس حذف هنا عدداً من الجمل لأنها تعرف من السياق وطبيعة الحال، وتتلخص الجمل المحذوفة بأن أحدهم ذهب الى المدينة لشراء الطعام ، وكان حذراً كما أوصاه الرفاق ، ولكنه فوجيء بأمر لم يكن في الحسبان وذلك انه حين أعطى الدراهم لصاحب الطعام تأملها هذا ، وقال : هذه النقود قديمة ، وهي من عهد الملك «دقيانوس» كما قيل . ولا أحد يتعامل الآن بها . قال الرجل صاحب النقود : كيف من أمس الى اليوم ؟. وشاع الخبر بين أهل المدينة ، ولما سألوا عن شأنه وشأن النقود أخبرهم انه خرج وأصحاباً له هرباً بدينهم من الطغاة وآروا الى الكهف ، فقال قائل من الحاضرين : أجل ، سمعت ان جماعة فروا في الزمن القديم بدينهم خوفاً من ملكهم دقيانوس المرسوم على هذه النقود ، ولجأوا الى الكهف ، ولعلمهم هؤلاء ، فخرج الناس الى الكهف بعد أن سبقهم اليه صاحب النقود ، وأخبر أصحابه بما كان .

وخاتمة القصة انه بعد أن انكشف أمرهم تضرعوا الى الله ، كما تضرعوا اليه حين دخلوا الكهف ، وطلبوا منه أن يشملهم برحمته ، ويختار ما فيه لله رضا ، ولهم فيه صلاح ، وما أتموا دعاءهم هذا حتى وقعوا جميعاً أجساماً هامدة ، وانتقلت أرواحهم الطاهرة الى ربهم حيث النعيم الخالد ، فاتخذ الناس عليهم مسجداً .

الجزء الخامس عشر

والشاهد في هذه القصة دلالتها الحسية على ما أشار اليه سبحانه بقوله : «ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها » وان الانسان خالد مخلود خالقه ، وانما ينتقل من دار الى دار ، والويل كل الويل لمن ترك دار الباقية الى دار الفانية ، وهو يجحد الآخرة ، أو وهو لم يعد العدة لها .

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) . اختلف الناس في مكان الكهف : أين كان ؟ فقيل : كان في فلسطين بالقرب من بيت المقدس . وقيل : في الموصل . وقيل : في الأندلس من جهة غرناطة ، الى غير ذلك من الأقوال . وأيضاً اختلفوا في زمانهم : هل كان قبل السيد المسيح أو بعده ؟ . بل وفي الطعام الذي أوصى أهل الكهف أحدهم أن يشتريه لهم ، هل هو التمر أو الزبيب أو اللحم . بل وفي لون الكلب : هل كان أسمر أو أغمر أي فيه بقع سوداء وأخرى بيضاء ، الى كثير من هذه الخلافات .. اذن ، فلا غرابة اذا وقع النزاع والاختلاف في عدد أهل الكهف .

وفي تفسير الرازي والطبرسي انه لما وفد نصارى نجران الى النبي (ص) جرى ذكر أهل الكهف ، فقال يعقوبية منهم : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقال النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . فقال المسلمون : بسل سبعة وثامنهم كلبهم .. ثم قال الرازي : وأكثر المفسرين على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وذكر أربعة أوجه لصحة هذا القول ، ثلاثة منها فيها نظر ، والرابع له وجه ، ويتلخص بأن الله سبحانه وصف كلاً من القول بالثلاثة والقول بالخمسة بأنه رجم بالغيب ، دون القول بالسبعة ، فوجب أن يكون هو الحق .

(قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) . بعد أن أشار سبحانه الى اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف ، وان أقوالهم كلها أو بعضها رجم بالغيب - قال لنبيه الكريم : ان هذا الاختلاف لم يقع في شيء هام ، وان على الانسان أن يوكل علمه الى الله تعالى ، وأن يعتبر بما جرى لأصحاب الكهف ، ويتخذ منه دليلاً على البعث ، لا أن يجادل في عددهم أو مكانهم أو زمانهم .. فإن الغرض من هذه القصة هو الاعتبار والاتعاظ ، بل ان جميع قصص القرآن

سورة الكهف

تخضع لهذا الغرض الديني ، فهو الأول والأخير : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب - ١١١ يوسف » .

(فلا تمار فيهم الا وراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً) . فلا تمار أي لا تجادل ، وضمير فيهم يعود الى أهل الكهف ، وضمير منهم يعود الى أهل الكتاب كما في التفاسير ، ولا تستفت لا تسأل . والمعنى اذا جادلك يا محمد في عدد أهل الكهف أحد من أهل الكتاب فلا تهتم بشأنه ، ولا تسأل العلماء منهم لتحنج بقوله على من جادل ، فإن هذه المسألة ليست بذات بال ، بل قل للمجادل قولاً ليناً ، مثل الله أعلم ، أو لا جدوى من هذا الجدل ، ونحو ذلك .

ان شاء الله الآية ٢٣ - ٢٦ :

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا *
وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِئَةَ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا *

الإعراب :

ذلك مفعول (فاعل) . والمصدر من ان يشاء الله مفعول لاسم فاعل محذوف ، وهو حال من ضمير لا تقولن أي لا تقولن .. إلا ذاكراً مشيئة الله . ويهدين الأصل يهديني ، والمصدر من ان يهدين فاعل عسى ، وهي هنا تامة . ورشداً تمييز أي اقرب من الرشداً . وثلاثمئة قرىء بثنوين تاء مئة ، وعليه تكون سنين

الجزء الخامس عشر

بدلاً من ثلاثمائة ، وقرىء بإضافة مئة الى السنين على ان تكون سنين في موضع سنة، لأن مئة لا تضاف إلا الى مفرد . وتسعاً مفعول ازدادوا . أبصر به الضمير في (به) يعود الى الله تعالى ، واسمع وابصر للتعجب أي ما أبصره وما أسمعته ! .

المعنى :

(ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله) . بعد ان قال سبحانه لنبيه الكريم : « فلا تمار فيهم » أمره ان يعلق كل شيء بمشيئة الله ، ووجه المناسبة بين النهي عن الجدال وبين الأمر بالتعليق على مشيئة الله ان الانسان قد يذهل ، فيفعل ما كان قد عزم على تركه ، او يترك ما كان قد عزم على فعله ، ويجوز هذا حتى في حق المعصوم على شريطة ان لا يكون في الفعل أو الترك معصية لله ، لأن المعصية لا تجتمع مع العصمة بحال ، تماماً كما لا يجتمع العلم بالشيء والجهل به في آن واحد .

المشيئة العليا

ان للظروف تأثيرها ، ما في ذلك ريب ، ولكنها لا تعاكس الانسان في كل شيء ولا تسعفه في كل شيء .. وأي انسان حقق كل ما أراد ، مهما بلغت قدرته ، وامتد سلطانه ؟ . ومن الذي استطاع ان يجعل امراته أو ولده كما يشاء خالقاً وخلقاً ؟ . واعطف على هذا المثال ما شئت من الأمثلة .. وأيضاً ما من أحد عانده الظروف في كل ما طلب وأراد ، حتى في الكلام والنوم - مثلاً - اذن ، فإرادة الانسان قائمة ، ولها تأثيرها وعملها .

ولكن هذه الارادة محكومة بمشيئة عليا ، وهي تقول للانسان : إذا أردت شيئاً فاطلبه من أسبابه الكونية التي جعلتها طريقاً اليه ، وإياك أن تنسى أو تتجاهل ذكري ، وانت تسير على طريقي هذا ، فأنا الذي خلقتك وهيأت لك الأسباب ، وأرشدتك اليها ، وأمرتك باتباعها .. وأيضاً لا تنس ان الطريق الذي مهدته لك

سورة الكهف

لا يؤدي بك حتماً وعلى كل حال الى ما تطلبه وتبتغيه كلا .. حتى ولو اجتهدت وبالغت لأنني خلقت أيضاً ظروفاً معاكسة تعرقل السير ، وما هي بحسبانك ولا بحسبان سواك ، لأنها في يدي ، وأنا ارسلها وأمسكها ، فلا تجزم بأنك بالغ ما تريد ، وعلق كل شيء على المشيئة العليا .. ما شاء كان ، وان لم يشأ لم يكن .
انظر المخبات والمفاجآت ج ١ ص ٣١٢ .

(واذكر ربك إذا نسيت) . كل انسان معرض للنسيان ، وبالخصوص اذا تراكمت عليه الأشغال والأحزان . بل قيل : « سُميت انساناً لأنك ناسياً » . وقد أمرنا الله سبحانه ان نذكره عند النسيان ، وعلمنا كيف نذكره ، حيث قال عز من قائل : (وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً) أي وان لم يذكرني الله الذي نسيت فإنه يذكر ما هو أصلح وأنفع منه ، وفي نسيان بعض الأمور فوائد جمة .

ولهذه الآية قصة طريفة تعكس تحاسد بعض أهل العلم بالدين ، تماماً كتحاسد التجار وأرباب المهن .. فقد روي ان المنصور كان يُفضل أبا حنيفة على سائر الفقهاء ، فحسده على ذلك محمد بن اسحق ، وفي ذات يوم اجتمعا معاً عند المنصور ، فسأل محمد أبا حنيفة بقصد إفحامه وتعجيزه ، قال له : ما تقول في رجل حلف بالله ان يفعل كذا، وبعد ان سكت الخالف أمدأ قال : ان شاء الله؟ . قال أبو حنيفة : تصح اليمين ويلزم بها الخالف لأن قوله : ان شاء الله منفصل عن اليمين ، ولو اتصل بها لم تنعقد .

فقال محمد بن اسحق : كيف وعبدالله بن عباس جد أمير المؤمنين - يقصد المنصور - كان يقول ، يعمل الاستثناء ، وان كان بعد سنة لقوله تعالى : « واذكر ربك إذا نسيت » ؟ .

فالتفت المنصور الى أبي حنيفة وقال له : أصحيح هكذا قال جدي ؟ . قال أبو حنيفة : نعم .

فقال له المنصور : أتخالف جدي يا أبا حنيفة ؟ .

قال أبو حنيفة : ان لقول جلدك تأويلاً يخرج على الصحة ، ولكن محمد بن اسحق وأصحابه لا يرونك أهلاً للخلافة، لأنهم يبايعونك ، ثم يخرجون ويقولون :

الجزء الخامس عشر

ان شاء الله ، ومعنى هذا على مذهبهم انه لا بيعة لك في عنقهم على اعتبار ان الله لم يشأ لك الخلافة . فامتلاً المنصور غضباً ، وقال لجلاوزته خذوا هذا مشيراً إلى محمد بن إسحق ، فجعلوا رداءه في عنقه ، وجروه الى الحبس .
وبهذه المناسبة نشير الى انه اذا قال قائل : بعثك هذا ان شاء الله، أو امرأتي طالق ان شاء الله ، أو والله لافعلن كذا ان شاء الله ونحو ذلك ، اذا قال مثل هذا ينظر : فإن أراد مجرد التبرك باسم الله تعالى فعليه أن يلتزم بما قال ، ويكون بيعه أو يمينه أو طلاقه صحيحاً ، لأن الكلام وهذه هي الحال، يكون في حكم المطلق المجرد عن كل قيد ، وان قصد التعليق حقيقة فلا يلزمه شيء ، ويكون كلامه وعدمه سواء من حيث الأثر الشرعي، لا لأن التعليق من حيث هو يبطل الشيء المعلق. بل لأن المعلق عليه ، وهو مشيئة الله ، من عالم الغيب لا من عالم الشهادة .
وتسأل : بأي شيء نعلم انه أراد التعليق ، أو أراد مجرد التبرك باسم الله تعالى ؟ .

الجواب : نرجع في معرفة ذلك الى المتكلم نفسه لأن القصد لا يعرف إلا من جهة صاحبه ، وعلى القضاء أن يأخذ بقوله .
(ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً) . بعد أن استطرد سبحانه بذكر الآيتين عاد الى أهل الكهف ، وبين أنهم مكثوا في نومهم العميق ٣٠٩ سنوات .

وتسأل : لماذا قال : وازدادوا تسعاً ، ولم يقل ثلاثمئة وتسعاً ؟ .
وأجاب بعض المفسرين بأنه تعالى أشار بقوله : وازدادوا الى أن أهل الكهف مكثوا ٣٠٠ سنة بحساب السنين الشمسية ، و ٣٠٩ بحساب السنين القمرية لان التفاوت بينها في كل مئة سنة ثلاث سنوات .
(قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض) . أجل ، هو أعلم لأنه خلقهم وهداهم وأنامهم وأيقظهم وأمانهم، وقد أخبر أنهم مكثوا ٣٠٩ سنوات، وقوله الحق ، وحكمه الفصل (أبصر به وأسمع) أي ما أبصره تعالى لكل ما يرى ، وما أسمع لكل ما يُسمع ، والغرض ان الله لا يخفى عليه شيء .
(ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً) . ضمير لهم يعود الى

سورة الكهف

الخلق ، وضمير من دونه الى الخالق ، والولي الناصر ، والمعنى لا ناصر لمن خذله
الله ، ولا خاذل لمن نصر ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، لانه وحده
لا شريك له ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

واتل ما أوحى اليك الآية ٢٧ - ٢٩ :

وَآتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ
مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا * وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *
وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُمَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ
يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *

اللغة :

ملتحداً ملجأ . والغداة والعشي الصباح والمساء . وفرطاً مجاوزاً للحد . والسرادق
الفسطاط « الخيمة » . والمهل خثارة الزيت . المرفق المتكأ ، من اتكأ على مرفقه .

الإعراب :

الحق خبر لمبتدأ محذوف أي هذا الحق ، أو مبتدأ والخبر من ربكم . وكالمهل

الجزء الخامس عشر

الكاف بمعنى مثل صفة للهاء ، وجملة يشوي صفة ثانية . والمخصوص بالذم محذوف أي يش الشراب هو . ومرتبفاً تميز .

المعنى :

(واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) . يقول المولى لنبية الكريم : بلغ ما أنزلناه اليك فيما يتعلق بأصحاب الكهف وغيرهم مما جاء في القرآن الكريم ، وكن على يقين بما أخرجناك به .. وصدق الله العظيم ، ونبيه الكريم ، فقد أثبتت الأيام والأحداث أن محمداً (ص) رحمة مهداة من السماء لأهل الأرض ، وكلما تقدم الزمان وطال قدّم الشواهد والدلائل على هذه الحقيقة (ولن تجد من دونه ملتحداً) أي ملجأ يمنعك من الله . والخطاب لمحمد (ص) ، ومعناه الظاهر أنك مسؤول يا محمد أمام الله ، ولا ينجيك منه شيء ان شككت في حقيقة من حقائق القرآن ، أو قصرت في تبليغها .. وحاشا نبي الرحمة أن يشك أو يقصر ، كيف والله أعلم حيث يجعل رسالته ! . وإنما القصد هو التعريض بمن شك في نبوة محمد (ص) ، أو خالفه فيما جاء به من عند الله .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) . يقال اصبر نفسك مع فلان أي كن معه . والمراد بالذين يدعون ربهم المؤمنون المخلصون . والغداة والعشي كناية عن مداومتهم على طاعة الله . والمراد بوجهه تعالى مرضاته . ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا معناه لا تحوّل اهتمامك عن أهل الدين الى أهل الدنيا . ومن أغفلنا قلبه هم الكافرون والمجرمون . وكان أمره فرطاً أي تجاوز في أقواله وأفعاله حدود الحق والعدل .

روي ان عيينة الفزاري - أحد رؤوس المشركين - أتى النبي (ص) فرأى عنده جماعة من فقراء أصحابه ، فيهم سلمان الفارسي ، وعليه شملة قد عرق فيها ، ويده خوص - ورقة النخل - فقال عيينة لرسول الله (ص) : أما يؤذيك ربح هؤلاء ، ونحن سادات مضر وأشرفها ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من

سورة الكهف

اتباعك إلا هؤلاء ، فتحهم عنك حتى تتبعك ، أو اجعل لهم مجلساً، ولنا مجلساً..
فتزلت الآية .

ونحن لا نعلم مكان هذه الرواية من الصحة سنداً ، ومع هذا نرجحها لأنها
مطابقة لمقتضى الحال ، ونعني به طبيعة المترفين ، وخلقهم الذميمة ، والاستعلاء
على الضعفاء واليوساء ، وقد نص القرآن على ذلك في الآية ٢٧ من سورة هود:
« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » .

وقبل أن يجيب الرسول (ص) عينة وأمثاله بلا أو بنعم قال له العلي الأعلى :
كن مع المؤمنين المخلصين ، لأنهم معي وأنا معهم ، واصبر نفسك على ما فيهم
مما يُنفر المترفين لأن صبرك عليهم صبر في الله وعلى طاعة الله .. ألا ترى الى
إيمانهم وإخلاصهم لي ولك في كل شيء طلباً لثوابي ومرضاتي ؟. أما الكفرة
الفجرة الذين أعمت الأهواء قلوبهم ، ولا يعملون إلا بوحى منها ومن مصالحهم ،
ويرفضون العيش مع غيرهم بالحق والعدل، ويأبون إلا الكبرياء والاستعلاء متجاوزين
كل حدود الله والانسانية ، أما هؤلاء فلا تصغ الى قولهم ، فإنه الجهل والغرور
والكذب والضلال ، بل عليك أن تجاهدهم ، وتغلظ عليهم بالقول والفعل :
« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان
الله مع المتقين - ١٢٣ التوبة » .

(وقل الحق من ربكم) . قل خطاب لرسول الله (ص) . وربكم خطاب
للذين أغفل الله قلوبهم ، أو للناس أجمعين ، والمعنى المراد تأكيد لما جاء في
الآية السابقة ، وهو قوله تعالى : « واتل ما أوحى اليك » . (فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر) هذا كقوله تعالى : « انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما
كفوراً - ٣ الدهر » . وتدل هذه الآية على ان الانسان مخير ، لا مسير ، ورد
الرازي على من استدل بها بأن مشيئة الانسان ليست من صنعه، بل من صنع الله ،
وعليه فالانسان مسير ، لا مخير .

ونقول في جوابه : ان مشيئة الانسان وليدة الظروف والأسباب المغرية - مثلاً -
يرى الرجل المرأة الجميلة فتميل اليها نفسه ، وقد أوجب الدين على الانسان في
مثل هذه الحال أن يكبح شهوته ولا يندفع وراءها ، وليس من شك ان هذا في

الجزء الخامس عشر

مقدوره ، وقد عبّر الرسول (ص) عن ذلك بالجهاد الأكبر ، فقد روي انه بعث سرية ، فلما رجعوا قال : مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر ، وبقي عليهم الجهاد الأكبر . فقيل له : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس ، ان أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه .

(انا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً) . هذا تهديد وانذار لمن آثر الكفر على الإيمان والباطل على الحق .. والسرادق الخيمة ، والقصد ان العذاب محيط بهم من جميع الجهات ، تماماً كما تظلل الخيمة من فيها من كل جهاته . والمهل خثارة الزيت ، وهو شديد الاشتعال ، والمرفق المتكأ ، والمعنى ان للطاغين شر العذاب ، وبئس المآب .

لا نضيع أجر من أحسن الآية ٣٠ - ٣١ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا *
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *

اللغة :

العدن الإقامة ، يقال : عدن في المكان إذا أقام فيه . والأساور جمع أسوار وسوار ، وأصل الجمع أساوير وحذفت الياء للتخفيف . والسندس ضرب من الحرير الرقيق . والاستبرق الغليظ منه . والأرائك جمع أريكة السرير .

سورة الكهف

الإعراب :

ان الذين آمنوا خير ان الجملة من انا لا نضيع والعائد محذوف أي منهم .
وعملاً مفعول أحسن أي من عمل الحسن . ومن ذهب متعلق بمحذوف صفة
لأساور ، ومن سندس صفة ثانية للثياب . ومتكئين حال من ضمير يلبسون .

المعنى :

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً) . بعد
ان ذكر سبحانه الظالمين وعقابهم ذكر الصالحين وثوابهم ، وبين نوع هذا الثواب
بقوله : (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من أساور
من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم
الثواب وحسنت مرتفعاً) . يحلون من حليت المرأة إذا لبست حليها ، وضمير
فيها للجنة ، والأساور والثياب والأرائك وما اليها تندرج في قوله تعالى : « وفيها
ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين - ٧١ الزخرف » ، وقال الامام علي (ع) : كل
نعم دون الجنة محفور ، وكل بلاء دون النار عافية ، وتقدم نظيره مرات ، منها
الآية ٨٢ من سورة البقرة و ٥٧ من سورة النساء و ١٧١ من سورة آل عمران .

وطريف قول بعض الصوفية : ان المراد بالحلي التوحيد ، وبالثياب الحضر
الصفات الموجبة للسرور ، وبالسندس المواهب الذاتية ، وبالاستبرق الاخلاق المكتسبة ،
وبالأرائك أسماء الله .. ولا جرأة على الله أعظم من تفسير مقاصده بالوهم والخيال ،
أو بالهوى والغرض .

بين غني كافر وفقير مؤمن الآية ٣٢ - ٤٤ :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا

بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهَا زُرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ
 شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
 أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ
 مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ
 إِلَىٰ رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
 أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا *
 لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
 قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا *
 فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ
 السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ
 لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلَّبُ فِيهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ
 خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ
 لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ
 الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا *

اللغة :

الجنة البستان . واحف به أطاف به ، والمراد هنا بحفناهما ان الله جعل النخل

سورة الكهف

محيطاً بالبساتين . والمحاوره مراجعة الكلام قال وقلت . والنفر الأنصار والأعوان .
وتبيد نفى . وقائمة كائنة . والمنقلب المرجع . والحسبان السهام والحساب والمراد
به هنا الآفة المهلكة . والصعيد وجه الأرض . والزلق مسا تزلق فيه الأقدام ولا
تثبت عليه . وغوراً ذهب وغار في الأرض . وأحيط بشمره كناية عن الهلاك .
ويقلب كفيه كناية عن الندم . ونخاوية نخالية أو هاوية . والعروش جمع عرش ،
وهو السقف والمراد هنا ان الكروم سقطت على الأرض . والعقبى العاقبة .

الإعراب :

رجلين على حذف مضاف أي قصة رجلين ، والقصة مفعول أول لاضررب
ومثلاً مفعول ثان . وضمير لهم يعود الى المشركين . وكلتا مبتدأ ، وجملة آتت
خبر ، وافرد الضمير في آتت مراعاة للفظ كل ، ويجوز كلتا بالثنائية حملاً على
المعنى . ومثل آتت لم تظلم في إفراد الضمير ، وشيئاً مفعول تظلم . وخلالها ظرف
لأنه بمعنى وسط أو بين ، وهو منصوب بفجرنا . ومالاً تمييز ، ومثله تقرأ
ومثلاً . ولكننا هو الله ربي الأصل لكننا انا هو الله ربي وانا مبتدأ أول ،
وهو مبتدأ ثان ، والله مبتدأ ثالث ، ورببي خبر للثالث وهو وخبره خبر للثاني
وهو وخبره خبر للأول . ولولا بمعنى هلا . وما شاء الله (ما) اسم موصول
بمعنى الذي خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ما شاء الله ، أو مبتدأ والخبر محذوف
أي ما شاء الله كائن . وان ترن الأصل ترني والياء مفعول أول ، وانا تأكيد
لها ، وأقل مفعول ثان . ومالاً تمييز . وهناك ظرف مكان للبعيد خبر مقدم ،
والولاية مبتدأ مؤخر ، والله متعلق بمحذوف حالاً من الولاية ، والحق صفة لله .
وثواباً تمييز ، ومثله عقبى .

خلاصة القصة :

عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة ذكرنا ان عتاة المشركين اشترطوا لايمانهم
برسول الله (ص) أن يطرد المؤمنون الفقراء ، أو يعين لكل منهما مجلساً ، بحيث

الجزء الخامس عشر

لا يجمعان عند النبي (ص) في مكان واحد ، لأنهم سادة وأمراء ، والناس عبيد لهم واماء .. وتأتي الآيات التي نحن بصددنا لترسم صورة الأغنياء المتكبرين في شخص غني يملك المال والعقار ، وصورة للفقراء المؤمنين في شخص فقير لا يملك شيئاً ، ولكنه يعتز بخالقه ، والغني يعتز بماله .. ويدور حوار بينهما يعكس الصراع بين الحق والباطل ، وفي النهاية ينتصر الحق ، ويزهق الباطل ، ويصدق الحكيم القائل : من صارع الحق صرعه .

ويتلخص معنى الآيات بأن الذي يعتز بماله من دون الله يملك بستانين عظيمين ، فيها زرع كالحنطة وغيرها من الحبوب ، وفيها أيضاً أشجار كثيرة من نخيل وأعناب ، وكل بستان تنفجر في أرضه المياه ، ويحلب الألباب بهجة وجمالاً ، ويؤتي ثمره ونتاجه في أوانه كاملاً حبوباً وفاكهة ، لا ينقص منها شيء ، أما الذي يعتز بخالقه فلا يملك شيئاً .. فقال الكافر للمؤمن في زهو وغرور : أنا أكثر منك مالاً وجاهاً .. أنظر إلى ما أملك من زرع وأشجار ، وثمار وأنهار .. هذا هو الملك الدائم الذي يبقى للأولاد والأحفاد ، لا الجنة التي ترعمون أيها المساكين ، وهل بعد الموت جنان ونيران ؟. وان صح الخبر فان حظي في الآخرة سيكون أوفى منه في الدنيا ، لأن المترف هنا مترف هناك أيضاً .

فقال المؤمن للكافر مفرحاً وموثقاً : أتقول هذا بغياً وكفراً بالذي سواك رجلاً ؟ أتجهل أصلك وفرعك ؟ أأنت من آدم ، وآدم من تراب ؟ ألم تك نطفة من مني يعني ؟ .. أما أنا فأؤمن بالله وأوحدته وأحمده على الهداية إلى صراطه ومرضاته .. ولو كنت من ذوي الرشد والبصيرة لتواضعت لله وشكرته على آلائه ، ولم تأخذك العزة بالأثم .. وما الذي جعلك تأمن المفاجآت والمخبات ؟. وإذا أملى الله للعاصين بحلمه ورحمته فقد يعاجلهم بغضبه ونقمته .

وما أتم المؤمن كلامه حتى سقطت الأشجار ، وغارت الأنهار ، وهلك الزرع وباد كل شيء في جنة الكافر التي نظر إليها وقال معترراً : ما أظن ان تبيد هذه أبداً .. وبعد أن رأى صنع الله ، وانقطع أمله من زرعه وأشجاره قال في حسرة وانكسار : يا ليتني لم أشرك بربي أحداً .. الآن وقد عصيت من قبيل وكنت من المفسدين .. هذا ملخص ما جاء في الآيات ، والقصد منها ان يؤمن الانسان

سورة الكهف

قولاً وعملاً بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله الواحد القهار ، وانه ، جلت حكمته ، يحول ساعة يشاء العز الى ذل ، والغنى الى فقر ، والعافية الى اسقام وآلام وبالعكس ، وان ملك المخلوق مهما بلغ من العظمة فما هو بشيء إلا إذا تحول عملاً من أعمال الخير . وبعد هذا التلخيص نشرع بالتفصيل وتفسير الآيات ، مع العلم بأن أكثرها واضح لا يحتاج الى تفسير .

المعنى :

(واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلنا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً). الخطاب في اضرب للنبي (ص)، وضمير لهم للمشركين الذين قالوا لرسول الله(ص): اطرد المؤمنين ، أو يعود الضمير لكل مسترف متكبر ، والمراد بالرجلين الغني والفقير اللذان وقع بينهما الحوار الآتي ، والمعروف من طريقة القرآن انه كثيراً ما يضرب الأمثال للأفكار المجردة والمبادئ العامة ، ويشبهها بالأشياء المحسوسة ، كتشبيه الايمان بالنور ، والكفر بالظلمات .. وقد يشبه المحسوس بمحسوس آخر أوضح منه وأبين ، كتشبيه المرتد عن الدين بالكلب اللاهث ، والغاية من ذلك الجلاء والتوضيح بالاضافة الى العبرة والعظة : « وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً . وكلاً ضربنا له الأمثال - ٣٩ الفرقان » .

وقد شبه سبحانه هنا حال الطغاة المترفين بمتكبر كافر جهول يملك بستانين ، فيها نهر وزرع من الحبوب ، وأشجار تحمل الفاكهة المفضلة آنذاك وهما الرطب والعنب ، وكل من الزرع والشجر يوتي نتاجه في أوانه كافياً وافياً لا ينقص منه شيء .. وشبه سبحانه المؤمنين بمتواضع مؤمن عارف ، ولكنه فقير لا يملك شيئاً، وقد وقع بين الاثنين الحوار التالي :

(فقال لصاحبه) . القائل هو الغني الجاحد المتكبر ، وصاحبه المؤمن العارف المتواضع (وهو يحاوره) يراجعه في الكلام : (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً). واذا كان أكثر مالاً ورجالاً فهو أعظم وأكمل ، لأن المال والجاه هو مقياس العظمة والكمال ، أما الايمان والاخلاص فكلام بلا معنى .. هذا هو منطق الفسقة

الجزء الخامس عشر

الفجرة قديماً وحديثاً .. فقيمة كل امرئ - عندهم - ما يملك ، لا ما يحسن
علماً وعملاً .. هذا هو بالذات المنطق الذي جر على الانسانية الويلات ، وهو
الدافع الأول على التفنن بأسلحة الخراب والدمار ، وبصرف الملايين على صنعها من
أقوات الجائعين .. يسلب الاستعمار مقدرات الشعوب ، ويحولها إلى قنابل وصواريخ
لا لشيء إلا ليلقيها على تلك الشعوب بالذات ، الشعوب التي يدمرها المستعمرون
بقنابل من أرزاقها وخيراتها .

(ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) لأنه استجاب لاهوائها وشهواتها ، وعرضها
للتهلكة ، تماماً كمن يستجيب لطفله فيما يضره ويهلكه (قال ما أظن ان تبيد هذه
أبداً) . قال الرازي : « كيف قال : ما أظن ان تبيد هذه أبداً مع ان الحسن يدل
على ان الدنيا بأسرها ذاهبة غير باقية ؟ . قلنا ، ان المراد انها لا تبيد مدة حياة
صاحبها ووجوده » .

والجواب الصحيح : ان الجهل والغرور أعيا صاحب الجنة عن كل شيء
حتى عن المحسوسات والمرثيات ، قال عز من قائل : « لهم قلوب لا يفقهون
بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم
أضل أولئك هم الغافلون - ١٧٩ الاعراف » . (وما أظن الساعة قائمة) . ولا يستند
هذا الظن إلا الى بطره وغروره ، ووهمه وخياله بأن نعمته خالدة لا يفنيها شيء ،
وبهذا نجد تفسير انكار من أنكر يوم الحساب من الطغاة والمترفين (ولئن رددت
الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً) . لأن المترف هنا مترف هناك وفي كل مكان
في منطقته ومفهومه قياساً للغائب على الشاهد .. وما درى ان النجاة يومئذ للمتقين ،
لا للطغاة والمترفين : « ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه - ٢٨ الحاقة » .

(قال صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم
سواك رجلاً) . قال المؤمن للكافر مقرعاً وموبخاً : أتجحد خالقك ، ودلائله
ظاهرة فيك ؟ . من أين جاءتك الحياة بعقلها وسمعها وبصرها ، ولم تك من قبل
شيئاً مذكوراً ؟ . (لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً) . أما أنا فقد
اهتديت بفطرتي وعقلي الى خالقي وخالق كل شيء وآمنت بأنه هو وحده الخالق
الرازق .

سورة الكهف

ثم قال المؤمن مذكراً الكافر بنعمة الله عليه ، وبوجوب شكرها وحمد الله عليها : (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) . لو كنت من ذوي الرشد والبصيرة لأدركت ان الخير والفضل أن يكثر علمك ، لا مالك ، وان تباهي الناس بأخلاقك لا بجاهك ، وان تعلم انه لا حول ولا قوة إلا بالله الواحد القهار ، فهو وحده الذي يهب العز والجاه ، ويحوّل الغنى الى فقر ، والفقر الى غنى . ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(ان ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربّي أن يوتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً) . استطال الكافر على المؤمن ، وتعالى عليه بماله ، فقال له المؤمن : ان الغنى والفقر بعد العرض على الله ، وما يدريك اني لديه أغنى منك وأكرم ، وانه قد ادخر لي في دار البقاء ما هو خير من جنتك هذه التي تفخر بها وتتعاظم ، بل ما يدريك أن يجعلني غنياً، ويجعلك فقيراً بين عشية وضحاها ؟ . انك تزهو وتفخر بمالك لأن الناس يغبطونك عليه ، ولكن هل تدفع عنك غبطتهم هذه ما تحببه الدهر لك من العواقب ؟ . وهل أنت في مأمن من الله وغضبه ؟ ألا تخشى أن ينزل عليك وعلى جنتك صاعقة من السماء فتصبح أنت وما تملك أثراً بعد عين ؟ .

(وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) . هلك الزرع ، وهوت الأشجار من كل جانب ، وغار الماء حتى آخر نقطة منه ، وأصبحت الأرض زلقاً لا تثبت عليها قدم .. كأن لم يكن شيء ، وحل الفقر محل الغنى ، والكآبة محل الفرح ، والذل والانكسار محل التعاظم والكبرياء .. وهذه هي ثمرة الكفر والبغي والفساد ، بل وثمره الغفلة والغرور .. حسرة وندامة على الجهود والأموال ، والتفريط والإهمال .

(ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً) . كأنه أراد بهذا القول أن تعود جنته الى روائها وعطائها، ولكن هيهات .. « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً - ١٥٨ الأنعام » .

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً) . أبداً لا صاحب

الجزء الخامس عشر

ولا عشيرة ولا جاه ولا مال.. لا شيء على الاطلاق إلا الله: « قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً - ٢٢ الجن ، أي ملجأ (هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً) . هنالك اشارة الى يوم القيامة ، والولاية بفتح الواو النصره ، وضمير هو يعود الى الله، والعقبى العقابة، والمعنى ان الاسان اذا وجد في حياته هذه من يناصره ويدفع عنه ، أو يعينه بشيء فإنه يوم القيامة لا يجد حيلة ولا وسيلة ولا ناصر إلا الله وحده ، والله سبحانه مع المتقين ، وقد أعد لهم أجراً كريماً ، وحسن مآب .

زينة الحياة الدنيا الآية ٤٥ - ٤٦ :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * أَمْالُ الْبُنُونِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا *

اللغة :

الهشيم النبت اليابس المتكسر . وتذروه تنثره وتفرقه .

الإعراب :

قال أبو البقاء في كتاب الاملاء : يجوز ان تجعل اضرب بمعنى اذكر، فتعدى اضرب الى مفعول واحد ، وهو مثل الحياة ، وكما متعلق بمحذوف خبراً مبتدأ

سورة الكهف

محذوف أي هو كائن كماء ، ويجوز ان تجعل اضرب بمعنى صبر وعليه يكون كماء مفعولاً ثانياً .

المعنى :

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح) . الدنيا حلوة خضرة في منظرها ، وحرارة ضرارة في مخبرها ، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى ، كما قال الإمام علي (ع) ، وهذا هو معنى الآية ، حيث شبه سبحانه الدنيا في نضرتها بمطر نزل على الأرض ، فأخصبت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولكن ما أسرع أن ذوى وجف يابساً وهشيماً تنثره الرياح ، وهكذا زينة الحياة الخاصة : منظر جميل ، ومخبر عليل (وكان الله على كل شيء مقتدرأ) . يقدر على إزالة الكون وإفناؤه ، تماماً كما يقدر على خلقه وإيجاده .. قال ابن عربي في الفتوحات المكية : « ان الله قادر من حيث الأمر ، ومقتدر من حيث الخلق » يريد ان الله يتصف بالقدرة من حيث انه يقول للشيء « كن فيكون » سواء أقال له ذلك ، أم لم يقل ، ويتصف بالافتقار من حيث انه قال بالفعل ووجد الشيء كذلك .

المال والبنون زينة الحياة

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) . زينة الحياة على نوعين ، عامة وخاصة ، والعامة كتيسير المواصلات وبناء السدود ، وما اليه من مشاريع الري ، وكإنشاء الجامعات للعلوم ، والروضات للأطفال ، والمصانع لسد الحاجات ، ونحوها مما ينفع الناس بجهة من الجهات . أما الزينة الخاصة فهي كالدار والسيارة الفارهة ، والولد الناجح المطيع ، والمكانة الاجتماعية وما الى ذلك من المنافع الشخصية ، وهذه الزينة ليست محرمة ، كيف وهو القائل جلت حكمته : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق - ٣٢ الأعراف » ج ٣ ص ٣٢٠ .

الجزء الخامس عشر

ولكن الزينة الخاصة لا تستأهل أن يعتر بها الانسان ويفخر، لأن عظمتها لا تقاس بها ، وإنما تقاس بالزينة العامة ، بما ينفع الناس ، ويبقى جيلاً بعد جيل ، وهذه هي التي عناها الله بقوله : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً) لأن فاعلها ينال في الآخرة ما يأمل ، الى جانب الاحترام وخلود الذكر في هذه الحياة .

والخلاصة ان المال وسيلة ، لا غاية ، فيوزن ويقدر بنتائجه وآثاره، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ، فإذا أُصرف في وجوه الشر والفساد كسباق التسلح فهو شر ، وان أُصرف في سد الحاجات فهو خير ، والخير على نوعين : فإن دفع عن صاحبه ضرراً أو جلب له نفعاً وكفى فهو خير خاص يزول بزوال وقته ، وان عاد بالنفع على الجميع فهو خير عام ، ومن الباقيات الصالحات .

وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً الآية ٤٧ - ٤٩ :

وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوَضِعُ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا *

اللغة :

غادر الشيء تركه . والمراد بالكتاب هنا صحيفة العمل التي تُعطى للانسان غداً يمينه أو بشماله . ومشفقين خائفين . والويل الهلاك .

سورة الكهف

الإعراب :

يوم منصوب بفعل محذوف أي واذكر يوم نُسِرَ الجبال . وبارزة حال من الأرض لأن ترى هنا بصرية . وصفاً حال أي وحشرناهم مصفوفين . وكما خلقناكم الكاف بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف ، وما مصدرية أي جئتمونا مجيئاً مثل مجيء أول مرة ، وأول ظرف منصوب بخلقناكم . وبل الانتقال من شيء الى شيء ، وليست لإبطال ما قبلها . وان لن نجعل (ان) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انه وما بعدها خبر . ومشفقين حال من المجرمين لأن ترى هنا بصرية . وويلتنا منادى أي يا هلاكنا احضر . وما لهذا الكتاب (ما) استفهامية في محل رفع بالابتداء ، ولهذا الكتاب خبر .

المعنى :

(ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة) . لهذه الأرض التي نعيش عليها يوم ، ذكره الله سبحانه في العديد من الآيات ، منها هذه الآية ، وقد وصفه تعالى فيها بوصفين : الأول ان الله يقتلع الجبال من أماكنها ، ويسيرها في الجو كما يسير السحاب . الوصف الثاني : ان جميع أطراف الأرض وأجزائها تكون ظاهرة بارزة لا يحجبها شيء ، وعندئذ يكون المحشر الذي أشار إليه بقوله : (وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً) يجمع الله سبحانه في ذلك الأولين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال .

(وعرضوا على ربك صفواً) . ذكرنا فيما سبق ان البيعت والحساب والجزاء حق لا ريب فيه ، وأثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة ، وبأساليب شتى عند تفسير الآيات التي تعرضت الى اليوم الآخر ، ومنها الآية ٤ من سورة يونس ، فقرة الحساب والجزاء حتم ج ٤ ص ١٣٢ . وتقول الآية التي نحن بصددتها: ان الخلائق يُعرضون غداً على الله صفواً ، والمراد بالعرض الوقوف بين يدي الله للحساب ، أما المراد بالصف فقد اختلف المتفسرون فيه على أقوال ، فبعضهم أبقي الظاهر على دلالة ، وبعضهم تصرف وحمل اللفظ ما لا يحتمل .

الجزء الخامس عشر

والذي نراه نحن ان الصف هنا كناية عن الترتيب والنظام، وان الحلائق يعرضون على خالقهم بوضع محكم ودقيق .

(لقد جثتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعداً) .
بهذا يبدأ الله سبحانه محاكمة الذين ينكرون البعث : لقد أخرجناكم من بطون أمهاتكم عراة حفاة عزلاً من كل شيء ، وكذلك أخرجناكم من قبوركم ، ولا فرق إلا في انكم خرجتم أولاً غير مسؤولين عن شيء ، وثانية لتسألوا عما كنتم تعملون وتعتقدون وتقولون .. ومن ذلك قولكم : البعث خرافة وأساطير .. فما ترون الآن ؟ .

(ووضع الكتاب قرى المجرمين مشفقين مما فيه) . بعد أن قال الله لمنكري البعث : « هذا يوم البعث الذي كنتم به تكذبون » أعطى كل واحد منهم صحيفة أعماله ، وقال له : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً - ١٤ الاسراء » . اقرأ صحيفة أعمالك ، وحاسب نفسك بنفسك .. فيقرأها ، وهو يرتجف من الخوف الذي لا رجاء معه ولا أمل بالنجاة، ولو خاف عذاب الحريق من قبل ، وابتعد عن طريقه لكان اليوم في أمن وأمان ، ولكنه أمن هناك فخاف هنا .

(ويقولون يا وليتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) .
ومن قبل هذا قالوا : لا كتاب ولا حساب ، ولم يستجيبوا لعقل ولا دين (ووجدوا ما عملوا حاضراً) من غير زيادة أو نقصان ، كيف (ولا يظلم ربك أحداً) لا في ثواب ولا في عقاب بل يضاعف الثواب لمن أحسن ، وقد يعفو عن أساء .

سجدوا لابليس الآية ٥٠ - ٥٣ :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ

سورة الكهف

عَدُوٌّ يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا
خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا
شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا *
وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا *

اللغة :

الفسق الخروج . والعضد ما بين المرفق الى الكتف ، والمراد به هنا النصير
والمعين ، كما يراد ذلك من اليد كثيراً . والموبق الهلاك والموبق المهلك والموبقة
المهلكة . ومواقعوها أي واقعون فيها أو داخلوها . ومصرفاً محولاً ، ومكاناً
ينصرفون اليه .

الإعراب :

كان من الجن الخبر محذوف أي كان أصله من الجن . يابس للظالمين بدلاً
فاعل يابس ضمير مستتر وبدلاً تمييز أي يابس البطل بدلاً ، والمخصوص بالذم
محذوف ، وهو إبليس وذريته . ويوم منصوب بفعل محذوف أي واذكر يوم يقول .

المعنى :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) تقدم في الآية ٣٤
من سورة البقرة و ١١ من سورة الأعراف و ٦١ من سورة الأسراء (كان من
الجن ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعة الله ، وقلنا أكثر من مرة :
انا نؤمن بوجود الجن لأن الوحي يشبهه ، والعقل لا ينفيه ، وانا ندع التفاصيل

الجزء الخامس عشر

لعلام الغيوب (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) . القرآن ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض : وقد عبّر عن الذين يلبسون الحق بالباطل بأنهم جنود إبليس وأولياؤه في العديد من الآيات . وقال هنا عز من قائل : (أفتتخذونه وذريته أولياء) فجاز لنا - وهذه هي الحال - ان نفس ذرية إبليس بجنوده وأعوانه ، وان ذرية إبليس وجنوده وأولياؤه هم الذين يلتمسون الباطل بالكذب والافتراء على الحق . وليس ببعيد أن يكون التعبير عن هؤلاء بذرية إبليس للإشارة الى قوة الشبه بين أعمالهم وأعماله .

ومن الطريف قول من قال : ان لابليس ذكراً في فخذه الأيمن ، وفرجاً في فخذه الأيسر ، فيدخل ذاك بهذا فيأتي النسل والذرية .

(وهم عدو لكم) . وكل من يموه عليك ، ويفريك بالباطل ، أو يثني عليك بما ليس فيك فهو عدو لك ، شعر بذلك أم لم يشعر ، أما من يتدع الأساطير حول إبليس وغيره فهو عدو الله ورسوله والانسانية (بشس للظالمين بدلاً) . والظالمون هم الذين يستبدلون طاعة الشيطان بطاعة الرحمن ، ومنهم الذين يختارون المفسدين لمنصب من المناصب ، ويفضلونهم على الصالحين .

(ما أشهدتهم خالق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً) . ضمير أشهدتهم راجع الى إبليس وذريته . وما أشهدتهم أي ما أحضرتهم حين خلقت الكون وخلقتهم ، والعضد النصير والمعين ، والمقصود بالكلام العاصون الذين فسقوا عن أمر الله ، والمعنى ان الله سبحانه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ، لا يستشير أحداً ، ولا يستعين بأحد لأنه غني عن العالمين ، وحين خلق الكائنات لم يحضر واحداً منها ، حتى ولو كان أتقى الأتقياء ، فكيف إذا كان ضالاً مضلاً كإبليس وجنوده ، وما دام الأمر كذلك فكيف يُعصى خالق السموات والأرض ، ويطاع من لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرراً ؟ .

(ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً) أي مهلكاً ، والمعنى ان الله يقول غداً لمن يشرك في طاعته : أين الذي أطعته وزعمت انه بجديك نفعا في هذا اليوم العصيب ؟ . ادعه وانظر هل يستجيب لك ؟ . كلا ، انه في شغل شاغل عنك وعن غسبك .. انه في عذاب

سورة الكهف

الحريق .. وقوله تعالى : نادوا شركائهم .. فدعوههم فلم يستجيبوا هو كناية عن يأس المجرمين وانقطاع آمالهم ممن كانوا يرجون ويأملون (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً) . المراد بالظن هنا العلم واليقين ، وبالمصرف المكان الذي ينصرفون ويهربون اليه من النار .. والهروب غداً من عذاب الله تماماً كالهرب من الموت في هذه الحياة .

وكان الانسان أكثر شيء جدلاً الآية ٥٤ - ٥٦ :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا *

اللفظة :

المراد بصرفنا هنا ترديد المعنى وتوضيحه بأساليب مختلفة . والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل بدليل قوله تعالى في الآية التالية : «ويجادل الذين كفروا بالباطل» . وقبلاً بضم القاف والباء المواجهة والمعينة . والمراد بالدهض الزلق .

الإعراب :

جدلاً تمييز . والمصدر من ان يؤمنوا مجرور بمن متخوفاً . والمصدر من ان

الجزء الخامس عشر

تأتيهم فاعل منع . وقبلًا حال من العذاب . وما انذروا (ما) اسم موصول في محل نصب عطفاً على آياتي . وهزوا مفعول ثانٍ لاتخذوا .

المعنى :

(ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلاً). المراد بالانسان هنا أكثر الناس لقوله تعالى في العديد من الآيات : أكثر الناس لا يعقلون .. أكثر الناس لا يعلمون .. أكثر الناس لا يؤمنون . أما القرآن الكريم فهو كتاب الله الى عباده يهديهم بدلائله ومواعظه ، ويحثهم على التمسك بأحكامه وتعاليمه . وقد أوضح سبحانه هذه المواعظ والدلائل بشتى الأساليب ، وضرب عليها من أجل ذلك الكثير من الأمثال ، ومنها الرجلان المذكوران في الآية ٣٢ ، وتشبيه الحياة بالماء في الآية ٤٥ من هذه السورة ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون ويخاصمون في أوضح الواضحات ، ويحاولون إبطال الحق ودحضه بالمهارة والأكاذيب . (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا ان تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً) . المراد بالهدى القرآن وبيناته الواضحة ، وبالاستغفار التوبة ، وبسنة الأولين الاهلاك كما حدث لقوم نوح ولوط وعاد وثمود . والمعنى ان المشركين لا يحاولون ان يؤمنوا بالله أو يفكروا بالايمان إلا عندما يوجد احد أمرين، الأول أن ينزل بهم عذاب الاستئصال كما نزل بمن كان قبلهم ، فيؤمنوا حيث لا يغني الايمان عنهم شيئاً ، كفرعون الذي آمن بالله لما أيقن بالهلاك والفرق . الأمر الثاني أن يروا العذاب عياناً وجهاً لوجه .

وبكلام آخر ان الله سبحانه بعد أن بيّن في الآية السابقة انه قدّم الدلائل الواضحة ، وأبى أكثر الناس الا الكفر والجدال بالباطل ، بعد هذا قال في هذه الآية : وما تغني الآيات والنذر عند قوم لا يؤمنون الا عند سكرات الموت ، أو حين يهدّدون بالعذاب الذي يرونه بأعينهم ويعتقدون انه نازل بهم لا محالة اذا خالفوا الرسل .

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) . هذه هي مهمة الرسل تبشير من أطاع بالنعيم ، وانذار من عصى بالجحيم . وتكرر هذا المعنى أكثر من مرة.

سورة الكهف

أنظر تفسير الآية ١٦٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٩٢ (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) . أوضح الله الحق ، وأثبتته بالبينات والدلائل ، ولكن الذين كفروا خاصموه وجادلوا فيه ، وحاولوا إبطاله ودحضه بالمهارة والأكاذيب ، وبالهزء والسخرية ، وليس المسراد من الهزء بآيات الله من يسخر بها بلسانه فقط ، بل كل من عرف حكماً من أحكام الله ولم يعمل به فهو من الذين اتخذوا القرآن ودين الله لعباً وهزواً ، قال الإمام علي (ع) : « من قرأ القرآن فمات فدخل النار - لأنه لم يعمل بالقرآن - فهو ممن اتخذ آيات الله هزواً » .

ذكر آيات ربه فأعرض الآية ٥٧ - ٥٩ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ
إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ
بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ
مَوْثِقًا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَلِكِهِمْ مَوْعِدًا *

اللفظة :

أكنة أغطية . والفقه الفهم . والوقر الثقل في السمع . والموئل الملجأ .

الإعراب :

المصدر من ان يفقهوه مفعول من أجله لجعلنا أي مخافة ان يفقهوه . ووقراً

الجزء الخامس عشر

مفعول لفعل محذوف أي وجعلنا في آذانهم وقرأ . وإذا حرف جواب وجزاء .
وتلك مبتدأ والقري عطف بيان ، وأهلكناهم خبر ، ويجوز ان تكون تلك مفعولاً
لفعل محذوف يفسره الفعل الموجود أي وأهلكنا تلك القري أهلكناهم .

المعنى :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه) .
أوضح سبحانه الدلائل على وجوده ووجوب طاعته بشئ الأساليب ، وضرب الكثير
من الأمثال على ذلك ، وأمر الانسان بالخير ونهاه عن الشر ، وان يتوب مما
أسلف من الذنوب ، وحذره من مخالفة الأمر والنهي والإصرار على الذنب ،
ولكنه أعرض ونأى بجانبه ، وأهلك نفسه بفساده وعناده (انا جعلنا على قلوبهم
أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً) . تقدم نظيره مع التفسير في الآية ٢٥ من
سورة الأنعام ج ٣ ص ١٧٦ والآية ٤٦ من سورة الإسراء .

(وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً) . وكيف يهتدون ؟ وعلى
قلوبهم أغطية ، وفي آذانهم صمم . وكل من لا يتنفع بالموعظة الحسنة فهو وأعمى
القلب والعين والاصم سواء .

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) . تقدم
نظيره مع التفسير في الآية ٦١ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٢٥ (بل لهم موعد
لن يجدوا من دونه موثلاً) أي ملجأ ، والمراد بالموعد هنا وقت اللقاء عند الله
الذي لا خلف له . ولا مفر عنه ، قال الإمام علي (ع) مخاطباً ربه : « لا اله
الا بدي لا امد لك ، وانت المنتهى لا محيص عنك ، وانت الموعد لا ملجأ منك
إلا اليك ، بيدك ناصية كل دابة ، واليك مصير كل نسمة » .

(وتلك القري أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) . المراد بالقري
قري عاد وثمود وغيرهما من الأمم الخالية ، والمهلك الهلاك ، والمعنى ان الله جعل
لهلاك الظالمين وقتاً معيناً ، فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

سورة الكهف

موسى ومجمع البحرين الآية ٦٠ - ٦٤ :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهَا نَسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا *
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا *
قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا
الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا
نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا *

اللغة :

فتاه صاحبه أو خادمه . لا أبرح لا أزال . والحقب بضم الحاء والقاف ،
وبضم الأولى وسكون الثانية الدهر والزمان . ومجمع البحرين المجمع المكان الذي
يلتقي فيه البحرين ، وبصيران بحراً واحداً ، وفي البحرين أقوال ، منها انهما
البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ولو كنت من علماء الجغرافيا لقارنت بين الأقوال
واخترت الصحيح أو الأصح منها . والسرب المسلك . والنصب التعب . فارتدا
على آثارهما قصصاً أي رجعا في طريقهما يتبعان أثرهما الأول .

الإعراب :

لا أبرح من أنحوات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، واسمها ضمير مستتر
وخبرها محذوف أي لا أبرح سائراً . وحقياً ظرف منصوب بأمضي . وسرباً مفعول
ثان لاتخذ ، أو في البحر يتعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً ، وسرباً منصوب على

الجزء الخامس عشر

المصدرية أي سرب الحوت سرباً . وهذا عطف بيان من سفرنا . والمصدر من ان اذكره بدل اشتمال من هاء أنسانيه أي ما انساني ذكري إياه إلا الشيطان . وعجيباً صفة لمفعول مطلق محذوف أي اتخذاً عجيباً . وقصصاً منصوب على المصدرية أي يقصان الاثر قصصاً أو في موضع الحال أي مقتصين .

المعنى :

(واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقياً فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً) . اختلفوا في موسى بطل هذه القصة : هل هو موسى بن عمران أو غيره ؟ . نقل الرازي عن اليهود انه موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب ، وهو أقدم من موسى بن عمران وأكثر العلماء والمفسرين على انه ابن عمران الشهير ، وهو الظاهر . أما فتاه فالمعروف انه يوشع بن نون ابن اخت موسى بن عمران وتلميذه المقرب وخليفته من بعده على بني اسرائيل ، أما الذي قال له موسى : هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشداً .. فالمعروف بين الناس انه الخضر ، ولكن الله سبحانه سكت عن اسمه ، واسم قتي موسى ، فيجمل بنا نحن ان نعبّر عن هذا بقتي موسى ، وعن ذلك بصاحبه .

وقيل : ان الخضر لقب ، أما اسمه قبلنا بن ملكان ، واختلفوا : هل هو نبي أو ولي ؟ . وأيضاً قيل : انه من المعمرين الأحياء الى يوم يبعثون ، أما نحن فنلتزم السكوت عن نبوته وحياته إذ لا دليل قاطع للشك من الكتاب أو السنة على واحدة منها ، ولا يمتان الى عقيدتنا وحياتنا بصلة . وقال البعض : انه من الملائكة . وهذا أبعد الأقوال .

وفي رواية ان سائلاً سأل موسى : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا .. فأراد الله سبحانه ان يعلمه التواضع ، وانه فوق كل علم عليم ، فأوحى الله اليه ان في مجمع البحرين رجلاً يعلم أشياء لا تعلمها . فقال له موسى : وكيف لي به ؟ قال : تحمل معك حوتاً لا حياة فيه ، فحيث تفقد الحوت فالعالم هناك ، فحمل موسى الحوت ، واصطحب معه فتاه ، وجدداً في السير حتى بلغا مجمع البحرين

سورة الكهف

إذ أخذت موسى سنة فنام، وفي أثناء نومه انتفض الحوت وقفز الى البحر ، فكانت هذه آية من آيات الله لموسى .

وسواء استند الراوي الى العيان أو الاستنتاج فإن روايته هذه تلقي ضوء على ما ذكرناه من كلام الله بين قوسين في صدر هذا الكلام .

(فلما جاوزا قال - موسى - لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) .
بعد أن استراح موسى وفتاه قليلاً عند مجمع البحرين استأنفا السير الى أن أدركهما التعب ، وأحسا بالجوع ، فطلب موسى من فتاه الغداء ، وكان الفتي قد شاهد انتفاضة الحوت وقفزته الى البحر ، ولكنه نسي أن يخبر موسى بأمره ، ولما طلب منه أن يأتي بالغداء تذكر و (قال - لموسى - أرأيت إذ أوتينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت وما انسانيه إلا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً) .
ولما سمع هذا موسى لاحت له دلائل الفوز ببغيته ، و (قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً) رجع موسى وفتاه الى المكان الذي قفز منه الحوت الى البحر ، وسارا على الطريق الذي جاء منه يتبعان أثرهما الأول .

موسى يلتقي بصاحبه الآية ٦٥ - ٧٠ :

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا
عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ نِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ
إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا *
قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي
فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا *

اللغة :

الخبر بضم الخاء المعرفة . والذكر البيان .

الإعراب :

تعلمن أصلها تعلمني ، ورشداً مفعول لتعلمن . وخبراً تمييز لأنه بمعنى الفاعل أي لم يحط خبرك به ، أو مفعول مطلق لأن لم تحط بمعنى لم تخبر . وعليه يكون المعنى لم تخبر به خبراً .

المعنى :

(فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) . من في قوله تعالى : « من لدنا علماً » للتبويض ، والمراد بالعلم هنا علم الغيب أي آتيناها شيئاً من علم الغيب ، ويومئء بذلك الى خرقه السفينة ، وقتله الغلام ، ويعتمد الصوفية على هذه الآية لصحة مذهبهم القائل بالعلم اللدني أي العلم تلقائياً وبلا واسطة .

والمعنى ان موسى وفتاه حين وصلا الى المكان الذي كانا فيه وجدنا رجلاً من عباد الله الصالحين ، رحمه الله وأنعم عليه بعلم وافر نافع ، فحياه موسى فرد النحية بأحسن منها .. قال له موسى : انت بغيتي ، فهل تصحبني معك ، وتعلمني ما أسترشد به وانتفع ؟ . وقد استدل القائلون بنبوة هذا الرجل الصالح ، استدلوا بقوله تعالى : « آتيناها رحمة من عندنا » لأن الرحمة هي النبوة .. ويلاحظ بأن الرحمة أعم من النبوة ، ووجود العام لا يدل على وجود الخاص ، فإذا قلت : أكلت فاكهة فان قولك هذا لا يدل على انك أكلت عنباً ، لأن كلمة الفاكهة تشمل العنب وغيره من الفواكه .

(قال انك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً) . قال الرجل الصالح لموسى : لو صحبتي لرأيت عجباً يثقل عليك السكوت عنه

سورة الكهف

وعدم الاعتراض عليه لأنه منكر في ظاهره ، وواقعه مجهول لديك ، وأنت لا تستطيع صبراً على المنكرات (قال - موسى - ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً) . استثنى موسى في الصبر بقوله ان شاء الله خشية أن لا يملك نفسه على السكوت وعدم الاعتراض كما حدث بالفعل (قال - صاحب موسى - فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكراً) . اشترط الرجل الصالح على موسى أن لا يسأله عما يفعل كائناً ما كان ، وقبل موسى الشرط لأنه انطلق معه كما يتضح مما يلي :

فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة الآية ٧١ - ٨٣ :

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَ غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا *

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا *
فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهَا رَبُّهَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ
فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ
رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا *

اللغة :

المراد بالإمر هنا بكسر الهمزة المنكر الفظيع . ولا ترهقني لا تحملي . والعسر
ضد اليسر ، والمعنى عاملني باليسر . واستطعما طلبا الطعام . ويريد أن ينقض
أشرف على السقوط . وأقامه سواه . والتأويل التفسير . وزكاة طهارة . والمراد
بالرحم هنا الرحمة . والكنز المال المدفون . ويبلغا أشدهما يكبرا ويعقلا .

الإعراب :

عسراً مفعول ثانٍ لترهقني لأنها بمعنى تحملي . وبغير نفس متعلق بقتلت .
وعذراً مفعول بلغت . والمصدر من أن ينقض مفعول يريد أي يريد الانقضاض .
وهذا مبتدأ وفراق خبر ، وبينك بمنزلة الكلمة الواحدة أي فراق بيننا .
ومساكن ممنوعة من الصرف لأنها على وزن مفاعيل . وغصباً مصدر في موضع
الحال أي يأخذها غاصباً ، أو قائم مقام المفعول المطلق أي أخذاً غصباً . وزكاة
تميز ، ومثله رحماً ، وقال أبو حيان الأندلسي : ان رحماً مفعول له لأقرب .

الوقوف عند الشبهة :

تدل هذه الآيات ان هناك أموراً ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب ، وأخرى

سورة الكهف

بالعكس ، وان الحكم فيها هو التوقف عن الحكم إيجاباً وسلباً حتى ينكشف الواقع ، وقد تواتر عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : « حلال بيتن ، وحرام بيتن ، وبينها أمور مشتبهات ، لا يلدرى كثير من الناس أمن الحلال هي أم الحرام ؟ . فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه فقد سلم ، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يقع في الحرام » . وفي حديث ثانٍ : « الوقوف عند الشبهة خير من الاتهام في المهلكة » .

وروي ان لقمان الحكيم دخل على داود ، وهو يصنع الدروع ، ولم يكن قد رآها من قبل ، وهمّ أن يسأله ، ثم رأى الصبر أجمل ، ولما فرغ داود لبس الدرع ، وقال : نعم لباس الحرب . ففهم لقمان ان الدرع وقاية من الطعن والضرب ، فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله .. وقدم العبد الصالح ثلاثة شواهد على هذه الحقيقة ، وهي :

١ - (فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) . سار موسى وصاحبه على ساحل البحر ، ولما وجدا سفينة طلبا من صاحبها أن يحملها معه ، فاستجاب .. ولكن ما ان توسطت في لجة البحر حتى خرقها العبد الصالح في مكان يمكن أن يتسرب الماء منه ، ويتعرض من فيها للغرق ، فدعر موسى من هذا المنكر و(قال أخرجتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ) أي فظيماً ، وأخذ موسى ثوبه وحشا به الخرق على عهدة المفسرين (قال ألم أقل لك ان تستطيع معي صبراً) . يذكره بالشرط ، وهو أن لا يسأله عن شيء ، فاعتذر اليه موسى و (قال لا تؤاخذني بما نسيت) لأن النسيان لا يقتضي المؤاخظة (ولا ترهقني من أمري عسراً) لا تضيق عليّ في صحبتي لك .

٢ - (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاماً فقتله) . ففزع قلب موسى من القتل و (قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً) . ماذا جنى هذا المسكين ؟ أتقتله متعمداً دون أن يأتي بجناية ؟ ان هذا هو المنكر بعينه . (قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبراً) . مرة ثانية يذكره بالشرط ، وأيضاً مرة ثانية يعتذر موسى (قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) . من قبل اشترط العبد الصالح على موسى أن لا يسأله ، والآن يشترط موسى على نفسه

الجزء الخامس عشر

أن يجعله في حل من صحبتته ان سأل ، والمؤمنون عند شروطهم ، فكيف الأنبياء ؟ . (قد بلغت من لدني عذراً) . قطعت عليّ كل عذر أتعلل به .

٣ - (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) . قيل : هي انطاكية ، وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) : انها الناصرة (فاستطعا أهلها) طلبا منهم الطعام ضيافة (فأبوا أن يضيفوهما) . قال المفسرون : انما قال : فأبوا أن يضيفوهما ولم يقل : فأبوا أن يطعموهما - للإشارة الى ان أهل القرية كانوا لثاماً ، لأنه لا يرد الضيف إلا لثيم ، بخاصة اذا كان الضيف غريباً (فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) . ضمير فيها للقرية ، وضمير فأقامه للعبد الصالح ، ويريد هنا بمعنى يكاد ، وكلٌّ من أراد وكاد تستعمل بمعنى الثانية ، والمعنى ان موسى وصاحبه رأيا في القرية حائطاً أوشك على السقوط ، فسواء الثاني وأصلحه بلا مقابل ، فعجب موسى من ذلك و (قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً) . أتصلح الجدار بالمجان لقوم أبوا ضيافتنا، ونحن في أمس الحاجة اليها ؟ هلا طلبت أجراً على عملك لتنفقه في ثمن الطعام ؟ .

وخرق السفينة ، وقتل الغلام مثلاًن على ما يبدو شراً في ظاهره دون باطنه، وإقامة الجدار مثال على العكس .

(قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) . اشترط العبد الصالح على موسى ان لا يسأل ، وقيل موسى الشرط ، ومع ذلك سأل ، ولما ذُكر بالشرط اعتذر ، ولكنه سأل بعد الاعتذار ، ولما ذُكر ثانية قطع على نفسه عهداً أن يجعل العبد الصالح في حل من صحبتته ان سأل بعدها .. ولكنه سأل ، وهو الحريص على ان يتخذه العبد الصالح صاحباً .. وموسى (ع) معذور في كل ما سأل لأن نفسه تصبر على الخير والمعروف ، أما ما تراه منكراً فلا ولن تستطيع عليه صبراً ، حتى ولو أدى ذلك الى مخالفة الوعد والشرط ، وأي وزن للوعد والشروط إذا أدت الى ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. ان الفرائض النفسية وغيرها لا تصدها وتقاومها إلا قوة أقوى منها وأصلب ، ولا شيء أصلب من الإيمان الصحيح .. انه يتغلب على جميع الأهواء والشهوات ، ومن تغلب عليه شيء منها فما هو من الإيمان الصحيح في شيء ، وان صلى وصام وحج إلى بيت الله الحرام .

سورة الكهف

هذا فراق بيني وبينك .. لك طريق ، ولي طريق .. هكذا قال لموسى صاحبه .
وقبل ان يفترقا أخبره العبد الصالح بحكمة ما أنكر (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في
البحر فأردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) . والعاقل
يتحمل الضرر لدفع ضرر أكبر ، كما قال الشاعر « تحملت بعض الشر خوف
جميعه » . ومن هنا اتفق الفقهاء على ان الضرر الأشد يُدفع بالضرر الأخف ،
وإذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفها ، واستخرجوا من
هذه القاعدة الكثير من الأحكام ، منها جواز قطع العضو الفاسد إذا عرض صاحبه
للهلاك .

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغياناً وكفراً فأردنا أن
يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً) أي أرحم بهما وأبر ، وروي عن
الامام جعفر الصادق (ع) ان الغلام كان في سن البلوغ ، وكان كافراً ، وانه
كان يعمل جاهداً لحمل أبويه على الكفر ، تماماً كما يفعل الآن بعض الشباب من
غلمان هذا العصر .. وقد أدركنا أكثر من واحد من كبار العلماء بالدين كانوا محل
الثقة والتقديس في جميع الأوساط ، حتى إذا بلغ غلمانهم هدموا كل ما بنسائه الآباء
في السنين الطوال .. واشتهر عن الإمام علي (ع) انه قال : « ما زال الزبير
معنا حتى أدرك فرخه عبد الله » . ويقول أحمد أمين المصري في كتاب حياتي :
ها أنا ذا في شيخوختي قد أقبل ما كنت أرفض ، وقد أتنازل عن بعض
المبادئ التي كنت ألتم ، للواسطة وأحاديث الناس وكثرة الأولاد .. ويعجبني
قول القائل :

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما رمانى زمساني بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتني ولدت كبيراً ثم عدت الى الصغر

(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما
صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن
أمرى ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً) . المراد بالأشد الحلم والرشد، ويتلخص
المعنى بأن الجدار هو لصغيرين ، وتحته مال مدفون ، فأراد الله سبحانه أن يحمي

الجزء الخامس عشر

لها هذا المال ، ويحفظه من الضياع ببقاء الجدار قائماً حتى يكبر أو يعقلا ، فيستخرج المال بأنفسهما ، وقد كان أبوهما من أهل الصلاح « والله يصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده » فأمرني ربي أن أصلحه ففعلت ، هذا هو تفسير ما ثقل عليك فهمه والسكوت عنه .

ومكان العظة في هذه القصة ان لا يعجب المرء بنفسه ، ولا يبادر الى الحكم على الشيء حكماً مطلقاً ، وهو لا يعرف إلا جهة واحدة من جهاته ، بل لا بد من ملاحظة جميع الجهات بدقة ، ومقارنة بعضها مع بعض ، ثم ملاحظة الأفضل منها ، فإن المصالح والمضار متشابكة .. فما من أمر نافع إلا وفيه بعض الضرر ، وما من أمر ضار إلا وفيه بعض النفع ، والعبرة دائماً بالأكثر .

الجزء السادس عشر

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَاتَّبَعَ سَبِيلًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا *

اللغة :

الذكر الحبر ، ومكنا له جعلنا له قوة وسلطاناً . وآتيناه من كل شيء سبباً أي مهدينا وهيانا له السبب الذي يوصله الى ما يبتغي ويريد . ومغرب الشمس مكان غروبها في رؤية البصر أي المغرب . والحما الطين الأسود ، وعين حمئة ذات طين أسود . ونكراً فظيماً . ومطلع الشمس مكان شروقها بحسب الرؤية أي المشرق .

الإعراب :

حمئة صفة لعين على حذف مضاف أي ذات حمأ . والمصدر من أن تعذب

سورة الكهف

مبتدأ والخبر محذوف . ومثله أن تتخذ أي إما التعذيب واقع منك وإما اتخاذ الأمر الحسن واقع منك . وجزاء الحسنى قرىء برفع جزاء من غير تنوين ، وعليه فجزاء مبتدأ مؤخر والحسنى مجرورة بالاضافة وله خبر مقدم، وقرىء بنصب جزاء مع التنوين ، وعليه فالحسنى مبتدأ وله خبر وجزاء حال من ضمير له مثل : في الدار قائماً زيد . وكذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك .

المعنى :

(ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) . اختلفوا في ذي القرنين هذا من هو ؟ . قيل : انه كان ملكاً من الملائكة ، وهذا غريب . وقيل : بل هو نبي . وعن الإمام علي (ع) انه عبد صالح . ولا ريب في صلاحه ، لأن أفعاله وأقواله التي سجلها الله في كتابه تشهد له بالفضل والصلاح . وقيل : هو اسكندر المقدوني تلميذ ارسطو ، وكان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة .. وهذا أغرب الأقوال لأن اسكندر المقدوني وثني يعبد الأصنام ، وذو القرنين يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقل الرازي وأبو حيان الأندلسي عن أبي الريحان البيروني ان ذا القرنين عربي يمني من قبيلة حير ، واسمه أبو بكر .

وأيضاً اختلفوا : لماذا لُقِب بذي القرنين ؟ . فقيل : لأنه كريم الأبوين ، وقيل : كانت له ضفيرتان ، وقيل : لأنه ملك الشرق والغرب ، الى غير ذلك من الأقوال والخلافات التي لا تمت الى مقاصد القرآن بسبب .. ومتى اهتم القرآن بالأسماء وأسباب التسمية ؟ ولو كان فيها شيء من النفع والخير لما سكت عنها . فغريب من المفسرين أن يشغلوا أنفسهم والناس معهم بما لا خير فيه دنياً وآخرة . ومن أجل هذا نقف عند ظاهر النص، ونقول : ان أناساً سألوا الرسول الكريم (ص) عن رجل يقال له ذا القرنين ، فأمره الله سبحانه أن يقول للسائلين : سأخبركم بطرف من سيرته .

(انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً) . والمراد بالسبب هنا كل ما يتوصل به الانسان الى ما يطلبه ويبتغيه ، كالعلم والقدرة والصحة والمال والرجال والآلات ، وفوق ذلك توفيق الله وعنايته ، وقد توافرت هذه القوى

الجزء السادس عشر

بكاملها لذي القرنين ، وبها أصبح قوياً مهيباً، وهذا هو معنى تمكينه في الأرض..
وتدل الآية دلالة واضحة على ان الله سبحانه يوجد الأشياء بأسبابها .

(فاتبع سبباً) . مهتد الله الأسباب وهيأها لذي القرنين ، فاغتنمها واستغلها
في الخير وصالح الأعمال . من ذلك ذهابه الى المغرب الذي أشار اليه سبحانه
بقوله : (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) . المراد
بمغرب الشمس بلاد المغرب ، ومن الواضح ان الشمس لا تدخل العين فتعين ان
يكون المراد بالعين الحمئة البحر الذي يترأى للانسان ان الشمس تغيب فيه ،
وهذا البحر من بحار المغرب ، وكان على شاطئه طين أسود ، ولكن أي بحر
هو ؟ الله أعلم . ويقول الشيخ المراغي : انه المحيط الأطلنطي .

(ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين اما ان تعذب وإما أن تتخذ فيهم
حسناً) . ضمير عندها يعود الى العين ، وظاهر الآية بعفوها يدل على ان الله
سبحانه ترك لذي القرنين أمر التصرف في أهل تلك البلاد ، ان شاء عليهم ،
وان شاء أحسن اليهم .. ومن الواضح ان هذا لا يتفق مع عدالته تعالى ، ولكن
إذا عطفنا هذه الآية على الآيات الآمرة بقتل الكفار والمشركين ان أصروا على
الكفر والشرك ، اذا جمعنا الآيات في كلام واحد دلت بمجموعها على ان القوم
الذين وجدهم ذو القرنين في المغرب كانوا كفاراً ، وانه عرض عليهم الإيمان
فامتنعوا .

وتسأل : هل يجوز الاحسان الى الكفار ؟

الجواب : يجوز إذا لم يقاتلونا في الدين ، ولم يخرجوا أحداً من دياره ، قال
تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم
أن تبروهم وتقسطوا اليهم - ٨ الممتحنة » .

(قال - ذو القرنين - اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه
عذاباً نكراً واما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا
يسراً) . هذا هو الدستور لحكم ذي القرنين وسلطانه ، ويتلخص بهذه الكلمة :
السيف لمن عصى الله ، والحسنى لمن أطاعه .. ان المال والعلم والسلطان نعمة
عظمى يمتحن الله بها عباده . فأما الاشرار فتزيدهم كفراً وطغياناً ، واما الأخيار

سورة الكهف

فيتخذونها وسيلة الى طاعة الله ومرضاته ، كما فعل ذو القرنين .

(ثم اتبع سبياً) رجع ذو القرنين من المغرب الى المشرق الذي أشار اليه تعالى بقوله : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) . المراد بمطلع الشمس المشرق ، وضمير وجدها ودونها يعودان الى الشمس ، والمراد بالستر هنا البناء وما اليه كالأكواخ والخيام والكهوف ، والمعنى ان ذا القرنين حين وصل الى بلاد في الشرق وجد قوماً في أرض مكشوفة للشمس ، وحياتهم بدائية كوحوش الفلوات ، ورجح بعض المفسرين ان هذه الأرض تقع على شاطئ افريقية الشرقي .. ولم يذكر سبحانه ماذا فعل ذو القرنين بهؤلاء : هل أحسن لمن آمن وعمل صالحاً منهم ، وعذب من أصر على الكفر ، أو تركهم وشأنهم لأنهم كالحوانات غير مسؤولين عن شيء ، أو لسبب آخر ؟ الله أعلم . (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً) أي هذا هو أمر ذي القرنين الذي أحطنا بجميع أخباره وأحواله .

ياجوج وماجوج الآية ٩٣ - ١٠٠ :

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيًّا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهَا قَوْمًا
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا
حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ
يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ

وَعَدُّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَاةً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ
يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا *

اللغة :

الخرج بفتح الحاء وسكون الراء الجعل . والرдем الحاجر . والزبر بضم الزاء
وفتح الباء جمع زبرة وهي القطعة . والصدف جانب الجبل . والقطر النحاس أو
الحديد أو الرصاص المذاب . ان يظهروه ان يعلوه . والصور قرن ينفخ فيه .

الإعراب :

ما مكني (ما) اسم موصول مبتدأ ، وخير خبر . وردما مفعول أول
لأجعل ، وبينكم وبينهم متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً . واسطاعوا أصلها استطاعوا
فحذفت التاء تخفيفاً . والمصدر من ان يظهروه مفعول لاسطاعوا . وجمعاً مفعول
مطلق .

المعنى :

(ثم اتبع سبياً) . رجع ذو القرنين الى بلاد ثالثة تقع شرقي البحر الأسود ،
يسكنها الصقالبة - كما قيل - وإليها أشار سبحانه بقوله : (حتى إذا بلغ بين السدين
وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً) . المراد بالسدين هنا جبلين ،
وكان القوم الذين وجدهم ذو القرنين هناك لا يفهمون لغته، ولا لغة من معه، ولا
هو ومن معه يفهمون لغة القوم، ولكنه فهم مطالبهم بالإشارة ، أو بواسطة مترجم
بدليل قوله تعالى : (قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض
فهل نجعل لك خرجاً على ان تجعل بيننا وبينهم سداً) . قال الشيخ المراغي في

سورة الكهف

تفسيره : « يأجوج هم التتر ، ومأجوج المغول ، وأصلها من أب واحد يسمى (ترك) وتمتد بلادهم من التبت والصين الى البحر المتجمد ، ومنهم جنكيزخان وهلاكو . ثم نقل المراغي عن مجلة المقتطف لسنة ١٨٨٨ ان سد ذي القرنين يقع وراء جيحون في عمالة بلخ ، واسمه الآن باب الحديد ، وهو بمقربة من مدينة ترمذ ، وان العالم الألماني « سيلدبرجر » ذكره في رحلته التي كانت في أوائل القرن الخامس عشر ، وأيضاً ذكره المؤرخ الاسباني « كلافيجو » في رحلته سنة ١٤٠٣ .

ومها يكن فقد طلب القوم من ذي القرنين أن يبني لهم سداً يمنع عنهم بأجوج ومأجوج ، فقد كانوا يغزون أرضهم ، ويسومونهم سوء العذاب قتلاً وسيياً ونهباً ، واشتروا على أنفسهم ان يجعلوا لذي القرنين جعلاً في أموالهم إذا هو بنى السد (قال ما مكني فيه ربي) وأعطاني من السلطان والمال (خير) مما آتاكم الله ، فأنتم الى مالكم أحوج ، فأنفقوه في مصالحكم (فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردماً) : المراد بالقوة هنا العمال وأدوات البناء ، وبالردم السد والحاجز (آتوني زبر الحديد) أي قطعاً منه (حتى إذا ساوى بين الصدفين) . الصدفان جانباً الجبلين لأنهما يتصادفان أي يلتقيان ، وفي الكلام حذف ، وتقديره فأتوه بالحديد ، فوضع بعضه فوق بعض حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما ، ثم أتوه بالوقود ، فأشعل فيه النار ، ووضع المنافخ و (قال انفخوا حتى جعله ناراً) أي نفخوا فصار السد كالنار اشتعالاً وتوهجاً ، وعندها (قال آتوني افرغ عليه قطراً) والقطر هو الصلب المذاب ، فأتوه به فصبه على الحديد المحمي ، فالتصق بعضه ببعض ، وصار جبلاً من حديد .

(فما استطاعوا) الضمير ليأجوج ومأجوج (ان يظهره) أن يصعدوا من فوقه لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقباً) لصلابته وكثافته (قال هذا رحمة من ربي) . هذا اشارة الى السد ، وفي قال ضمير يعود الى ذي القرنين ، وقد حمد الله سبحانه على هذه الرحمة والنعمة التي أتمها على يده .. وهكذا المؤمن المخلص يتواضع لله ، ويشكره كلما تابعت نعم الله عليه .

وبناء هذا السد أصدق مثال على انه قد كان في تاريخ الانسانية تعاون وتعاطف

الجزء السادس عشر

بين الدول الغنية الكبرى ، والدول الضعيفة «النامية» ، بين الشعب الذي يملك أسباب التطور ، والشعب الذي لا يملكها .

وقوة الولايات المتحدة تشبه الى حد بعيد قوة ذي القرنين من حيث ان كلاً منهما لا تضارعها قوة في عصرها ، ولكن الفرق بعيد جداً من حيث النتائج، فإن ذا القرنين كان بكل ما يملك من قوة ملكاً لخير البشرية واسعادها ، أما قوة الولايات المتحدة فهي لحماية الشر والصهيونية ، وللسيطرة على المقدرات والأسواق والأفكار لمصلحة الاستعمار والرجعية بشتى صورها وأشكالها ، والشواهد على ذلك لا يبلغها الاحصاء ، فن مناصرة الصهاينة ضد العرب الى تغذية العنصرية في بلادها وفي روديسيا ، ومن الانقلابات العسكرية في افريقيا وغيرها الى ضرب القوى التحررية في الكونغو وفي كل مكان ، أما فيتنام فقد حشدت لتدميرها الجيوش ، وعبأت كل ما لديها ، ولكن صمود الشعب الفيتنامي لقن الولايات المتحدة درساً في الهوان والذل لا تنساه مدى الحياة .. وكل ما حققته الولايات المتحدة من النجاح فهو جزئي مؤقت يذهب مع نضال الشعوب الذي يزداد يوماً بعد يوم .

(فإذا جاء وعد ربي جعله دكاءً) . ضمير جعله للسد ، ودكاء أي مستويماً مع الأرض ، والمعنى أنه متى دنا الوقت الذي يخرج فيسه بأجوج ومأجوج من وراء السد هياً الله أسباب هدمه وزواله (وكان وعد ربي حقاً) لا ريب فيه، قال الشيخ المراغي : « وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان وسلائله فعاثوا في الأرض فساداً » . وفي تفسير الرازي ان وعد الله هنا يوم القيامة، وفي تفسير الطبرسي ان هذا الوعد يأتي بعد قتل الدجال ، أما نحن فنميل إلى قول المراغي لأنه أقرب الى قوله تعالى :

(وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) . فإنا نفهم منه ان يأجوج ومأجوج ينتشرون في الأرض بعد خراب السد ، ويفسدون على الناس حياتهم ، قال تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون - ٩٦ الأنبياء » . هذا ، الى أنه لو كان المراد بمجيء وعده تعالى يوم القيامة أو بعد الدجال لكان السد موجوداً الآن كما هو .. ومن الواضح انه لو كان لبان ، بخاصة وقد جعل العلم الكرة الأرضية وسكانها أشبه بالأسرة الواحدة يضمها بيت واحد (ونفخ في

سورة الكهف

الصور فجمعناهم جمعاً) . وهذا اليوم هو خاتمة المطاف للأولين والآخرين .
وفي تفسير الطبري ان رسول الله (ص) سئل عن الصور ؟ . فقال : هو قرن
ينفخ فيه . وبعد ، فإن الذي قلناه عن بأجوج ومأجوج ، أو نقلناه عن الغير
إنما هو على التقريب ، لا على التحقيق ، لأننا لم نجد مصدراً يُركن اليه ، ومن
أجل هذا نكتفي بما دل عليه ظاهر القرآن الكريم ، ونترك التفاصيل إلى غيرنا .

جهنم والآخرين أعمالاً الآية ١٠١ - ١٠٧ :

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي
غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا *
قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا *

اللغة :

نُزُلًا ما يُهَيَّؤُ لِلنَّزِيلِ ، وهو الضيف . وأيضاً يطلق على المنزل .

الإعراب :

حسب تتعدى إلى مفعولين . والمصدر من ان يتخذوا ساداً مسدھما . وأعمالاً
تميز . والذين ضل خبر لمبتدأ محذوف ، فكأنه قيل : من هم الأخسرون ؟ فقيل :
هم الذين ضل الخ . ووزنا مفعول نقيم أي فلا نجعل لهم ثقلاً ، وقال أبو البقاء :
تميز أو حال . وذلك مبتدأ وجزاؤهم خبر ، وجهم بدل من « جزاؤهم » .

المعنى :

(وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) . يشاهد المجرمون غداً منازلهم في
جهنم قبل ان يقادوا اليها ، ليكتبوا بنارين : نار الرعب ، ونار الحريق (الذين
كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى) . الذكر يُسمع بالأذن ، ولا يرى بالعين ،
وعليه يكون غطاء العين هنا كناية عن حقد الكافرين على رسول الله (ص) والمؤمنين ،
وانهم كانوا لا يطيقون النظر اليه (ص) واليهم (وكانوا لا يستطيعون سماعاً)
لذكر الله من رسوله الكريم . وبكلمة ان المجرمين لا يطيقون سماع الحق ، ولا
النظر الى أهله .. وهذا ما نشاهده بالعيان ، وهو نتيجة حتمية للصراع بين الحق
والباطل ، والخير والشر .

(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) . المراد بعبادي
هنا المخلوقات التي اتخذها المشركون أنصاراً من دون الله ، وفي الكلام حذف
أي أفحسب هؤلاء انا غافلون عنهم ؟ .. كلا (انا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً) .
هيانا لهم مكاناً في جهنم يليق بشأنهم .. وهذا تماماً كقولك لمن تستخف به
وتحتقره : أتحسب اني لا اقدرك ، كيف وأنت كهذا الخذاء ؟

قيمة الانسان

(قل هل انبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون

سورة الكهف

انهم يحسنون صنعا) . ويتلخص المعنى بأن أخسر الناس صفة ، وأخيبهم سعياً هو الجاهل المركب الذي يرى جهله علماً ، وشره خيراً ، واساءته احساناً .. وليس من شك ان هذا خائب خاسر في الدنيا لأنه يعيش في غير واقعه ، وهو كذلك في الآخرة لأنه يلقي الله غداً بالجهل والغرور وسوء الأعمال .

وتومىء الآية الى ان قيمة الانسان الحقيقية لا تقاس بنظرته الى نفسه ، لأن الحضم لا يكون حكماً ، ولا بنظرة الناس اليه ، لأنهم يستعون الخائبين والمنافقين عملياً ، وان ضاقوا بهم نظرياً ، وانما تقاس قيمة الانسان بقيمة القرآن ومبادئه ، والالتزام بتعاليمه وأحكامه ، تقاس بالصدق والعدل ونصرة الحق وأهله ، والتضحية في سبيل ذلك بالنفس والمال ، والقرآن الكريم مليء بهذا النوع من التعاليم ، مثل قوله تعالى : « كونوا مع الصادقين .. كونوا قوامين بالقسط .. كونوا أنصار الله .. كونوا ربانيين .. جاهدوا بأموالكم وأنفسكم » . وفي قوله : ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، غنى عن كل شاهد .

وتسأل : ان المخطيء يرى نفسه مصيباً ، وانه قد أحسن صنعا باصابة الواقع ، فينبغي أن يكون من الأخسرين أعمالاً ، مع انه لا عصمة إلا لمن له العصمة ؟ . الجواب : ان المخطيء على قسمين : الأول أن يخطيء بعد البحث والتدقيق ، تماماً كما يفعل الأكفاء بحيث تكون النتيجة التي توصل اليها هي غاية ما يمكن أن يتوصل اليها العالم المجد .. وليس من شك ان هذا المخطيء ليس من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وان خطاه لا عيب فيه ، بل ان صاحبه مأجور على ما بذل من جهد ، كما جاء في الحديث الشريف ، على شريطة أن يكون على نية الرجوع عن خطئه متى انكشف له الصواب .

القسم الثاني : أن يخطيء لأنه جزم وحكم بمجرد الحدس والوهم ، وقبل أن يبحث ويلاحظ ، لأنه يجهل أصول البحث والملاحظة العلمية ، أو يعرفها ولم يستعملها اطلاقاً ، أو استعملها ناقصة ، فحكم قبل أن يستكمل ويستوعب جميع الملاحظات ، وهذا المخطيء من الأخسرين أعمالاً ، ما في ذلك ريب ، لأن الله سبحانه أمر بالتدبر والتثبت ، ونهى عن التسرع والقول بغير علم .

وبعد، فإن الدرس الذي يجب أن نستفيده من هذه الآية هو أن نكون صادقين مع أنفسنا ، فلا نصفها بغير ما هي فيه ، ولا نخدعها بالقول الكاذب .. وأيضاً

الجزء السادس عشر

يجب أن نحاسبها حين توحى إلينا بالغرور والتعظيم قبل أن يحاسبنا الله والناس ، وأن لا نتخذ موقفاً متمسك فيه بآرائنا وأقوالنا، فنعتقد أنها مقدسة لا يمكن الارتياب فيها بحال .. ان الخطأ جائز على الجميع بل ومكتوب أيضاً .. والغريب ان الأدعياء يسلمون بهذا المبدأ ، ولكنهم ينكرون نتيجته الحتمية .

(أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) . أولئك اشارة للأخسرين أعمالاً ، وقرينة السياق تدل على ان المراد بالذين كفروا بآيات ربهم ولقائه هم « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا » سواء أكفروا بالبعث ، أم آمنوا به ، فالعبرة عند الله بالامان والعمل معاً ، لا بمجرد الايمان (فحبطت أعمالهم فلا نقسيم لهم يوم القيامة وزناً) أي قدراً لأنه لا كرامة عند الله إلا لمن اتقى .

(ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي هزواً) . كفروا بالله ، وسخروا من الحق وأهله، وهذا منتهى الفساد والضلال ، والنار هي الغاية لكل ضال فاسد .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات الآية ١٠٨ - ١١١ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا *
تَحَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا * قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ
رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا *
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ
يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *

اللغة :

الفردوس البستان . والحول التحول . والمراد بالمداد هنا الحبر .

سورة الكهف

الإعراب :

خالدين حال . ومدداً تمييز .

المعنى :

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) . بعد أن توعد سبحانه الكافرين بجحيم وعد المؤمنين بالجنة ، والفردوس من المنازل العليا في الجنة ، قال الرسول الأعظم (ص) : اذا سألت الله فاسأله الفردوس (خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً) . والحول التحول ، والمعنى ان الله سبحانه يجزي المؤمنين الصالحين بما لا يرضون عنه بديلاً ، فهو كاف واف بجميع ما يبتغون ، وتومي الآية الى انه لا طمع في الآخرة ، وإلا فإن الطامع لا يقنعه شيء .

(قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) . البحر اسم جنس يشمل كل البحار، والمداد الحبر ، ونفذ انقطع وفي ، والمراد بقبل أن ينفذ ان كلماته تعالى لا تنفذ اطلاقاً ، وجئنا بمثله مدداً أي زدنا عليه ما يماثله في الكثرة ، والمعنى لو فرض ان البحار بكاملها حبر يكتب به كلمات الله لانتهى الحبر ، وبقيت كلماته الى ما لا نهاية ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله - ٢٧ لقمان » .

وليس المراد بكلمات الله هنا الألفاظ المؤلفة من الحروف الهجائية ، ولا الأمر الفعلي الذي هو عبارة عن قوله كن فيكون ، لأن هذا الأمر واحد لا تعدد فيه : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر - ٥٠ القمر » ، وإنما المراد بكلماته هنا القدرة على إيجاد الكائنات متى شاء ، سواء أقال لها كوني بالفعل ، أم يقول في المستقبل القريب أو البعيد، وهذه القدرة لا آخر لها ولا نهاية ، أما البحار والأشجار ومثلها معها فهي متناهية ، وكل متناه إلى نفاذ .

وبكلام آخر ان كل شيء موجود أو سيوجد - ما عدا الله - فهو بائد ومنقطع ، أما قدرته تعالى على إيجاد الأشياء فهي باقية ببقائه .. ونوضح الفكرة بهذا المثال :

الجزء السادس عشر

رجل يعرف اصول الزراعة ، فمعرفة هذه الأصول تلازم ذاته ، ولا تفارقها ، أما زرعه وغرسه فيفنى ويزول ، وقدرة الله سبحانه لا تشح ولا تنضب لأنها أزلية أبدية ، أما خلقه فحادث ، ولكل حادث بداية ، ولكل بداية نهاية .
(قل انما أنا بشر مثلكم) لا أمتاز عنكم بشيء إلا انه (يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد) قال ابن عباس : « علم الله نبيه التواضع بهذه الآية ، فأمره ان يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره سوى ان الله أكرمه بالوحي » ونعطف نحن على قول ابن عباس : وكثلا يقول المسلمون في محمد (ص) ما قاله النصارى في عيسى (ع) .

(فمن كان منكم يرجو لقاء ربه) وحسابه وثوابه وعقابه (فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) . وكل من عمل لغير الله فقد أشرك بعبادته ، سواء أقال بتعدد الآلهة ، أم لم يقل ، والفرق ان القول شرك عسني ، والرياء شرك خفي ، وفي الحديث : « من صلى رياء فقد أشرك ، ومن صام رياء فقد أشرك » وعلى هذه الصلاة ، وهذا الصيام فقس ما سواهما .

سُورَةُ مَرْيَمَ

مكية ، وآياتها ٩٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرها الآية ١ - ٦ :

كَبِهَـنَّ كَهَيْـعَصَ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً * إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيئاً *
قَالَ رَبُّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ
رَبِّ شَقِيئاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ
لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً *

اللغة :

الوهن الضعف . واشتعل الرأس شيباً استعارة من اشتعال النار للشيب . والمراد
بالشقي هنا الخائب أي ما خيبتني من قبل في دعائي اياك . والموالي أقارب الرجل
من جهة الأب . ومن ورائي من بعدي . وولياً أي وارثاً . ورضياً مرضياً عندك .

الإعراب :

ذكر خبر لمبتدأ محذوف أي هذا ذكر . وعبدته مفعول لرحمة لأن المعنى ان

الجزء السادس عشر

ربك رحم عبده أو مفعول لفعل محذوف أي أعني عبده . وزكريا بدل من عبده .
وشيباً تمييز محمول عن فاعل ، لأن المعنى اشتعل شيب الرأس .

المعنى :

(كهيصن) تقدم نظيره مع التفسير في أول سورة البقرة (ذكر رحمة ربك
عبده زكريا) . في هذه الآيات يقص سبحانه على نبيه محمد (ص) : كيف
رحم عبده ونبيه زكريا ، وأنعم عليه بولده يحيى .. وزكريا من نسل سليمان
ابن داود ، وكان متزوجاً بحالة مريم ، وكان كافلاً لها ، وتقدمت الإشارة الى
ذلك عند تفسير الآية ٣٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٣ . وقيل ان زكريا
كان نجاراً (اذ نادى ربه نداء خفياً) . دعا الله بينه وبينه :

و (قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربى
شقياً) . تقدم السن بزكريا دون أن يرزق ولداً ، ولذا تضرع الى الله شاكياً
ضعفه وشيخوخته ، وقال فيها قال : « رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين
- ٨٩ الأنبياء » . أدعوك يا إلهي ، وأنا غير يائس من فضلك ورحمتك :
كيف ؟ ولم تحيب من قبل رجائي فيك ، وحاشاك ان توجهني في حاجتي الى
سواك .

(واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك
ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رباً رضيعاً) . زكريا شيخ كبير ،
وامراته عجوز عقيم ، فخاف ان جاء أجله ان يرثه بنو عمومته ، وهم من بني
اسرائيل ، وقيل : انهم كانوا من شرار الناس .. وليس هذا ببعيد على اسرائيل ..
فاذا ورثوه أساءوا الى الناس ، وأفسدوا عليهم دينهم ودنياهم ، ورغم شيخوخة
زكريا وعقم زوجته فإنه كان عظيم الثقة بخالقه ، ولذا دعاه أن يجبر كسره ،
ويقضي حاجته .

سورة مريم

البشارة يحيى الآية ٧ - ١١ :

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا *
قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ
قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ
أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *

اللغة :

عتياً أي بلغ من الكبر الى حال ييست معها مفاصله وعظامه . والآية العلامة .
وسوياً صحيحاً ، لياً من كل آفة . والمحراب المصلّى .

الإعراب :

اسمه يحيى مبتدأ وخبر ، والجملة صفة لغلام . وانى خبر مقدم ليكون . وسوياً
حال من ضمير تكلم . وان سبحوا (ان) مفسرة بمعنى أي .

المغنى :

(يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً) . استنجاب
الله دعاء زكريا ، وبشره بأنه سيولد له ذكر ، وان الله سبحانه سماه يحيى ،

الجزء السادس عشر

وهو في صلب أبيه ، وما سُمي أحد من قبله بهذا الاسم . وقيل : ان يحيى هو يوحنا المعروف بالمعمداني عند المسيحيين .

(قال رب انى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً) . ليس هذا استبعاداً ، بل تعظيماً وشكراً لأنعم الله وقدرته التي تخطت السنن والعادات ، فهو شيخ كبير ، وزوجته عجوز عقيم ، ومع هذا قد من الله بالعطاء ، وأنعم بالولد .

(قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) . قائل القولين واحد ، وهو الله أي ان الله قال لذكريا : قال ربك الخ ، وقد جرى كثير من المؤلفين المسلمين على ذلك ، فيقول أحدهم : « قال محمد هو ابن مالك » يعني نفسه ، ومثله قول الطبري عن نفسه : قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري .. ولا شيء صعب على الله ، فالأشياء لديه سواء لا يحتاج وجودها إلا الى كلمة « كن » .

(قال رب اجعل لي آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيماً) . المراد بأوحى اليهم أو ما اليهم بيده أو كتب . لأنه ممنوع عن الكلام . وتقدم التفصيل عند تفسير الآية ٤١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٤ .

يحيى الآية ١٢ - ١٥ :

يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا *

سورة مريم

اللفظة :

المراد بالكتاب هنا التوراة . والحنان العطف والرحمة . والزكاة الطهارة .
والتقوى طاعة الله . والجبار المتعالي الذي لا يخضع لشيء . والعصي العاصي .
والسلام الأمان .

الإعراب :

بقوة متعلق بمحذوف حالاً من يحيى . وصيباً حال . وحناناً عطف على الحكم .
وبراً عطف على « تقياً » .

المعنى :

(يا يحيى) اكنفى سبحانه بهذا النداء عن القول : ان يحيى قد ولد ، وانه
أصبح يعقل ويفهم ما يقال له ، وقادراً على العمل بالتوراة ، وهي الكتاب الذي
عناه الله بقوله : (خذ الكتاب بقوة) ومعنى أخذه بقوة التزام العمل به بحمد
واخلاص . ثم وصف سبحانه يحيى بالأوصاف التالية :
(وآتيناه الحكم صبياً وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً وبراً بوالديه ولم يكن
جباراً عصياً) . المراد بإيتاء الحكم صبياً التفقه بالدين في سن مبكرة ، وهذه نعمة
من الله نخص بها يحيى ، كما خصه بالولادة من أبوين كبيرين ، والله سبحانه يختص
برحمته من يشاء ، وفي بعض الروايات ان الغلمان قالوا يوماً ليحيى : هيا بنا
نلعب . فقال : ما للعب خلقنا ، اذهبوا بنا للصلاة . والحنان الرحمة بالعباد ،
والزكاة الطهارة والقداسة ، والتقوى طاعة الله ، والبر بالوالدين ضد العقوق ،
وقوله تعالى : (ولم يكن جباراً عصياً) عطف تفسير ، لأن الزكي التقي غير
الجبار العصي .

(وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) . هذا كناية عن أن
يحيى مرضي عند الله دنياً وآخرة ، ومن الواضح ان رضاه تعالى نتيجة طبيعية
للنعوت التي نعت الله بها يحيى (ع) .

الجزء السادس عشر

وتسأل : لماذا خص الله يحيى بهذه الصفات الجلى ، وهو صبي ؟ .

الجواب : ان الله شؤووناً في خلقه ، فقد يمنح الفضل للصغار ، ويمنع الكبار منه ، ولكل من عطائه ومنعه حكمة قد تدركها العقول، وقد تعجز عن ادراكها.. ولكنها تحاول ، وغير بعيد أن يكون القصد من اتصاف يحيى بهذه الصفات في مثل سنه هو إلقاء الحجة على بني اسرائيل اذا اختلفوا فيه ، ولم يستجيبوا لنصحه ودعوته ، وقد خلق الله عيسى من غير أب « لنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً » وتأتي هذه الآية في المقطع التالي .

وبرغم هذه الحجة الدامغة فقد عصوا يحيى وتمردوا عليه، وأخيراً قتلوه وقتلوا أباه ، لا لشيء إلا لنهيها عن المنكر .. ولا يكثر هذا على من قال عن الله : يدها مغلولتان .. هو الفقير ونحن الأغنياء .

وفي قصص الأنبياء ان هيرودوس حاكم فلسطين آنذاك عشق هيروديا بنت أخيه لجمالها ، وعزم على الزواج منها ، ولما أنكر ذلك يحيى سخطت عليه هيروديا ، واشترطت على عمها أن يكون رأس يحيى مهراً لها ، فذبحه وأهداها الرأس .. واشتهرت الرواية عن علي بن الحسين بن علي (ع) : ان أباه حين توجه الى العراق كان يكثر من ذكر يحيى ، ويقول : من هوان الدنيا على الله ان رأس يحيى بن زكريا اهدي الى بغية من بغايا بني اسرائيل .

مرم الآية ١٦ - ٢١ :

وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ

سورة مريم

وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيَّ هِينٌ
وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *

اللغة :

انتبذت اعتزلت . ومكاناً شرقياً الى جهة الشرق . وروحنا جبريل . وسويأ
كامل البنية . وأعوذ اعتصم . ومقضيأ محتمأ .

الإعراب :

مريم على حذف مضاف أي خبر مريم . ومكاناً ظرف منصوب بانتبذت أي
في مكان شرقي . وبشراً سويأ حال لأن المعنى نمثل كائناً على صورة البشر السوي .
وأنتى خبر مقدم ليكون . وكان أمراً اسم كان محذوف أي وكان خلقه أمراً
مقضيأ .

المعنى :

(واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم
حجاباً) . يدل ظاهر الآية ان مريم اعتزلت عن أهلها ، وخلت بنفسها في مكان
شرقي ، وانها جعلت بينهم وبينها ستراً ، بحيث لا تراهم ولا يرونها . ولماذا اعتزلت
مريم ؟ لأنها رأت ما تكره ، أو لتصرف الى العبادة أو لغير ذلك ؟ وهل
المراد بالمكان الشرقي المكان الذي تشرق عليه الشمس ، أو المكان الذي يقع شرقي
بيت المقدس ، أو شرقي دار أهلها ؟ . وأيضاً ما هو نوع الحجاب الذي اتخذته
من دونهم هل هو حائط أو كوخ ؟ .. لا شيء في الآية يشير الى الجواب عن
هذه التساؤلات ، لأنها لا تمت الى العقيدة ولا الى الحياة بسبب . وغير بعيد أن

الجزء السادس عشر

يكون الله سبحانه قد ألهمها الى هذه الحلوة ليُعلمها جبريل بولادة عيسى (ع) ، وهي في معزل عن الناس .

(فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) . المراد بروحنا جبريل ، وقد تمثل أمامها في صورة انسان تام الحلقة . وفي بعض التفاسير انه جاءها في صورة الانسان لتأنس به ، وفي تفسير ثانٍ انها خافت منه وذعرت لهذه المفاجأة .. غريب يقتحم عليها من غير استئذان ، وهي في عزلتها ؟ . ان هذا لشيء مريب .. وهذا القول أرجح وأصح بدليل انها فرعت و (قالت أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً) . استجير بالله من شرك ان كنت تؤمن به وبحسابه وعذابه ، خوفته من الله لأنها لا تملك وسيلة لردعه في مقامها هذا سوى التخويف من الله ، وإلا فهي مستجيرة بالله متوكلة عليه ، سواء أكان الذي خافته تقياً ، أم شقيماً .

(قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت انى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم اك بغياً) . تبشرني بغلام ؟ . كيف ؟ . ومن أين ؟ . ولا زوج لى ، ولا اقدم على الحيانة والفجور .. (قال كذلك قال ربك هو عسى هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً) . قال لها الروح الامين : ان أسباب الولادة لا تنحصر عند الله بالمضاجعة والمواقعة ، فكما أوجد الأشياء بأسبابها المألوفة فانه يوجدها أيضاً بكلمة «كن» تماماً كما أوجد الكون من لا شيء ، وآدم من غير أب وأم .. وقد شاء سبحانه أن يجعل مولودك دليلاً واضحاً على عظمة الخالق ، ونبوة المولود ، وان يكون رحمة للانسانية ، وحجة دامغة على بني اسرائيل الذين حاولوا قتله . وشرحنا ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٤٥ وما بعدها من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦١ .

الحمل بعيسى الآية ٢٢ - ٢٦

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا * فَادَّأَهَا مِنْ تَحْتِهَا

سورة مريم

أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ
تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا بَهِينًا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ
مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا *

اللفظة :

قصياً بعيداً . وفأجاءها الأصل جاء فدخلت همزة التعدية على الفعل فصار
أجاءها مثل أقامه وأقعدته . والمخاض الطلق . والنسي الشيء الحقير الذي لا يؤبه
له . وللسري معان في اللغة ، منها الجدول والقائد . والجني من الشعر ما نضج
وصلح للاجتماع والقطف .

الإعراب :

ان لا تحزني (ان) مفسرة بمعنى أي ولا ناهية . ويجذع النخلة الباء زائدة
اعراباً . وفاعل تساقط ضمير مستتر يعود الى النخلة . ورطبياً حال منه . وإما
مركبة من كلمتين (ان) الشرطية وما الزائدة . وترين مضارع خوطبت به المرأة ،
ودخلت عليه نون التوكيد .

المعنى :

(فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً) قيل : ان جبريل نسخ في قبصها ،
فكانت نفضته سبباً للحمل ، ومصدر هذا القول ظاهر الآية ٩١ من سورة الأنبياء :
« والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » . والآية ١٢ من سورة التحريم :

الجزء السادس عشر

« ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ». وقد أشرنا أكثر من مرة الى ان آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً لأن مصدرها واحد ، واذا لاحظنا جميع الآيات الواردة بعيسى ومريم (ع) ، اذا لاحظناها على هذا المبدأ فهمنا من مجموعها ان المراد من النفخ الخلق واللقاء، وان المراد من الروح عيسى بالذات . والآية ١٧١ من سورة النساء تشعر بذلك ، قال تعالى : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » . وكلمته هي « كن » التي تخلق بها الأشياء ، ومعنى القائها الى مريم ان مريم أو بطنها هي مكان المخلوق . أنظر ج ٢ ص ٥٠٠ . ومهما يكن فإن مريم لما أحست بالحمل ابتعدت عن أهلها حياءً وتحرماً .

(فاجاءها المخاض الى جذع النخلة) . المخاض الطلق ومقدمات الولادة ، واجاءها بمعنى جاء بها ، والأصل جاء ، ثم دخلت همزة التعدية فصارت اجاءها مثل اجلسه وانامه . قال الرازي : « أجاء منقول من جاء إلا ان استعماله تغير الى معنى الاجاء » وعليه يكون المعنى ان المخاض ألقاها الى جذع النخلة لتستند اليه طلباً لتيسير الولادة (قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) . هذه الكلمة وأمثالها ينطق بها كل انسان عند الأزمات واشتداد الأمر عليه ، ينفس بها عن همه وكربه ، وما على قائلها من غضاضة ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مرتاباً بيقينه .

(فنادها من تحتها الا تخزني قد جعل ربك تحتك سرياً) . المراد بالسري جدول الماء . وأول ما يتبادر الى الأذهان من سياق الكلام ان المنادي هو عيسى (ع) وليس جبريل ، كما زعم كثير من المفسرين ، وهذا النداء من معجزات عيسى ، تماماً كولادته وإحيائه الموتى ، قال عيسى في نداءه لأمه (وهزني اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) . قيل : لم يكن الفصل فصل الرطب ، وان حمل النخلة له كان من باب المعجزة ، وليس هذا بعيداً لأن اللفظ يشعر به ، وان الوضع الذي كانت فيه مريم معجزات في معجزات .

(فكلي) من الرطب (واشربني) من الجدول (وقري عيناً) طيبي نفساً بمولودك المبارك (فإما ترين من البشر أحداً) وسألك عن المولود (فقولي) بالأيام والاشارة : (اني نذرت للرحمن صوماً) بالسكوت ، وقد كان صوم

سورة مريم

الاسرائيليين آنذاك (فلن أكلم اليوم انسياً) . ولا شيء لدينا مما نقوله هنا إلا شرح الكلمات شرحاً لغوياً ، حيث لا مجال للعقل في هذا الموضوع ، ما دام ظاهر اللفظ لا يصطدم مع حكم العقل . انظر فقرة الممتنع عقلاً والممتنع عادة ج ٢ ص ٦١ .

لقد جئت شيئاً فرياً الآية ٢٧ - ٣٥ :

فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتِ هُرُونَ مَا كَانَ لَكِ ابْنٌ سِوَى سَوْءِ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *

اللغة :

فرياً من الفرية . والمراد بها هنا دعوى الولادة بلا أب . والمهد الموضوع يهياً للصبي . والمراد بالكتاب الانجيل .

الإعراب :

جملة تحمله حال . وكيف نكلم (كيف) حال أي على أي حال نكلم ، أو مفعول مطلق على معنى أي كلام نكلم . ومن كان (كان) تامة بمعنى وجد ، وصيباً حال . وأينما (أين) شرط وما زائدة . وما دمت حياً (ما) مصدرية ظرفية أي مدة دوام حياتي .

المعنى :

(فأتت به قومها تحماه) . وضعت مريم وليدها ، فحملته الى قومها ، وهي آمنة مطمئنة لأن الحمل الذي تسبب في اتهامها هو أصدق شاهد على نزاهتها (قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريباً) بدعواك الحمل من غير دنس ومواقعة .. انها محض افتراء (يا أخت هرون) هو أخو موسى ، وهي من نسله ، والقصد تذكيرها بأصلها الطيب ، وانه اذا زكا الأصل يجب ان يزكو الفرع ، فكيف صدر منها ما لم يصدر مثله عن أصلها (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً) . فن تشبهين انت بفعالئك هذه التي لا يقدم عليها إلا من كانت بنتاً لرجل سوء ، او بنت امرأة بغية ! .

(فأشارت اليه) تستشهده على برامتها ، وهو أصدق الشاهدين ، لأنه ينطق بلسان الله (قالوا) متعجبين : (كيف نكلم من كان في المهدي صيباً) . ولكن الذي في المهدي كلمهم قبل ان يكلموه و (قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) أي سيجعني نبياً فيما بعد ، لأن الرضيع لا يكون قدوة للناس ، وحجة عليهم ، كيف وهو غير مسؤول عن أقواله وأفعاله فهل يكون مسؤولاً عن تبليغ رسالات الله الى عباده ؟ . وفيما سبق نقلنا عن الأناجيل ان عيسى بُعث في سن الثلاثين ، وانما تكلم في المهدي لتبرئة أمه من الزنا والفجور ، لا لأنه نبي مرسل ، انظر عيسى ونبوة الأطفال ج ٣ ص ١٤٤ .

(وجعلني مباركاً أينما كنت) . وكل من ينفع الناس بجهة من الجهات فهو مبارك وميمون ، وكل من يضار بواحد من الناس فضلاً عن الجماعة فهو شر

سورة مريم

وشؤم وفساد (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدني) . لقد أقر بهذا على نفسه بالطاعة والعبودية لله ، ونفى أن يكون إلهاً أو ولداً للإله أو شريكاً له كما يزعم النصارى (ولم يجعلني جباراً شقياً) كما يزعم اليهود ، بل هو عبد صالح ، ونبى مرسل كما يعتقد المسلمون (والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) سبق نظيره قريباً في الآية ١٥ .

(ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون) أي يشكون ويختلفون . هذه هي كلمة الحق والعلم والعدل في السيد المسيح ، لا هو جبار شقي كما قال اليهود ، ولا هو إله أو ابنه أو شريكه كما قال النصارى .. انه نبى يبلغ رسالات ربه ، وعبد من عباده يصلي ويزكي ، وهو مبارك ينفع الناس ، ومتواضع محسن لأمه وغيرها .

(ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . ولو كان لله أولاد لاحتكروا لأنفسهم جميع خيراتهم وبركاته، ومنعوها عن كل مخلوق ، وأفسدوا ما أصلح الأب ، ومالوا الكون شراً وضلالاً تماماً كما يفعل بعض أبناء الفسادة في هذا العصر . وتقدم نظير هذه الآية في سورة آل عمران الآية ٥٩ ، وسورة الإسراء الآية ١١١ .

هذا صراط مستقيم الآية ٣٦ - ٤٠ :

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ *

اللفظة :

المراد بالأحزاب طوائف أهل الكتاب . ومن بينهم أي ان الاختلاف لم يخرج عنهم كما تقول اختلفوا فيما بينهم . والويل الخزي والهوان . ويوم الحسرة يوم القيامة .

الإعراب :

أسمع بهم وأبصر اللفظ لفظ الأمر ، والمعنى الخبر مع التعجب ، والباء زائدة ، والضمير في محل رفع فاعلاً لأسمع ، ومثله أحسن بزبد أي حسن زيد ، أو ما أحسنه . وإذا قضي (إذ) بدل من يوم الحسرة .

المعنى :

(وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) : هذه الآية عطف على قول عيسى : (اني عبد الله الخ) يأمرهم فيها أن يعبدوا إلهاً واحداً ، ولا يشركوا به شيئاً ، وان دين التوحيد هو الطريق القويم من سلكه نجا ، ومن ضل عنه هوى (فاختلف الأحزاب من بينهم) وهم قوم عيسى ، قالت طائفة منهم : ان عيسى هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء . وقالت ثانية : هو ابن الله ، وقالت ثالثة : هو عبد الله .. كان هذا الخلاف فيما مضى ، أما اليوم فهم متفقون على ربوبية عيسى .

(فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) . والمراد بالذين كفروا هنا الطائفة الأولى القائلة : ان المسيح هو الله ، والثانية القائلة : هو ابن الله ، وهذه الآية تعبير ثان عن قوله تعالى : « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار - ٢٧ ص » . (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) حين يرى الكافرون العذاب يوم القيامة يقولون : « ربنا ابصرنا وسمعنا - الحق - فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون - ١٢ السجدة » ، وكانوا من قبل إذا دعوا إلى الحق يقولون : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر - ٥ فصلت » (لكن الظالمون اليوم في ضلال

سورة مريم

مبين (المراد باليوم هنا يوم القيامة ، وبالضلال العذاب ، حيث لا طريق في ذلك اليوم لا إلى الهداية ، ولا إلى الضلالة ، بل حساب وجزاء ، ولا شيء سواهما .

(وانذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) .
الخطاب في انذرهم للنبي (ص) ، ويوم الحسرة هو يوم القيامة ، وسمي بذلك لأن النفس المجرمة تقول غداً : « يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين - ٥٦ الزمر » ، وقضي الأمر آنذاك حيث لا اقالة ولا رجعة ، وهم في غفلة الآن حيث يمكنهم أن يرجعوا عن كفرهم وضلالهم ، ويطلبوا من الله العفو والصفح ، ولكنهم لم يفعلوا، واستحروا في طغيانهم يعمهون ، وقوله تعالى : (وهم لا يؤمنون) معناه أنهم لا يصدقون قولنا: أنهم سيبعثون ، بل يلوون رؤوسهم ، وهم يسخرون .

(انا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون) . الأرض ومن عليها لله، ولا أحد يملك معه شيئاً ، والانسان فيها عابر غير مقيم ، وكل ما في يده عارضة مسؤول عنها ومحاسب عليها .. وبالاختصار ان هذه الآية ترادف كلمة انا لله وانا اليه راجعون . والقصد منها تخويف العصاة وزجرهم من جهة، والتخفيف من حزن النبي (ص) وألمه لإعراض الكافرين عن دعوته من جهة ثانية .

إبراهيم الآية ٤١ - ٥٠ :

وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *
 قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي
 مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *
 وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
 بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ
 إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
 لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا *

اللغة :

الصديق مبالغة في الصدق والاخلاص . والصراط السوي الطريق القويم .
 وملياً دهنراً طويلاً . وحفياً كثير الحفاوة والاعتناء . وشقياً خائباً في مسعاه .

الاعراب :

إذ قال (اذ) ظرف متعلق بصديق . أبت أصلها أبي فحذفت ياء المتكلم
 وعوض عنها بالتاء المكسورة ولا يقال ذلك إلا في النداء ، فلا يجوز قال أبي ،
 وقالت أمي - كما في مجمع البيان - وشيئاً مفعول مطلق . وراغب مبتدأ وأنت
 فاعل ساد مسد الخبر مثل أقائم زيد . وملياً ظرف منصوب باهجرني والمصدر
 من ان لا اكون فاعل عسى ، وهي هنا تامة . وكلاً مفعول مقدم لجعلنا .

المعنى :

(واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً) . المراد بالكتاب هنا القرآن ، والصدق من اكمل الصفات وأفضلها ، والذي نفهمه من وصف ابراهيم بالنسوة بعد وصفه بالصدق انه صادق بطبعه وفطرته وان لم يكن نبياً .

عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢ ذكرنا اختلاف العلماء في المراد من أبي ابراهيم المذكور في القرآن : هل هو الأب الحقيقي ، أو الأب المجازي أي أخو الأب ، وقلنسا : انه لا جدوى من هذا النزاع ، وان على المسلم أن يؤمن بنسوة ابراهيم (ع) ، أما الاعتقاد بإسلام أبيه فليس من الدين في شيء ، وبخاصة ان ظاهر القرآن يدل على كفره .

ومهما يكن فإن ابراهيم دعا أباه الحقيقي أو المجازي الى الاسلام ، وقسال له فيما قال : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) . كان أبوه يعبد الأصنام ، فاحتج عليه بمنطق العقل والفطرة .. أحجار صماء ، لا تنفع ولا تضر تعبدها وتسجد لها ؟ فأين عقلك وفهمك ؟ .

(يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً) . كل الناس الذين يرفضون عبادة الأصنام هم أعلم وأعقل ممن يعبدها ، فكيف الأنبياء الذين يتلقون العلم من الله ؟ . وإذا كان الجهل ببعض الأمور عذراً يتذرع به الجاهل فإن الأصنام هي نفسها لا تدع لمن يعبدها عذراً ولا عاذراً .

(يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً) . المراد بعبادة الشيطان طاعته لأن من أطاع شيئاً فقد عبده ، وعلى هذا فكل من عصى الله في شيء فقد عبد الشيطان (يا أبت اني أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) أي موالياً ، ويجوز أن يكون « ولياً » على ظاهره ، ويكون المعنى ان الشيطان هو الموالي لعبدة الأصنام من باب المبالغة ، تماماً كما تقول : الناس يتعوذون من الشيطان ، والشيطان يتعوذ من فلان ، وعلى كل تقدير فإن القصد التخويف والتحذير من طاعة الشيطان ومتابعته .

(قال أرأغب أنت عن آهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً) . في ذات يوم من أيام دراستنا في النجف كنا نتحلق نحن التلاميذ حول الامتاذ ،

الجزء السادس عشر

وهو يشرح ويوضح مسألة هامة من مسائل أصول الفقه ، وبعد أن أيقن واطمأن الى تفهم الجميع ختم الدروس .. ولكن سرعان ما فوجيء باعتراض من أحد التلاميذ ، وكان اعتراضه بعيداً كل البعد عن موضوع الدرس .. فأعرض عنه الاستاذ ، ونظر الى سائر التلاميذ وقال : كان فيما مضى تلميذ يدرس الصوم وأحكامه ، واستمر في دراسته أكثر من شهر ، وبعد الانتهاء من دراسته ظن الاستاذ ان تلميذه قد أحاط علماً بالصوم من كل جهاته ، ولكن التلميذ قال للأستاذ : انك تكلمت وأطلت الشرح عن الصوم ، ولكن لم تفهم هل الصوم في الليل أو في النهار؟ .

وهذا بالذات ما حصل لابراهيم مع أبيه .. فبعد أن أورد له الأدلة بأساليب شتى ، واستعطفه بقوله : يا أبت أربع مرات أجابه بقوله : أراغب أنت عن آلهي ؟ وهل أنت عازم حقاً على أن لا تعبدها معي ؟ فإن كنت على هذا العزم فما لك عندي إلا القتل أو الرجم ، أو تغيب عن عيني ، وتهرب بنفسك .

(قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيماً) . أي ان الله عوّده على أن يستجيب له . تقدم نظيره في الآية ١١٤ من سورة التوبة ج ٤ ص ١١٠ (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً) . بغض ابراهيم قومه وأهله في الله ، وهجرهم لله ، فأبدله سبحانه خيراً منهم ، حيث وهبه اسحق ، ومن بعده يعقوب بن اسحق ، وشرفها بالنبوة . وهذا هو المراد بقوله تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) . وما ترك أحد شيئاً من أمور دنياه لاستصلاح دينه إلا عوضه الله خيراً منه .

(ووهبنا لهم من رحمتنا) لم يذكر سبحانه نوع الموهوب ، لأن كلمة رحمتنا توميء اليه ، وكفى بمرضاة الله هبة ونعمة (وجعلنا لهم لسان صدق علياً) . المراد بلسان الصدق ما يردده الناس جيلاً بعد جيل من حسن الثناء على ابراهيم واسحق واسماعيل ويعقوب .

وترتكز هذه الآيات على ان من أخلص لله استخلصه الله ، وكان معه أينما كان تماماً كما فعل بابراهيم (ع) .

سورة مريم

موسى واسماعيل وادريس الآية ٥١ - ٥٨ :

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ
مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ
هَارُونَ نَبِيًّا * وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ
رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا *
وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا
عَلِيًّا * أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ
حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا
إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا *

اللغة :

الطور جبل بين مصر ومدين . ونجياً مناجياً . واجتبتنا اصطفتينا .

الإعراب :

نجياً حال من ضمير قربناه . وهرون بدل من « أخاه » ونبياً حال من هرون .
وعند ربه متعلق « بمرضياً » . ومكاناً ظرف منصوب برفعناه . وسجداً وبكياً حال
أي ساجدين باكين .

المعنى :

(واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً) . المراد بالكتاب

الجزء السادس عشر

القرآن ، ومخلصاً بفتح اللام معناه ان الله قد أخلصه من كل ما يشين ، واصطفاه لنفسه ، ومعناه بكسر اللام ان اقوال موسى وأفعاله كلها خالصة لوجه الله ، ومعنى الرسول والنبي واحد ، والاختلاف انما هو بالنظر والاعتبار ، فمن حيث انه يحمل رسالة الله يقال له رسول ، ومن حيث انه ينبيء بها الذين ارسل اليهم يقال نبي ، وقيل : ان الرسول يتلقى الوحي ويبلغ ، والنبي يتلقى ولا يبلغ . ولا جدوى من هذا البحث .

(ونادينا من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) . الطور هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه ، والمراد بالأيمن يمين موسى لأن الجبل لا يمين له ولا شمال ، والمراد بقربناه نجياً قرب المكاة لا قرب المكان ، والمعنى ان الله شرف موسى بالنبوة والرسالة ، وكلمه بلا واسطة رسول ، بل كان الكلام يأتيه من جهة يمينه ، كما تقول : سمعت صوتاً من خلفي أو يميني (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) . يشير سبحانه بهذا الى قضية سابقة ، وهي ان الله سبحانه حين أمر موسى بالذهاب الى فرعون قال له موسى فيما قال : « واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزري - ٣٠ طه » فاستجاب له المولى و « قال قد أوتيت سؤلث يا موسى » .

الوفاء :

(واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) المعنى واضح لا يحتاج الى تفسير ، ومن المفيد أن نتكلم عن الوفاء لمناسبة قوله تعالى : كان صادق الوعد . لقد أثنى سبحانه على اسماعيل بأنه إذا وعد بشيء أنجز وعده، وذكر المفسرون ان اسماعيل وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان ، فتأخر الرجل ، وانتظر اسماعيل ثلاثة أيام أو أكثر .. وسواء أصحت هذه الرواية ، أم لم تصح فإنها ترمز الى ان على الانسان أن يبذل غاية ما يستطيع للوفاء بوعده ، وان من يتهرب من الوفاء فلا ينبغي أن يؤتمن على شيء ، بل لنا ان نصفه بالكذب والغدر ، حتى ولو

سورة مريم

كان في الوفاء خسارة مادية ، لأن الحسران في الدين أعظم ، فقد جاءت الرواية ان الوفاء بالعهد من علامات أهل الدين ، وان الدين المعاملة ، وقد اشتهر ان من لا وفاء له لا دين له .. وقرأت كلمة في الوفاء اقتتطف منها ما يلي :

« ان من يحمل الظروف تبعه الخلف بالوعد فإنما يحاول أن يهرب من اتهام نفسه ، فيتهم الظروف .. والوفاء كلمة جميلة الوقع في الاذن ، وجميلة الوقع في الحياة ، وأعني بالوفاء ، الوفاء للأهل والأصدقاء ، والعمل والمبدأ والوطن ، وأخيراً للانسانية جمعاء .. والوفاء يجعلك تحب الحياة ، والغدر يجعلك تكره الحياة ومعنى الوفاء للأهل والأصدقاء ان تعمل من أجلهم دون مقابل . والوفاء للوطن حيث يحتاج الى التضحية والفداء . »

(واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً) . أثنى عليه سبحانه بالصدق والنبوة . (ورفعناه مكاناً علياً) . المراد بالمكان هنا المكانة والمنزلة . وقيل : إن الله رفعه إلى السماء الرابعة . وقال آخرون : بل السادسة رجماً بالغيب . وفي التفاسير أيضاً ان ادريس هو جسد لأبي نوح ، وانه أول من خاط الثياب ، وخط بالقلم ، ونظر في النجوم ، وتعلم الحساب .. ولا ندري من أين استقى المفسرون هذه المعلومات .. وللأديب الشهير توفيق الحكيم المصري مسرحية، أسماها لإزيس ، وقال : ان لإزيس هذه هي زوجة أوزريس الذي نكل به الملك طيفون.. ويقال : ان اوزريس هذا هو ادريس الذي أشار اليه القرآن . وكل هذه الأقوال حدس وخيال .

(أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) . قال الرازي والطبرسي : المراد بالنبيين من ذرية آدم ادريس لأنه أسبق الجميع ، وأقرب إلى آدم من نوح ، والمراد بذرية من حمل مع نوح ابراهيم لأنه من ولد سام ، والمراد بذرية ابراهيم اسحق واسماعيل ويعقوب ، واسرائيل هو يعقوب ، ومن ذريته موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى من جهة الأم ، وكل هؤلاء وغيرهم ممن هداهم الله واصطفاهم للنبوة يتضرعون لله

خاشعين خوفاً من غضبه وعذابه ، مع انهم يخلصون لله وبأمره يعملون . فبالأولى أن يستشعر الخوف منه تعالى ويتوب اليه من تجراً على معصيته .

فخلف من بعدهم خلف الآية ٥٩ - ٦٥ :

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَاهَمُونَ سُبُحًا * جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا * وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا *

اللغة :

الخلف بفتح اللام النسل الصالح ، وبسكونها النسل الطالح ، وهو المراد هنا وقد يستعمل كل منهما في معنى الآخر . والغني الحسران ، ويستعمل في الضلال . والعدن الإقامة . ومأتياً آتياً ، اسم فاعل بصيغة اسم المفعول . واللغو فضول الكلام . والسمة الشبيه والمثيل .

سورة مريم

الإعراب :

إلا من تاب استثناء متصل من ضمير يلقون . وشيئاً مفعول مطلق . وجنات عدن بدل من الجنة في قوله : يدخلون الجنة . وبالغيب متعلق بمحذوف حالاً من جنات عدن أي كائنة بالغيب . وضمير انه يعود الى الله . وسلاماً مستثنى منقطع أي ولكن يسمعون سلاماً . ورب السموات والأرض بدل من ربك ، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هو رب السموات .

المعنى :

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) . بعد ان ذكر سبحانه الأنبياء الاطهار أشار الى خلفهم الأشرار ، ووصفهم بأنهم تركوا عبادة الرحمن ، واتبعوا الشيطان ، ويتلخص المعنى بهذه الكلمة : نعم السلف ، وبشئ الخلف . (فسوف يلقون غياً) شرأ وعذاباً جزاء على معصيتهم وتمردهم (الامن تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) . وأحسن تفسير لهذه الآية قول الرسول الأعظم (ص) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وتقدم نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ٥٤ ج ٣ ص ١٩٧ .

(جنات عدن) قائمة دائمة ، لا ينقطع نعيمها ، ولا يظعن مقيمها (التي وعد الرحمن عباده بالغيب) . المراد بعباده هنا المؤمنون المخلصون ، وبالغيب أي أنهم آمنوا بالجنة وعملوا لها ، وهم غائبون عنها ، وهي غائبة عنهم ، وقد مدح الله المؤمنين بالغيب في العديد من آياته (انه كان وعده مأتياً) . ضمير انه يعود الى الله . والمعنى ان الله لا يخلف الميعاد .

(لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) . في الحياة الدنيا لغو وكذب ومهاترات ، أما في الجنة فقول كريم ، ورزق مقيم . والبكرة والعشي كناية عن السدوم ، اذ لا صباح ولا مساء في الجنة (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً) . وكلمة نورث تشعر بأن الجنة ملك المتقين . قال تعالى : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون - ١١ المؤمنون » .

(وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) . في تفسير الطبري والطبرسي ان رسول الله (ص) استنبطاً نزول الوحي عليه ، ولما جاءه جبريل قال له : ما منعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ . فنزلت هذه الآية . وظاهرها يتفق مع مضمون الرواية المذكورة بخاصة قوله تعالى : (وما كان ربك نسياً) والمعنى ان الأمر في نزول الوحي لله وحده فهو المالك لكل شيء ، والمحيط علماً بكل شيء في أي زمان أو مكان كان ويكون .. وقوله : ما بين أيدينا اشارة الى ما يأتي ، وما خلفنا اشارة الى ما مضى ، وما بين ذلك اشارة الى الحاضر .

(رب السموات والأرض وما بينهما) ومن كان رباً للكون يستحيل في حقه النسيان (فاعبده واصطبر لعبادته) . هذا أمر من الله تعالى لنبيه الكريم ان يمضي في مهمة التبليغ لأنها من أعظم العبادات والطاعات ، وان يصبر على ما يلاقه من الأذى في سبيل ذلك (هل تعلم له سمياً) . فالله سبحانه ليس كمثل شيء في جميع صفات الجلال والكمال ، ومن كان كذلك وجبت عبادته وطاعته .

لسوف اخرج حياً الآية ٦٦ - ٧٢ :

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا *
أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا *
فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا *
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا *
ثُمَّ لَنَخْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا *
وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *
ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *

اللغة :

يذكر أي يتذكر . وجثياً جمع جاثٍ ، وهو البارك على ركبتيه . والشيعه الجماعة المتعاونون على أمر واحد . والعتي والعنو بمعنى واحد، وهو التكبر والتمرد .
والصلي مصدر صلى النار .

الإعراب :

إذا متعلقة بمحذوف أي أبعث إذا مت . وحياً حال . والشياطين مفعول معه لنحشرنهم . وجثياً حال . وإيهم اسم موصول مبني على الضم، ومحلّه النصب ينتزعن، وأشد خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير الذي هو أشد . والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول . وعتياً تمييز ، ومثله صلياً . وان منكم إلا واردها (ان) نافية، وواردها خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر لمبتدأ محذوف أي ما أحد منكم إلا هو واردها . وجثياً حال . وكان على ربك اسم كان محذوف أي كان الورد .

المعنى :

(ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) يتلخص المعنى بأنه لا شيء لدى منكر البعث يتذرع به إلا التعجب والاستبعاد : كيف تعود الحياة الى الانسان بعد ان تفارقه ؟ . والجواب يعيدها ثانية من جاء بها أولاً « انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » . وتكرر ذلك في العديد من الآيات . انظر ج ١ ص ٧٧ و ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ٣٧٨ وما بعدها .

(فوربك لنحشرنهم والشياطين) . ضمير الغائب في لنحشرنهم يعود إلى منكري البعث ، والمراد بالبحشر اخراجهم من قبورهم أذلاء خاسئين مع الذين أضلوهم عن الحق (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً) . بعد أن يخرجوا من قبورهم

الجزء السادس عشر

على أسوأ حال تُقعدهم الملائكة على الركب حول جهنم لينظروا اليها ، فيزدادوا حشرات وأنات .

(ثم لنترعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً) . وبعد ان يتحلقوا حول جهنم جاثين على الركب ، وهم فرق وطوائف يأخذ الله أولاً من كل فرقة الرؤساء والقادة العتاة ، ويلقي بهم في جهنم ، ثم الأعتى فالأعتى ، ويوضع كل واحد في المكان اللائق به من عذاب الحريق (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً) . ان الله سبحانه يعلم السيئات التي يجترحها الانسان في سره وعلنه ، ويجازيه بما يستحق ، فصاحب الكبيرة له العذاب الأكبر ، ثم الأدنى فالأدنى : « ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً - ٤٩ الكهف » .

(وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) . المراد بالورود هنا الرؤية والمشاهدة لأن المؤمنين عن النار مبعدون ، كما قال تعالى : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنی أولئك عنها مبعدون - ١٠١ الأنبياء » . ولأن عذاب المطيع يتنافى مع عدل الله وفضله . ومعنى الآية ما من أحد إلا ويرى النار عياناً يوم القيامة صالحاً كان أم طالحاً ، فالطالح يراها ويدخلها جاثياً على ركبته ، والصالح يراها ويتجاوزها حامداً شاكراً نعمة النجاة والخلاص من كلبها ولجبها : « فن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز - ١٨٥ آل عمران » .

أي الفريقين خير الآية ٧٣ - ٧٦ :

وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ
أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا * قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ
مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّْا السَّاعَةَ فَسَيَعْمُونَ

سورة مريم

مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى
وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا *

اللغة :

الندى المجلس . والقرن أهل كل عصر . والأثاث أدوات البيت . والرثي المنظر والهيئة . والمد الامهال . والجند الأنصار . والمرد المرجع والعاقبة .

الإعراب :

مقاماً وندياً تمييز . وكم في محل نصب بأهلكنا والمميز محذوف أي كم قرناً
أهلكنا . وأثاثاً تمييز . إما العذاب وإما الساعة بدل من (ما) في قوله تعالى :
رأوا ما يوعدون . ومن هو شر (من) اسم موصول مفعول لسيعلمون ، وهو
مبتدأ وشر خبر ، والجمله صلة الموصول . ومكاناً وجنداً وثواباً ومرداً تمييز .

المعنى :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير
مقاماً وأحسن ندياً) . ضمير عليهم يعود إلى مشركي قريش ، وآيات الله بينات
دلالة الواضحة ، والفريقان هما المؤمنون والمشركون ، والمعنى ان النبي والصحابة
يحتجون على المشركين بمنطق العقل والفطرة ، والمشركون يجاهون هذا المنطق بمنطق
المعدة وفلسفتها ويقولون : نحن أطيب وأوسع عيشاً وافره مسكناً ، وأحلى أثاثاً .

فلسفة المعدة :

كان ابيقور من فلاسفة اليونان المعاصرين لتلامذة ارسطو ، وله مذهب انفرادي

الجزء السادس عشر

به عن عاصره وتقدم عليه ، ويتلخص بأن اللذة هي الخير الأسمى ، والألم هو الشر الأقصى ، وإن الفضيلة تستمد قيمتها من اللذات المعنوية كالصداقة وحياسة الهدوء والراحة ، ومن اللذات الحسية كالطعام والشراب .. وفي ضوء هذه الفلسفة قال : على الانسان أن لا يندفع وراء أهوائه ورغباته من أجل لذة قصيرة الأمد يعقبها ألم طويل الأمد .. وبكلمة ان الخير كل الخير عند ابيقور يقوم في اللذة الدنيوية - هو لا يؤمن بالبعث - سواء أتمثلت اللذة في المعدة ، أو في غيرها ، وإذا اقترنت اللذة بالألم فالعبرة بالأكثر، فما كان أكثر لذة فهو خير ، وما كان أكثر ألماً فهو شر .

وهناك فلسفة قديمة تتفق مع ابيقور في ان كل الخير في اللذة الدنيوية، ولكنها تختلف معه في التحديد ، فهو يقول : ان الخير في اللذة المعنوية والحسية معاً ، وهي تقول : ان الخير في لذة المعدة ، وما اليها من المظاهر الحسية .. ومن أهل هذه الفلسفة فرعون ومشركو قريش .. فقد أنكر فرعون نبوة موسى (ع) ، وبرر إنكاره بقوله : « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولاً ألقى عليه أسورة من ذهب - ٥٣ الزخرف » . وقال أيضاً : أنا ربكم الأعلى.. ولماذا ؟ فأجاب : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ؟ »

وأنكرت قريش نبوة محمد (ص)، واحتجت بقولها : « لولا انزل عليه كثر - ١٢ هود » . وكما قال فرعون : أليس لي ملك مصر ؟ وقالت قريش : نحن أكثر مالاً ، وأعز نفراً .. ولا تختص فلسفة المعدة هذه بفرعون ومشركي قريش ، ولا بالترفين وأهل الثراء فكل من احترم شخصاً وقدره لماله فهو من الذين آمنوا بفلسفة المعدة وحشوها ، ودانوا بأن الخير كل الخير فيها وفي امتلائها. ولقد قرأت فيما قرأت كلمة لعميل ماجور قال فيها : ان الذين يلومون الولايات المتحدة على قواعدها الحربية ، وعلى ضربها قوى التحرر في كل مكان ، وعلى سلبها مقدرات الشعوب المستضعفة ، ان هؤلاء اللاتمين ينسون أو يتناسون ان الولايات المتحدة أقوى علماء ، وأكثر مالاً من كل الشعوب ، ومن كان الأعلى علماء ومالاً يجب ان يطغى ويستبد .. وكنت أحسب ان فلسفة المعدة قد ولت

سورة مريم

مع عصر الظلمات حتى قرأت كلمة هذا الدخيل فأدركت ان هذه الفلسفة جذوراً عميقة في نفوس الأعداء والعملاء .

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً) . تقدم نظيره في الآية ٦ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٦٢ (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنساً) . أمر الله نبيه الكريم ان يقول للذين يرون الخير في حشو المعدة : ان هذا الذي تفتخرون به من السعة في العيش هو ابتلاء يمتحن الله به عباده ، ويمهلهم أمداً غير قصير ، فان شكروا أنعم الله عليهم بالثواب وحسن المآب ، وان ازدادوا كفراً وطغياناً سلط عليهم من يسومهم سوء العذاب في الحياة الدنيا، أو يعذبهم الله العذاب الأكبر في اليوم الآخر .. وعندها يعلمون أي الفريقين أسوأ حالاً : المؤمنين الفقراء ، أو الكافرين الأغنياء ؟ ولو ان انساناً ملك كل ما طلعت عليه الشمس لم يكن هذا الملك شيئاً مذكوراً بالقياس إلى أدنى عذاب من حريق جهنم .. قال علي أمير المؤمنين (ع) : « ما خير بخير بعده النار ، وما شر بشر بعده الجنة ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية » .

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) . وذلك بأن يعرفهم بحقيقة أنفسهم، وبمواقع الخطأ والصواب .. وهذه هي الهداية والنعمة الكبرى (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً) . والمرد هو المرجع والعاقة ، والباقيات الصالحات العلم والعمل النافع ، وهما خير من المال والجاه لأنها دائمان باقيان لا ينقطع نفعهما وثوابهما ، أما الجاه والمال فإلى هلاك وزوال .

أفرايت الذي كفر بآياتنا الآية ٧٧ - ٨٧ :

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ
أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ

الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَزِئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
 ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا * فَلَا
 تَفْعَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَّا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا *
 وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ
 عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا *

اللغة :

سَنَكَبَ ما يقول أي ان أقواله محفوظة عليه . ونَعَدُّ له من العذاب نزيده منه .
 والمراد بنزئه نسلبه ، وما يقول إشارة إلى المال والولد المذكورين في قول الكافر :
 « لأوتين مالا وولداً » . والمراد بالضد الأعداء . وتؤزهم تزعجهم . والوفد
 جمع وفد ، وهو القادم . وورد أي يردون جهنم كما ترد الدواب الماء .

الإعراب :

أطلع أصلها أطلع همزة الاستفهام الانكاري ، وهمزة الوصل ، فحذفت احدهما
 تخفيفاً . وقال ابن هشام في كتاب المغني : « كلا عند سيويه والتحليل والمبرد
 والزجاج وأكثر البصريين حرف معناه الردع والزجر ، ولا معنى لها عندهم إلا
 ذلك » . وفرداً حال . ونعد مضارع ومفعوله محذوف أي نعد أعمالهم . ولا
 يملكون الضمير يعود إلى المجرمين . إلا من اتخذ استثناء منقطع أي لكن من اتخذ .

المعنى :

(أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً) . جاء في كتب الأحاديث والتفسير ان العاص بن وائل والد عمرو بن العاص لما سمع بذكر البعث قال مستهزئاً : لأوتين في الآخرة مالا وولداً .. ولفظ الآية ظاهر في ان زنديقاً قال هذا ، أما ذكر الاسماء وتعيين الأشخاص فما هو من طريقة القرآن ، ومثل هذه الآية قول صاحب الجنة : « ولئن رُددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً - ٣٦ الكهف » وقد رد سبحانه هذا الزعم بقوله :

(أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) من أين جاء هذا العلم ؟ هل عنده مفاتيح الغيب ، أم أخذ ميثاقاً من الله بذلك ؟ (كلا) لا هذا ولا ذلك .. انه كافر فاجر (سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً) . لقد حفظنا عليه أقواله ، وستريده من أجلها عذاباً على عذاب جزاء كفره واقترائه .

(ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً) وأيضاً سنسلبه ما لديه من مال وولد ، وذلك بموته واهلاكه ، ونبعثه يوم القيامة وحيداً فريداً تماماً كما خلقناه أول مرة (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا) لأن من اعتر بغير الله ألبسه ثوب الذل (سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) . ضمير يكفرون ويكونون يعود الى المعبودين ، وضمير عليهم الى العابدين ، وأوضح تفسير لهذه الآية ما جاء في نهج البلاغة : « عن قليل يتبرأ التابع من المتبوع ، والقائد من المقود ، فيتزايلون بالبغيضاء ، ويتلاعنون عند اللقاء » . وقال تعالى : « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون - ٦٣ القصص » . بل كانوا يعبدون اهواءهم وأغراضهم .

(ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) . أي ترعجهم وتبيجهم وتدفع بهم الى المعاصي ، والمعنى ان الله سبحانه يخلي بينهم وبين الشياطين الذين يوسوسون لهم ويفرونهم بالمعاصي ، ولا يتدخل بإرادته التكوينية لردع الشياطين عنهم ، وانما يبين لهم طريق الخير والشر ، ويمنحهم القدرة التامة على الفعل والترك ، وينهاهم عن هذا ، ويأمرهم بذلك ، ويترك لهم الخييار فيما يفعلون ويتركون .. ولو سلبهم الارادة لكانوا والجماد سواء .

الجزء السادس عشر

(فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدأ) . لا تعجل يا محمد باهلاك الكافرين فإنه آت لا محالة ، ولكن الله يؤخرهم انى أجل مسمى ليحصى عليهم أعمالهم ثم يجازيهم عليها بما يستحقون.. فإنه لا خير في طول الحياة إلا لمن آمن وعمل صالحاً، اما من كفر واجترح السيئات فحياته وبال عليه : « ولا يحسن السدين كفروا انما نملي لهم خير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين - ١٧٨ آل عمران » .

(يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً) . وكلمة الوفد تشعر بالتشريف والتكريم ، والمعنى ان اهل الله وطاعته يقدون عليه غداً معززين مكرمين (ونسوق المجرمين الى جهنم ورداً) .. للمؤمنين الكرامة بالوفادة ، وللمجرمين الهوان بالسوق ، تماماً كما تساق البهائم الى ورود الماء يساق المجرمون الى ورود جهنم ، وبس الورد المورود (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) . كل من وفى بعهد الله ولم يخنه في كبيرة ولا صغيرة فقد أعطاه الله عهداً بالفوز والنجاة، وبالشفاعة لمن هو أهل لها : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم .. - ٤٠ البقرة » .

قالوا اتخذ الرحمن ولداً الآية ٨٨ - ٩٨ :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ
وَلَدًا * وَمَا يَذْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *
وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا * إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ

سورة مريم

وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ
مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا *

اللغة :

الراد المنكر . وتفطر تنشق . ونخر تسقط . واللُد جمع ألد ، وهو الشديد
في خصومته . والركز الصوت الخفي .

الإعراب :

المصدر من دعوا مفعول من أجله أي نخر لدعوتهم . والمصدر من أن يتخذ
فاعل يتبغي . وان نافية وكل مبتدأ وآتي خبر أي ما منهم أحد إلا آتي . وعبداً
حال أي مملوكاً . وفرداً حال . وكم مفعول أهلكنا والمميز محذوف أي كم قرناً
أهلكنا . ومن زائدة إعراباً، وأحد مفعول تحس .

المعنى :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق
الأرض وتخر الجبال هداً ان دعوا للرحمن ولداً) . لقد همدد الله سبحانه الذين
جعلوا له بنين وبناتاً . وتوعدهم في الكثير من آياته ، منها الآية ١١٦ من سورة
البقرة ج ١ ص ١٨٦ والآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ والآية ١٧١ من
سورة النساء أيضاً ج ٢ ص ٤٩٩ والآية ١٠١ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٧ .
ثم ذكر سبحانه قولهم هنا بهذا الأسلوب الرهيب .. وهو ان دل على شيء فلإنما
يدل على ان الانسان يجرأ على ما لا يجرأ عليه كائن في الأرض ولا في السماء ..
فلقد تجرأ على خالقه ، وهو يعيش في كنفه ، ونسب اليه ما تنشق السماء، وتخسف
الأرض ، وتسقط الجبال لمجرد سماعه .

الجزء السادس عشر

وتسأل : ولمَ هذه الانتفاضة الكونية لكلمة تفوه بها من تفوه عن جهل وضعف عقل ؟ .

الجواب : ان هذه الانتفاضة أو الغضبة الإلهية ليست على فرد أو على جماعة معدودين ، وإنما هي على هذا الشرك الذي أصبح ديناً وعقيدة تدين بها مئات الملايين جيلاً بعد جيل .. على هذه التماثيل للإله الطفل والإلهة الأم .. «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام - ٧٥ المائة » .

(وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) . لأن الولد شبيهه بوالده ، والله ليس كمثلته شيء ، ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لحاجة الوالد إليه، والله غني عن العالمين . (ان كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) . ما من كائن سفلي أو علوي إلا هو عبد لله يملك منه ما لا يملكه العبد من نفسه .. وبدية ان المملوك غير الولد ، والمالك غير الوالد (لقد أحصاهم وعدّهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) . ضمير أحصاهم وعدّهم يعود إلى من في السموات والأرض ، وضمير آتية إلى الله ، والمعنى ان الله لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وان كل مسؤول يأتي الى الله يوم المحشر وحيداً لا ناصر له ولا معين ولا يملك من أمر نفسه كثيراً ولا قليلاً فضلاً عن أمر غيره ، ومن يأتي الله كذلك فكيف يكون ولداً له .

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) . ان الله سبحانه يحدث في قلوب عباده مودة لأهل الايمان والاخلاص لا لشيء إلا تقديراً للفضيلة والخلق الكريم . قال محمد بن أحمد الكلبي صاحب (التسهيل) : قيل : ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب . وقال الشيخ المراغي ، وهو أحد شيوخ الأزهر : « اخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء ان رسول الله (ص) قال لعلي : قل اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين وداً، فنزلت الآية » .

النصارى وبنو هاشم :

وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط : « ذكر النقاش ان هذه

سورة مريم

الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وقال محمد بن الحنفية : لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً .. ومن غريب هذا - الكلام لأبي حيان - ما أنشدنا الإمام اللغوي رضا الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن يوسف الانصاري الشاطبي لزينا ابن اسحق النصراني الرسغي :

عديّ وتيم لا أحاول ذكرهم بسوء ولكنني محب لهاشم
وما تعزيني في علي ورهطه اذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصاري تحبهم وأهل النهي من أعرب وأعاجم
فقلت لهم اني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

(فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتندر به قوماً لداً) . المراد باللذ الذين يتشددون في الحصومة والجدل ، والمعنى ان الله أنزل القرآن بلغة العرب ليسهل عليهم معرفته وفهم معانيه ، ويكون بشيراً لمن آمن واتقى ، ونذيراً لمن كفر وبغى . ومر نظيره في سورة يوسف الآية ٢ ج ٤ ص ٢٨٦ .
(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل نحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) . أي هل تسمع لهم صوتاً ، والقصد ان الله قد أبادهم عن آخرهم ، وتقدم مثله في الآية ٧٤ من هذه السورة ، والآية ١٧ من سورة الإسراء .

سُورَةُ طه

مكية عدد آياتها ١٣٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه الآية ١ - ٨ :

طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى *
تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الثَّرَى * وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى *

اللفظة :

لنشقى لتتعب . والعلی جمع العلیا والمذكر الأعلى ، ومثله الدنا جمع الدنيا .
والثرى التراب النسدي والمراد به هنا الأرض . والمراد بالأخفى هنا حديث
النفس .

الإعراب :

الا تذكرة استثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة . تنزيلاً منصوب على المصدرية أي نزلناه تنزيلاً . له ما في السموات مبتدأ وخبر وما بعده عطف عليه .

المعنى :

(طه) . اختلفوا في المراد بـطه ، فقيل : هو اسم من أسماء الله . وقيل : هو في معنى رجل ، واختاره الطبري ، حيث قال : هذا هو الأولى بالصواب لأن معنى يا طه في لغة عكّ يا رجل .. وذهب أكثر المفسرين الى ان كلمة طه في الآية حروف تهجى مثل ألم وكهيعص ، وفي تفسير الرازي ان الامام جعفر الصادق (ع) قال : « الطاء طهارة أهل بيت رسول الله (ص) والهاء هدايتهم » . وغير بعيد أن يكون هذا التفسير المنسوب الى الإمام الصادق هو السبب لقول القائلين : ان طه من أسماء النبي (ص) لأنه هو المصدر الأول لطهارة أهل بيته وهدايتهم .

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) . كان النبي (ص) يُجهد نفسه ويتعبها بالعبادة ، وأيضاً كان يجهدا ويتعبها تأسفاً وحسرات على كفر الكافرين وعدم هدايتهم : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات - ٨ فاطر » . فعاتبه الله على هذا الاجهاد ، وقال له : لم تشقّ على نفسك وتحملها ما لا تطيق من كثرة العبادة ومن التوجع لإعراض من أعرض عن دعوتك ؟ فإلهذا اصطفتك وأنزلت عليك القرآن ، اني أنزلته عليك لتتهدي به انت ومن اتبعك من المؤمنين ، وتذكر به الكافرين ويكون حجة لله عليهم ، فهو نعمة ورحمة على من آمن ، ونقمة على من أعرض وتمرد .

(تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى) . الذي نزل القرآن هو الذي خلق الكون، والكون كتاب الله الناطق بلسان الحال ، والقرآن كتابه الناطق بلسان المقال ، وكل منهما لخير الناس وسعادتهم فعلى م تتخذ يا محمد من نزول القرآن عليك وسيلة لتبعك واجهادك ؟ .

الجزء السادس عشر

وتسأل : ان القرآن نزل على رسول الله (ص) ليعمل به ويرشد اليه ، وقد جاء فيه : « وما جعل عليكم في الدين من حرج - ٧٨ الحج » . وأيضاً قال تعالى : « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب - ٤٠ الرعد » . فكيف أتعب النبي نفسه بالعبادة وبالחסرات ؟

الجواب : ان العظيم يستصغر الخير من فعله وان عظم ، ويستعظم الحقير من ذنبه وان صغر ، ويتهم نفسه بالتقصير مهما اجتهد .. والنبي (ص) أعظم خلق الله على الاطلاق ، ويستمد عظمته من علمه بالله وطاعته له وجهاده للدعوة الى سبيله ، ومن أجل هذا يتهم نفسه ، ويراهما متوائمة في حق الله مهما بالغ في التعب له والدعوة الى الحق بخاصة إذالم تثمر دعوته التي يبتغيها من هداية عشيرته قريش.

(الرحمن على العرش استوى) هذا كناية عن الاستيلاء والتدبير ، وسبق مثله في سورة الأعراف الآية ٥٤ ج ٣ ص ٣٣٩ (له ما في السموات وما في الأرض وما بينها وما تحت الثرى) هذا بيان وتفسير لقوله تعالى : خلق الأرض والسموات ، وقوله : على العرش استوى لأن الخالق والمدبر هو المالك ، ولا أحد يملك معه شيئاً إلا من ملكه (وان نجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) . والأخفى هو الذي يمر بخيالك دون ان تتفوه به ، وأوضح تفسير للأخفى قوله تعالى : « والله عليم بذات الصدور - ١٥٤ آل عمران (لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) . كل أسماء الله حسنة لأنها تعبر عن أحسن المعاني وأكمل الصفات . أنظر فقرة « هل أسماء الله توقيفية أو قياسية » ج ٣ ص ٤٢٥ .

حديث موسى الآية ٩ - ١٦ :

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ

سورة طه

المُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ
بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى *

اللفظة .

آنست ابصرت . والقبس شعلة من نار على رأس عود . والوادي سفح الجبل ،
ويقال لمجرى الماء . وطوى اسم لذلك الوادي . وتردى تهلك .

الإعراب :

إذ ظرف يتعلق بحديث موسى . وفي نوادي ضمير مستتر يعود الى موسى ،
وهو نائب فاعل . وانا تأكيد . وطوى بدل من الوادي . ولذكري متعلق بأقم .
ولتجزى متعلق بآتية . وفتردى في محل نصب بجواب النهي .

تكرار قصة موسى :

ذكر الله موسى في كتابه مرات ومرات ، والسر - كما لاحظنا ونحن نفسر
آي الذكر الحكيم - ان الله سبحانه ذكر الكثير من مساوي قومه بني اسرائيل ،
وقد كان موسى ينههم عنها ، ويحذرهم منها ، فاقتضى ذكره عند ذكرهم ..
هذا بالاضافة الى قصته مع شعيب وفرعون ، وصحبته العبد الصالح الذي خرق
السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، والى وضعه ، وهو طفل ، في التابوت
وقذفه في اليم، وإلى قتله الفرعوني، وخروجه خائفاً يترقب - إلى غير ذلك، قال بعض

الجزء السادس عشر

المفسرين : « كرر الله قصة موسى مع فرعون لأن حكاية موسى منذ انعقاد نطقه الى آخر حياته كلها عبر ونصح وانذار وتبشير وتسلية للنبي والمؤمنين وفيها آيات دالة على علم الله وقدرته وحكمته وعلى تحمل موسى من قومه الذين هم أشد حقاً من جميع الأمم » . هذه هي دنيا موسى : وضع في التابوت وقذف به في البحر ساعة ولادته ، ثم نشأ يتيماً في بيت فرعون ، ثم مشرداً بائساً يأكل من نبات الأرض ، ثم راعياً للغنم ، ثم نبياً يقاسي من قومه أشد الخطوب والآلام . فلا بدع إذا تكرر ذكره وحديثه في كتاب الله ما دامت حياته كلها وقصته قصة العظات والعبر .. والآيات التي نحن بصددنا نتحدث عن ابتداء نزول الوحي على موسى وتكليم الله اياه .

(وهل أتاك حديث موسى) ؟ . هذا مثل قولهم : هل بلغك كذا وكيت ؟ والقصد ان يتنبه السامع ويصغي الى الحديث . وهذا هو حديث أول الوحي الى موسى : (اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) . في الآية ١٤ وما بعدها من القصص ذكر سبحانه ان موسى لما بلغ أشده رأى رجلين يقتتلان : احدهما فرعوني ، والآخر عبري ، وان هذا استغاث بموسى ، فوكر موسى الفرعوني ، ففضى عليه ، وهرب موسى من مصر الى مدين ، فزوجه شعيب احدى بنتيه على ان يرعى ماشيته ثماني سنوات او عشرأ : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون - ٣٠ القصص » .

خرج موسى من مدين قاصداً مصر ، ومعه زوجته ، وفي الطريق احتاج الى النار .. قال الرواة : ان موسى ضل الطريق في ليلة شاتية باردة مظلمة ، وان الطلق فاجأ زوجته في هذه الحال ، وان زنده لم ينقدح .. وبينما هو حائر في امره لا يدري ماذا يصنع ؟ ضياع وبرد وظلمة ومخاض امرأة وعدم انقذاح الزند ، بينا هو كذلك اذ رأى ناراً من بعد ، فاستبشر وقال لأهله : ربما يأتي الفرج من قلب الضيق .. الزموا مكانكم ، فاني ذاهب الى مكان النار لعلني آتيكم بجذوة تصطلون بها او أجد عندها من يخبرني بما يفرج عني .

سورة طه

(فلما اتاها نودي يا موسى إني أنا ربك) . دنا موسى (ع) مما ظنه ناراً ، فإذا هو نور عظيم أبهى من نور الشمس ، وإذا بصوت رهيب يقول : (انا ربك فانخلع نعليك) تأديباً وتواضعاً (انك بالوادي المقدس طوى) في المكان المطهر المبارك ، حيث تجلى فيه النور الإلهي ، وارتفع في سمائه صوت الجلال والكمال .. رأى موسى نوراً ، سمع صوتاً ، ولا شيء سواهما .. قال الامام علي (ع) : ان الله سبحانه لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس .. الذي كلم موسى تكليماً ، وأراه من آياته عظيماً بلا جوارح ولا أدوات .

(وانا اخترتك فاستمع لما يوحى) . والله سبحانه لا يختار لوجه إلا صفوة الأمتاء عليه ، وتقدم نظيره في الآية ١٤٣ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٩٢ . ثم بين سبحانه ان الدين الذي أوحى به الى موسى يقوم على أسس ثلاثة : الأول الوحدانية (اني أنا الله لا إله إلا أنا) . الأصل الثاني الاخلاص لله في العبادة (فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) . الأصل الثالث البعث (ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) . المراد بأكاد أخفيها انا أخفيها ، والمعنى ان الله سبحانه أخفى علم الساعة عن عباده ليرقبوا مجيئها في كل وقت ، فيخافوا منها ويعملوا لها ، ثم يستوفوا جزاء عملهم ، ولا يظلموا شيئاً .

(فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) . ضمير عنها يعود إلى الساعة لأنها أقرب من الصلاة ، ويجوز أن يعود عليها معاً ، والمعنى عليك يا موسى أن تؤمن بالبعث والحساب والجزاء ، وتعمل له ، ولا تتبع أهواء الجاحدين فتهلك كما يهلكون ، وقلنا فيما تقدم : ان للأعلى أن ينهى من هو دونه عما يشاء حتى لو كان المخاطب بالنهي معصوماً .. هذا ، إلى ان النهي عن الشيء لا يدل على امكان فعله ممن نُهي عنه .

وما تلك بيمينك يا موسى الآية ١٧ - ٣٥ :

وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ

بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا
فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى *
وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى *
لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ
أَشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَانحَلِّ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي *
يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ
أُزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا *
إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا *

اللغة :

اتوكأ اعتمد . أهش بها على غنمي أي أضرب بها الشجر فيتساقط ورقه فتأكله
الغنم . والمآرب الحوائج . وسيرتها حالها أو طريقتها . وجناحك جيبك ، وهو
استعارة من جناح الطير . من غير سوء من غير عاهة . ويفقهوا يفهموا .
وبصيراً عالماً .

الإعراب :

ما تلك مبتدأ وخبر ، وييمينك متعلق بمحذوف حالاً من تلك . وسيرتها بدل
اشتمال من هاء سنعيدها ، أو منصوبة بترع الخافض أي إلى سيرتها . وبيضاء حال
من ضمير تخرج . ومن غير سوء متعلق بمحذوف صفة لبيضاء . وآية بدل من

سورة طه

بيضاء . ويفقهوا مجزوم بجواب الأمر . وأخي بدل من هرون . وكثيراً صفة
لمفعول مطلق محذوف أي نسبحك تسيحاً كثيراً ، ونذكرك ذكراً كثيراً .

المعنى :

(وما تلك يمينك يا موسى) ؟ الله يسأل موسى ان يخبره عما في يده ،
وهو أعلم به من موسى .. اذن هناك سر .. أجل ، وهو سر عظيم يكمن في
هذه العصا ، وقد أراد سبحانه أن يظهره لموسى ، وهو تحول العصا الى حية ..
واذا كانت نطفة الانسان تحمل خصائصه ، والبيضة تحمل خصائص الدجاجة ،
والبذر خصائص النبات فان هذه الخشبة اليابسة لا تحمل شيئاً من خصائص الحية،
ومع ذلك تحولت اليها .. وهذا هو سر الاعجاز ، وهذا نجد تفسير قوله تعالى :
« يخرج الحي من الميت - ٩٥ الانعام » .

وقال الرازي : من أراد أن يخرج الشيء العظيم من الشيء الحقيق يعرضه أولاً
على الحاضرين ، ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون : هو كذا . وعندها يخرج
منه الشيء العظيم .. وهكذا فعل سبحانه مع موسى ، سأله عن العصا ولمسأ أقر
بأنها خشبة يابسة قلبها الله ثعباناً ، ثم ضرب بها البحر حتى انقلب ، والحجر
فانفجرت منه العيون .

والغريب ان الشيخ المراغي نقل عبارة الرازي هذه دون ان يشير الى مصدرها
كعادته في تفسيره من أوله الى هذه الآية ، واحسب ان السالحي لا يختلف عن
السابق ، ومثله تماماً نظام الدين النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ووعائب
الفرقان .

(قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) .
قرأنا علم المعاني والبيان في كتاب المطول للتفتزاني ، ولما وصلنا إلى باب الإيجاز
والإطناب والمساواة ذكر صاحب المطول للإطناب فوائد ، منها الايضاح ، ومنها
التأكيد بالتكرار، ومنها لذة العلم، ثم ضرب الاستاذ مثلاً للكلام مع الحبيب برواية عن
بعض الثقات، وتتلخص بأن هذا الراوي رأى في منامه محمداً (ص) وموسى بن

الجزء السادس عشر

عمران (ع) ، وسمع موسى يعاتب محمداً ، ويقول له : لقد قلت فيما قلت : ان علماء أمي كأنبياء بني اسرائيل .. أهذه منزلتنا عندك يا أبا القاسم ، تماماً كعلماء أمتك ؟ وأراد محمد أن يثبت له ذلك بالعيان ، فقال لموسى : الآن أجمعك بعالم من علماء أمي لتختبره وترى صحة ما قلت . قال موسى : أجل . فجمعه رسول الله (ص) بعالم يعرف بالمقدس الاردبيلي ، فقال له موسى : ما اسمك ؟ قال : أنا أحمد وأبي اسمه محمد ، وبلدي اردبيل ، ودرست في النجف ، واستاذي الشهيد الثاني . فقال له موسى : ولم هذا التطويل والاطناب ؟ فقد سألتك عن اسمك ، فأجبت عنه وعن اسم أبيك واسم أستاذك وبلدك .. فقال له المقدس الاردبيلي : وأنت سألك الله عما في يمينك فقلت له : (هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) . وكان يكفي أن تقول : هي عصاي وتسكت . وعندها التفت موسى الى محمد وقال له معتذراً : أنت أدرى بما قلت .

وعلق الأستاذ على هذه الرواية بقوله : وهكذا الانسان يطيل الحديث مع من يحب ، لا لشيء إلا للانبساط والانشراح ، ومن ذلك قول المتنبي :

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

(قال القها يا موسى فألقها فاذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) . خاف موسى من هذا المنظر الرهيب وولى مدبراً كما دلت الآية ١٠ من سورة النمل : « فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون » مما أمرتهم به لأنهم يعلمون اني لا آمر إلا بالخير ، ولا أنهي إلا عن الشر ، وما ان وضع موسى يده على الحية حتى عادت عصا كما كانت .

(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى) . في هذه الآية قال سبحانه : واضمم يدك الى جناحك ، وفي الآية ١٢ من سورة النمل قال : وأدخل يدك في جيبك ، فالمراد - اذن - من الجناح الجيب ، وهو القميص أو طوقه كما في كتب اللغة ، ومن غير سوء أي

سورة طه

من غير آفة وعاهة ، وكانت يد موسى سمراء لأنه كان أسمر ، ولما أدخل يده في جيبه وأخرجها سطع منها نور كضوء الشمس . وتقدم نظيره في سورة الأعراف الآية ١٠٧ ج ٣ ص ٣٧٥ .

(اذهب الى فرعون انه ظني) . أمر الله موسى أن يردع فرعون عن ظلمه وطغيانه ، وهو صاحب الحول والطول الذي قال : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري .. والذي قال لموسى : « ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ١٨ - الشعراء » . نشأ موسى في قصر فرعون كيتيم ، ثم مشرداً يأكل بقلة الأرض « ولقد كانت نخصرة البقل تُرى من شفاف صفاف بطنه لهزاله ، وتشذب لحمه » كما قال الإمام علي (ع) ١ حتى استغاث بالله ، وسأله لقمة العيش : « رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير - ٢٤ القصص . قال الإمام : والله ما سأله إلا خبزاً يأكله .. وقد استجاب الله دعاءه ، فوجد الخبز عند شعيب على أن يعمل راعياً لماشيته .. هذه هي دنيا موسى بن عمران : وضع في تابوت وقذف به في البحر ساعة ولادته ، ثم نشأ يتيماً في بيت فرعون ، ثم مشرداً بائساً بجوب الفلوات ، ويقتات من نبات الأرض ، ثم راعياً للغنم .

أهذا الضعيف الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا يذهب الى فرعون صاحب الحول والطول ليصده عن غيه وجبروته ؟ ولكن هذا ما حصل ، فلقد ذهب موسى الى فرعون وملكه بعصاه فلفقت ما يافكون ، وبيده البيضاء فشهدت له بصدقه ونزاهته عن كل تهمة .. وقد سأل موسى ربه أشياء أخرى عن العصا واليد ، فأناه سؤله ، وهي :

١ - (رب اشرح لي صدري) . المعروف عن موسى انه كان عصبي المزاج سريع الغضب مما يكره ، وهذا ما نطق به القرآن ، فقد أخبر عنه انه أخذ بلحية أخيه هرون ورأسه حين عكف بنو اسرائيل على عبادة العجل ، ووكز الفرعوني ففضى عليه ، وعصى أمر العبد الصالح بعد ان قال له : ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً .. وليس من شك ان للخطوب والآلام التي

١ الصفاف الجلد الاسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، والتشذب التفرق .

الجزء السادس عشر

قاساها موسى في حياته - أثراً فعالاً في هذا الضيق والغضب السريع .. ولما كانت الرسالة الى الخلق تستدعي الصبر على المكاره والمتاعب سأل ربه رباطة الجأش ، وسعة الصدر .

٢ - (ويسر لي أمري) . مدّني منك يا إلهي بالعون والتوفيق لأداء ما كلفني به ، وحلّمني آياه .. ولا يتم شيء للانسان من الخير مهما تسوافرت له الأسباب إلا بتوفيق الله وعونه .

٣ - (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) . واذا عطفنا هذه الآية على قوله تعالى : « وأخي هرون هو أفصح مني لساناً - ٣٤ القصص » وقوله : « ولا يكاد يبين - ٥٢ الزخرف » . إذا جمعنا هذه الآيات الثلاث في كلام واحد كانت شاهد صدق بصحة قول من قال : انه كان في لسان موسى ثقل ولُكنة ، اما ان هذه اللكنة خلقة ، أو من جمرة أدخلها فاه وهو طفل ، حين امتحن فرعون رشده وتمييزه بين التمرة والجمرة ، أما هذا فعلمه عند ربي .. وتجدر الإشارة الى ان هذه الآية تشعر بأن فصاحة اللسان ، وبلاغه البيان من أجل الصفات ونعم الله الكبرى على الانسان ، وقد امتن سبحانه عليه حيث قال : « خلق الانسان علمه البيان - ٣ الرحمن » . وقال الإمام علي (ع) : « ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهيمة أو صورة ممثلة » .

٤ - واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزرني وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً انك كنت بنا بصيراً) . جاء في مجمع البيان : ان هرون كان أخاً لموسى من أمه وأبيه ، وكان يكبره بثلاث سنين ، وكان أم طولاً ، وأبهي جسماً ، وأكثر لحماً ، وأفصح لساناً ، ومن أجل هذه الصفات سأل موسى ربه أن يجعل أخاه هرون شريكاً له في النبوة .. وقال صاحب المجمع : انه مات قبل أخيه موسى بثلاث سنين .

حقيقة النبوة :

ومها يكن فلا بد لصاحب الرسالة من التعاون مع من يخلص لها ، ويضحي

سورة طه

في سبيلها ، فان النبوة في حقيقتها مجرد خبر ونبأ عن الله ينقله من استحليل في حقه الكذب والخطأ ، وما هي بقوة تنفيذية تقول للشيء كن فيكون ، ان النبي بشر لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرراً ، ويستعمل لتنفيذ مقاصده نفس الوسائل التي يستعملها المؤمن والجاهد ، ولا يمتاز إلا بهذا النبأ عن الله، وانه أخذ من الانسانية أكرم ما فيها ، واستصفى أجل صفاتها ، ولكن الصفات الجلى لا تجعل صاحبها في المكان الذي يستغني معه عن الأسباب العادية والسنن الطبيعية .. كلا ، ان الأنبياء وغير الأنبياء سيان في الحاجة والافتقار الى الأخذ بالعلل والأسباب .

فالنبي يحتاج الى التطيب اذا أصابته علة تماماً كما يحتاج اليه من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأيضاً يحتاج الى القوة الرادعة كما يحتاج اليها أي انسان .. فكل الأنبياء أودوا ، وكثير منهم قُتلوا .. وبهذا يتبين الغلو في قول من قال : ان محمداً (ص) هو الحقيقة التي خلق الله منها الوجود ، والروح التي سرت في جميع الكائنات علويها وسفليها : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون - ١٨٧ الأعراف » .

هذه هي حقيقة النبوة: انذار وتبشير، ومتى وجد التبشير النذير ومعه المتوازر المناصر كان الارشاد أبلغ في الحججة ، وأدعى لبلوغ الغاية ، ومن أجل هذا طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه .

وبهذه المناسبة نذكر ما قاله « و. ل. ديورانت » عن محمد (ص) في موسوعته التاريخية « قصة الحضارة في العالم »: « كانت المساكن التي أقام فيها محمد كلها من اللبن لا يزيد اتساعها عن ١٢ قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها عن ٨ أقدام ، وسقفها من جريد النخل ، وأبوابها من شعر الماعز ، أو وبر الجمل ، أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ، ووسادة من ليف ، وكان يخصص نعله ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض السدار ، ويحلب العنزة ، ويتنازع طعامه من السوق ، ويأكل بيده ويلق أصابعه ، وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل هما كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان » .

علي وهرون :

ونفس الشيء حدث لرسول الله (ص) ، قال السيوطي في الدرّ المشور عند تفسير قوله تعالى : رب اشرح لي صدري : « أخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر ان رسول الله (ص) قال : اللهم اني أسألك بما سألك أخي موسى ان تشرح لي صدري وان تيسر لي أمري وان تحلل عقدة من لساني يفهموا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي ، اشدد به ازري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً انك كنت بنا بصيراً » .

وقال مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١٠٨ طبعة ١٣٤٨ هـ : ان رسول الله قال لعلي : اما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون بن موسى . وفي الجزء الأول من مسند الامام أحمد بن حنبل ان رسول الله (ص) سمى الحسين اقتفاء لهرون في تسمية والديه بشير وشبير أي حسن وحسين .

قد أوتيت سؤلك يا موسى الآية ٣٦ - ٤١ :

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ * فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ * وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ * فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ * وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا * فَلَمِيتَ سِنِينَ * فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَأَضْطَنَعْتَ لِنَفْسِي *

اللغة :

سؤالك مطلوبك . ومننا أنعمنا . وأوحينا ألهمنا . واقذفه اطرحيه . واليم البحر .
والصنع عمل الخير ، والمراد به هنا التربية . وعلى عيني برعايتي . وفتناك ابتليناك
واختبرناك . ومدين كانت مدينة في جنوب بلاد الشام ، وهي بلاد شعيب ،
ويدعي البعض انها من قرى جبل عامل تُعرف بقَدَس ، ولا دليل على هذه
الدعوى . واصطنعتك جعلتك موضع صنيعتي واحساني .

الإعراب :

مرة أخرى ظرف والعامل فيه مننا أي وقتاً آخر . وإذ ظرف والعامل فيه
مننا . وما يوحى (ما) مصدرية أي أوحينا إياه . ان اقدفيه أي اقدفيه تفسيراً
للوحى . يأخذه مجزوم بجواب الأمر . ولتصنع المصدر المنسبك متعلق بالقيت .
إذ تمشي (إذ) ظرف متعلق بتصنع . وعلى قدر متعلق بمحذوف حالاً من الضمير
في جئت .

المعنى :

(قال قد أوتيت سؤالك يا موسى) من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ،
وطلاقة اللسان ، وشد الأزر بأخيك ، وإشراكه معك في النبوة . قال الإمام
علي (ع) : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فان موسى بن عمران خرج
يقتبس لأهله ناراً فكلمه الله ورجع نبياً (ولقد مننا عليك مرة أخرى) المن هنا
بمعنى الإنعام ، لا بمعنى التعبير والتفريع ، وقد كانت نعم الله سبحانه كثيرة على
موسى ومتابعة ، منها ما يلي :

(اذ أوحينا الى امك ما يوحى ان اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فابلقه اليم
بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) .

الجزء السادس عشر

ضمير المخاطب في لتُصنع لموسى (ع) ومعنى تُصنع تُربى ، والمراد بعين الله حراسته تعالى ورعايته .. كان فرعون إذا ولدت اسرايلية ذكراً ذبحه، وإذا ولدت انثى استبقاها للخدمة ، ولما وضعت امرأة عمران موسى خافت عليه من فرعون ، وحارت به ، فألهمها الله أن تضعه في صندوق ، وتلقي به في النيل ففعلت ، وثبت الله فؤادها، وهدأ روعها ، وقذفه النيل الى الشاطئ .. وقيل : ان جوارى آسية امرأة فرعون خرجن للاغتسال ، فوجدن الصندوق فصحبته معهن ، وما ان فتحت امرأة فرعون ورأت الطفل حتى ألقى الله محبته في قلبها « وقالت امرأة فرعون - له - قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً - ٩ القصص » ، فأبقاه فرعون وتربى في قصره مشمولاً بحراسة الله ورعايته .

(اذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) . أراد سبحانه ان يرجع موسى الى أمه ، لتأنس به ، وتطمئن عليه ، وإذا أراد الله شيئاً هياً أسبابه ، فحرم المراضع على موسى ، حتى حارب فرعون ، فذهبت أخت موسى الى قصر فرعون متنكرة ، وقالت : أنا ادلكم على من يرضعه، وجاءت بأمه فقبل ثديها ، فدفعه فرعون اليها ، وأجرى عليها رزقاً .

(وقتلت نفساً فنجيناك من الغم) . في ذات يوم مر موسى في شارع من شوارع مصر ، فرأى رجلين يقتتلان : أحدهما فرعوني والآخر عبري ، فاستغاث هذا بموسى ، فوكزه بيده ، وهو لا يريد قتله ، ولكنه قضى عليه ، وخاف موسى ان يقتصوا منه ، فخلصه الله من غم القصاص ، وإلى هذا أشارت الآية ١٥ من القصص : « فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » .

(وفتناك فتوناً) . ان الله سبحانه يمتحن عباده بالسراء والضراء ، فمن شكر تلك ، وصبر على هذه قرآبه وأثابه ، ومن بطر عند النعمة ، وكفر عند الشدة طرده من رحمة . وقد امتحن سبحانه موسى بأنواع الشدائد والمحن فوجده صابراً ذاكراً ، فشرفه بالنبوة ، ورفعته الى الدرجات العلى (فلبثت سنين في أهل مدين) وذلك حين رعى غم شعيب عشر سنين، كما أشارت الآية ٢٧ من سورة القصص :

سورة طه

« فان أتممت عشراً فمن عندك » وقد أتمها عشراً كما في بعض الروايات (ثم جئت على قدر يا موسى) أتيت الى هذا المكان ، وهو الوادي المقدس طوى ، أتيت في نفس الوقت الذي قدره الله لارسالك نبياً (واصطنعتك لنفسى) أي اخترتك لوحى ورسالي ، وفي اضافة موسى الى الله سبحانه غاية التشريف والتكريم ، حيث تومىء الى ان الله سبحانه قد جعله من خواصه .

اذهب أنت وأخوك الآية ٤٢ - ٤٨ :

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا أَنْ أَلْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى *

اللغة :

ولا تنيا لا تقصرا . أن يفرط أي أن يتقدم بالعذاب لأن الفرط معناه التقدم . والمراد بالسلام في الآية السلامة من العذاب .

الإعراب :

أنت توكيد لضمير اذهب . وأخوك عطف على الضمير المستتر . والمصدر

الجزء السادس عشر

من أن يفرض مفعول نخاف . ويجوز اني وانبي ، وانا وانا .

المعنى :

(اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري) . المراد بالآيات هنا المعجزات ، وهي العصا واليد البيضاء وغيرهما من الآيات التي أشرنا اليها عند تفسير الآية ١٠١ من سورة الاسراء . ومعنى لا تنيا في ذكري لا تنهاونا في رسالتي والتذكير بأمرني ونهيي (اذها الى فرعون انه طغى) . اذها تأكيد لإذهب أنت وأخوك ، وتقدم نظيره في الآية ٢٣ من هذه السورة .

(فقولاً له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى) . واذا تذكر أصحاب الشركات الاحتكارية في هذا العصر يتذكر فرعون ويخشى .. ومهما يكن فان هذه الآية تحدد أسلوب الدعوة الى دين الله ، وبالأصح تحدد أسلوب الاقتناع بالحق ، ونظيرها قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - ١٢٥ النحل » ، والموعظة الحسنة أن يشعر معها المخطيء تلقائياً بخطئه ، والضال بضلاله ، ويرى نفسه بعيداً عن الحق والواقع : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير - ١٠ الملك » .

والشرط الأول للموعظة الحسنة ان لا يريد الواعظ بموعظته الا الاصلاح ، بحيث يعتقد المقصود بالموعظة أو غيره من أهل الوعي ان الغاية الأولى والأخيرة هي مصلحته وهدايته ، والشرط الثاني أن تكون الموعظة بالقول اللين ، ومما قاله موسى لفرعون : « هل لك الى ان تزكى واهدبك الى ربك فتخشى - ١٩ التازعات » . أنظر ج ٤ ص ٥٦٤ .

(قالوا ربنا اننا نخاف أن يفرض علينا أو أن يطغى) . انك تعلم يا إلهنا جبروت فرعون وعتوه ، وانه لا رادع يردعه عن الغدر بنا والأمر بقتلنا قبل أن يستمع الى ما زودتنا به من البيئات والدلائل ، فهل لك أن تفضل علينا بما نأمن معه من غوائله ؟ (قال لا تخافا اني معكما أسمع وأرى) . فأنا الكافل الضامن لسلامتكما من غدره وغوائله . وكفى بالله حافظاً ونصيراً .

سورة طه

وتسأل : ان ضمير قالا مثنى يعود الى موسى وهرون ، مع العلم بأن هرون لم يكن مع موسى في موقف المناجاة ، فما هو الوجه لذلك ؟ .

وأجاب بعض المفسرين بأن هذا القول كان من موسى بلسان المقال، ومن هرون بلسان الحالك ، لأن هرون تابع لموسى ، ويجوز ان يكون هذا القول منها بعد ذهاب موسى الى مصر واجتماعه بأخيه ، وقبيل ذهابها الى فرعون .. ومن عادة القرآن أن يطوي كل كلام تدل عليه قرينة حالية أو مقالية .

(فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم) بالأسر والتسخير وذبح الأبناء واستخدام البنات . وتقدم نظيره في الآية ١٠٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٤ . (قد جئناك بآية من ربك) بحجة كافية ، ودليل قاطع على صدقنا (والسلام على من اتبع الهدى) . والهدى هو دين الله ، والسلام الأمان من عذابه ، والمعنى ان من دخل في دين الله فقد سلم من عذاب الحريق (انا قد أوحى اليها ان العذاب على من كذب وتولى) . هذا تهديد وانذار لفرعون بالهلاك والدمار ان استهان بشأن موسى وهرون ، وانكر رسالتها، واستمر في غيه وعتوه .

فمن ربكما يا موسى الآية ٤٩ - ٥٦ :

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ

وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا
كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى *

اللغة :

أعطى كل شيء خلقه : اتقن خلق كل شيء . ما بالك وما حالك وما شأنك
بمعنى واحد . وضل أخطأ . وسلك سهل . وازواجاً أصنافاً . والنهي العقول ،
وواحدته نية بضم النون .

الإعراب :

كل شيء مفعول أول لأعطى ، وخالقه مفعول ثانٍ . فما بال القرون مبتدأ
وخبر . وعلمها مبتدأ وخبره في كتاب ، وعند ربي . تعلق بما تعلق به في كتاب ،
أي علمها ثابت في كتاب عند ربي . والذي جعل صفة لربي أو عطف بيان .
وشئى صفة لازواج أو للنبات . وقال صاحب مجمع البيان : تارة منصوبة على
المصدر . وفي كتب اللغة : تار الماء يتور توراً أي جرى مرة بعد مرة .

المعنى :

(قال فن ربكما يا موسى) . ذهب موسى وهرون الى فرعون ، وقالوا كما
أمرهما الله تعالى : انا رسولا ربك ، وقد جئناك بالحجة والدليل على صدقنا
ونبوتنا ، فان دخلت في دين الله فلك الأمان من غضبه ونقمته ، وإلا فأنت من
الهالكين .. وهذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها فرعون كلمة ربك ، فهو لا
يعترف بأن له رباً لأنه يزعمه هو الرب الأعلى ، ولهذا سأل موسى : من هو
هذا الرب الذي أرسلك اليّ ؟ ووجه الخطاب في ربكما لموسى وهرون معاً لأنها

سورة طه

قالا له : إنا رسولا ربك ، أما النداء فخصه بموسى لأنه صاحب الدعوة وهرون تابع .

(قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) . قال موسى لفرعون جواباً على سؤاله : ربنا هو الذي خلق الخلائق ، فصورها فأحسن صورها دون أن يستعين على ذلك بأحد ، وهو الذي فطر كل مخلوق على الوظيفة التي تحفظ كيانه وبقائه ، قال الإمام علي (ع) : « ألا تنظرون الى صغير ما خلق الله كيف خلقه ، واتفق تركيبه ، وخلق السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر » . وكأن موسى يقول لفرعون : ان الرب هو الذي يخلق الأشياء من لا شيء ، فأين انت من هذا ؟ تماماً كما حدث لابراهيم (ع) مع النمرود : « قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر - ٢٥٨ البقرة » .

(قال - فرعون - فما بال القرون الأولى) . المراد بالقرون الأولى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الخالية التي كانت تعبد الأصنام من دون الله ، وأراد فرعون بهذا السؤال الرد على موسى بأنه لو كان هناك إله بالأوصاف التي ذكرت لعبده الأمم السابقة ، مع العلم بأنها كانت تعبد الأصنام .. وهذا الجواب يحمل معه الدليل على نقضه وفساده لأن الاستدلال على نفي الإله الحق بعبادة من عبد الأصنام تماماً كالاستدلال بعمى الحفاش على عدم وجود الشمس .

(قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) . أجاب موسى فرعون بأنني لست علام الغيوب حتى أخبرك عن الأمم البائدة ، فالله وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً ، وعلمه دائم لا يعثره التغيير والتبديل : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - ٦ المجادلة » .

وتسأل : ان موسى يعلم علم اليقين أن عبدة الأصنام كانوا على ضلال ، فلماذا قال لفرعون : الله أعلم بهم ، ولم يقل : كانوا على ضلال ؟
الجواب : لو قال : ان القرون الأولى كانوا ضالين لطالبه فرعون بالدليل الذي يقنع به السامعون أو يكون حجة دامغة لا يستطيعون انكارها ، وموسى لا يملك هذا الدليل . ولذا أجاب فرعون بما لا يطالبه بالدليل عليه .

الجزء السادس عشر

(الذي جعل لكم الأرض مهدياً) تقدم الكلام مفصلاً عن بسط الأرض ومدّها ومهدّها في ج ٤ ص ٣٧٤ عند تفسير الآية ٣ من سورة الرعد (وسلك لكم فيها سبلاً) طرقاً تسلكونها لبلوغ ما ربيكم (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) . تقدم نظيره في الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ .

(كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى) . المراد بالآيات الدلائل على وجود الله تعالى ، وأولو النهى أهل العقول والبصائر ، وخصهم الله سبحانه بالذكر لأنهم يدركون الحقائق اذا كانوا مجردين عن الأهواء والأغراض ، وفي الحديث ان رسول الله (ص) قال : ان خياركم أولو النهى . فقالوا : ومن أولو النهى يا رسول الله ؟ قال : أولو الأخلاق الحسنة ، والأحلام الرزينة ، والمتعاهدون للفقراء واليتامى والجيران ، يطعمون الطعام ، ويفشون السلام في العالم .

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . الانسان ابن الأرض بجسمه ، فهي المادة الأولى لتكوينه ، ومنها طعامه وشرابه ، وعليها ذهابه وإيابه ، قال رسول الله (ص) : « الأرض أمكم ، وهي برة بكم » . أجل ، هي أمنا لإننا منها ولدنا ، وهي برة بنا لأنها تغذيها كما ترضع الأم وليدها . ثم نعود الى الأرض بعد الموت ، ونصير تراباً كما كنا من قبل ، ثم نحيا ثانية للحساب والجزاء .

(ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) . الهاء في أريناه لفرعون ، والمراد بالآيات المعجزات التي أظهرها الله سبحانه على يد موسى ، ودلت دلالة واضحة على صدقه ونبوته ، ولكن أية جدوى من الآيات والنذر إذا اصطدمت بالمصالح والمصالح ؟ .

فرعون يجمع السحرة ٥٧ - ٦٤ :

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ

مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى *
 قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ
 فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا فَيَسْحَبَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ
 بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ
 يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى * فَأَجْمِعُوا
 كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى *

اللغة :

موعداً اسم زمان أي ميعاداً معيناً . وسوى مستوى الأرض أي في مكان لا
 انخفاض فيه ولا ارتفاع . ويوم الزينة يوم العيد . والمراد بكيده أصحاب كيده
 وهم السحرة . والويل الحزني والهوان . ويسحبتكم يستأصلكم . وأسروا النجوى تناجوا
 سراً . والطريقة المثلى الدين ، والمثلى تأنيث الامثل وهو الأفضل . واستعلى غلب .

الإعراب :

موعداً مفعول أول لاجعل ، وبيننا وبينك متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً .
 وجملة لا نخلفه صفة لموعد . ومكاناً متعلق بمحذوف صفة ثانية لموعد أي كائناً
 في مكان ، وسوى صفة لمكان . وموعدكم يوم الزينة مبتدأ وخبر . والمصدر من
 ان يحشر الناس عطف على الزينة أي ويوم حشر الناس . ويلكم منصوب على
 اضمار الفعل أي الزموا الويل ، لأنه مضاف ، فإذا لم يضاف مثل ويل لكم فابتدأ

الجزء السادس عشر

وخبر . وإن هذان لساحران (إن) مخففة مهملة ، وهذان مبتدأ وساحران خبر ، واللام هي الفارقة بين ان النافية والمخففة . والمصدر من يخرجكم مفعول يريدان . وصفاً حال من واو اثتوا .

المعنى :

(قال أجتتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) . اضطرب فرعون ، وأسقط في يده حين جابه موسى بالحجة الدامغة التي لا رد عليها .. كيف ؟ وهي آية من آيات الله تعالى .. ان فرعون على علم اليقين من ان السحر أبعد ما يكون عن موسى وهرون ، وان الساحر أحقر من أن يخرج من أرضه وملكه ، ولو كان للسحرة هذا السلطان لكانوا أولي الأمر في كل زمان ومكان .. ولكن فرعون لما شعر بالعجز عن مجابهة الحجة بالحجة لجأ الى الاحتيال والمراوغة ، والكذب والافتراء ، تماماً كما يفعل اليوم المستعمرون وأذنانهم ، حيث يصفون الأحرار بالهدامين ، والمخلصين بالفوضويين .

(فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى) . طلب فرعون من موسى أن يعين موعداً للمباراة بينه وبين السحرة على أن تكون في مكان مكشوف ، لا شيء فيه يحجب أعين النظارة عن مشاهدة المباراة ومتابعتها (قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى) . اختار يوم العيد للمباراة بينه وبين السحرة ، حيث يترك الناس أعمالهم ، ويجتمعون فيه بالأماكن العامة ، واختار وقت الضحى من يوم العيد لأنه أنسب الأوقات للحشد والتجمع ، وموسى يريد أن يحق الحق ، ويبطل الباطل على رؤوس الأشهاد .

(فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى) . هذه الآية بينة الاعجاز ، فهي على إيجازها تحمل الكثير من المعاني .. تولى .. فجمع .. ثم أتى .. وكلمة تولى تعبر عن انصراف فرعون الى حاشيته وأنصاره وتشاوره معهم لوضع الخطط وإحكامها ، وكلمة جمع تعبر عن ارساله الرسل في أنحاء البلاد للبحث عن السحرة والأتیان بهم ، فقد أشار عليه مستشاروه ان يرسل في المدائن حاشرين يأتوه بكل ساحر

سورة طه

عليم ، كما في الآية ١١٢ من سورة الأعراف ، وكلمة ثم أتى تعبر عن مجيئه بمركبه وابته الى مكان المباراة في الموعد المعين .

(قال لهم موسى ويلكم لا تفترؤا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) . تقدم موسى الى السحرة بالنصح والانتذار قبل أن يباشروا أي عمل من أعمال السحر ، وحذرهم من عذاب الاستئصال ان أصروا على مخادعة الناس بالتمويه والأكاذيب ، وأفهمهم ان فرعون مها بلغ من السلطان فانه أضعف من أن يملك لهم نفعاً أو ضرراً .

(فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرؤا النجوى) . ضمير فتنازعوا وما بعده يعود الى السحرة ، وتوميء هذه الآية الى ان بعض السحرة قد تأثر بكلمة موسى (ع) أو بعثت في نفسه الشك - على الأقل - وفي تفسير الطبري ان بعض السحرة قال عن تحذير موسى لهم : ما هذا القول بقول ساحر ، ولا بدع فان الكلام اذا خرج من القلب المخلص أخذ طريقه الى القلوب المخلصة .. تأثر البعض من السحرة بموعظة موسى ، وعارضه البعض الآخر ، وبطبيعة الحال دار الحوار والجidal فيما بينهم : هل يحضون في تحدي موسى بالسحر ، أو ينسحبون من المباراة ، وقد دار هذا الحوار في الخفاء والكتان عن فرعون وموسى أيضاً .. ولكن في النهاية تغلب رأي من أصر على التحدي بدليل ما حكاه الله عن السحرة بقوله :

(قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فاجمعوا كيدكم ثم اتوا صفواً وقد أفلح اليوم من استعلى) . هذا الكلام كله للسحرة ، فضمير قالوا وما بعده يعود اليهم وحدهم ، وهذان اشارة الى موسى وهرون ، ومرادهم بالطريقة المثلى الدين الذي كانوا عليه بدليل ما جاء في الآية ٢٦ من سورة غافر : « وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه اني أخاف أن يبدل دينكم » . والمعنى ان بعض السحرة قال لبعض : ان موسى وهرون ماهران في فن السحر، وهما يحاولان التغلب علينا والقضاء على ديننا لتكون لها السيادة في البلاد ، ويكون أهلها لها عبيداً وأتباعاً ، فعلينا أن نكون بدأ واحدة ضدّهما ، ونبذل كل جهد لتفوز عليهما ، وتكون الرفعة والمكآنة لنا من دونهما في هذا اليوم المشهود ، وإلا فلن تقوم لنا بعده قائمة .

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ
 بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى *
 فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى *
 وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ
 السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ
 وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ
 السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبِنَكُمْ فِي جُذُوعِ
 النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا
 مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ
 السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا
 يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ
 لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى *

سورة طه

اللغة :

فأوجس أحس وأضمر . تلقف تأخذ أو تبتلع بسرعة . وكبيركم معلمكم
وتقطع الأيدي والأرجل من خلاف ان تُقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ،
والعكس بالعكس . ونؤثرک نختارك . وفطرنا خلقنا ، واقض أحكم . والعدن
الاقامة . وتركى تطهر من دنس الذنوب .

الإعراب :

إما بالكسر ، ومعناها هنا التخير ، وهي مركبة من ان وما، ويجب تكرارها ،
والمصدر من ان تلقي مفعول لفعل محذوف أي اختر اما القاءك ، والمصدر من ان
نكون معطوف على المصدر من ان تلقي . واذا للمفاجأة ، وحباهم مبتدأ، وعصيههم
عطف على حباهم ، وجملة يخيل وما بعدها خبر . والمصدر من انها تسعى مفعول
يخيل . وخيفة مفعول أوجس . وتلقف مجزوم جواباً لألق . انما صنعوا كيداً
(انما) مركبة من كلمتين : (ان) المشددة ، و (ما) الموصولة ، وهي اسم
إن، وصنعوا صلة الموصول ، وكيد خبر إن ، والعائد محذوف ، والتقدير ان
الذي صنعوه كيداً ساحر . وسجداً حال أي ساجدين . وفي جذوع النخل (في)
هنا بمعنى على . وأينا مبتدأ ، وأشد خبر ، وعذاباً تمييز . والذي فطرنا عطف
على ما جاءنا . فاقض ما أنت قاضٍ (ما) اسم موصول مفعول لاقض ، وأنت
مبتدأ وقاضٍ خبر ، والجملة صلة الموصول والعائد محذوف أي فاقضٍ ما أنت
قاضيهِ . انما تقضي هذه (انما) مركبة من كلمتين : ان المشددة وما الكافئة عن
العمل ، وتقضي فعل مضارع والفاعل ضمير المخاطب أي انت والمراد فرعون ،
وهذه مفعول تقضي ، والحياة عطف بيان من هذه ، والدنيا صفة للحياة . وما
أكرهتنا عطف على خطايانا . والضمير في انه للشأن ، ومحلّه النصب اسم إن .
ومن يأت (من) شرطية ، والجملة من الشرط وجوابه خبر إن . وجنات عدن
بدل من الدرجات العلى . وخالدين حال .

المعنى :

(قالوا يا موسى اما ان تلقي واما ان نكون أول من ألقى قال بل القوا فإذا جباهم وعصبيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسمى) . تقدم نظيره في الآية ١١٣ وما بعدها من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٧٨ .

(فأوجس في نفسه خيفة موسى) . قال أكثر المفسرين أو الكثير منهم : ان موسى خاف على نفسه كما هو مقتضى الطبيعة البشرية .. والصحيح انه ما خاف على نفسه ، كيف وهو يعلم ان السحرة مفترون ، وان الله قال له ولأخيه: اني معكما ، وانما خاف موسى ان يلتبس الأمر على الناس ، وينخدعوا بأباطيل السحرة (قلنا لا تخف انك انت الأعلى) . لا تخف ان يلتبس الحق على الناس.. كلا ، فسيوضح للعيون والعقول انك المحق وهم المبتلون ، وسيعترف السحرة أنفسهم بأنك الصادق الأمين ، وانهم أصحاب تزوير ، ومكر ، وخداع ، وان فرعون هو الذي أكرههم على الكذب والافتراء .

(والقي ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف وأصلبناكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى) انا أو موسى . وتقدم مثله في الآية ١١٧ وما بعدها من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٨ . انظر تلخيص قصة موسى مع فرعون واسم أم موسى في ج ٣ ص ٣٧٢ .

(قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا) . أراد فرعون من السحرة ان يتركوا الله ، ويتبعوه بعد ان اتضح لهم غيبه وضلاله ، فقالوا له: على أي شيء نختارك ونؤثرك، أرغبة في دنياك التي أنت تاركها وظاعن عنها ، أم رهبة من عذابك ، وعذاب الله أشد وأعظم ؟ (فاقض ما أنت قاض) احكم وافعل ما شئت يا فرعون فلا نبالي ببطشك وتنكيلك ما دمنا على يقين من ربنا (انما تقضي هذه الحياة الدنيا) حلوة كانت أو مرة ، وما نحن من أبنائها وانما نحن من أبناء الآخرة ، وهي باقية ببقاء الله تعالى ، ولا سلطان لك فيها حتى على نفسك .

سورة طه

وهكذا كل مخلص لا يبالي بسيف الجلاذ من أجل دينه ومبدئه .. ومحال أن يعيش دين من الأديان أو مبدأ من المبادئ إذا لم يجد أنصاراً من هذا الطراز .

(انا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) أي وليغفر لنا أيضاً ما أكرهتنا عليه من السحر ، وهو من باب عطف الخاص على العام (والله خير وأبقى) منك ومن ثوابك يا فرعون .. كانت المباراة بين موسى والسحرة في ظاهرها ، وبين حزب الله وحزب الشيطان في واقعها ، ومن الشوط الأول أيقن كل من شاهد المباراة حتى فرعون والسحرة أنفسهم ، أيقنوا جميعاً بأن حزب الله هم الغالبون ، وأعلن السحرة ان يقينهم هذا عن علم لا يقبل الشك ، وانهم كانوا على ضلال في تحديهم لموسى ، وان فرعون هو الذي ألجأهم اليه ، وأكرههم عليه ، وسألوا الله سبحانه العفو والصفح عما مضى .. وفي اعتراف السحرة هذا دلالة واضحة على ان السحر لا واقع له ، وانه تمويه وتضليل ، تماماً كما قال تعالى : « يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » .

(انه من يأت ربه مجرمًا فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي) هذا كناية عن دوام العذاب ، ومثله : « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها - ٣٦ فاطر » ، وكلمة مجرم تتناول كل من أفسد وأساء في قول أو عمل كافراً كان أو غير كافر ، والدليل على ان المراد بالمجرم من هو أعم من الكافر قوله تعالى : (ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) . حيث قرن سبحانه الايمان بالعمل الصالح ، ومعنى هذا ان الايمان بلا عمل لا يجدي صاحبه شيئاً . وبكلام آخر: ان المؤمنين هم الصالحون في مقاصدهم وأعمالهم ، أما الذين يسعون في الأرض فساداً فهم في زمرة المجرمين ، وان ملأوا الدنيا تهليلاً وتكبيراً .

(جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تركي) . الجنات والدرجات عند الله هي للذين زكت أنفسهم بالحب والاخلاص للناس كل الناس ، وتطهرت من شوائب الخيانة والطمع والكراهية ، ومثبات الآيات من آي الذكر الحكيم تتضمن هذا المعنى تصريحاً أو تلويحاً .

فاضرب لهم طريقاً في البحر الآية ٧٧ - ٨٢ :

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ
يَبْساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى * فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنْ
أَلَيْمٍ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ
أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكُمْ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ
فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ
لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى *

اللفظة :

السرى والاسراء بمعنى واحد ، وهو السير ليلاً . ويبساً يابساً لا ماء فيه .
والدرك اللحوق أي لا تخف أن يدركك فرعون . وغشي غطى ، والمراد ان الماء
غمرهم . وأضل قومه صرفهم عن طريق الرشده والهداية . وذكر الطور الأيمن في
الآية ٥٢ من سورة مريم . والمن والسوى في الآية ٥٧ من سورة البقرة .

الإعراب :

طريقاً مفعول اضرِبَ ويبساً صفة له لأنه بمعنى يابساً . فيحل منصوب باضمار أن
في جواب النهي .

المعنى :

(ولقد أوحينا الى موسى ان اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى) . أصر فرعون على عناده ، وأبى إلا الكبرياء والجبروت ، والا ان ينعت موسى بالخارجي ، ومعجزاته بالسحر ، ووجد من يظاھرہ على ذلك ويناصره : « وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض - ١٢٧ الأعراف » . وصمم فرعون على قتل موسى ، فأوحى الله اليه أن يخرج بيني اسرائيل من مصر ليلاً ، وأن يضرب البحر بعصاه ، فيشق الى قطع بينها طرق وشعاب ، يسلكها الاسرائيليون الى الجانب الآخر ، وهم آمنون على أنفسهم من الغرق ومن فرعون وشربه : « فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وازلفنا ثم الآخريين وأنجينا موسى ، ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخريين - ٦٤ الشعراء » .

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) . اتبعهم وتبعهم بمعنى واحد ، وغشيهم ما غشيهم فيه تعظيم للأمر .. وفي الكلام حذف كثير ، ولكنه مألوف في القرآن لأن السياق يدل عليه ، والتقدير خرج موسى ليلاً بقومه ، ولما وصل الى البحر ضربه بعصاه ، فانشق الى طرق لا ماء فيها ، فسلكها الاسرائيليون ، ولحق بهم فرعون وجنوده ، وسلك في أثرهم ، ولما وصل آخر اسرائيلي الى الجانب الثاني من البحر ، ودخل آخر جندي في البحر من جنود فرعون انطبق البحر عليهم ففرقوا جميعاً ، كما سلم الاسرائيليون جميعاً (وأضل فرعون قومه وما هدى) . أضلهم عن الحق ، وأضلهم في البحر أيضاً ، وكان من قبل يقول لهم : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد - ٢٩ غافر » .

(يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون الذي كان يسومكم سوء العذاب يذبح أبناءكم ، ويستحيي نساءكم (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) . يشير سبحانه الى الوعد الذي وعده موسى بعد أن أغرق فرعون ، وهو أن يأتي موسى الى جانب الطور فيتزل الله عليه التوراة ، فيها بيان الشرائع والأحكام (ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم) تقدم بنصه الحرفي في الآية ٥٧ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٦ .

الجزء السادس عشر

(ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) .
 ضمير فيه يعود الى الرزق المفهوم من الكلام ، والطغيان فيه ان يؤخذ ، أو ينفق
 في غير طريقه المشروع ، والمعنى ان من كسب المال من غير حل ، أو أنفقه
 في غير حل فجزاؤه عند الله الهلاك وعذاب الحريق ، تماماً كجزاء فرعون وغيره
 من العصاة الطغاة .

(واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) . يغفر الله الذنوب
 بشروط أربعة : الأول التوبة ، وهي الندم على ما كان من المعاصي مع طلب
 الصفح عنها . الشرط الثاني الايمان بالحق أيما كان ويكون ، سواء أوافق الأهواء
 والأغراض ، أم خالفها . الشرط الثالث العمل بالحق ، لأن الايمان بلا عمل
 كاللفظ بلا معنى . الشرط الرابع الاهتداء ، والمراد به هنا الاستمرار على اتباع
 الحق حتى الموت . وهذا نجد الجواب عن سؤال من سأل : ان المهتدي هو الذي
 آمن وعمل صالحاً ، فما هو الوجه في عطف الأول على الثاني بـ ثم .

السامري والعجل الآية ٨٣ - ٨٩ :

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثْرِي وَعَاجَلْتُ
 إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
 السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ
 يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ
 عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
 بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى
 السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ

وَاللَّهُ مُوسَىٰ فَتَنِي ۚ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ

اللغة :

إذا قلت : جاء في أثره فعناه جاء بعده في الحال أو الاستقبال، أما إذا قلت :
جاء على أثره فعناه جاء بعده في الحال ومن غير تأخير . وفتنا اختبرنا . وأضلهم
أوقعهم في الضلال ، وانحرف بهم عن الهدى والحق . والأسف الحزن . وموعدي
أي ما وعدتموني به من الثبات على الإيمان . وبملكنا باختيارنا من ملك الأمر .
والاوزار الأثقال . والحوار صوت البقر .

الإعراب :

ما استفهام مبتدأ ، وجملة أعجلك خبر . وهم مبتدأ وأولاء اسم إشارة خبر .
وعلى أثري متعلق بمحذوف خبراً بعد خبر أو حالاً والعامل فيه معنى الإشارة .
وغضبان حال وأسفاً حال ثانية . فكذلك الكاف بمعنى مثل ومحلها نصب صفة
لمفعول مطلق محذوف أي ألقى السامري القاءً مثل القائنا . وجسداً صفة للعجل
أي جسداً ، وقال صاحب مجمع البيان : بدل ، وان لا يرجع (ان) مخففة من
الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، وجملة يرجع خبر أي انه لا يرجع اليهم
مثل الآية ١٤٨ من سورة الأعراف : « ألم يروا انه لا يكلمهم » .

المعنى :

بعد ان هلك فرعون وعد سبحانه موسى ان ينزل عليه التوراة ، وضرب له
ميقاتاً، فذهب الى ربه ليأتي بالتوراة بعد ان استخلف أخاه هرون على بني اسرائيل،

الجزء السادس عشر

فاغتنموا غياب نبيهم موسى ، وعبدوا العجل ، وحققوا ما كانوا يحلمون به من قبل ، حيث رأوا قوماً « يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون - ١٣٨ الاعراف » . وسبقت الإشارة الى ذلك في الآية ٥١ من سورة البقرة و ١٤٨ من سورة الاعراف .. والآيات التي نحن بصددنا ، والتي بعدها الى الآية ٩٨ كلها تتحدث عن هذا الموضوع وما يتصل به ، وتعود بنا اليه .

(وما اعجلك عن قومك يا موسى) . بهذا السؤال تبدأ حكاية العجل .. يذهب موسى الى ربه ليتلقى الوحي، فيسأله سبحانه عن تعجله ، وهو أعلم بالسبب، كي يخبره عما أحدث قومه من عبادة العجل (قال هم اولاء على اثري وعجلت اليك رب لترضى) . يدل ظاهر الكلام على انه كان المفروض ان يأتي موسى الى الطور ، ومعه جماعة من قومه ، فأنى وحده ، فأتجه السؤال ، وجاء الجواب انهم لاحقون بي بلا تأخير ، وسبقتهم اليك يا إلهي حرصاً على مرضاتك .. قال هذا ، وهو لا يعلم ماذا أحدثوا بعده .

(قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) . المراد بالفتنة هنا التمحيص والاختبار ليظهر الاسرائيليون على حقيقتهم، يقال : فتنت الذهب بالنار اذا اختبرته، ووجه الاختبار هنا ان الله سبحانه نهى بني اسرائيل عن عبادة العجل بلسان هرون ، وأمرهم الشيطان بعبادته بلسان السامري ، فعصوا الرحمن، وأطاعوا الشيطان ، وظهروا بذلك على حقيقتهم من ضعف الايمان ، والاستعداد التام للكفر والجحود ، تماماً كما يجترح المجرم المحرمات حين يجد السبيل اليها ، ويفتضح على رؤوس الاشهاد .

(فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً) . تقدم في سورة الأعراف الآية ١٥٠ (قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً) . يشير بهذا الى ان الله قد وعد بإنزال التوراة على نبيهم ، وفيها تفصيل كل ما يحتاجون اليه من معرفة الحلال والحرام ، وانه عز وجل سيملكهم دار الفاسقين كما في الآية ١٤٥ من سورة الاعراف : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين » .

سورة طه

(أفضال عليكم العهد) . يعني بالعهد مدة غياب موسى عن قومه . تقول :
عهدي به قريب أي لقائي (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) . أم بمعنى
بل ، وأردتم أي أقدمتم على ما يوجب غضب الله ، والمعنى اني لم أغب عنكم
طويلاً .. فلماذا أشركتم بالله ؟ فهل تريدون أن يحل بكم نكاله وعذابه ؟ وفي هذا
إيماء الى أنهم يؤمنون ما دام موسى قائماً على رؤوسهم ، فان غاب انقلبوا على
أعقابهم وحرفوا الدين على أهوائهم كما حدث بالفعل .

(فأخلفتم موعدني) . انقلبتم عن دين الله بعد أن وعدتموني بالثبات عليه
(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) . هذا اعتراف صريح منهم بأنهم قد كفروا
وارتدوا ونكثوا بالوعد ، وعذرهم الوحيد أنهم كالمسيرين لا يملكون أنفسهم عن
الكفر والغدر والحيانة ، حتى كأنهم مطبوعون على ذلك .. وهكذا تظهر حقيقة
بني اسرائيل في أقوالهم وقلوبهم بالاستهانة بالاضافة الى أعمالهم .

(ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم) . المراد بالأوزار هنا الأحمال ، وزينة
القوم هي حلي النساء الفرعونيات . قال كثير من المفسرين : لما علم بنو اسرائيل
أنهم سيجتازون البحر ، وان الله سبحانه مفرق فرعون وجنوده احتالوا على
الفرعونيات ، واستعاروا حليهن للعرس أو لغيره من الأسباب ، وحملوها معهم ..
وليس هذا بعيد على طبيعة الاسرائيليين واحتياهم لكسب المال وجمعه بكل وسيلة
(فقدفناها فكذلك ألقى السامري) . قال الطبري في تفسيره : ألقى بنو اسرائيل
ما معهم من الحلي في حفرة ، وألقى السامري أيضاً ما معه ، وصاغ الجميع على
هيئة العجل (فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار) . تقدم في الآية ١٤٨ من سورة الأعراف
ج ٣ ص ٣٩٥ .

(فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي) . ضمير قالوا يعود الى السامري
وأصحابه ، وضمير نسي الى موسى ، والمعنى ان بني اسرائيل قالوا : هذا العجل هو
الإله الحقيقي لنا ولموسى وللعالم أجمع ، وقد ذهل عنه موسى ، وذهب يطلبه
ويبحث عنه في الطور ، وما درى انه ضيفنا وفي ديارنا .. وتجدر الإشارة الى
أن من قال : ان الله جسم فانه يلتقي مع عبدة العجل والأوثان من حيث يريد
أو لا يريد .

الجزء السادس عشر

(أفلا يرون الا يرجع اليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً) . كيف يكون العجل رباً لهم، وهو من صنع أيديهم ، لا يسمع كلامهم ولا يرد جوابهم، ولا يجلب لهم ولا لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنه ولا عنهم ضرراً ؟ قال بعض المفسرين : « وفوق ذلك هو لا ينطح ، ولا يرفس ، ولا يدبر طاحونة ولا ساقية » . وفي تفسير الرازي ان يهودياً قال للإمام علي (ع) : ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم . فقال الإمام : انما اختلفنا عنه ، وما اختلفنا فيه . وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلم لنبيكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

ولو جاز لنا أن نفسر القرآن بالرأي والتأويل بالحدس لقلنا : ان صياغة العجل من الذهب ، وتأليه الاسرائيليين له يرمز الى انهم قد فطروا منذ القديم على عبادة المال ، وانه هو إلههم وحده لا شريك له .. وتاريخهم القديم والحديث يدل على ذلك دلالة صريحة واضحة ، وانهم يستحلون كل شيء من أجل المال حتى اراقة الدماء والدعارة والغدر .

موسى يعتب على هرون الآية ٩٠ - ٩٨ :

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هُرُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هُرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا أَبْنَأْمُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ

سورة طه

لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ
إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْحَرِقْنَهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ
نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا *

اللغة :

انما فتتم به أي اتبعتم أهواءكم بعبادة العجل . وعاكفين مقيمين . فما خطبك
أي فما شأنك ؟ فنبذتها فطرحتها . وسولت زينت . لا مساس لا مخالطة . لن
تخلفه لا خلف له . وظلت أصله ظلمت أي أظمت . واليم البحر .

الإعراب :

لقد اللام واقعة في جواب قسم محذوف . والا كلمتان ان الناصبة ولا الزائدة،
والمصدر من ان تبعن مجرور بمن محذوفة أي ما منعك من اتباعي . ويا ابن أم
قرىء بفتح الميم على ان أم وابن بمنزلة خمسة عشر ، وقرىء بكسر الميم على ان
يكون الأصل يا ابن امي ، ثم حذف الياء ، وكسرت الميم للدلالة على الياء
المحذوفة . فما خطبك ؟ مبتدأ وخبر . وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي
ان لا مساس نفي بمعنى النهي أي لا تمسني ، وعليه يكون لا مساس اسم فعل ،
وقيل : بل هو مصدر ماسه، ولا نافية للجنس ومساس اسم لا . والخبر محذوف
أي لا مساس بيننا .

المعنى :

(ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا

الجزء السادس عشر

أمري) . حين ذهب موسى الى الطور قال لأخيه هرون : « اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين - ١٤٢ الاعراف » . وأصلح هرون كما أمره موسى ، فنصح منذراً ومخبراً بني اسرائيل من السامري وعجله ، وقال لهم فيما قال : ما الذي غرکم من هذا العجل حتى افتتنتم به هذا الافتتان ، وانصرفتم اليه عن خالق السموات والأرض ! فاتبعوني اهدكم سبيل الرشاد ، فما كان جواب قومه إلا ان (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) لنرى رأيه في ذلك .. وكأنهم ينتظرون من موسى ان يسفه هرون في نبيه ، ويصوبهم في عبادة العجل لأنه من ذهب .. وكل من آثر المال على دينه وضميره ، أو اتبع ضلالاً على ضلاله فهو من أتباع السامري وحزبه .. وقد ابتلى الله عباده في كل عصر بعجل له خوار مصنوع من ذهب ، أو من نسل آدم ، يميز به صفوة خلقه من الهمج الرعاع أتباع كل ناعق .

(قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا الا تتبعهم أفعصيت أمري) . هذا في ظاهره لوم أو عتاب لهرون ، أما في واقعه فهو توبيخ وتقريع للذين عبدوا العجل ، لأن موسى على علم اليقين بأن أخاه هرون لم ولن يخالفه في شيء ، وأنه قام بواجب الارشاد على أكمل الوجوه لأنه شريكه في النبوة والعصمة (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) تقدم في الآية ١٥٠ من سورة الاعراف .

(اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي) قال موسى لهرون : لماذا لم تترك بني اسرائيل ، وتلحق بي إذ رأيتهم يعصونك ويتبعون السامري ؟ فأجابه هرون بأني توقعت اذا تركتهم ان تقع فتنة يسفك فيها الدماء بين الفئة المؤمنة منهم والفئة التي ارتدت عن دينها بعبادة العجل ، وعندما تنعكس الآية ، ويحق لك ان تلومني على تركهم ، وان تقول لي : أتتركهم كي يحدث ما حدث ! وخلاصة الجواب ان الذي يراه الشاهد لا يراه الغائب .

فاقتنع موسى وقال : « رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين - ١٥١ الاعراف » . ثم اتجه موسى الى السامري و (قال فما خطبك يا سامري) ؟ ما الذي دعاك الى ما صنعت (قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي) قيل: المراد بالرسول

سورة طه

هنا جبريل ، وبأثره التربة التي وطأها هو برجله ، أو فرسه بحافره . وقيل : بل المراد بالرسول موسى ، وبأثره سنته . وقيل : ان السامري كاذب في قوله ، وانه ما بصرُ بشيء ، ولا قبض شيئاً من اثر الرسول ، وانما أراد التهرب من تبعه ما حدث . وهذا أرجح الأقوال ، وأقربها الى الافهام من رجل جبريل وحافر فرسه .. ومن صنع العجل بيده ، ودعا الى عبادته من دون الله يهون عليه الكذب والافتراء .. أما الحوار فن الجائر أن يكون السامري صنع العجل على هيئة بحيث يخرج منه صوت الثيران بواسطة الريح أو غيرها ، كما قلنا في ج ٣ ص ٣٩٥ .

ومهما يكن فان المعنى الذي دل عليه ظاهر القرآن ان السامري هو الذي أفسد وأضل بني اسرائيل في عبادة العجل ، أما كيف صنعه فنحن غير مكلفين بمعرفة ذلك ، ولا صلة له بعقيدتنا وحياتنا .

(قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس) . هذا هو جزاؤك في الدنيا ، الطرد والعزل عن الناس ، كل الناس .. لا تخالط أحداً ، ولا أحد يخالطك في قول أو فعل ، أما عقابك في الآخرة فأدهى وأمر . وقيل : ان السامري عاش مدة حياته في البرية مع الوحوش والسباع (وان لك موعداً لن تخلفه) . لا محيص عنه ولا مفر منه ، وهو لقاءك مع الله ، وحسابك على ما أسلفت وافتريت ، وجزاؤك عليه بالعذاب الأليم ، وحريق الجحيم .

(وانظر الى إهلك الذي ظلت عليه عاكفاً لتحرقت ثم لتنسفن في اليم نسفاً) . هذه هي نهاية كل مزيف ماكر .. الخزي والهوان ، والنسف في البحر، أو الطرح مع القمامة (انما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً) . هو وحده الإله الحق ، ولا معبود سواه ، وسعت رحمته كل شيء ، وأحاط عليه بكل شيء ، وما من شيء إلا يعبده ويسبح بحمده .

غرائب اسرائيل :

من المفيد ان نختم تفسير هذه الآيات بما جاء في تفسير الرازي :
« قال أبو القاسم الانصاري : كان السحرة مشركين ، ولما رأوا آية واحدة

الجزء السادس عشر

هي انقلاب العصا ثعباناً آمنوا بالله وبموسى ، وتحملوا من أجل إيمانهم العذاب الشديد في الدنيا ، ولم يرجعوا عن الإيمان ، أما بنو إسرائيل فقد رأوا ما رآه السحرة ، وأيضاً رأوا اعتراف السحرة وإيمانهم بموسى ، ثم رأوا الآيات التسع مدة مديدة ، ثم رأوا انفلاق البحر اثني عشر طريقاً سلكوها بأنفسهم ، ورأوا هلاك عدوهم بأعينهم ، ومع هذا كله لما خرجوا من البحر ورأوا قوماً يعبدون البقر قالوا لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، وما إن سمعوا صوتاً من عجل حتى عكفوا على عبادته .

وكم تمنيت ، وأنا أفسر الآيات التي نزلت في بني إسرائيل ، وحكت شنوذهم وغرائبهم ، كم تمنيت أن تتألف لجنة من العلماء بالإنسان وغرائزه لدراسة الأسرائيليين وطبيعتهم في ضوء سيرتهم وتاريخهم القديم والحديث لتعلم هل هم من البشر ظاهراً وواقعاً ، أو أنهم لا يشبهون الناس في شيء ، ولا أحد من الناس يشبههم في شيء إلا في الشكل والصورة ؟ كما يومئذ إلى ذلك الكثير من آي القرآن الكريم .
أنظر ج ١ ص ١٢٢ وج ٢ ص ٣٣٧ وص ٣٨٩ .

كذلك نقص عليك الآية ٩٩ - ١١٢ :

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ
وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا

عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ
 الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا
 مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
 وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ
 حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا
 هَضْمًا *

اللغة :

ذكر أ يعني القرآن . ومن أعرض أي من كذب . والوزر في اللغة النقل ،
 والمراد به هنا العذاب . والصور قرن ونحوه ينفخ فيه . وزرقاً أي متغيري الألوان بالزرقة
 أو غيرها . يتخافتون بينهم أي يتسارون ويتحدثون بصوت خفي . وأمثلهم أفضلهم .
 ينسفها يجعلها كالغبار ثم يفرقها . ويذرها يتركها . والقاع أرض ملساء ، والصفصف
 المستوي من الأرض . والعوج الانخفاض . والامت الارتفاع اليسير . والهمس
 الصوت الخفي . وعنت خضعت وذلت . والقيوم القائم بتدبير الأمور . والهضم
 البخس والنقص .

الإعراب :

خالدين حال من ضمير يحمل على معنى الجماعة . وحملاً تمييز أي ساء الحمل
 حملاً . ويوم ينفخ بدل من يوم القيامة . وزرقاً حال . وجملة يتخافتون حال
 ثانية . وعشراً نصب على الظرفية بتقدير مضاف أي مدة عشر ليالٍ أو ساعات .
 وطريقة تمييز . وقاعاً حال . ولا عوج له (لا) نافية للجنس وعوج اسمها وله

الجزء السادس عشر

خبرها . الا من اذن (من) في محل رفع بدل من الشفاعة على حذف مضاف أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من اذن الخ .

المعنى :

(كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق) . أشار سبحانه بذلك الى قصة موسى (ع) وأخباره ، والخطاب الى رسول الله (ص) ، ومن للتبويض ، والمعنى نقص عليك - يا محمد - بعض انباء الأمم السابقة ، كما سمعت ، وهي عبرة وعظة للناس ، وفي الوقت نفسه تدل على صدقك ونبوتك لأنها من أنبياء الغيب (وقد آتيناك من لدنا ذكراً) أي قرآناً ، وسمي القرآن ذكراً لأن فيه ذكر الله وصفاته ، والأنبياء وأخبارهم ، والآخرة وشؤونها ، والإيمان والكفر ، والخير والشر ، والحلال والحرام ، وخلق السموات والأرض ، الى غير ذلك .

(من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً) . ضمير عنه يعود الى القرآن ، وكل من جمحد القرآن بالقول والفضل ، أو بالفعل دون القول فقد أعرض عنه ، وحمل نفسه ما تنوء بثقله ، قال رسول الله (ص) : ما آمن بالقرآن من استحل محارمه . ويأتي الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٢٤ وما بعدها من هذه السورة .

(خالدين فيه) . ضمير فيه يعود الى الوزر ، والمراد به العذاب بدليل خالدين ، واطلاق الوزر على العذاب من باب اطلاق السبب على المسبب (وساء لهم يوم القيامة حملاً) . بشئ ما حملوا أنفسهم من الأثام بسبب إعراضهم عن القرآن (يوم ينفخ في الصور) . هذا كناية عن بعث من في القبور (ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) . وأيضاً هو كناية عن خزيهم وسوء حالهم آنذاك .. ومن أطرف ما قرأت في تفسير هذه الآية ما جاء في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، قال المؤلف : « الظاهر أن المراد بالزرق زرقه العيون ، والزرقه أبغض ألوان العيون الى العرب ، لأن الروم أعداؤهم ، وهم زرق العيون » . وهذا المفسر كان قريب العهد من الحروب الصليبية .

سورة طه

(يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرأ) . من صفات المجرمين يوم القيامة انهم لشدة ما يعانون من الأهوال يذهلون عن مدة مكثهم في الحياة الدنيا ، ويقول بعضهم لبعض بلسان المقال أو الحال ، وبصوت خافت : ما لبثنا الا عشر ليال أو ساعات أو لحظات .

وتسأل : حكى سبحانه عن المجرمين في هذه الآية قولهم : لبثنا عشرأ ، وفي الآية ١٩ من سورة الكهف : « قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم » وفي الآية ٥٥ من سورة الروم : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » . فما هو وجه الجمع بين هذه الآيات ؟ .

وأجاب الرازي بأن بعض المجرمين خطر بباله ان المدة عشرة أيام ، والبعض الآخر انها يوم واحد .. والذي رآه نحن ان كلمة العشر واليوم والساعة ليست حكاية لقول المجرمين بالحرف ، وانما هي كناية عما تخيلوه من قلة المكث ، وقصر الأمد ، وانه تعالى عبّر عن ذلك بالعشر تارة ، وباليوم تارة ، وبالساعة أخرى ، والى هذا يومىء قوله تعالى : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم إلا قليلاً - ٥٢ الاسراء » .

(نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم إلا يوماً) . أمثلهم طريقة هو أفضلهم سيرة ، وأعرفهم بحقائق الأمور ، والمعنى ان هذا الأمثل قال لهم ، وهم يتسارون بينهم ما لبثنا إلا عشرأ ، قال : ان الحياة التي كنتم فيها ، وتنافستم على حطامها ما هي في حقيقتها إلا حلم لا يُبعد بالزمان والأيام .. والحياة الحقة هي هذه التي نحن فيها الآن ، حيث لا أمد لها ولا نهاية .

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) . سأل سائل رسول الله (ص) : كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فقال سبحانه لنبيه الكريم : قل مجيباً عن هذا السؤال : ان الله يقتلعها من اصولها ، ويصيّرُها غباراً منتشراً في الفضاء، ويدع أماكنتها من الأرض ملساء، لا شيء فيها ، ولا ارتفاع ، ولا انخفاض .

(يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له) . يومئذ هو يوم القيامة ، وضمير يتبعون يعود الى الخلائق، والداعي هو الذي يدعوهم الى المحشر والحساب والجزاء،

الجزء السادس عشر

وضمير له يعود الى الداعي بلحاظ دعوته ، والمعنى ان دعوة الداعي حق ،
ومستجابة عند الجميع ، ولا أحد يستطيع النخلف عنها : « يوم يدع الداعي
الى شيء نكر خشعاً ابصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين
الى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر - ٨ القمر » .

(ونخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) . خشعت خضعت وذلت ،
والأصوات على حذف مضاف أي أصحاب الأصوات ، لأن الصوت لا يحس ولا
يشعر ، والهمس الكلام الخفي ، وهو يدل على الخشوع والخضوع . (يومئذ
لا تنفع الشفاعة إلا من اذن له الرحمن ورضي له قولاً) . هذا بمعنى قوله تعالى :
« ولا يشفعون إلا لمن ارتضى - ٢٨ الأنبياء » . وتكلمنا عن الشفاعة مطولاً عند
تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٧ (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون به علماً) . تقدم نظيره في الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٩٤ .
(وعنت الوجوه للحي القيوم) . المراد بالوجوه أصحابها ، والمعنى ان الخلائق
كلها تنقاد غداً لأمر الحي الذي لا يموت ، والقائم على كل شيء ، ولا يقوم
شيء إلا به (وقد خاب من حمل ظلماً) . ان اخسر الناس غداً من ظلم الناس ،
واعتدى على كرامتهم وحرمتهم ، والرابع عند الله من عمل الخير الناس وصلاحهم
لوجه الخير والانسانية (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) .
هذا مثل قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه
حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - ٩٧ النحل » . ج ٤
ص ٥٥٠ .

أنزلناه قرآناً عربياً الآية ١١٣ - ١٢٢ :

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا * وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى

آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَذَرَيْهِ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُولُ *
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَیْهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *

اللغة :

صرفنا كررنا وفصلنا . والمراد بالذكر هنا العظة والعبرة . ولا تضحي لا تبرز
للشمس ، والمراد به عدم الجهد والكد من أجل العيش . وطفقا أخذنا وشرعنا .
ويخصفان أي جملا يلصقان ورقة على ورقة . واجتباه اصطفاه .

الإعراب :

قرآناً حال ، وعربياً صفة . وعلماً تمييز لأنه بمعنى زاد علمي ، ويجوز أن
يكون مفعولاً ثانياً لزدني على ان تكون زدني متضمنة معنى العطاء . والمصدر من
ان لا تجوع اسم ان ولك خبر . والمصدر من أنك لا تظماً عطف على المصدر
من ان لا تجوع .

المعنى :

(وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) . أنزل سبحانه القرآن على عبده محمد (ص) بلغة العرب ، وخوف العباد بأساليب شتى من حسابه وعذابه ليتقوه ويطيعوه في جميع أحكامه ، أو يتذكروه إذا أذنبوا فيتوبوا إليه ويسألوه العفو والصفح ، وأو هنا للإباحة، مثلها في: كن عالماً أو زاهداً، لأن التقوى تجتمع مع التذكر كما يجتمع العلم والزهد، وتقدم نظير هذه الآية في سورة يوسف الآية ٢ ج ٤ ص ٢٨٦ ، وأجبنا هناك مفصلاً عن سؤال السائل : لماذا نزل القرآن بلغة العرب مع ان محمداً (ص) ما أرسل إلا للناس كافة .

أوصاف القرآن :

- ذكر سبحانه في كتابه العزيز الكثير من أوصافه ، منها :
- ١ - العربي : كما في هذه الآية ، والآية ٢ من سورة يوسف .
 - ٢ - الذكر : انا نحن نزلنا الذكر - ٩ الحجر . وذو الذكر : والقرآن ذي الذكر - ٢ ص .
 - ٣ - النور : قد جاءكم من الله نور - ١٥ المائدة .
 - ٤ - القول الفصل : انه لقول فصل - ١٣ الطارق .
 - ٥ - الهدى : ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين - ٢ البقرة .
 - ٦ - الحكيم : والقرآن الحكيم - ٢ يس .
 - ٧ - المجيد : والقرآن المجيد - ٢ ق .
 - ٨ - الروح : يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينزل يوم التلاق - ١٥ غافر .
 - ٩ - الحق : انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون - ١٧ هود .
 - ١٠ - النبأ العظيم : قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ... ٦٨ ص .

سورة طه

- ١١ - الشفاء : قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء - ٤٤ فصلت .
١٢ - الرحمة : وانه هدى ورحمة للمؤمنين - ٧٧ النمل .
١٣ - التنزيل : تنزيل من رب العالمين - ٨٠ الواقعة .
١٤ - البشير النذير : كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً - ٤ فصلت .
١٥ - العزيز : وانه لكتاب عزيز - ٤١ فصلت .
١٦ - العظيم : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم - ٨٧ الحجر .
١٧ - المبين : والكتاب المبين - ٢ الزخرف .

وأولى الحقائق التي تدل عليها هذه الصفات ان الله سبحانه انما أنزل القرآن على نبيه الكريم لهداية الناس وسعادتهم وأمنهم واستقرارهم .

(فتعالى الله الملك الحق) . قال الإمام علي (ع) مناجياً ربه : سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك ! وما أصغر عظيمه في جنب قدرتك ! وما أهول ما نرى من ملكوتك ! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانتك ! وما أسبغ نعمك في الدنيا ! وما أصغرها في نعم الآخرة ! .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه) . جاء في الحديث ان النبي (ص) كان اذا ألقى عليه جبريل القرآن يتابعه قراءةً خوفاً أن يفوته شيء منه ، فأمره تعالى ان يصغي ولا يتابع ، وان يطمئن ولا يخشى النسيان، ويدل على صحة هذا الحديث الآية ١٧ من سورة القيامة : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » .

زدني علماً :

(وقل رب زدني علماً) . والعلم الذي أمر الله نبيه أن يستزيده منه هو العلم الذي ينتفع به صاحبه ، وينفع به غيره .. فلا القيم والعقائد، ولا الفلسفة والشرائع ولا الأدب والفن ، كل هذه ليست بشيء عند الله إلا اذا كانت وسيلة للحياة طيبة كريمة لا مشاكل فيها ولا تعقيد ، حتى الحياة الآخرة ترتبط ، وتلتحم

الجزء السادس عشر

التحاماً كلياً بالعمل النافع في الحياة الدنيا، قال رسول الله (ص) : خير الناس عند الله أنفع الناس للناس، وليس من شك ان أنفع الناس هو الذي يعمل من أجل حياة أفضل ، ومجتمع أرقى .

وكل شيء في هذا العصر يدل بوضوح على انه لا حياة فاضلة للانسان إلا بالعلم .. من غير فرق بين حياته المادية والاجتماعية والثقافية ، فكما ان المجتمع ، أي مجتمع، لا يمكنه أن يحيا حياة طيبة بلا مطابع ولا مصانع تنتج الملابس ووسائل النقل والأدوات المنزلية وغيرها من الضرورات ، كذلك لا يمكنه أن يعيش حرراً كريماً بلا علم السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها من العلوم التي لها أثرها الفعال في القضاء على استغلال الانسان للانسان .

هذا هو العلم الصحيح ، وهو المقصود من كلمة العلم في قوله تعالى : « وقل رب زدني علماً » ، وقول الرسول الأعظم : « من سلك طريقاً الى العلم سلك به طريقاً الى الجنة » . ومن فسر العلم بحفظ المتون والحواشي فهو من الذين يؤمنون بأن العلم ألقاظ وكلمات ، والدين تكبير وتسيحات .

(ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً) . والعهد الذي عهدته الله لآدم هو ان لا يقرب من الشجرة المعهودة، ولا يستجيب لدعوة ابليس ووسوسته، والمراد بنسي خالف ، وبالعزم الثبات (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) . تقدم في الآية ٣٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٢ والآية ١٠ من سورة الاعراف و ٣٠ من سورة الحجر و ٦١ من سورة الاسراء و ٥١ من سورة الكهف .

(فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنتك لا تظمأ فيها ولا تضحى) أي لا تكدرح في حر الشمس ، وخص الضحى بالذكر حيث يكون الحر فيه على أشده .. حذر سبحانه آدم من وسوسة ابليس ، وقال له : انت بين أمرين : إما ان تطيعني وتعصي إبليس ، فجزاؤك عندي هذه الجنة ، وهي - كما رأيت - هناء وصفاء .. لا جوع فيها ، ولا ظمأ ، ولا عرى ، ولا مرض .. لا آلام وأحزان ، لا موت ودماء ودموع ، ولا كدرح في حر ولا برد .. لا شيء إلا الأمن والأمان

سورة طه

والراحة والجنان . واما ان تعصبي وتطيع ابليس ، فتخرج من الجنة الى دنيا كلها متاعب ونوائب ، وطغيان واسقام .. فنسي آدم هذا التحذير ، وتراكت المحن والخطوب عليه وعلى نسله، ابتداء من قتل قابيل هايل الى جرائم اسرائيل... الى ما لا نهاية .

وغير بعيد ان يكون اخراج آدم من الجنة درساً وعظة لمن يتبع الأهواء والشهوات ، وان جزاءه عند الله العذاب والشقاء . انظر ما قلناه بعنوان: ضعف الارادة وسيلة للحرمان ج ١ ص ٨٥ .

(فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة) . تقدم مثله في سورة الأعراف الآية ١٩ وما بعدها ج ٣ ص ٣١١ .

(وعصى آدم ربه فغوى) . وتساءل : ان آدم نبي ، والنبي معصوم عن الخطأ والخطيئة ، فكيف نسب سبحانه اليه المعصية والغواية ؟ .

وأجابوا عن ذلك بأجوبة ، منها ان المراد بالمعصية هنا مخالفة التذنب دون الوجوب ، وهذه المعصية لا تتنافى مع العصمة، ومنها ان آدم حين كان في الجنة كان في الدار الآخرة ، وهذه الدار لا تبايغ فيها ولا تكليف كي تحتاج الى أنبياء .. ونبوة آدم كانت في الدنيا ، لا في الجنة .. وعلى أية حال فان آدم تاب وطلب الصفح من ربه (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) . تكلمنا عن ذلك مفصلاً بعنوان عصمة الأنبياء ج ١ ص ٨٦ .

قال اهبطا منها الآية ١٢٣ - ١٢٩ :

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا تُبَيِّنُكُمْ مِّنِّي هُدًى
فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ
لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ
 الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ
 وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى * أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ
 الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * وَلَوْلَا
 كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى *

اللغة :

الضنك الضيق . وأسرف تجاوز الحد . أفلم يهد لهم : أفلم يبين لهم . والنهى
 العقول . ولزماً لازماً .

الإعراب :

إما كلمتان : ان الشرطية وما الزائدة . وأعمى حال من هاء نحره . وفاعل
 يهد محذوف أي أفلم يهد الله لهم . وكم في موضع نصب بأهلكنا . وأجل مسمى
 عطف على كلمة، أي ولولا كلمة وأجل مسمى .

المعنى :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإذا يأتيكم مني هدى فمن اتبع
 هداي فلا يضل ولا يشقى) . ضمير قال لله تعالى ، واهبطا لآدم وزوجه ،
 والمراد ببعضكم لبعض ذرية آدم وإبليس ، وبالهدى أمر الله ونهيه ، ومن أطاع
 الله في أمره ونهيه فهو من الهادين المهتدين في الدنيا ، ومن السعداء الآمنين في
 الآخرة . ومر مثله في الآية ٣٦ من سورة البقرة .

سورة طه

(ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً) . وتساءل : ان ظاهر الآية يدل على ان الله قضى وقدر ان يعيش العصاة الطغاة في حرج وضيق من العيش ، مع ان الذي نراه انهم كلما ازدادوا عصياناً وطغياناً ازدادوا جاهاً ومالاً ؟

وأجاب المفسرون بأن المراد بالضنك والضيق هنا قلق النفس واضطرابها على ما في اليد وحذرها من العواقب والمفاجآت ، ومن الضراء بعد السراء .

ويلاحظ بأن هذا القلق شامل لكل من في يده شيء من حطام الدنيا مطيعاً كان أو عاصياً ، لأن الطبيعة عمياء لا تميز بين الطيب والخبيث ، وحوادثها لا ترحم صغيراً ولا ضعيفاً ، ولا تبالي بمصير الأخيار والأولياء .

والأرجح في الجواب ما ذكرناه في ج ٣ ص ٩٤ بعنوان: الرزق وفساد الأوضاع ، وفي ص ١٣١ من المجلد المذكور بعنوان: هل الرزق صدفة أو قدر ؟ ومجمله ان الفقر من حكم الأرض ، لا من حكم السماء ، مما كسبت ايدي الناس الذين أماتوا الحق والعدل .. ولو انهم أقاموا شريعة الله لما وُجد على ظهرها فقير .

(ونحشره يوم القيامة أعمى) . قال بعض المفسرين ، المراد بالعمى هنا العمى عن الحجّة والدليل . وقال آخر : بل العمى عن الجنة .. والصحيح ان المراد به المعنى الظاهر ، وهو ذهاب البصر بدليل قوله : (قال رب لم حشرني أعمى وقد كنت بصيراً) . ولا موجب للتأويل (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) . انك تُهمَل اليوم كما أهملت العمل من قبل ، وبالاختصار من ساء عمله في الدنيا ساء مصيره في الآخرة ..

وهذه الآية من أوضح الأدلة على ان العمل في الدنيا أصل ، وثواب الآخرة فرع ، وانه لا سبيل الى نعيمها إلا العمل الصالح .. وعلى الرغم من ان القرآن الكريم يربط الاسلام بالحياة ، والجزاء بالعمل فان كثيراً من شبابنا يقولون : الدين خرافة وأساطير .. وعذرهم في ذلك جهلهم بالاسلام ، وبعدهم عن معرفة حقائقه وأسراره .

(وكذلك نجزي من أسرف) في طلب الدنيا ، وأخذها من غير حل (ولم يؤمن بآيات ربه) الدالة على وجوده ، ونبوة أنبيائه ، وانزال كتبه ، أو يؤمن بذلك كله ، ولكنه لا يلتزم بالعمل . (ولعذاب الآخرة) ومنه سراويل القطران

الجزء السادس عشر

وطعام الزقوم ، وشراب الحميم ، والضرب بمقامع الحديد (أشد وأبقى من وقع العمى والنسيان .

(أفلم يهد فم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم) . المراد بيهد يبين ويوجد طرق الهداية ، وضمير لهم يعود الى المشركين ، والمعنى كيف أشرك الذين عاصروا محمداً (ص)، وأصروا على الشرك بعد ان دعاهم الى التوحيد، مع ان الله قد بين وأوجد طرق الهداية الى التوحيد ، ومنها اهلاك الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود ، فقد كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر مالا ، وأعز نفراً ، فبعث الله اليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، كما بعث محمداً الى مشركي قريش ، فعصوا وتمردوا ، فأهلكهم الله بكفرهم وتمردهم ، وهم في ديارهم آمنون مطمئنون ، فهل أمن مشركو قريش أن يأتيهم بأس الله على غفلة كما أتى الذين من قبلهم (ان في ذلك لآيات لأولي النهى) ان ما حل بالماضين عبرة وعظة لأصحاب العقول من الحاضرين .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) . المراد بالكلمة والأجل المسمى قضاؤه تعالى بتأخير العذاب ، والمعنى لولا قضاؤه وحكمته جل وعز بتأخير العذاب على مشركي قريش الى أجل مسمى لوقع عليهم لا محالة .

فاصبر على ما يقولون الآية ١٢٩ - ١٣٢ :

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبِرْ عَلَيْهَا
لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نُرْزِقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ *

سورة طه

اللغة :

آناء الليل ساعاته ، واحدها إني . وزهرة الحياة زينتها . والفتنة الابتلاء والاختبار .

الإعراب :

زهرة مفعول لفعل محذوف أي جعلناها زهرة الحياة الدنيا ، ويجوز أن تكون عطف بيان من الأزواج . وللتقوى على حذف مضاف أي لأهل التقوى .

المعنى :

(فاصبر على ما يقولون) . كذّاب المشركون رسول الله (ص) وقالوا عنه : ساحر وشاعر ، ومفسر ومجنون ، فأمره الله بالصبر ، لأن من صبر انتصر (وسبح بحمد ربك) وليس المراد به قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وكفى .. بل مع التوجه إليه والاتكال عليه (قبل طلوع الشمس) إشارة إلى صلاة الفجر (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) صلاة المغرب والعشاء (وأطراف النهار) صلاة الظهر ، وأطلق طرف النهار على الزوال بالنظر إلى أنه الطرف الأخير للنصف الأول من النهار ، والطرف الأول للنصف الثاني منه .. هكذا قيل .. وليس ببعيد أن يكون المراد من هذه الأوقات الأمر بذكر الله في كل آن وحال ، تماماً كقوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم - ١٩١ آل عمران » . (لعلك ترضى) . وكل من أرضى الله في الدنيا أرضاه الله في الآخرة (رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

(ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) . المراد بلا تمدن عينيك لا تهتم ، وبالأزواج أصناف الكفار مشركين كانوا أو كتابيين ، وزهرة الحياة زينتها ، ونفتنهم نبتليهم ونختبرهم ، والمعنى لا تهتم يا محمد بما تراه من غنى الكفار من أي نوع كانوا مشركين أو نصارى أو يهوداً

الجزء السادس عشر

لأن الله سبحانه أراد أن يمتحنهم بالمال ليظهروا على حقيقتهم ، ويجازيهم الله على طغيانهم ، قال الإمام علي (ع) : ان الله يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه ، وان كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب . وفي تفسير الطبري ان رسول الله (ص) أرسل الى يهودي يستدين منه ، فأبى الا برهن ، فحزن رسول الله (ص) فترلت الآية . وسواء أصبحت هذه الرواية ، أم لم تصح فانها أوضح مثال لقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » .

فقر النبي معجزة كبرى :

نحن الآن في سنة ١٩٦٩ ، ومن حوالي ٣٥ سنة كتب الأديب الشهير مصطفى صادق الرافعي مقالين عن فقر النبي (ص) بعنوان « سمو الفقر » نقتطف منها الجمل التالية بشيء من التصرف في بعض الألفاظ بقصد الايضاح :

من هم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً ، وهو يعلم ان صناعته في المدينة عمل الغني الأغنياء ، وأن يكون الغني غنياً ، وهو يعلم ان عمله في المدينة صنعة الفقر لضميره .. ومحمد (ص) عاش فقيراً، ولكن فقره يُعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه اليها أحد الى الآن .. كان محمد (ص) يملك المال، ولكنه كان أجود به من الريح ، لا يدعه يتناسل عنده ، بل ولا يستقر اطلاقاً .

كان - وهو سيد أمته وصاحب شريعته - رجلاً فقيراً يكدح لعيشه ، يجوع يوماً ، ويشبع يوماً ، وهدفه الأول من وراء ذلك أن يثبت وحسدة الانسانية ، ويقر التوازن بين أفرادها ، وان يعلم كل انسان ان حل مسائله الشخصية وحدها هو تعقيد لمسائل المجتمع ، وان مصلحته في حقيقتها وواقعها هي التي تلد لغيره مصلحة مثلها لتحيا بها ومعها ، لا أن تأكل مصلحة غيره ليهلكا معاً .

(وأمرٌ أهلك بالصلاة واصطبر عليها) . والصبر على الصلاة ان لا يؤثر عليها أي عمل من الأعمال . وفي تفسير الرازي : ان رسول الله (ص) كان بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلي (ع) كل صباح ويقول : الصلاة الصلاة ،

سورة طه

وكان يفعل ذلك أشهراً (لا نسألك رزقاً) . لست مسؤولاً عن رزق أحد ،
وطعامه وشرابه (نحن نرزقك) ونرزق عيالك أيضاً .. وذكر هذا سبحانه بعد
الأمر بالصلاة للإشارة الى ان الصلاة لا تراحم العمل من أجل الرزق، وان الجمع
بينها سهل يسير ، لأن وقت الصلاة المكتوبة لا يستغرق سوى دقائق معدودات .
(والعاقبة للمتقوى) لمن اتقى معاصي الله ومحارمه في السر والعلانية . قال الإمام
علي (ع) : لا شرف أعلى من الاسلام ، ولا عز أعز من التقوى ، ولا معقل
أحصن من الورع ، ولا شفيع أنجع من التوبة ، ولا كثر أغنى من القناعة ..
ومن اقتصر على بُلغة الكفاف فقد انتظم الراحة .

لولا يأتينا بآية الآية ١٣٣ - ١٣٥ :

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ
الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أُرْسِلَتْ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى * قُلْ كُلُّ
مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السُّوْيِ وَمَنْ
أَهْتَدَى *

اللغة :

المراد بالآية هنا المعجزة التي اقترحها المشركون على النبي (ص) عناداً وتعنتاً .
والمراد بالبينة البيان والبرهان ، وبالصحف الأولى التوراة والانجيل . والسوي المستقيم .

الإعراب :

لولا من أدوات الطلب بمعنى هلاً . والمصدر من اننا اهلكناهم فاعل لفعل

الجزء السادس عشر

مخوف أي لو ثبت اهلاكتنا اياهم . فتتبع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوع الفعل في جواب الطلب . وكلّ أي كل واحد . ومن أصحاب الصراط (من) استفهام مبتدأ ، وأصحاب خبر ، والجملة في محل نصب يستعلمون . ومن اهتدى عطف على من أصحاب الصراط .

المعنى :

(وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) . تقدم مثله مع التفسير في الآية ١١٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩ والآية ٧٣ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٨٤ والآية ٢٠ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٤ (أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) . إذا كنتم تطلبون المعجزة حقاً أيها المشركون ، لا عناداً وتعتاً فهذا القرآن بسين أيديكم .. فإنه معجزة المعجزات من عدة جهات ، ومنها انه بيان لما جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب السماوية على حقيقته .. كلا ، لستم من طلاب الحقيقة والهداية ، ولا من أهل الصدق والخير، وما طلبتم ما طلبتم إلا للمراوغة والتحايل، والمكابرة والعناد .

(ولو انا أهلكتناهم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى) . ضمير أهلكتناهم يعود الى مشركي قريش ، وضمير من قبله الى النبي أو القرآن ، والمعنى لو عذبنا المشركين في الدنيا أو الآخرة دون ان نقطع حججتهم بارسال محمد ونزول القرآن لاحتجوا وقالوا لله : أتعاقبنا قبل ان ترسل الينا من يخرجنا من الجهل ، وينبئنا من الغفلة ، فيأمرنا بما تحب ، وينهانا عما تكره ؟ ولكن الله سبحانه قطع جميع أعذارهم بعد ان أرسل اليهم محمداً (ص) بآيات مسفرة ظاهرة .

(قل كلّ متربص قربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) . هذا انذار بأنهم يسلكون طريق الضلالة والهلاك ، وتهديد ووعيد لما ينتظرهم من العذاب المحتوم .. ولكن ما تنفي النذر عن قوم لا يؤمنون إلا بمكاسبهم ومنافعهم .

الجزء السابع عشر

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مكية وآياتها ١١٢ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقرب للناس حسابهم الآية ١ - ٦ :

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ
مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدَّدٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا
النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *
بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا
أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ *

اللفظة :

من ذكر من قرآن . ومحدث نزل سورة بعد سورة . وأسروا النجوى تناجوا
فيها بينهم . واضغات جمع ضغت ، وهو الخزمة من كل شيء .

سورة الأنبياء

الإعراب :

من ذكر (من) زائدة اعرابياً وذكر فاعل يأتيهم . ومن ربهم متعلق بمحذوف صفة لذكر . ومحدث صفة ثانية . ولاهية حال من واو يلعبون . والذين ظلموا بدل من واو اسروا . ومثلكم صفة لبشر . واضغات أحلام خبر لمبتسداً محذوف أي هو اضغات احلام .

المعنى :

(اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) . المراد بالحساب هنا يوم القيامة ، وهو قريب من كل انسان لأنه آت لا محالة ، وان طال الزمن، ويتلخص المعنى بقول الإمام علي (ع) : لا تغفل فليس بمغفول عنك . وقال أيضاً : وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه ، وطالب حيث يحذوه في الدنيا حتى يفارقها . (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) . يستقبلون الحق بالكذيب ، والنصيحة بالسخرية ، والتحذير من العواقب بالاستخفاف (لاهية قلوبهم) عن الحق ، لا يبالون بشيء ، ولا يشعرون بمسؤولية الحساب والجزاء ، تماماً كالحيوانات والحشرات .

(وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم) . قال بعض المشركين لبعض في الخفاء عن اهتدى وأسلم ، قال : من هو محمد حتى نطيعه ونتبعه ؟ وهل هو إلا واحد من الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ أما العلم والفضائل فكلام بلا معنى ، وأما المعجزات فهي سحر وتمويه (أفأتأتون السحر وأنتم تبصرون) . تأتون هنا بمعنى تقبلون ، وتبصرون بمعنى تعلمون ، ولا عجب أن ينعتوا بالكذب آيات الله ودلائله التي جاءت على يد الرسول الأعظم (ص) .. فكل مكابر عنود يتذرع بمثل هذه الأباطيل اذا لزمته الحجة ، ولم يجد منها مهرباً .

(قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم) قالوا عن النبي (ص) : انه ساحر . فأجابهم بأن الله يعلم صدقه ، ويعلم قولهم هذا ، لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وسيحاسبكم ويجازيكم بما

الجزء السابع عشر

تستحقون .. ولا جواب لمن التوى عن الحق وعانده إلا ان يحيله الى محكمة الحق والعدل (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) . رفضوا الاعتراف بالحق ، وبخثوا عن حيلة يتذرعون بها فتاهوا في حيرتهم يعمهون ، قال صاحب مجمع البيان : « وهكذا المتحير الذي بهرته ما سمع .. فمرة يقول هذا سحر، ومرة يقول هو شعر، ومرة يقول انه حلم، ولا يجزم على أمر .. وهذه مناقضة ظاهرة » .

(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) . قال مشركو قريش لمحمد (ص) : ان كنت نبياً فأتنا بمعجزة كنانة صالح ، وعصا موسى وغيرهما من معجزات الأنبياء السابقين ، فأجاب سبحانه عن هذا الطلب بقوله : (ما آمنت قبلهم من قريسة أهلكتها) . ومعنى هذا الجواب : صحيح ان الأنبياء السابقين جاءوا بالحوارق كالنانة والعصا ، ولكن قومهم لم يؤمنوا بها ، بل رفضوها وكذبوها ، مع انهم هم الذين طلبوها واقترحوها ، ومن أجل ذلك أهلكتهاهم ، فينبغي لكم أنتم يا مشركي قريش أن تنظروا الى النتائج التي ترتبت على الحوارق ، لا الى نفس الحوارق ، وعين الشيء يحدث لكم لو استجاب الله لاقتراحكم (أفهم يؤمنون) أي لم يؤمن الذين كانوا قبلهم بالمعجزات التي اقترحوها فكذلك هم لا يؤمنون بالمعجزات التي اقترحوها ، وتكون النتيجة أن يهلكوا كما هلك الأولون ، حيث قضت حكمته تعالى أن يهلك من يكذب بمعجزة هو الذي طلبها واقترحها .

فاسألوا أهل الذكر الآية ٧ - ١٥ :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ

سورة الأنبياء

قَرِيَّةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسُوا بِأَسْنَا
إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا
زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ *

اللغة :

القسم الكسر، والمراد به الهلاك . والانشاء الابداع . والركض العدو . والإتراف
من الترف ، وهو النعمة . والويل الخزي والهوان والهلاك . والحمود السكون .

الإعراب :

جسداً مفرد في موضع الجمع أي ذوي أجساد ، ولذا أعاد عليه ضمير الجمع
في يأكلون . فيه ذكر كم مبتدأ وخبر ، والجملة صفة لكتاب . وكم في محل نصب
بقصمنا . واذا للمفاجأة . ومساكنكم معطوف على ما أترفتم أي ارجعوا الى ما
اترفتم فيه والى مساكنكم . ويا ويلنا (يا) حرف نداء ويلنا منادى، أي يا ويلنا
احضر . وخامدين صفة لحصيد ، وقيل : حصيداً وخامدين بمنزلة الكلمة الواحدة
مثل حلو حامض أي مز .

المعنى :

(وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا
تعلمون) . تقدم بنصه مع التفسير في الآية ٤٣ من سورة النحل ج ٤ ص ٥١٧ .
(وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) . ليس الأنبياء أرواحاً

الجزء السابع عشر

بلا أجساد ، ولا خالدين في هذه الحياة .. انهم تماماً كغيرهم من الناس لا يمتازون عنهم إلا بالتبليغ عن الله ، وانهم اكمل البشر . انظر ما كتبناه بعنوان حقيقة النبوة عند تفسير الآية ٣٥ من سورة طه .

(ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) . يشير سبحانه بهذا الى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز - ٢١ المجادلة » . وقوله : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد - ٥١ غافر » . وخلاصة المعنى ان الله سبحانه وعد الأنبياء والذين آمنوا بالنجاة ، والكافرين بالهلاك ، وقد وفى بوعدده ، ومن أوفى بعهده من الله .

محمد والعرب :

(لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون) . لم يكن العرب قبل محمد (ص) والقرآن شيئاً مذكوراً ، وبعدهما أصبحوا مشهورين تذكر الأمم تاريخهم وحضارتهم ، وترفع من شأنهم ومكانتهم ، قال « و.ل. ديورانت » في موسوعته التاريخية « قصة الحضارة » :

كان محمد من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب عاش في دياجير الهمجية ، وحرارة الجو ، وجذب الصحراء ، وقد نجح في هذا الغرض نجاحاً لا يدانيه أي مصلح آخر في التاريخ كله . كانت بلاد العرب لما بدأ دعوته صحراء جرداء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها ، متفرقة كلمتها ، وصارت عند وفاته أمة متماسكة ، وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً سهلاً واضحاً ، وصرحاً قوامه البسالة والعزة والقومية ، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى الى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في العالم .

(وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) . هذا تهديد ووعد للذين كذبوا محمداً (ص) بأن يحل بهم من الهلاك ما حل بمن كان قبلهم

سورة الأنبياء

من الأمم الذين كذبوا رسلهم، ثم يوجد سبحانه قوماً لا يمتنون الى الهالكين بسبب ولا بنسب، فيورثهم أملاكهم وديارهم، فيعيدون بناءها من جديد، ويتمتعون بخيراتها وبركاتها.

(فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون) . هذا تصوير لحال المشركين حين ينزل بهم عذاب السماء .. انهم يعدون ويسرعون هرباً منه .. ولكن هيهات أين المفر من سلطان الله وقضائه؟ ولو هربوا من قبل الى الله لوجدوا عنده الأمن والأمان، أما الهرب من الله فهو تماماً كهرب الانسان من ظله وأجله (لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) . قبل أن ينزل العذاب بالمشركين كانت لاهية قلوبهم عن كل شيء إلا عن أموالهم وترفهم، وحين نزل بهم العذاب عميت أبصارهم وبصائرهم عن كل شيء، وأطلقوا سيقانهم للهواء لا يلوون على مال ولا بنين .. فقال لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتفريع : الى أين ؟ ارجعوا الى مساكنكم وأموالكم وأولادكم .. أتركونها الآن ، وقد كنتم بالأمس تعبدونها من دون الله؟ هذا جزاء من ترك الرشد ، ولم يهتد الى قصد .

(قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين) . اطمأنوا لترفهم ، ودانوا لشهواتهم، واتهموا الناصح الأمين ، ولما رأوا العذاب ندموا ودعوا بالويل والثبور ، ولكن الحسرات لا ترجع ما قد فات (فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) . هم يكررون الدعاء بالويل ، والعذاب ينصب على رؤوسهم تلو العذاب ، حتى أصبحوا أترأ بعد عين .. وما أغنى عنهم جاه ولا مال ، بل تنكر لهم كل شيء وتلك عاقبة المجرمين .

هل أفعاله تعالى معللة بالأغراض الآية ١٦ - ٢٣ :

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ

لَهُوَ لَاتَّخَذْتَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ

فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ *
يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ
يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ *

اللغة :

في كتب اللغة دمه دمه أي شجه حتى بلغت الشجة دماغه . والمراد بالدمع
هنا القمع والابطال . والزاهق الهالك . واستحسر تعب وأعبا . لا يفترون من
الفتور وهو السكون ، لا من الافتراء .

الإعراب :

ومن عنده لا يستكبرون (من) اسم موصول مبتدأ ، وعنده صلة ، ولا يستكبرون
خبر . وجملة يسبحون حال من فاعل ما قبلها . ام اتخذوا (ام) هنا منقطعة
بمعنى بل والهمزة . وإلا الله (إلا) بمعنى غير صفة للآلهة ، ولا يجوز أن
تكسب «الا» للاستثناء ، حيث يصير المعنى انه لو كان الله مع الآلهة لا يقع
الفساد ، وانما يقع إذا كانوا وحدهم فقط .

المعنى :

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) . تقدم نظيره في الآية ١٩١ من

سورة الأنبياء

سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٣١ . ونقلنا هناك الأقوال في ان أفعال الله هل تعلق بالاغراض ، او انه تعالى لا يقبح منه شيء ولا يجب عليه شيء ؟ (لو أردنا أن نتخذ هوأ لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين) . اللهو واللعب والعبث محال على من يقول للشيء: كن فيكون .. ولذا قال تعالى : « لو أردنا .. ان كنا فاعلين » أي ما أردنا ولسنا بفاعلين ، ولو أراد ان يتخذ هوأ – وفرض المحال ليس بمحال – لاتخذه من عنده أي من نوع آخر يناسب عظيمته لا من نوع ما يفعله العباد كاللهو بالنساء والأولاد .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) . المراد بالحق هنا الجهد والحقيقة في قبال اللهو الذي نقاه تعالى عنه ، والمراد بالباطل اللهو واللعب .. بعد ان قال ، جلت عظيمته ، لا نتخذ هوأ قال : كل أفعاله وأقواله جد وحقائق ، لا عبث فيها ولا هوأ، بل اذا جاء العبث واللهو من أي مصدر فانه يبطله وبمحقه فكيف يرتضي لنفسه ما لا يرتضيه لغيره ؟ . (ولكم الويل مما تصفون) الله به ، وتنسبون اليه من صفات المصنوعين .

(وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) أي لا يعيون ولا يكتون . وقال المفسرون : المراد بـ (من عنده) الملائكة .. والسذي نفهمه نحن ان المراد بهم كل من له مكانة ووجاهة عند الله ملكاً كان أو بشراً (يسبحون الليل والنهار ولا يفترون) أي لا يسأمون بل هم دائبون على الطاعة له في الأقوال والأفعال ، ولا يتوهمونه بالتصوير ، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين .

(أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) . جملة هم ينشرون صفة للآلهة ، والمعنى ان كل معبود للمشركين فإنه لا يحيي الأموات ، ولا يبعثهم من قبورهم ، بل الله وحده هو الذي يحيي ويميت (لو كان فيها آلهة الا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) . انظر ما كتبناه بعنوان دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ .

الجزء السابع عشر

من علم حجة على من لا يعلم :

(لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) . استدل البعض بهذه الآية على ان الله لا يقبح منه شيء ، ولا يجب عليه شيء ، فله ان يعاقب المطيع ، ويشيب العاصي .. وهذا يتنافى مع عدل الله وحكمته ورحمته .. والصحيح في معنى الآية ان الله سبحانه لما كان عادلاً بذاته فلا يجوز لأحد ان يعترض على قوله وفعله لأنه لا يقال للعدل : لماذا عدلت ؟ وللصادق : لماذا صدقت ؟ تماماً كما لا يجوز للجاهل بالطب ان يقول للطبيب الماهر : لماذا وصفت هذا الدواء ؟ إن مثل هذا السؤال انما يجوز ويصح من الند الى الند ، من العالم الى مثله ، اما الجاهل فغاية جهده ان يبحث عن العالم ، ويتأكد من علمه بما يراه من العلامات والدلائل ، فإذا صار على يقين منها وجب عليه ان ينقاد ويستسلم للعالم فيما هو عالم به ، تماماً كما يستسلم المريض للطبيب .. وقدماً قيل : من علم حجة على من لا يعلم ، وإذا كان هذا هو شأن المخلوق مع مخلوق مثله فكيف به مع خالق السموات والأرض ؟

قال تلميذ لاستاذة : لماذا وجدنا ولماذا نعيش ؟

فقال الأستاذ : ولماذا يا بني تجازف بنفسك في متاهات لا أول لها ولا آخر؟ لماذا لا تؤمن بالدين فتريح نفسك وتستريح ، وتدع ما لا تستطيع الى ما تستطيع؟ أنت واحد من آلاف الملايين ، وبلدك الذي تعيش فيه واحد من آلاف البلاد ، والكرة الأرضية التي تعيش عليها كوكب من ملايين الكواكب ، والكون الذي يشمل هذه الكواكب جميعاً من يدرينا ان له نظائر وأشباهاً تفوقه ، وهل يستطيع الجزء أن يحيط بالكل ؟ وهل تستطيع النقطة في البحر أن تتساءل عن البحر ؟

لا أقول لك يا بني : كف عن البحث والتطلع والتأمل ، فان نشدان الحقيقة سبب من أسباب وجود الانسان ، ولكن حيث يقصر عقلك عن الفهم والادراك توقف الى ان تزداد فهماً وادراكاً ، فاذا عجزت آخر الأمر سلّم بما هو واقع لأن قصورك عن الفهم لا يعني ان ما هو واقع عبث من العبث ، ولكنه يعني انك لم تفقه بعدُ حكمة الوجود ، فدعها لخالق الوجود .

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ
 وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا
 أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
 فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ *
 لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
 خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُرِضِيَ * وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ *
 وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ *

الإعراب :

هاتوا اسم فعل بمعنى اتوا . هذا ذكر من معي مبتدأ وخبر ، ومعني صلة
 لمن . وعباد خبر مبتدأ محذوف أي هم عباد . فذلك مبتدأ ، وجملة تجزيه خبر .
 وكذلك الكاف بمعنى مثل ، وهي في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي
 جزاء مثل ذلك .

المعنى :

(أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) . كل الناس تقول : البينة
 على من ادعى ، حتى ولو كان المدعى به حقيراً نافعاً .. فكيف اذا كان شريكاً

الجزء السابع عشر

الله في خلقه ؟ فأين الدليل ؟ (هذا ذكر من معي) القرآن (وذكر من قبلي) الكتب السماوية الأخرى كلها تأمر بالتوحيد ، وتنهى عن الشرك ، وإذا انتهى الدليل على الشرك من العقل والنقل تعين أن يكون مصدره العمى والجهل (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) . هذا تقرير وتوبيخ على جهلهم وضلالهم .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون) . هذه الآية بيان وتفسير للآية التي قبلها ، فالأولى تقول : لا أثر للشرك في كتب الله ، وهذه تقول : ما أرسل رسولا إلا بالتوحيد ، والاختصاص لله في العبادة . (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) . قال اليهود أو طائفة منهم : عزيز ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابن الله . وقالت بعض قبائل العرب : الملائكة بنات الله . فرد الله على الجميع بأن هؤلاء الذين ذكروا هم عباد ، لا أولاد ، وهم عند ربهم منزل كريم . ومن الطريف ما جاء في تفسير الطبري نقلاً عن الذين قالوا : الملائكة بنات الله : « ان الله تزوج الجن فأولدهم الملائكة » والى هذا يومئ قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً - ١٥٨ الصافات » .

ثم بيّن سبحانه السبب لمنزلة عزيز والمسيح والملائكة عند الله، بيّن السبب بقوله : (لا يسبقونه بالقول) أنهم لا يعملون بالرأي والقياس (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) . ما بين أيديهم كناية عن أعمالهم الحالية، وما خلفهم كناية عن أعمالهم الماضية، والمعنى انه تعالى قد أحاط علماً بجميع أعمالهم الخيرة، ومقاصدهم الحسنة ، وهو يجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) . هذا رد على من عبد نبياً أو ولياً أو ملكاً طمعاً في ان يشفع له عند الله ، ووجه الرد ان العباد المكرمين يشفعون للموحدين المرضيين عند الله ، لا للمشركين المغضوب عليهم .

(وهم من خشية مشفقون) على أنفسهم مع اخلاصهم ومكانتهم عند الله (ومن يقل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) . فهؤلاء العباد المكرمون لو ادعى أحدهم انه إله من دون الله أو شريك له فجزاؤه عذاب الحريق ، تماماً كجزاء غيره من المشركين من دون تفاوت .

وجعلنا من الماء كل شيء حي الآية ٣٠ - ٣٦ :

أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما
 وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون * وجعلنا في الأرض
 رواسي أن تُميدَ بهم وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلهم يهتدون * وجعلنا
 السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل
 والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون * وما جعلنا لبشر من
 قبلك الخلد أفان مِتَّ فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم
 بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون * وإذا رآك الذين كفروا
 إن يتخذونك إلهزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم يذكرون
 هم كافرون *

اللفظة :

الرتق الالتئام والالتحام ، وضده الفتق أي الفصل والانفصام ، يقال : رتق
 فتقهم أي أصلح أمرهم . والرواسي الجبال . وتميد تضطرب . وفجاء بكسر
 الفاء جمع فج ، وهو السعة والانفراج . والفلك كل شيء دائر . ونبلوكم نختبركم .
 والفتنة الابتلاء .

الإعراب :

المصدر من ان السموات والأرض مفعول يرّ . ورتقاً على حذف مضاف أي

الجزء السابع عشر

ذواتي رتق . وحي صفة لشيء . والمصدر من أن تميد مفعول من أجله لجعلنا ، وجعلنا هنا بمعنى خلقنا . وسبلاً مفعول ، وفجاجاً حال من سبل ولو تأخر فججاج لكان وصفاً ، وقال صاحب مجمع البيان فجاجاً مفعول ، وسبلاً بدل منه ، والمعنى صحيح على الإعرابين . وكل مبتدأ وجملة يسبحون خبر وفي فلك متعلق يسبحون . وفتنة مفعول مطلق لنبلوكم مثل قت وقوفاً ، وان يتخذونك (ان) نافية ، وهزواً مفعول ثان . وهم الأولى مبتدأ ، وكافرون خبر ، وبذكر الرحمن متعلق بكافرين . وهم الثانية تأكيد لفظي لهم الأولى .

المعنى :

(أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما) . في أول سورة البقرة ج ١ ص ٣٨ عقدنا فصلاً مطولاً بعنوان «القرآن والعلم الحديث» وقلنا : ان القرآن كتاب دين يهدي الانسان الى سعادته في دنياه وآخرته ، وليس كتاب نظريات في الفلسفة والعلم والفلك وغيره ، وان كل آية من آيات القرآن الكونية أو التاريخية كقصص الأنبياء فان الغرض منها أن نتعظ ونعتبر ، أو نسترشد بها الى وجود الله ، فنؤمن به ويعظمته ، ومن الآيات الكونية هذه الآية التي نحن بصددنا ، وقد ذكر فيها سبحانه شيتين : الأولى ان المجموعة الشمسية ، وهي الشمس والأرض والمريخ والمشتري وزحل وعطارد وغيرها كلها كانت متلاصقة متلاحمة كالأشياء الواحد ، ثم فصل الله بعضها عن بعض ، وجعل كلاً منها كوكباً مستقلاً .. وأقر العلماء الجدد نظرية انفصال الأرض عن الشمس ، ولكنهم اختلفوا في التفاصيل ، وسكت القرآن عن كيفية الفتح والانفصال ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه .

(وجعلنا من الماء كل شيء حي) . هذا هو الشيء الثاني الذي تضمنته الآية ، وبيانه ان الماء مصدر الحياة لكل نام ، انساناً كان أو حيواناً أو نباتاً ، وجاء في الآية ٧ من سورة هود : « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء » وقلنا في تفسيرها ج ٤ ص ٢١٠ : ان المراد بعرشه

سورة الأنبياء

تعالى ملكه واستيلاؤه، وان الآية تدل على ان الماء كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض . وفي أقوال أهل البيت (ع) ان الماء أول ما خلق الله . واذا كان العلم لم يتوصل بعدُ الى هذه الحقيقة ، فمن الجائز أن يتوصل اليها في الغد القريب أو البعيد .

ونقل أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ان حميداً قرأ وجعلنا من الماء كل شيء حياً بنصب حي مفعولاً ثانياً لجعلنا ، وهذه القراءة تؤيد القول : ان الله سبحانه أول ما خلق الماء ، وانه المصدر الأول الذي تكونت منه الموجودات ، وان كل كائن هو حي في حقيقته وواقعه نامياً كان أو غير نام ، وان بدا جامداً في ظاهره (أفلا يؤمنون) بعد هذه الدلائل والبيانات .

(وجعلنا في الأرض رواسي ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلمهم يهتدون) . وفي الآية ٢٠ من سورة نوح : « لتسلخوا منها سبلاً فجاجاً » بتقديم سبل على فجاج ، والمعنى واحد ، وهو ان الله سبحانه جعل في الأرض طرقاً واسعة ليسلكها الناس الى مقاصدهم . وتقدم نظيره في الآية ١٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٠٠ .

(وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) . السقف على حذف كاف التشبيه أي كسقف ، ثم حذفت الكاف وانتصب سقف بنزع الحافض . والمراد بالحفظ هنا بقاء الكواكب في أماكنها بفعل الجاذبية ، قال تعالى : « ويمسك السماء ان تقع على الأرض - ٦٥ الحج » . واسند الامسك اليه سبحانه لأنه سبب الأسباب ، والمعنى ان هذا النظام الدقيق في خلق السموات دليل قاطع عند أولي الأبواب على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ، ولكن أكثر الناس معرضون عن آيات الله ودلائله منصرفون الى أهوائهم وملذاتهم .

(وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر) . لكل من الليل والنهار والشمس والقمر صلة وثيقة بحياة الانسان ، فالنهار لكده وعمله ، والليل لراحته وهدوئه، والشمس والقمر للنسيان والحساب وغيره من الفوائد ، وفي ذلك نعمة كبرى على جميع عباد الله وحجة بالغة على عظم سلطانه (كل في فلك يسبحون) . كل كوكب يدور على قدر ، ويتحرك بحركة ثلاثية .

الجزء السابع عشر

وتسأل : ان كان تقدير الكلام كل واحد منها فينبغي أن يقول يسبح ، وان كان التقدير كلاهما فينبغي ان يقول يسبحان، فما هو الوجه في قوله يسبحون بضمير الجمع ؟ .

وأجاب المفسرون بأجوبة أرجحها ان لكل من الشمس والقمر منازل ومطالع، وقد أعاد سبحانه ضمير الجمع على كل منها باعتبار منزله .

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون) . قال الطبرسي : لما تضايق مشركو قريش من محمد (ص) قالوا : نربص به الموت . فنزلت هذه الآية لتجييبهم بأنه لا نجاة لأحد من الموت ، وهل اذا مات رسول الله (ص) تخلدون بعده أيها المشركون ؟ وسياق الآية لا يأبى ما قاله الطبرسي (كل نفس ذائقة الموت) فهو طالبٌ حيث لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، وأكرم الموت الاستشهاد من أجل احقاق الحق وابطال الباطل .

(ونبلوكم بالشرّ والخير فتنةً والينا ترجعون) . ان الله سبحانه يتلي عباده بما يحبون وما يكرهون ، ليظهر كل على حقيقته ، فن شكر عند الرخاء ، وصبر عند الشدة فهو من المخلصين المؤمنين ، وله أجرهم وثوابهم ، ومن كفر وبطر فهو من الذين حقت عليهم كلمة العذاب . وقيل : ان أمير المؤمنين علياً مرض ، فعاده أصحابه ، وقالوا : كيف أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : بشر . قالوا : ما هذا كلام مثلك . قال : ان الله تعالى يقول : ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، فالخير الصحة والغنى ، والشر الفقر والمرض . وقال أيضاً : من وسع عليه في دنياه ، ولم يعلم انه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله .. وكلمة فتنة في الآية تأكيد لنبلوكم لأن معنى الفتنة هنا الابتلاء والاختبار ، يقال : فن الصائع الذهب اذا أذابه ليختبر جوده من رديته .

(واذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك الا هزواً أهذا الذي يذکر آلهتم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) . كفروا بالله ، وآمنوا بالأحجار فدعاهم النبي (ص) الى الايمان بالله وحده ، ونبذ الأحجار، فسخروا منه ومن دعوته الى الحق الواضح ، ومن قوله : ان أصنامهم وأحجارهم لا تضر ولا تنفع .. وقال بعض المفسرين : « وهذا أمر عجيب جد عجيب » .. ولا عجب فهذا شأن كل من استهوته

سورة الأنبياء

المنافع والمصالح الشخصية ، ونشأ وترعرع على تقاليد البيئة والآباء والأجداد ، سواء أكانت تلك التقاليد عبادة حجر ، أم تعصباً لرأي من غير علم ولا هدى ، وسواء أكان الغرض ملاً أم جاهلاً أم أي شيء غير الحق والعدل .

خلق الانسان من عجل الآية ٣٧ - ٤٤ :

نُحِلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ
مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا
يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ
تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَلَقَدْ
اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ
ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى
طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا
أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ *

اللغة

الفرق بين العجلة والسرعة ان العجلة تقديم الشيء قبل أوانه، أما السرعة فهي

الجزء السابع عشر

الاتيان بالشيء في أول أوقاته ، والسرعة الى الخير محمودة. قال تعالى : ويسارعون في الخيرات ، والعجلة مذمومة. واشتهر : العجلة من الشيطان . لا يكفون أي لا يدفعون ، تقول كفتسه عني أي دفعته ومنعته . وتبتهم تحيرهم . ويُنظرون يؤخّرون . وحق نزل . ويكلؤكم يحرسكم . ويصحبون يجارون ، تقول العرب : أنا صاحب لك من فلان أي مجير لك منه .

الإعراب :

حين مفعول به ليعلم أي يعلم الوقت. وجواب لو محذوف أي لو يعلم الكافرون.. لانتهوا . وبغثة مصدر في موضع الحال من مفعول تأتيهم أي تأتيهم مبعوتين . وام لهم (ام) منقطعة بمعنى بل ، وجملة تمنعهم صفة للآلة ، وجملة لا يستطيعون مستأنفة لا محل لها من الإعراب . والمصدر من أنا تأتي مفعول يرون أي أفلا يرون اتياننا الأرض .

المعنى :

(خلق الانسان من عجل ساريكم آياتي فلا تستعجلون) . حذر النبي (ص) الكافرين من عاقبة الكفر ، وأنذرهم بعذاب الله ان أصروا وتمردوا ، فازدادوا عتوا وطغياناً ، واستعجلوا العذاب ساخرين مستهزئين ، فقال لهم سبحانه : مهلاً سترون صدق رسولي فيما وعدكم وأنذركم ، فلا تستعجلوا ما هو كائن ، فكم من مستعجل أمراً لو أتاه لضايق به ، وتمنى انه لم يأت .. وقال المفسرون ، وهم يشرحون هذه الآية : ان الانسان عجول بطبعه وتكوينه ، تماماً كما هو من لحم ودم .. ويلاحظ بأنه لو صح هذا ما وجد على ظهرها ذو روية وأناة ، بل وكان كل انسان عجولاً في جميع أقواله وأفعاله بلا استثناء ، والصحيح ان نعت الانسان بالعجول والكفور واليؤوس ونحوه هو تفسير لسلوكه في بعض مواقفه ، وليس تحديداً لطبيعته وهويته . وقد بسطنا الكلام في ذلك عند تفسير الآية ٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٣ وتفسير الآية ٣٤ من سورة ابراهيم ص ٤٤٩ من المجلد المذكور .

سورة الأنبياء

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) تقدم في الآيتين ٧٠ و ١٠٧ من سورة الأعراف والآية ٣٢ من سورة هود. (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون) . يستعجل الذين كفروا نار العذاب ، وهم أحقر وأضعف من أن يستطيعوا لها رداً أو يجلدوا منها مهرباً أو لهم ناصرأ ، كيف وهي تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم ومن أمامهم وخلفهم ؟ (بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) . الضمير المستتر في تأتيهم يعود الى الساعة ، ولا ريب في اتيانها فجأة من غير انذار لقوله تعالى : « يسألك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله - ٦٣ الأحزاب » ومتى جاءت على هذه الحال وقعوا في الحيرة والدهشة ، فلا هم يملكون لها رداً، ولا هي تمهلهم ليتدبروا أمرهم ويتوبوا الى ربهم .

(ولقد استهزىء برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) . تقدم بنصه الحرفي مع التفسير في الآية ١٠ من الأنعام ج ٣ ص ١٦٥ . (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) . مهما احتاط الانسان ، وبالغ في التحفظ من المخبات والمفاجآت فلا ينجو منها إلا بعناية الله وتوفيقه، فكيف يحترس ويسلم من قضائه وقدره ؟ (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) . استهزأوا برسلك الله ، وأمنوا مكر الله ، وأعرضوا عن ذكر الله .. ولم ؟ لأنهم مترفون ، والترف في حسابهم حصن حصين من كل نازلة وغائلة .

(أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) فتدفع عنهم بأسنا وعذابنا ان أردنا هلاكهم واستئصالهم (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) . ضمير يستطيعون وما بعده يعودان الى الآلهة ، والمعنى ان المشركين يستجرون بالأصنام، وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً فكيف تملك النصر والاستجارة لغيرها . وفي تفسير الطبري ان أهل التأويل اختلفوا في معنى يصحبون ، وبعد أن نقل الأقوال اختار ان معنى يصحبون يجارون لأن العرب تقول: أنا لك جار من فلان وصاحب أي أجيرك وأمنعك منه . وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى : « وهو يجير ولا يجار عليه - ٨٨ المؤمنون » .

(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) . أمهلهم الله ، وأمد في

الجزء السابع عشر

حياتهم فاغثروا بالامهال ، وطفغوا وبغوا ، وما دروا ان الله لهم بالمرصاد . وانه يستدرجهم من حيث لا يعلمون (أفلا يرون اننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) . تقدم مع التفسير في الآية ٤٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤١٦ .

أندركم بالوحي الآية ٤٥ - ٥٠ :

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ*
وَلَيْنَ مَسْتَهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ*
وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ* وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ* وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ
مُنْكَرُونَ*

اللغة :

الصم جمع أصم ، وهو الأطرش . والمراد بالنفحة هنا الشيء الضئيل . والقسط العدل . وحاسبين محصين . والفرقان ما يفرق بين الحق والباطل .

الإعراب :

إذا ما (ما) زائدة إعراباً . والقسط صفة للموازن على حذف مضاف أي

سورة الأنبياء

ذوات القسط . وشيئاً مفعول مطلق لتنظم لأنه بمعنى ظلماً . والباء في بنسا زائدة وضمير (نا) فاعل، وحاسبين تمييز لأنه بمعنى من حاسبين ، ويجوز أن يكون حالاً . والذين يخشون بادل من المتقين .

المعنى :

(قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون) . هذا مثل قوله تعالى : « وقل اني أنا النذير المبين — ٨٩ الحجر » .. أمر نبيه الكريم ان يقول للمشركين : أتسخرون من قيام الساعة وأهوالها ؟ انها من وحي الله لا من وحي الخيال ، واني أحذركم بأمر الله ، لا بأمري ، ولكن كيف تسمعون التحذير والانذار ، وفي آذانكم وقر وصمم ؟ وكل من لا يستجيب لنصيحة الله فهو أعمى وأصم ، وان كان له عينان وأذنان .

(ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) . كانوا من قبل يسخرون ويهزأون إذا ما أنذروا بالعذاب ، حتى إذا مسهم أخفه وأدناه ذلوا وخضعوا وقالوا : « يا ويلنا انا كنا ظالمين) . وتقدم مثله في الآية ١٤ من هذه السورة .

الميزان يوم القيامة وصاحب الأسفار :

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان منقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) . المراد بالموازين هنا احكام الله وشريعته والمعنى ان الله سبحانه يقيس أعمال العباد بأمره ونهيه ، فمن جاءت أفعاله على وفق أمر الله وتروكته على وفق نهيه تعالى فهو ممن ثقلت موازينهم ، والا فهو من الذين خفت موازينهم ، سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن الموازين القسط؟ فقال : هم أنبياء الله وأولياؤه أي احكام الله الذي يبلغها الأنبياء والأولياء لعباده. وعلى هذا الأساس يكون الجزاء ، فلا يُنقص من ثواب المحسن مقدار حبة من خردل ، وقد يُزاد له ، ولا يُزاد في عقاب المسيء حبة كذلك ، وقد يُنقص

الجزء السابع عشر

منه (وكفى بنا حاسبين) لان شئبه بشيء ولا يفوتنا شيء مما بلغ العدد ، قال الملائكة صدرا في كتاب الأسفار : « في قدرة الله ان يكشف للخلائق جميع أعمالهم ، وميزان حسناتهم وسيئاتهم وثوابها وعقابها في لحظة واحدة ، وهو أسرع الحاسبين . ولو تنبه لهذه الآية من يحاول تطبيق القرآن على العلم الحديث لقال : ان المصدر الأول لفكرة العقل الالكتروني هو القرآن .. انظر القرآن والعلم الحديث في أول سورة البقرة .

وتكلم صاحب الاسفار عن معنى الميزان يوم القيامة وأطال الكلام ، وبالنظر الى مكانة المؤلف في فلسفة العقيدة وغيرها نقتطف من عباراته ما يلي مع ضرب من التصرف في التعبير بقصد الايضاح :

« ان ميزان الآخرة هو ما يعرف به صحة العلم والايان بالله وصفاته وأفعاله ، وبملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وهذا الميزان هو القرآن الذي أنزله المعلم الأول ، وهو الله على المعلم الثالث وهو الرسول (ص) بواسطة المعلم الثاني وهو جبريل ، فبأحكام القرآن يقاس علم الانسان وعقله وجميع أقواله وأفعاله ، وتعرف حسناته من سيئاته ، فإن كان الرجحان للحسنات فصاحبها من أهل السعادة ، وان كان للسيئات فصاحبها من أهل الشقاوة ، ومع تساوي الحسنات والسيئات فصاحبها موقوف حتى يحكم الله فيه بالعذاب أو العفو ، ولكن جانب الرحمة أرجح لأن الله عفو رحيم . ثم قال صاحب الاسفار - في مكان آخر - لكل شيء ميزان الا قول : لا إله إلا الله لأن كلمة التوحيد لا يقابلها إلا الشرك ، وليس للشرك ميزان - وقال في مقام ثالث - ان القرآن بمنزلة مائدة فيها أنواع الأطعمة من لباب الأغذية الى التبن والقشور ، فاللباب هي الحكمة والبراهين ، وتختص بأولي الألباب والبصائر ، أما التبن والقشور فللعوام الذين هم كالأنعام ، كما قال تعالى : متاعاً لكم ولأنعامكم .

وقد يظن للوهلة الأولى ان التعبير بالتبن والقشور جرأة على كتاب الله وقداسته . ولكن صاحب الاسفار فوق الظنون والشبهات ، ومن تأمل كلامه يعلم ان مراده بالتبن والقشور هم أهل التبن والقشور كالظاهرية الذين يقفون عند الظاهر ، ولا ينظرون الى أبعد من أنوفهم بدليل ما قاله في فصل تحقيق قول النبي (ص) : ان

سورة الأنبياء

للقرآن ظهراً وبطناً ، فقد شرح هذا الحديث بكلام طويل ، جاء فيه : « ان للقرآن درجات ومنازل كالانسان الذي منه قشري ولبتي ، والانسان القشري كالظاهرية الذين لا يدركون إلا القشور ، أما روح القرآن وسره فلا يدركه إلا أهل العقول والبصائر » . فالتقسيم - اذن - لفهم الناس للقرآن ، لا للقرآن نفسه .

(ولقد اتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين) . المراد بالفرقان هنا التوراة كما أنزلها الله على موسى ، وكل كتاب سماوي هو فرقان لأنه يفرق بين الهدى والضلال ، وهو ضياء يبديد ظلام الجهل والكفر ، وهو ذكر لمن طلب التقوى لأنه يذكر بالله ويبين حلاله وحرامه (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) . هذا تحديد للمتقين بأنهم الذين يخافون الله في السر والغيب عن أعين الناس كما يخافونه في العلانية لأنهم يؤمنون بيوم القيامة والحساب والجزاء ، ويخافون منه ، ويعملون له .

(وهذا ذكر مبارك أنزلناه) . هذا اشارة الى القرآن ، وهو ذكر لمن يتذكر ، وعظة لمن يتعظ ، وخير وبركة على من اثمر بأمره ، وانتهى بنهيه (أفأنتم له منكرون) وقد وضحت محجته ، وقامت دلائله ٣ .

ابراهيم الآية ٥١ - ٦٠ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ *
قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ *

اللغة :

رشده هدايته . والتماثيل الأصنام على صورة الآدميين وغيرهم . وعكف عليه
واظب عليه ولزمه . وفطرهن أوجدهن . لأكيدن أي لأدبرن هن تدبيراً يسوؤكم .
وجذاذاً قطعاً .

الإعراب :

التماثيل عطف بيان او بدل من هذه ، والتي بدل من التماثيل . والذي فطرهن
بدل من رب السموات . ومدبرين حال مؤكدة . وكبيراً مستثنى متصل . وله
خبر مقدم و ابراهيم مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكننا به عالمين) . اختلف المفسرون في
المراد بالرشد ، قيل : انه الاهتداء الى صالح الدين والدنيا ، وقيل : انه النبوة .
وهذا هو الأرجح بدليل قوله تعالى : (من قبل) لأن معناه من قبل الأنبياء
الذين جاءوا بعد ابراهيم (ع) كموسى وعيسى ومحمد (ص) وبدليل قوله :
(وكننا به عالمين) فانه بمعنى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته - ١٢٤
الأنعام » . ان النبوة منحة من الله يختص بها من هو أهل لها ، ولا تكون
بالكسب كالإيمان والتقوى ، ولذا يقال : كن مؤمناً . كن تقياً . ولا يقال :
كن نبياً .

سورة الأنبياء

(اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) . هذا سؤال موجه بطبعه الى كل مسؤول عن أعماله وتصرفاته : كيف تقدسون وتعبدون ما لا يضر ولا ينفع ، وأنتم من ذوي العقول والادراك ؟ (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) . هذا المنطق يلجأ اليه كل من يعجز عن الحجة والدليل ، تقول له : لم فعلت هذا ؟ فيقول : فعله فلان . ولا جواب له إلا ما قاله ابراهيم لقومه : (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) . فالضلال لا يستحيل الى هدى اذا كثر به العاملون .

(قالوا أجتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) . استبعدوا أن يكون ابراهيم جاداً في قوله ، لأن آباءهم منزهون عن الخطأ والضلال لا لشيء إلا لأنهم آباؤهم .. ولا يختص هذا المنطق بقوم ابراهيم ، ولا بغيرهم من المشركين ؛ فكل من قلده غيره تقليداً أعمى فهو وعبد الأصنام سواء (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) . ما أنا بهازل ولا شاك كيف ؟ وهل في الله شك وهزل ؟ وهو خالق السموات والأرض (وانا على ذلكم من الشاهدين) أشهد بأن الله هو المكوّن والمصور ، وأنا على يقين من شهادتي هذه ، ولي عليها الأدلة القاطعة، والحجج الدامغة .

(وثالله لأكيدين أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين) لأفعلن بها في الخفاء ما يسوؤكم ، بحيث لا تشعرون إلا وهي مهشمة محطمة، وتجدد الإشارة الى أن الأصنام لا تُكاد لأنها لا تشعر ، وانما الذين يُكادون هم عبدة الأصنام ، وعليه تكون نسبة الكيد الى الأصنام مجازية لا حقيقية لأنها اتخذت وسيلة للكيد بعبدتها .

(فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون) . كسر ابراهيم الأصنام وجعلها قطعاً متلاشية ، وترك أكبرها ليسأله عبديتها : لماذا لم يدافع عن الآلهة الصغار ، وهو القوي العزيز ؟ والقصد واضح ، وهو ان يعتبر المشركون بأن هذه الأصنام إذا لم تدفع عن نفسها فهي أعجز من ان تدفع السوء عن غيرها . (قالوا من فعل هذا بأهتنا انه لمن الظالمين) . كان الأجدد بهم - لو يشعرون - ان يسألوا : ماذا فعلت آلهتهم بالذي حطمها ؟ ولكن هذا هو منطق أهل الجهل والتقليد (قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له ابراهيم) . إشارة الى قول ابراهيم (ع) :

الجزء السابع عشر

« وتالله لأكيدين أصنامكم » أو قوله : « ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون » .
بعد ان كتبت تفسير الآية ٦٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٤ قرأت في
الصحف ان الحضريات اكتشفت (اور) مدينة ابراهيم الخليل الأولى ، وقد تبين
منها ان قومه كانوا يعبدون ثلاثة كواكب : اصغر وأوسط وأكبر .. وعلى هذا
يكون الترتيب الذي جاء في القرآن على لسان ابراهيم هو الترتيب المنطقي الذي
يطابق الحياة في ذلك العصر .. وهكذا يقدم العلم في كل يوم دليلاً مادياً على صدق
محمد (ص) في كل ما جاء به .

قالوا فاتوا به الآية ٦١ - ٧٠ :

قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ
هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ
كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ *
ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفْ لَكُمْ وَمِمَّا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ *
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ *

سورة الأنبياء

اللغة :

على أعين الناس أي يراه الناس بأعينهم . والنكس جعلُ أسفل الشيء أعلاه ، والمراد به هنا الرجوع الى المكابرة .

الإعراب :

على أعين الناس متعلق بمحذوف حالاً من ضمير به أي مرثياً على أعين الناس . وكبيرهم فاعل وهذا بدل منه . وما هؤلاء (ما) نافية وهؤلاء مبتدأ وجملة ينطقون خبر والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب بعلمت ، وهي معلقة عن العمل لمكان النفي ، لأنه يعلق عن العمل كالأستفهام . وأف اسم فعل ومعناه التضجر واللام في لكم لبيان من كان التضجر من أجله ، وقيل معنى أف لكم قبلاً لكم .

المعنى :

(قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) . أرادوا ان يستجوبوه ويحاكموه علناً ، ويشهد عليه من يشهد ، ثم يرى الناس ما يحل به من العقوبة (قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا ابراهيم) . أتوا به واستجوبوه : هل أنت الذي اعتدى على أربابنا ؟ (قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون) . هذا القول من القضايا الفرضية أي ان كانوا من ذوي الاحساس فقد فعله كبيرهم ، مثل ان كان لله ولد فأنا أول العابدين ، ومهما يكن فإن القصد هو إلزامهم الحجة، وان هذه الأصنام لو كانت آلهة لأدركت وتكلمت ، وحطمت من أراد بها سوءاً .

(فرجعوا الى أنفسهم) بعد أن سمعوا مقالة ابراهيم (ع) تساءلوا : كيف نعبد أحجاراً ونرجو خيرها ونخاف شرها ، وهي لا تملك القدرة على دفع الضر والسوء عن نفسها (فقالوا انكم أنتم الظالمون) تساءلوا ثم انتهوا الى الاعتراف بأنهم في جهل وضلال .. ولكن سرعان ما عادوا الى حالهم السابقة (ثم نكسوا

الجزء السابع عشر

على رؤوسهم) : أعوذ بالله من النكسات والنكبات .. والنكسة هي الوقوف على الرأس ، وجعل أسفل الشيء أعلاه ، وأعلاه أسفله ، هي أن تبدد ما تملك من قدرة ليتحكم بك كل لئيم ، هي أن تعطي سلاحك لعدوك كي يقتلك ، أو تعطيه الحجة عليك من فعلك أو قولك ، تماماً كما فعل قوم ابراهيم حين قالوا له : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) . واذا كانوا لا ينطقون فكيف تعبدونهم ؟ قال الطبري : نكس الشيء صير أعلاه أسفله ، ونكس الحجة ان يحتج الانسان بما هو حجة لخصمه على المحتج ، كما فعل قوم ابراهيم .

(قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم) . أنتم تعلمون ان هذه الأصنام لا تدرك ولا تنطق ، ولا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبدونها (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) ؟ وماذا تصنع مع قوم يصرون على الضلال ، وهم يعلمون انه ضلال ؟ لا شيء إلا أن تقول لهم : قبحاً لكم يا أشباه الرجال ولا رجال . و (قالوا -رقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) . انصروا الآلهة .. أما الآلهة فهي عاجزة عن الانتصار لنفسها .. ومع ذلك هي آلهة .. « عترة ولو طارت » .. هذا هو النكس والوقوف على الرأس .

(قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) . قالوا وقال الله ، ولا راد لقوله :

وتسأل : ان النار محرقة بطبيعتها ، فكيف صارت برداً ؟

الجواب : ان المؤثر الأول في كل وجود هو الله جلت عظمته ، فالفيض كله من عنده ، واليه تنتهي جميع الوسائط، علة كانت أو شرطاً أو أي شيء ، فالاحراق من النار ، والنار من الوقود ، والوقود من الطبيعة ، وهي من كلمته تعالى ، فهو الذي خلق النار التي تؤثر الاحراق شريطة أن لا يقول لها : كوني برداً ، فاذا قال لها ذلك كانت كما قال ، وبتعبير آخر ان بردها وحرها يتبع ارادة من خلقها وأوجدها (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين) . أوقدوا النار ليحرقوا بها ابراهيم ، فكانت من معجزاته الكبرى والأدلة القاطعة على صدقه ونبوته : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين - ٥٤ آل عمران » .

وفي بعض التفاسير القديمة ان النمرود لما رأى ان النار لا تؤثر في ابراهيم أمر

سورة الأنبياء

بمصادرة أمواله ونفيه من البلاد ، فقال له ابراهيم : اذا أخذتم أموالى فردوا عليّ ما ذهب من عمري في بلادكم ، ثم تحاكما الى قاضي النمرود ، ففضى على ابراهيم بمصادرة أمواله ، وعلى النمرود أن يرد عليه عمر ابراهيم ، فاستسلم النمرود وترك لابراهيم أمواله .

وما نقلنا هذه الحكاية ايماناً منا بصدقها ، بل لأنها ترمز الى أن لكل انسان الحق فيما أفنى فيه عمره ، وأذهب فيه دهره على شريطة أن يكون من الحلال الطيب .

ونجناه ولوطاً الآية ٧١ - ٧٧ :

وَنَجِّنَاہُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ * وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجِّنَاہُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصْرَانًا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ *

اللغة :

نافلة عطية . والمراد بالخباثت هنا اللواط . والكرب الغم .

الإعراب :

نافلة حال من يعقوب أو مفعول مطلق لو هبنا لأن النافلة معناها الهبة . وكلا مفعول أول لجعلنا . وأقام أصلها إقامة . ولوطاً مفعول لفعل محذوف أي آتينا لوطاً آتينا . وفاسقين صفة لقوم سوء . ونوحاً معطوف على لوط .

المعنى :

(ونجينا لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) . ضمير نجينا لآبراهيم (ع) ، ولوط ابن أخيه ، وفي التفسير ان إبراهيم فارق قومه إلى أرض الشام ، ومنها فلسطين ، ومهما يكن فإن القصد هو تشبيه محمد (ص) مع قومه بأبيه إبراهيم مع قومه ، كل من القومين عبدوا الأصنام ، ورفضوا دعوة نبيهم ، وحاولوا قتله ، وكل من النبيين أنجاه الله ، ومهد له سبيل الهجرة ، وأنعم عليه في هجرته .

(ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة) . اسحق ولد إبراهيم للصلب ، ويعقوب ولد الولد ، وهو منحة من الله وتفضل (وكلا جعلنا صالحين) إبراهيم واسحق ويعقوب كلهم صلحاء أتقياء (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) . الأئمة هم قادة الدين الذين اختارهم الله لهداية العباد ، وأبرز صفاتهم أنهم يهدون الناس كما أمر الله لا كما تأمر نساؤهم وأولادهم وأصهارهم ، ويحثون على فعل الخيرات ، لا على الخراصات والنعرات الطائفية ، وعلى الاخلاص لله وحده ، لا على الاخلاص لهم وحدهم من دون الله .

(ولوطاً آتينا حكماً وعلماً ونجينا من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناهم في رحمتنا انه من الصالحين) . أنظر تفسير الآية ٨٠ وما بعدها من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٣ والآية ٧٧ وما بعدها من سورة هود ج ٤ ص ٢٥٣ .

(ونوحاً اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه

سورة الأنبياء

من القوم الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوماً سوء فأغرقتناهم أجمعين . تقدمت قصة نوح في سورة هود من الآية ٢٥ الى الآية ٤٩ ج ٤ من ص ٢٢٢ الى ٢٣٧.

وداود وسليمان الآية ٧٨ - ٨٢ :

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَتَنَّاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ *

اللغة :

الحرث الزرع . والنفس رعي الماشية في الليل بلا راع . واللبوس الدرع .
والعاصفة الشديدة . والغوص النزول الى قاع البحر .

الإعراب :

وكلاً مفعول أول لاتينا وحكماً مفعول ثان . ومع منصوبة بيسبحن . والطير عطف على الجبال . وسليمان متعلق بفعل محذوف أي وسخرنا لسليمان . وعاصفة

الجزء السابع عشر

حال من الريح . ومن الشياطين متعلق بفعل محذوف . ومن يغوصون (من) مفعول لفعل محذوف أي وسخرنا من الشياطين، ويجوز أن تكون (من) مبتدأ ومن الشيطان خبر والجملة مستأنفة . ودون ذلك متعلق بمحذوف صفة لعمل .

المعنى :

(وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) . اشتهر على ألسن الرواة ان رجلين تخاصما الى داود ، أحدهما صاحب زرع ، والثاني صاحب غنم ، قال صاحب الزرع : ان غنم هذا رعت زرعي في الليل ، وبعد ان ثبت ذلك عند داود قضى بالغنم لصاحب الزرع ، ولما علم سليمان قال لأبيه : الأرفق بالرجلين ان يأخذ صاحب الأرض الغنم لينتفع بها ، لا على سبيل الملك ، وان يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها حتى يعود الزرع كما كان ، وعندها يترادان ، فيأخذ هذا غنمه ، وذلك زرعه . فاستحسن داود حكم ولده ، ورجع اليه . وظاهر الآية يتفق مع هذه الرواية ، وقد ثبت عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : ما وافق القرآن فخذوه ، وما خالفه فدعوه . وتساءل : ان كلاً من داود وسليمان نبي ، والنبي معصوم عن الخطأ بخاصة في الأحكام الشرعية ، وحكم الواقعة الواحدة واحد ، فما هو الوجه للاختلاف في الحكم بين داود وولده سليمان ؟ .

وأجاب البعض بأن قول داود كان صلحاً بين الطرفين ، لا حكماً .. ويلاحظ بأن الصلح يكون على بعض الشيء المتنازع ، وأيسر على جميعه ، والمفروض ان داود لم يبق لصاحب الغنم غنمة واحدة .. وقال آخرون : كل من داود وسليمان حكم باجتهاده . وبيّنتي هذا القول على ان النبي يجتهد كغيره من العلماء اذا أعوزته النصوص ، ولا يلتفت الى هذا الرأي لأن الاجتهاد انما يكون مع عدم النص ، وقول النبي نص يدل على الحق ، ولأن الاجتهاد يحتمل فيه الخطأ ومخالفة الواقع ، وهذا لا يصح بحق المعصوم .

وقال جماعة : ان الحكم كان على ما قال داود ، ثم نُسخ بما قال سليمان ..

سورة الأنبياء

وهذا أرجح الأقوال بدلالة قوله تعالى : (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) حيث شهد الله لكل منهما بأنه عالم بالحكم، وعلى هذا يكون قوله: فهمناها سليمان انه أوحى اليه بنسخ الحكومة دون أبيه .

واختلف الفقهاء هل يضمن صاحب الماشية جنايتها؟ قال مالك والشافعي : يضمن ما أفسدته ليلاً لا نهاراً . وقال أبو حنيفة : لا يضمن اطلاقاً لا ليلاً ولا نهاراً . وقال جماعة من فقهاء الشيعة الإمامية بمقالة مالك والشافعي ، أما المحققون منهم فذهبوا الى ان المعول على التفريط وعدمه ، ولا أثر لليل والنهار، فان فرط صاحب الماشية وأهمل رعايتها كما يقتضي ضمن ، وان احترس ولم يهمل فلا شيء عليه .

(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) . اشتهر عن داود انه كان ذا صوت رقيق حنون، وأثبتت التجارب ان كثيراً من الحيوانات والطيور تطرب لنوع من الغناء والموسيقى ، وقرأت في الصحف ان أفعى خرجت من جحرها لتستمع الى ام كلثوم في احدى حفلاتها الغنائية ، ولما انتهى الغناء عادت الى مكانها ، أما تسبيح الجبال فهو مجاز ومبالغة كما تقول : لقد أضحكك أو أبكى الصخر الأصم ، أو انه حقيقة لأن الذي جعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم هو الذي جعل الجبال تسبح مع داود . أنظر ما قلناه عند تفسير الآية ٦٩ من هذه السورة .

(وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) . المراد بصنعة اللبوس الدروع ، وتسمى الآية الى ان أول من اخترعها داود ، ورؤي في سبب ذلك ان داود كان ملكاً على بني اسرائيل ، وكان من عادته أن يطوف متنكراً يتعرف أحوال الناس ، وفي ذات يوم التقى برجل فسأله عن سيرة داود؟ فقال للملك : نعمت السيرة لولا انه يأكل من بيت المسال . فأقسم داود أن لا يأكل بعد يومه إلا من كد يمينه وعرق جبينه ، ولما علم الله منه الاخلاص وصدق النية ألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع .

وسواء أصبحت الرواية أم لم تصح فإنها ترمز الى وجوب الحرص والمحافظة على مصالح الناس وأموالهم ، وتواتر ان محمداً (ص) قبض ودرعه مرهونة في أصوع

الجزء السابع عشر

من شعير ، وكانت أموال الجزيرة العربية في قبضته وطوع أوامره .
(ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) . هذه الآية ظاهرة الدلالة على أن الريح كانت تحمل سليمان بأمر الله ، ولا داعي للتأويل ما دام العقل لا يأبى هذا الظاهر ، وأوضح من هذه الآية قوله تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر - ١٢ سبأ » فهي تقطع بالغداة مسيرة شهر على الجمال ، وبالعشي كذلك ، والمراد بالأرض المباركة نفس الأرض التي جاء ذكرها في الآية ٧١ من هذه السورة .

وتسأل : قال سبحانه هنا : « ولسليمان الريح عاصفة » . مع انه قال في الآية ٣٦ من ص : « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء » . والعاصفة هي الشديدة ، والرخاء هو اللين ، فما هو وجه الجمع ؟ .

الجواب : انها تجري تارة شديدة ، وأخرى لينة حسبما يأمرها تماماً كسائق السيارة والطائرة .

(ومن الشياطين من يغوصون له) في البحار ، فيستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان ، والمراد بالشياطين هنا الجن (ويعملون عملاً دون ذلك) كبناء المحاريب والتماثيل ، قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات - ١٣ سبأ » . (وكنا لهم حافظين) من التمرد والخروج عن طاعة سليمان .. وليس لنا ما نقوله إلا ان الوحي أثبت وجود الجن ، وانهم عملوا في خدمة سليمان ، وان العقل لا يأبى ذلك ، وعليه فلا موجب للتأويل وصرف الكلام عن ظاهره . وقال الإمام علي (ع) : ولو ان أحداً يجد الى البقاء سلماً ، أو الى الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود الذي سخر له ملك الجن والانس مع النبوة وعظيم الزلفة .

وايوب اذ نادى ربه الآية ٨٣ - ٩١ :

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا

سورة الأنبياء

لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ * وَاسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ
الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَذَا النُّونِ إِذْ
ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي
فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا
لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَّهَا فَفَفَعْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ *

اللغة :

الضر بالضم الضرر في النفس كالمرض ونحوه ، وبالفتح الضرر من كل شيء .
والكفل الحظ . والنون الحوت . ولن نقدر عليه لن نضيق عليه .

الإعراب :

المصدر من أنى مسني مجرور بياء محذوفة . ورحمة وذكري مفعول من أجله
لآتيناه . واسماعيل ومن بعده عطف على أيوب . وكل مبتدأ ومن الصالحين خبر .

الجزء السابع عشر

ومغاضباً حال من الضمير في ذهب . وان لا إله إلا أنت (ان) بمعنى أي مفسرة لنوع النداء . وفرداً حال . ورغباً ورهباً مفعول من أجله ليدعوننا .

المعنى :

(وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) . قال المفسرون والرواة الكثير عن أيوب ، وتفطنوا بالقول .. والذي دلت عليه الآيات تصريحاً وتلويحاً هنا وفي سورة ص ان أيوب كان في عافية وهناء ، ثم تراكم عليه البلاء ، وأحاط به من كل جانب ، حتى صار مضرب الأمثال ، فأصيب بنفسه وأهله ، فصبر صبر الأحرار ، وبقي على ثقته وبقينه بالله لا يشغله عن طاعته حزن ولا ألم ، ولما طال عليه الأمد ، واشتدت وطأة الآلام ، ولم يجد منها مخرجاً شكوا أمره الى الله بكلمتين : مسني البلاء ، وأنت رحيم وكريم .. قال : مسني ، ولم يقل : تفاقم وتراكم كيلا تُشعر شكواه بالضجر وعدم الصبر ، فاستجاب سبحانه الى شكواه ، وكشف بلواه ، وأعادته الى أحسن مما كان .

(وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) . رزقه الله من الأولاد والأحفاد ضعف من فقده منهم رحمة به وجزاء على صبره ، وتذكيراً بأن من صبر كما صبر أيوب تكون عاقبته تماماً كهاقبته ، ونخص سبحانه العابدين بالذكر للإشارة الى ان الله مع الصابر المحتسب المخلص له في أقواله وأفعاله .

هذا مجمل ما دلت عليه الآيات المتعلقة بأيوب ، ولم تتعرض للتفاصيل التي ذكرها الرواة والقصاصون لأنها لا تتصل بالعقيدة ولا بالحياة من قريب أو بعيد، ومن طريقة القرآن أن يذكر من القصة ما فيه عبرة نافعة ، وعظة رادعة .

(واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين) . صبر اسماعيل على الانقياد للذبح ، وصبر في بلد لا زرع فيه ولا ضرع ، وذكرنا ادريس عند تفسير الآية ٥٦ من سورة مريم ، أما ذو الكفل فقال الأكثرون : انه نبي ، وقال جماعة : انه عبد صالح وليس بنبي ، ونحن نؤمن بأنه من الصابرين الصالحين تبعاً لنص القرآن، ولسنا بمسؤولين عن غير ذلك .

سورة الأنبياء

(وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) . النون الحوت ، وذا النون يونس ، قال تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت - ٤٨ القلم » . ومغاضباً أي لقومه . ولن نقدر عليه لن نصيقت عليه كما في الآية ٧ من سورة الطلاق : « ومن قدر عليه رزقه » . والمراد بالظلمات هنا بطن الحوت ، ويجمل المعنى اذكر يا محمد خبر يونس حين دعا قومه الى الايمان بالله ، فلم يستجيبوا لدعوته ، فضجر منهم وخرج عنهم مغاضباً لهم ، فظن ان لن نصيقت عليه بالحبس وغيره ، فلما التقمه الحوت استغاث بنا (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) . المراد بالغم هنا بطن الحوت ، وبالنجاة اخراجه من بطن الحوت الى البر ، وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٩٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٣ .

(وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) . تقدم نظيره في الآية ٣٨ وما بعدها من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٣ والآية ٧ وما بعدها من سورة مريم (انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) . ضمير انهم لزكريا وزوجه ويحيى ، أو لمن تقدم ذكره من الأنبياء ، وكلهم فعلوا الخيرات رغبة في ثواب الله ، ورهبة من عقابه ، وكلهم كانوا منقادين له في كل شيء . (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابناً آية للعالمين) . تقدم في الآية ٤٥ وما بعدها من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦٣ والآية ١٦ وما بعدها من سورة مريم .

أمة واحدة الآية ٩٢ - ١٠٠ :

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

الجزء السابع عشر

كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ
يَنْسِلُونَ * وَقَتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ
وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ
هُوَ إِلَّا آلهة مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَوْجِرٌ وَهُمْ فِيهَا
لَا يَسْمَعُونَ *

اللغة :

الأمة القوم الذين نجمعهم لغة واحدة وتاريخ واحد ، ثم كثر استعمالها في الدين
والملة ، وهذا المعنى هو المراد هنا . وتقطعوا فرقوا دينهم وصاروا شيعاً . والكفران
جحود الاحسان أي ضد الشكر . والحذب المرتفع من الأرض . وينسلون يسرعون .
والمراد بالحصب هنا الوقود ، وبالزفير شدة تنفسهم في النار .

الإعراب :

هذه اسم ان ، وامتكم خبر ، وأمة حال ، وواحدة صفة لأمة . وحرام مبتدأ ،
والمصدر من أنهم لا يرجعون خبر . والحق صفة للوعد . فإذا للمفاجأة ، و«هي»
ضمير القصة مبتدأ ، وابصار الذين كفروا مبتدأ ثان ، وشاخصة خبر المبتدأ
الثاني ، والجمله خبر المبتدأ الأول . وما تعبدون معطوف على اسم ان .

سورة الأنبياء

المعنى :

(ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) . هذه اشارة الى عقيدة الأنبياء ، وهي التوحيد مع الاتقياد اليه تعالى قولاً وعملاً ، والخطاب في امتكم لجميع الناس بلا استثناء ، والمعنى عليكم أيها الناس أن تدينوا جميعاً بدين التوحيد الذي كان عليه الأنبياء ، وأن تعبدوا الواحد الأحد ، وتخلصوا له في الأقوال والأفعال (وتقطعوا أمرهم بينهم) أمرهم سبحانه أن يكونوا جميعاً على عقيدة التوحيد ، فتفرقوا شيعاً وطوائف ، منهم الجاحدون ، ومنهم المشركون ، حتى أتباع الأنبياء يلحن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، بل وأتباع النبي الواحد كذلك (كل الينا راجعون) . هذا تهديد ووعيد على تفرقهم وشتاتهم وانحرافهم عن الحق .

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون) . الايمان مع العمل الصالح طريق الى الجنة ، والايمان بلا عمل لا يجدي شيئاً لقوله تعالى : « لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً - ١٥٨ الانعام » . أما العمل بلا ايمان فينفع صاحبه في الدنيا بنحو من الانحاء ، وقد ينفعه في الآخرة بتخفيف العذاب . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً بعنوان الكافر وعمل الخير عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢١ ، وتقدم نظير هذه الآية في سورة النحل الآية ٩٧ ج ٤ ص ٥٥٠ .

(وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) . هذه الآية سؤال عن جواب مقدر ، وهو : هل المشركون من أهل القرى الذين أهلكهم الله بكفرهم يحییهم الله ثانية بعد الموت ، ويعذبهم في الآخرة كما عذبهم في الدنيا ؟ .

فأجابه سبحانه بأن كل الناس يرجعون غداً الى الله من غير استثناء حتى الذين أهلكهم في الدنيا بذنوبهم ، وحرام عليهم عدم الرجوع الى الله بعد الموت ، بل لا بد من نشرهم وحشرهم لا محالة .

سؤال ثانٍ : هل يعاقبهم الله في الآخرة على كفرهم بعد ان عاقبهم عليه في الدنيا ؟ وهل يجوز الجمع بين عقوبتين على جريمة واحدة ؟

الجزء السابع عشر

الجواب : كان اهلاكمهم في الدنيا عقاباً على تكذيبهم الرسل السذنين جاء وهم بالمعجزات كما دل قوله تعالى : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم - ٣٧ الفرقان » . وقوله : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعان واخلوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد - ١٤ ق » وغير ذلك من الآيات ، أما عذاب الآخرة فهو على الكفر من حيث هو ، وعلى سائر الذنوب كالكذب والظلم ونحوه ، فالعقاب متعدد ولكن بتعدد الذنوب ، لا على ذنب واحد .

(حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) . عند تفسير الآية ٩٤ من سورة الكهف نقلنا عن بعض المفسرين أن يأجوج هم التتر ، ومأجوج هم المغول ، وأيضاً قلنا عند تفسير الآية ٩٨ من السورة المذكورة : إن سد يأجوج ومأجوج قد ذهب مع الأيام لأنه لو كان اليوم لبان ، وعلى هذا يكون المراد بفتحت يأجوج ومأجوج انتشارهم في القارات .. ومهما يكن فلنأتم نقرأ عن يأجوج ومأجوج ما تركز اليه النفس لا في التفاسير ولا في غيرها ، ولا مجال للفكر في مثل هذه الموضوعات ، لذلك نقف عند ظاهر النص القرآني ، ونترك التفاصيل لغيرنا .

(واقرب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) . المراد بالوعد الحق قيام الساعة ، وعندها تذهل عقول الكفرة الطغاة ، وتبحظ منهم الأعين ، وترتفع الجفون من شدة الهول .. وتقدم مثله في الآية ٤٢ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٥٥ (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) . الجملة مفعول لقول محذوف أي يقولون : يا ويلنا الخ . وتقدم نظيره في الآية ١٤ و ٤٦ من هذه السورة ، والآية ٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٢ .

(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) . الخطاب لمشركي مكة ، والمراد بما يعبدون أصنامهم ، وحصب جهنم وقودها، مأخوذ من الرمي بالحصباء حيث يرمى بالمجرم في نار جهنم ، والمعنى انكم أيها المشركون أنتم وأصنامكم مقرونان غداً في جهنم .. وفي الحديث المرء مع من أحب .
وتسأل : وأية جدوى من ادخال الأصنام الى النار ، وهي أحجار، لا ادراك فيها ولا شعور ؟

سورة الأنبياء

وأجاب المفسرون بأن الغرض من ذلك أن يزداد عبدها حسرة وغماً كلما رآوها الى جانبهم . وهذا مجرد حدس واستحسان ، والأولى أن ندع الجواب للآية ٢٤ من سورة البقرة : « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . وفي بعض الروايات : « ان ابن الزبيري - وهو أحد مشركي قريش وشعرائهم - اعترض على هذه الآية بأن اليهود يعبدون عزيزاً ، والنصارى يعبدون المسيح ، وهما من أهل الجنة باعتراف محمد ، فكيف يقول كل معبود حصب جهنم ؟ فقال له رسول الله (ص) : ما أجهلك بلغة قومك ! أليست (ما) لما لا يعقل ؟ » . هذا ، الى ان الخطاب لمشركي قريش بالخصوص ، كما قلنا ، وهم يعبدون الأصنام .

(لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) . هؤلاء اشارة الى الاصنام ، وضمير وردوها يعود الى النار ، ومعنى الآية واضح ، وهو لو كانت الأصنام آلهة ما دخلت النار ، ومثل هذا النقص ان تقول : لو كنت أميناً لما خنت ، ولكنك قد خنت ، فما أنت بأمين .. وفي المنطق يسمى هذا النوع من الاستدلال بالقياس الاستثنائي (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) . ضمير لهم يعود الى كل مجرم مسلماً كان أم كافراً ، وضمير فيها الى جهنم ، والمعنى لكل مجرم في جهنم أنين وعنين ، ولا يسمع من أحد كلمة عطف وحنان ، بل من يراه يوبخه ويعنفه : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون - ٢٤ الزمر » .

الأرض يرثها عبادي الصالحون الآية ١٠١ - ١٠٧ :

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَسَدًا عَلَيْنَا

الجزء السابع عشر

إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ *

اللغة :

المراد بالحسنى هنا كلمة البشارة بالجنة . والحسيس الصوت الذي يُحس . والسجل
الصحيفة . والزبور الكتاب .

الإعراب :

اولئك مبتدأ ومبعدون خير ، والجملة خير ان . وهذا يومكم مبتدأ وخبر ،
والذي عطف بيان ليومكم ، والجملة مفعول لقول محذوف . ويوم منصوب بفعل
محذوف أي يوم تطوي . وكطي السجل الكاف في محل نصب صفة لمفعول مطلق
محذوف أي طياً مثل طي السجل . وكما بدأنا (ما) مصدر والمصدر المنسبك مجرور
بالكاف . وأول مفعول بدأنا . ووعداً منصوب على المصدرية أي وعدنا وعداً .
ورحمة مفعول من أجله لأرسلناك .

المعنى :

(ان الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) . وعد الله المتقين
ان يعاملهم بالحسنى ، ومن ذلك النجاة من النار (لا يسمعون حسيها) هذا
تأكيد لبعدهم عنها ونجاتهم منها (وهم فيما اشتهدت أنفسهم خالدون) . آمنون
من عذاب الله منعمون في جنانه (لا يحزنهم الفزع الأكبر) . وبالأولى الأصغر ،

سورة الأنبياء

فان للفرع مراتب : من سكرات الموت الى وحشة القبر ثم الخروج منه الى الحساب واطباق جهنم على أهلها (وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) . تستقبل ملائكة التشریفات المتقين بالحفاوة والتكريم ، وتقول لهم : لقد جمعكم الله في هذا اليوم الذي وعدكم فيه بالملك الدائم والنعيم القائم . وتتخلص هذه الآيات الثلاث بكلمة : « هل جزاء الاحسان إلا الاحسان - ٦٠ الرحمن » . أو كلمة : « للذين أحسنوا الحسنى - ٢٦ يونس » .

(يوم تطوي السماء كطي السجل للكتب) . السجل الصحيفة ، والمراد بالكتب هنا ما يكتب في الصحيفة من كلمات ، والمعنى ان الله سبحانه يطوي الكواكب يوم القيامة ، على ضخامتها وكثرتها ، كما تطوي الصحيفة ما كتب فيها بحيث يصير كل كوكب أشبه بالكلمة أو الحرف في الصحيفة (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) . شبه سبحانه النشأة الثانية بالنشأة الأولى ، وانه كما تحققت هذه فستحقق تلك لا محالة وفاء لوعده تعالى ، وما ذاك على الله بعزیز ، فان من خلق الكون قادر على أن يعيده بعد تلاشيه وتفرق أجزائه : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه - ٢٧ الروم » .

أيضاً المهدي المنتظر :

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) . الزبور هو كتاب داود ، والذكر ما تقدمه من الكتب السماوية كصحائف ابراهيم وتوراة موسى ، والمعنى ان الحكم والسلطان في الأرض ، وان كان الآن بأيدي الطغاة الفجرة فان الله سينقله من أيديهم الى الطيبين الأنبياء لا محالة ، وعندها يعم الأمن والعدل الكرة الأرضية ، وينعم بخيراتها وبركاتها الناس كل الناس ، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة وصحيحة ، منها ما رواه أبو داود في كتاب السنن وهو أحد الصحاح الستة - « قال رسول الله : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعادلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »^١ .

١ تكلمنا عن المهدي المنتظر في ج ١ ص ٢٠٦ وعند تفسير الآية ٥٨ من سورة الاسراء .

الجزء السابع عشر

وقانون الحياة لا يأبى ذلك بل يقره ويؤكدده ، وإذا كانت القوة الآن بأيدي الوحوش الضارية المتسلطة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيره فإنه لا شيء يمنع أن تتحول القوة في يوم من الأيام من أيدي أهل البغي والضلال الى أيدي أهل الحق والعدالة ، بل ان غريزة حب البقاء والتحرر من الظلم ، والمبدأ القائل : كل ما على الأرض يتحرك تماماً كالأرض ، وان دوام الحال من المحال ، كل ذلك وما اليه يحتم ان القوة في النهاية تكون للأصلح الأكفأ .

(ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين) . هذا اشارة الى أن الأرض يرثها العباد الصالحون ، ولو بعد حين ، والمراد بالعابدين هنا الذين يتعظون بالعبر ، وينتفعون بالنذر .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . الخطاب لمحمد (ص) ، ورسالته رحمة للاولين والآخرين ، وفيما تقدم ذكرنا الكثير من مبادئها وتعاليمها ، وحسبنا منها قول صاحبها : « ما آمن بالله من لا تأمن الناس بهوائقه .. اذا ساءتلك سيئة ، وسرتك حسنة فأنت مؤمن » . وعلى هذا الاحساس والشعور يقوم العدل ، وينشر الأمن ، ونهنا الحياة .. وتكلمنا عن عموم رسالة محمد (ص) الى جميع الناس في كل زمان ومكان تكلمنا عن ذلك عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢٥ .

انما إلهكم إله واحد الآية ١٠٨ - ١١٢ :

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَبَلِّغْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُذِرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ *
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أُذِرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ
لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ *

سورة الأنبياء

اللغة :

مسلمون مستسلمون منقادون لله وحده . آذنتكم أعلمتكم . على سواء أي ان الايدان والاعلام يعم الجميع بلا استثناء . والفتنة الاختبار . والمتاع ما يتمتع به قليلاً .

الإعراب :

انما بالكسر للحصر ، وانما بالفتح كلمتان (أن) المشددة وما الكافة عن العمل ، وإلهم مبتدأ وإله واحد خبر، ومعنى الجملة نائب فاعل ليوحى أي يوحى اليّ الوحدانية . وعلى سواء متعلق بمحذوف حالاً من المفعول في آذنتكم أي مستويين في الايدان والاعلام . وان أدري (ان) نافية أي ما أدري ، وقريب مبتدأ ، وما توعدون فاعل قريب ساد مسد الخبر .

المعنى :

(قل انما يوحى اليّ انما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) . أمر الله نبيه الكريم أن يقول للمشركين : ان الله أوحى إليّ انه وحده لا شريك له في خلقه ولا في علمه ، وهذا الكون بعجائبه وقوانينه يشهد بوضوح على وحدانيته تعالى وقدرته وعظمته .. فلماذا لا تؤمنون به وتنقادون لأمره ؟ وكيف تزوغون عن عبادته الى عبادة أحجار لا تنفع ولا تضر ؟

(فان تولوا فقل آذنتكم على سواء) . بعد ان لزمتهم الحجّة بالتبليغ والانذار أمر الله نبيه الكريم ان يقول لهم : لقد أدبت ما علي ، وبلغتكم جميعاً رسالات ربي، ولم يبق لأحد منكم عذر يتعلل به (وان أدري أقرب أم بعيد ما توعدون). أنا على يقين من عذابكم ، لأن الله قد وعدكم به وحذركم منه ، ووعدته تعالى أصدق الوعد ، وعذابه أشد العذاب ، ولكن لا أدري متى يكون ذلك ، وسواء أكان قريباً أم بعيداً فإنه له أجلاً لا يهدوه ، فانظروا اني معكم من المنتظرين .

الجزء السابع عشر

(انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) . تقدم مثله في الآية ٧ من سورة طه (وان أدري لعلة فتنه لكم ومتاع الى حين) . لست أدري ما هي الحكمة من امهالكم وتأخير عذابكم ؟ هل أراد سبحانه بذلك ان يظهر كل على حقيقته ، فيتوب الطيب ، ويتمرد الخبيث ، او انه أراد ان تستمتعوا أياماً بقيت من أعماركم ؟ . الله العالم (قال - محمد - رب احكم بالحق) أي أظهره وانصر أهله على من كفر به ، وسخر منه ومن دعا اليه (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) اصنامكم بالألوهية ، ودعوتي بالافتراء .

أنت العزاء يا رسول الله لكل بريء مفترى عليه .. ويا سعادة من تأسى بك واقتص أثرك ، وقال للمفترين كما قلت : « وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » .

سُورَةُ الْحَجِّ

بعضها مكِّي ، وبعضها مدني ، وآياتها ٧٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البعث الآية ١ - ٧ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا
تَرْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى
النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ
عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنَ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّرَهُ
فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

الجزء السابع عشر

اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ *

اللغة :

الزلزلة والزلازل الحركة الشديدة . والمريد بفتح الميم وكسر الراء المتمحض
للفساد ولا خير فيه ، يقال : رملة مرداء اذا لم تنبت شيئاً . والنظفة في الأصل
الماء الصافي ، ثم استعملت للماء الذي يتولد منه الحيوان . والمضغعة القطعة من
اللحم بقدر ما يمضغ . ومخاقة تامة الحلقة . وهامدة لا حياة فيها . وربت ازدادت .

الإعراب :

اتقوا ربكم على حذف مضاف أي عذاب ربكم . ويوم متعلق بتذهل . وترى
هنا بصرية ، لا قلبية ، وتتعدى الى مفعول واحد وهو الناس ، وسكاري حال
منهم . الضمائر الثلاثة في عليه وانه من تولاه تعود الى الشيطان ، وضمير فانه
يضله للشأن ، والمصدر من انه من تولاه نائب فاعل لكُتِبَ . ومن تولاه (من)
مبتدأ ، والمصدر من فانه يضلّه خبر لمبتدأ محذوف أي فالشأن اضلال الشيطان له ،
والجملة من هذا المبتدأ وخبره خبر من تولاه ، وجملة من تولاه وخبره خبر انه
الأولى . ونقر كلام مستأنف ، وجملة نقر خبر لمبتدأ محذوف أي ونحن نقر ،
ومفعول نقر محذوف أي نقر الولد . وما نشاء (ما) مصدرية ظرفية أي مدة
مشيئتنا والظرف متعلق بنقر . وطفلاً حال ، ولفظه مفرد ومعناه الجمع . وشيئاً
مفعول مطلق . وهامدة حال لأن ترى هنا بصرية تتعدى الى مفعول واحد .

سورة الحج

المعنى :

في هذه الآيات تحذير وتخويف من يوم القيامة مع الإشارة الى شدائده وأهواله ، واذم الجاهل المتعنت ، ثم الاستدلال على البعث ، وفيما يلي التفصيل :

١ - (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم) . المراد بالساعة يوم القيامة ، وسمي بها لأن جميع الخلائق تسعى اليه - كما في كتاب الاسفسار للملا صدرا - ومعنى زلزلة الساعة خراب الكون بأرضه وسمائه ، فتختاط هذه بتلك ، والبر بالبحر ، وتزول الأبعاد ، وترتفع الحواجز ، وتقوم الخلائق من الاجداث كأنها أشباح بلا أرواح .

(يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) . هذا كناية عن هول الساعة وشدتها، حيث لا مرضع ولا حامل يومذاك أي لو كان ثمة مرضع لذهلت أو حامل لو وضعت .. والكلمة يمورون ويضطربون من الفزع والهلح، تماماً كما يضطرب السكران .

جدال الجهل والضلال :

٢ - (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) . الانسان ، أي انسان، لا يخلو أن يكون واحداً من اثنين : إما جاهلاً ، وإما عالماً ، والعالم لا يخلو اما أن يكون منصفاً ، واما منحرفاً ، والعالم المنصف هو الذي يقول ما يعلم، ويسكت عما لا يعلم ، وقد حدد الله سبحانه وظيفة الجاهل بقوله : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون - ٧ الأنبياء » . فان تجاوز وظيفته هذه صدق عليه قول الإمام علي (ع) : جاهل خبط جهالات .. لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى ان وراء ما بلغ مذهباً لغيره .

وهذا الجاهل هو المقصود بقوله تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) . وبقوله في الآية ٨ من هذه السورة : « ومن الناس من يجادل في الله

الجزء السابع عشر

بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . انه يجهل الطريق الى العلم بالله ، ومع ذلك يجادل فيه ، ويقول فيما يقول : لو كان الله موجوداً لرأيناه .. انه يريد بمنطقه هذا أن يفسر غير المادة بالمادة ، وان يرى بالعين والبصر من لا يدرك الا بالعقل والبصيرة ، وان يلمس باليد خالق السموات والأرض .. ولا فرق بين هذا ، وبين من حاول أن يمتحن في المعمل والمختبر نظرية « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » أو أراد أن يختبر موهبته الشعرية في قيادة السيارة .

تذكرت ، وأنا أكتب هذه الكلمات ساعة من ساعات الدراسة في النجف، وقد مضى عليها حوالي اربعين عاماً ، كنا في هذه الساعة نتحلق حول الاستاذ، نستمع الى محاضراته ، وفي أثنائها اعترض عليه أحد التلاميذ ، واستشهد بحادثة لا تمت الى موضوع الدرس بسبب قريب أو بعيد .. فأعرض الاستاذ عنه ، ونظر الى بقية التلاميذ ، وقال : كان فيما مضى رجل معتوه يقال له « بعو » . وفي ذات يوم مر بأحد الشوارع ، فرأى جمهوراً من الناس مجتمعين ، وهم يمججون في حيرة ، ولما سأهم قال له البعض : ان فلاناً سقط عن السطح، وتخطمت أعضاؤه وقد أوشك على الهلاك ، ولا يدري أهله ماذا يصنعون ؟ فقال « بعو » : عندي دواؤه ، وعليّ شفاؤه ، اربطوه بالحبل وشدوه الى السطح ، وأجلسوه عليه كما كان فانه يشفى لا محالة .. ولما ضحكوا منه احتج عليهم ، وقال : لماذا تضحكون ؟ في العام الماضي سقط فلان بالبشر ، فربطوه بالحبل وأخرجوه منه سليماً ..

وهذا هو بالذات منطق من أنكر وجود الله لأنه ما رآه .. أما الكون العجيب بنظامه وجلاله فقد رآه، ولكنه لا يدل بزعمه على وجود المكون والمنظم .. ونحن نؤمن بالمشاهدة والتجربة ، ولكن نؤمن أيضاً بأن هذه التجربة لا تجري على كل نوع من الوجود، بل تقتصر على النوع المادي منه ، أما النوع الروحي والانساني فإن معرفته سيلاً آخر.. نقول هذا، ونحن على يقين بأن كلاً من الوجود الانساني والمادي متفاعلان متكاملان، وانه لا غنى للانسانية عن المادة، وان القيم كالحق والخير لا بد ان يكون لها أثر ملموس محسوس ، وإلا كانت ألقاظاً بلا معنى .. ولكن هذا لا يستدعي أن يكون سبيل المعرفة واحداً في كل شيء ، بل يختلف باختلاف الأشياء

سورة الحج

التي يراد معرفتها ، فالمشاهدة والتجربة سبب لمعرفة المادة ، والعقل سبب لمعرفة غيرها . وتكلمنا عن المعرفة وأسبابها في ج ١ ص ٤٣ .

والخلاصة ان من قال : لا اؤمن بالله حتى أراه فقد اعترف بأنه لا يريد ان يؤمن بالله ، ولو شهد بوجوده ألف دليل ودليل ، ومعنى هذا انه يقر على نفسه بالجهل والمكابرة ، لأن المفروض ان الله لا يرى بالعين ، وان الطريق الى معرفة الحقائق لا تنحصر بهذه الرؤية . ان الله يريد من الانسان ان يبحث ويدقق ويجادل ويناقش ولكن عن علم ووعي ، لا عن جهل وعمى .

(ويتبع كل شيطان مريد) . كل من استطاع ان يمويه عليك ، ويخفي حقيقته عنك فهو شيطان ، والشيطان المرید هو الذي تمحضت جميع أقواله وأفعاله للشر والفساد ، وما نفذ هذا الشيطان المرید الى عقل انسان وقلبه إلا قاده الى الضلال والهلاك ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (كتب عليه انه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه الى عذاب السعير) . فالضلال وعذاب الحريق لا مفر منه لمن يتبع أهل الضلال والفساد، وفي طليعة المفسدين المضللين اولئك الذين يحرفون كلام الله عن مواضعه ، ويحللون ويحرمون بأهوائهم واغراضهم .

٣ - (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب) بعد أن أشار سبحانه الى من يجادل في الله بغير علم ذكر الدليل على امكان البعث الذي يظنه الجاهل محالاً ، وأورد سبحانه هذا الدليل بثال محسوس ، وهو ان الله خلق الانسان من تراب مباشرة وبلا واسطة كخلق آدم أبي البشر ، أو بوسائط كخلقنا نحن بني آدم ، فكل واحد منا يتكون من مني ودم ، وهما من الأغذية ، وهي بشتى أنواعها تنتهي الى الماء والتراب ، فالتراب - اذن - عنصر أساسي في تكوين الانسان (ثم من نطفة) وهي المني لقوله تعالى : « ألم يك نطفة من مني يمى - ٣٧ القيامة » . (ثم من علقه) تتحول النطفة الى قطعة من دم جامد (ثم من مضغة) تتحول العلقه الى شبه قطعة ممضوغة من اللحم (مخلقة) أي بعضها تام الخلقة (وغير مخلقة) وبعضها الآخر غير تام الخلقة .

(لنبين لكم) قدرتنا على البعث وغيره (ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى) وهو الوقت الذي تلد فيه المرأة (ثم نخرجكم طفلاً) واضح ، (ثم لتبلغوا

الجزء السابع عشر

أشدكم) والأشد ان يستكمل الانسان قواه الجسمية والعقلية (ومنكم من يتوفى) قبل بلوغ الأشد ، أو بعده وقبل الهرم وأسوأ العمر : (ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) . هرم ونحرف ، وضعف في الجسم والعقل والذاكرة ، فمن أين يأتي العلم ؟ ومتى ضعف العقل تحكمت العاطفة . واشتد الانفعال لأتفه الأشياء .

وهذا التحول والتطور في تكوين الانسان من الأدنى الى الأعلى ، من التراب الى النطفة ، ومنها الى العاقبة ، ثم المضغطة ثم الطفولة الى بلوغ الأشد ، ان هذا التطور يدل صراحة على ان في الانسان طاقة منذ ولادته ، واستعداداً أصيلاً يسير به نحو الأكمل والأفضل إذا لم يقف في طريقه من يصده عن السير الى هذا الهدف الأكمل .

(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) . اذا نزل الماء على الأرض الميتة تحركت ونبضت بالحياة وأخرجت أشكالاً وألواناً من النبات يسر الناظرين ، وبطيّب الآكابين .. وليس من شك ان في الأرض استعداداً لاستقبال الحياة، ومع هذا لا تحمل فيها إلا بإذن الله تعالى . لأن كل شيء ينتهي الى أمره وقوله : « كن فيكون » . وقال بعض الصوفية : المراد بالأرض الميتة النفس الجاهلة ، وبالماء العلم ، وبالزوج البهيج صفات الكمال والجلال .

(ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور) . ذلك اشارة الى الأمر والشأن . ومعنى الله هو الحق ان الحكم والسلطان له وحده لا شريك له ، وانه لا وجود إلا منه .. ويتفرع على ذلك انه هو المبدىء والمعيد . وان النشأة الثانية حتم لا مفر منها . تماماً كالنشأة الأولى ، بل ان هذه وسيلة وطريق الى الثانية التي هي غاية الغايات ، لأنها تعود بالانسان الى خالقه ، وتوقفه بين يديه للحساب والجزاء ، ولأنها دائمة باقية ، والنشأة الأولى زائلة فانيسة ، والفاني وسيلة الى الباقي .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - ٥٦ الذاريات » أي الا ليعملوا الآخرة .

سورة الحج

وتقدم الكلام عن البعث في العديد من الآيات . انظر ج ١ ص ٧٧ فقرة « البعث » ، وج ٢ ص ٣٩٦ فقرة : « طرق متنوعة لاثبات المعاد » وج ٤ ص ٣٧٩ فقرة : « الماديون والحياة بعد الموت » .

أسباب المعرفة في آية واحدة الآية ٨ - ١٤ :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ *
ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِلْعَبِيدِ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ
بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَابَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعَهُ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسِ الْمَوْلَى
وَلِبَيْسِ الْعَشِيرِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ *

اللغة :

المراد بالعلم هنا المشاهدة والتجربة الحسية ، وبالهدى العقل ، وبالكتاب المنير
الوحي . وثنى لوى والعطف الجنب ، وثاني عطفه كناية عن التكبر والاختيال .

الجزء السابع عشر

والحرف في اللغة الطرف والجانب ، وهو هنا كناية عن الشرط أي يعبد الله على شرط ، ويأتي التحقيق . والمراد بالفتنة المحنة . وانقلاب على وجهه ارتد عن دينه . والعشير الصاحب .

الإعراب :

ثاني عطفه حال من ضمير يجادل . والمصدر المجرور باللام في ليضل متعلق بيجادل . له في الدنيا خبر مقدم ، وخزي مبتدأ مؤخر . ويدعو لمن ضره أقرب من نفعه . اختلفوا في اللام الداخلة على من : أي لام هي ؟ وذكرها لها وجوهاً ، أرجحها ان مفعول يدعو محذوف أي يدعو الأصنام، ومن مبتدأ واللام لام الابتداء، وضره مبتدأ ثان وأقرب خبر المبتدأ الثاني ، والجملة من الثاني وخبره صلة لمن . ولبئس المولى اللام واقعة في جواب القسم المحذوف ، والجملة من القسم وجوابه خبر المبتدأ الأول ، وهو لمن .

المعنى :

(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) . أنت ترى هذا حقاً ، وذاك باطلاً .. ولكن ما يدريك ان رأيك صحيح وسليم ؟ وما هو الضمان لصحة ما تراه، فربما كان الذي رأيت حقاً هو باطل ، والذي رأيت باطلاً هو حق في واقعه ؟

ولا سبيل الى تمييز المعرفة الصحيحة من غيرها إلا بالرجوع الى مصدرها والسبب الذي تولدت منه ، فان كان السبب صحيحاً كانت المعرفة كذلك ، والا فهي باطلة لأن الفرع يتبع الأصل .

ويعود السؤال : ما هو السبب الصحيح للمعرفة ؟ وبأي شيء نميزه عن غيره؟ قال جماعة من الفلاسفة : ان سبب المعرفة الصحيحة ينحصر بالتجربة الحسية . وقال آخرون : بل هو العقل ، والحواس أدوات له . أما القرآن الكريم فقد

سورة الحج

ذكر في الآية التي نفسرها ثلاثة أسباب للمعرفة : الأول التجربة الحسية ، وهي المعنية بكلمة علم . الثاني العقل ، وهو المراد بكلمة هدى . الثالث الوحي ، وهو المقصود بكتاب منير . والتجربة الحسية تكون سبباً للمعرفة في الماديات فقط لأنها هي التي تقع تحت الحس ، وتتأولها التجربة ، ولا غنى لهذه التجربة عن العقل لأن الحواس لا تدرك إلا بمعونته ، وينحصر طريق المعرفة بالعقل وحده في اثبات الألوهية ، أما النبوة فتثبت به وبالمعجزة معاً ، وان شئت الدقة في التعبير فقل : تثبت النبوة بالمعجزة التي يقرها العقل ، ويعترف بأنها من السماء لا من الأرض ، أما الوحي فهو سبب المعرفة في كل ما جاء به من غير استثناء ، وينحصر طريق المعرفة بالوحي في الأشياء الغيبية كالجن والملائكة ، وتوقيت الساعة ، وكيفية الحساب والجزاء في النشأة الثانية وما إليها .

(ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) . هو جاهل يجادل في الله بغير علم ، وهو متكبر يتمايل من الزهو والغرور ، وهو ضال مضل .. وهل من جزاء لأهل الجهل والكبرياء والضلال إلا الهوان والاحتقار من الناس ، وإلا العذاب الأليم من الله!؟ (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) لأنه اعذر اليهم بما وهبهم من العقل ، وما أرسل من الرسل ، وأنزل من الكتب .

(ومن الناس من يعبد الله على حرف) . في الآية السابقة ذكر سبحانه من يكفر بالله ، ويجادل فيه بغير علم ، وفي هذه الآية ذكر الذي يعبد الله على حرف ، واختلف المفسرون في المراد منه على أقوال ، منها انه يعبد الله ، وهو على شك في دينه ، ومنها انه يعبده بلسانه دون قلبه ، الى غير ذلك .. ولا وجه لهذا الاختلاف لأن الله قد بين هذا الذي يعبده على حرف ، وفسره بقوله : (فإن أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه) . والمراد بالخير هنا السراء ، وبالفتنة الضراء ، واطمأن به أي ارتاح الى ما هو فيه واستمر في العبادة . وانقلب على وجهه أي ارتد عن دينه .. ومحصل المعنى ان الذي يعبد الله على حرف هو الذي لا يعبده إلا على شرط ان يعوضه عن عبادته ، ويقبض ثمنها في هذه الحياة ، والا كفر به وبكتبه ورسله .

الجزء السابع عشر

ومن يكفر بالله فجزاؤه جهنم وساءت مصيراً (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) . خسر الدارين حيث أصابه في الأولى البلاء والضراء ، وقدم في الآخرة على ربه كافراً به ، وأي خسران أعظم من الفقر في الدنيا، والعذاب في الآخرة.. وأوضح تفسير لهذه الآية ما روي: ان بعض الأعراب كانوا يقدمون على النبي (ص) مهاجرين من باديتهم ، وكان أحدهم ان كثر ماله صلى وصام، وان أصيب به ، أو تأخرت الصدقة عنه ارتد عن الاسلام .. وقد شاهدت ما يشبه هذا من بعض القرويين أيام عشت بين ظهرانيهم .

وبعد ، فان المؤمن حقاً هو الذي يخلص لله ، ويثق به في جميع حالاته ، يصبر عند الشدة ، ويشكر عند الرخاء ، وفي نهج البلاغة : لا يصدق إيمان عبد، حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده .

(يدعو من دون الله ما لا يضره ولا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد) . تقدم هذا المعنى في العديد من الآيات ، بالإضافة الى وضوحه (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) . المولى الناصر والعشير الصاحب .

وتسأل : نفى سبحانه في الآية الأولى الضر والنفع عن معبود المشركين ، ثم أثبتها له في الآية الثانية، غاية الأمر أنه تعالى جعل الضرر أكثر وأقرب من النفع، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟

الجواب : المراد بالمعبود في الآية الأولى الاحجار ، وهي لا تنفع ولا تضر، والمراد به في الآية الثانية طاعة الزعماء الطغاة ، ومناصرتهم بقصد الربح والمنفعة ، وأعظم منفعة في الحياة الدنيا لا تُعد شيئاً بالنسبة الى غضب الله وعذابه .. وبتعبير ثانٍ انهم أطاعوا المخلوق في معصية الخالق لما آرب دنيوية وما دروا ان عذاب الله أشد وأعظم .

(ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) واضح وتقدم في الآية ٢٥ من سورة البقرة (ان الله يفعل ما يريد) من ثواب الأخيار وعقاب الأشرار ، فلقد سبق في حكمه وقضائه ان يكافئ الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين أساءوا بما كانوا يعملون .

سورة الحج

فليمدد بسبب الى السماء الآية ١٥ - ١٨ :

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ
إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ* وَكَذَلِكَ
أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ
لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ
وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ
يُنِيبِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ*

اللفظة :

قال كثيرون : المراد بالسبب هنا الحبل ، وبالسماء سقف البيت ، ويقطع
يختنق، وكيدته اختناقه . والصابغون يقرون بالله وبالمعاد ، ولكنهم يعتقدون بتأثير
بعض النجوم في الخير والشر . والمجوس يعبدون النار ، ويقولون : الخير من
النور ، والشر من الظلمة .

الإعراب :

من كان (من) اسم شرط ، وفليمدد جوابه ، واللام في يمدد ويقطع وينظر
للأمر تجزيم فعلاً واحداً . وما يغيظ (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك مفعول

الجزء السابع عشر

يذهبن أي هل يذهبن كيده غيظه . والمصدر من ان الله يهدي من يريد . فمفعول لفعل محذوف أي وأنزلنا ان الله يهدي من يريد . وجملة إن الله يفصل خبر إن الذين آمنوا .. فإله من مكرم (ما) نافية ، وله خبر مقدم ، ومن زائدة ، ومكرم مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) . قال كثير من المفسرين ان ضمير ينصره يعود الى محمد (ص) وان المعنى من ظن من المشركين ان الله لا ينصر نبيه محمداً فليختنق بحبل لأن الله ناصره لا محالة . ولكن ظاهر السياق يرجح ان الضمير يعود على من كان يظن لأن محمداً (ص) لم يرد ذكره في الآية ، وعليه يكون المعنى ان من نزلت به نازلة ، وتسخط من قضاء الله وقدره ، ويشس من روحه وعونه في الدنيا ، ومن ثوابه في الآخرة اذا صبر ، من كان كذلك فلا يملك أية وسيلة إلا أن يشنق نفسه بسقف بيته ، ويتحجر خنقاً ، ثم لينظر هل يذهب غيظه بذلك ، ويحقق مرامه ؟ .

والعاقل اذا نزلت به نازلة سعى جهده للخلاص منها مستعيناً بالله عليها وعلى كل ما أهمه ، فان وجد المخرج فذاك ، وإلا فوَّض الأمر الى الله، وترقب الفرص .

(وكذلك أنزلناه آيات بينات وان الله يهدي من يريد) . ضمير أنزلناه يعود الى القرآن، وبينات واضحات .. والله سبحانه يهدي من طلب الهداية بكتابه، ويرشد الى سعادة الدارين من يسترشد به وبنييه . ومن طلب الفساد والضلال فانه يجد السبيل اليها عند المفسدين والمضللين .

(ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد) . ان الله يعلم عقيدة كل طائفة من هذه الطوائف الست ، وسيفصل بينهم غداً ، ويجازي كل واحدة

سورة الحج

عما تدين فيدخل الكافرين النار ، والمؤمنين المخلصين الجنة . وتقدم نظير هذه الآية مع التفسير في الآية ٦٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١١٧ .
(ألم تر ان الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) . قال جماعة من المفسرين : المراد بسجود الدواب والجماد والنبات انها جميعاً طوع أمره يتصرف فيها كما يشاء .. وعند تفسير الآية ٤٤ من سورة الاسراء قلنا ان تسبيح كل شيء بحسبه . وكذلك السجود ، وان تسبيح الجمادات والنباتات والحيوانات هو دلالتها على وجود خالقها وعظمته . وقال الملا صدرا في كتاب الاسفار : « ان الموجودات كلها عاقلة ، تعقل ربها ، وتعرف مبدعها ، وتسمع كلامه ، وتمثل أمره » . وليس هذا ببعيد لأن العقل لا ينفيه ، وظاهر النقل يشبهه ، قال تعالى : « وان من شيء الا يسبح بحمسه ولكن لا تفقهون تسبيحهم — ٤٤ الاسراء » . وقد يكشف العلم هذه الحقيقة في المستقبل القريب أو البعيد .

(وكثير من الناس) يؤمنون بالله وله يسجدون (وكثير) منهم (حق عليه العذاب) هم الكافرون بالله الساخرون ممن آمن به وتعبد له . وكان على صاحب الأسفار أن يستثني الجاحدين من الموجودات والكائنات (ومن بين الله فما له من مكرم) أبداً .. لا رافع لمن وضع الله وأذل ، ولا واضح لمن أعز وأكرم .. ولا كرامة عند الله إلا للمتقين (ان الله يفعل ما يشاء) من إكرام الصالحين المصلحين ، واهانة الضالين والمفسدين .

وبعد ، فان لله سنناً في خلقه لا يمكن تجاوزها، وهي أن من سلك طريق التهلكة هلك ، ومن سلك طريق السلامة سلم ، وطريق السلامة والكرامة عند الله هو الإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، وطريق الخزي والهوان النفاق والافساد في الأرض .

هذان خصمان اختصموا في ربهم الآية ١٩ - ٢٥ :

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ *
 وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا
 فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
 ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَسْوِ
 وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ
 وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ *

اللفظة :

قطعت فصات . والحميم الماء المغلي . ويصهر يُذاب . والمقامع جمع مقمعة ،
 وهي مدقة الرأس من قعه قعماً اذا دقه - كما في مجمع البيان - والحريق المحرق
 كالأليم الذي معناه المؤلم . والأساور جمع اسوار . وهدوا أرشدوا . والعاكف
 المقيم . والبادي الطارىء . والإلحاد الانحراف والعدول عن القصد . وبظلم بغير حق .

الاعراب :

الخصم مصدر يستوي فيه الواحد والاثنتان والجمع والذكر والأنثى ، يقال :
 هو أو هي أو هما أو هم أو هن خصمي ، وجاءت التثنية في « هذان » بالنظر
 الى اللفظ ، وجاءت واو الجماعة في اختصاصوا بالنظر الى المعنى مثل وان طائفتان من
 المؤمنين اقتتلوا . وكلما منصوبة على الظرفية لأنها مضافة الى ما المصدرية الظرفية ،

سورة الحج

والعامل فيها أعيديا . ومن غم بدل اشتغال من ضمير منها باعادة حرف الجر .
ومن ذهب متعلق بمحذوف صفة لأساور . ولؤلؤاً عطف على محل أساور لأن كل
مجرور لفظاً هو منصوب محلاً ، وقيل : مفعول لفعل محذوف أي ويعطسون
لؤلؤاً . وان الذين كفروا ، خبر ان محذوف أي ان الذين كفروا نذيقهم العذاب .
وسواء مفعول ثان لجعلناه ، وهو اسم فاعل بمعنى « مستويّاً » والعاكف فاعل
له . وبالحد الباء زائدة اعراباً ، والحد مفعول يرد . وبظلم متعلق ببرد أي يرد
الحداد بسبب الظلم ، وقيل : ان بالحد بظلم هما حالان مترادفان أي مائلاً
ظالماً .

المعنى :

(هذان خصمان اختصموا في ربهم) . جاء في تفسير الطبري ان ابا ذر كان
يقسم بالله ان هذه الآية نزلت في ستة من قريش : ثلاثة منهم مؤمنون ، وهم
حزرة بن عبد المطلب ، وعلي بن ابي طالب ، وعبيدة بن الحرث ، وثلاثة من
المشركين ، وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وان الخصومة بينهم
كانت في القتال والمبارزة يوم بدر ، وان الله نصر المؤمنين على المشركين .
وقال جماعة من المفسرين : ان المراد بالخصمين فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين ،
وهم اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والمشركون لأنهم جميعاً ذكروا في الآية
السابقة ، وكل فريق من المؤمنين والكافرين يقول : أنا المحق دون غيري ،
ومهما يكن فان الخصومة في الدين وقعت بين من آمن بالله ، ومن كفر به .

(فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم
يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا ان يخرجوا
منها من غم أعيديا فيها وذوقوا عذاب الحريق) . بعد ان اشار سبحانه الى
تخاصم المؤمنين والكافرين ذكر أن من آمن بالله فقصيره الى الجنة ، ومن كفر
فالى جهنم وبئس المصير . وان أهلها يلبسون ثياباً من نار ، ويصب فوق
رؤوسهم الماء الحار الذي يذيب الشحم واللحم ، والامعاء والجلود ، وان أعمدة
الحديد تهوي على رؤوسهم وأبدانهم ، وهم يحاولون التخلص من هذا الهم والغم ،

الجزء السابع عشر

ولكن أين المفر من حكم الله ومشيبته . وتقدم نظيره في الآية ٤٩ وما بعدها من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٥٩ فقرة : « جهنم والأسلحة الجهنمية » .
 (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) . للكافرين ثياب النار ومقامع الحديد ، وماء الحميم . وللمؤمنين المخلصين جنات نعيم ، وأنهار لذة للشاربين ، وثياب من حرير ، وحلي من الذهب واللؤلؤ (وهدوا الى الطيب من القول) بعد أن أشار سبحانه الى طعامهم وشرابهم ذكر أقوالهم ، وهي أحسن الأقوال ، مثل الحمد لله وله الشكر على ما تفضل وأنعم (وهدوا الى صراط الحميد) وهو الطريق القويم الذي سلكوه في الحياة الدنيا ، وأدى بهم الى نعيم الآخرة .

(ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) . كان مشركو قريش يمنعون الناس من الدخول في الاسلام، ومن الحج والعمرة الى بيت الله الحرام الذي جعله مثابة وأمناً للمؤمنين كافة لا فرق بين المقيم فيه والعاير . وتقدم نظيره في الآية ١٢٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٠٠ (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) . المراد بالالحاد هنا الميل والانحراف ، والمعنى من يميل وينحرف عما أمر الله ، وأساء لمن قصد بيته الحرام فان الله يعذبه العذاب الأكبر .

وطهر بيتي للطائفين والقائمين والآية ٢٦ - ٢٩ :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ
 لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ
 رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ
 وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْتُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ

سورة الحج

فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا
نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *

اللغة :

بؤانا هنا بمعنى هيأنا ووطأنا لأنها تعدت باللام . والطواف الدوران . والضامر
الجزيل . والتمج الطريق . والعميق البعيد . وسهيمه الأنعام الإبل والبقر والضأن .
والبائس هو الذي أصابته شدة . والنفث الوسخ ، يقال : قضى تفثه اذا أزال
وسخه .

الإعراب :

بؤانا متضمنة معنى هيأنا ولذلك دخلت اللام على ابراهيم . ومكان منصوب
ببؤانا . ان لا تشرك (ان) مفسرة لفعل محذوف أي أوحينا اليه ان لا تشرك . ورجالاً
حال أي مشاة على أرجلهم . وعلى كل ضامر أيضاً حال أي مشاة وركبانياً .
ويأتين الجملة صفة لكل ضامر والنون تعود الى كل ضامر لأنه بمعنى الجمع .
والمصدر من ليشهدوا متعلق بيأتوك .

المعنى :

(واذ بؤانا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين
والقائمين والركع السجود) . المراد بالقائمين المقيمون في مكة وضواحيها ،
وبالركع السجود المصلون .. كانت قريش تعبد الأصنام ، وتقوم على أمر الكعبة ،
وبعد أن بعث الله محمداً (ص) نصبت العداة له ولمن آمن به ، ومنعت المسلمين
من الطواف والصلاة في بيت الله ، كما جاء في الآية السابقة . ومع هذا كانت

الجزء السابع عشر

تزعم قريش انها على دين ابراهيم (ع) .. فأبطل الله هذا الزعم بأنه هو صاحب البيت ، وقد أوحى الى ابراهيم ان يبنيه ويجعله خاصاً بعبادة الموحدين المقيمين منهم في مكة والعابرين ، وان يبعد عنه المشركين وأوثانهم ، وهذا هو معنى (وظهر بيتي) .. ولكن قريشاً عكست الآية ، فلأت بيت الله بالأصنام ، وأباحته لأهل الشرك والفساد وصدت عنه أهل التوحيد والصلاح .

(وأذن في الناس بالحج بأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . أمر الله خليله ان يدعو الناس الى حج المسجد الحرام بعد ان يقيم قواعده ، ويتم بناءه . ووعدته ان يستجيب الناس الى دعوته . وبأتوه مشاة وركباناً على ضواير من الخيل والابل من كل طريق بعيد ، وبالأولى من الطريق القريب .

(ليشهدوا منافع لهم) . الحج هو العبادة الوحيدة التي تجمع بين المنافع الدينية والدينية، أما الدينية فطاعة الله بأداء الفريضة ، والتوبة من الخطايا والذنوب واستشعار الهيبة والجلال . قال ابن عربي في الفتوحات المكية : « كنت في ذات يوم أطوف بالكعبة . فرأيتها فيما خيل الي انها ارتفعت عن الأرض ، وتوعدتني بكلام والله سمعته ، وهي تقول : تقدم حتى ترى ما أصنع بك ، كم تضع من قدري ، وترفع من قدر بني آدم » .

ونقول عن يقين : ما من أحد يسمى أو يطوف في بيت الله باخلاص إلا ويستشعر شيئاً من هذا النوع .

(ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام) وهي الإبل والبقر والغنم ، وذكر اسمه تعالى على الانعام كناية عن ذبحها ونحرها لأن التسمية تجب عند نحر الإبل وذبح البقر والغنم ، والمراد بآيات معلومات ايام النحر والذبح في الحج كما يدل عليه سياق الآية . وقد اختلف الفقهاء في عدد هذه الأيام ، قال الشيعة : هي أربعة ، أولها يوم عيد الأضحى وآخرها اليوم الثالث عشر من ذي الحجة ، وقال غيرهم من فقهاء المذاهب : هي ثلاثة تنتهي بالثاني عشر منه . والتفصيل في كتابنا « الفقه على المذاهب الخمسة » .

وقال الرازي : أكثر العلماء يفرقون بين الايام المعلومات في هذه الآية، والايام المعدودات في الآية ٢٠٣ من سورة البقرة . ويرون ان الايام المعلومات هي عشرة

سورة الحج

ذِي الْحِجَّةِ ، وَالْمَعْدُودَاتِ أَيَّامِ الذَّبْحِ وَالنَّحْرِ عَلَى الْخِلَافِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِيهَا أَرْبَعَةٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ .

(فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) . اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى وَجُوبِ اطِّعَامِ الْفَقِيرِ مِنْ أَضْحِيَّةِ الْحَجِّ ، وَاخْتَلَفُوا فِي وَجُوبِ أَكْلِ صَاحِبِهَا مِنْهَا ، وَنَحْنُ مَعَ الْقَائِلِينَ بِعَدَمِ الْوَجُوبِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ مَتْرُوكٌ إِلَى إِرَادَتِهِ ، إِنْ شَاءَ أَكَلَ مِنْهَا ، وَإِنْ شَاءَ تَصَدَّقَ بِأَجْمَعِهَا ، أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَكَلُوا مِنْهَا) فَقَدْ جَاءَ لِرَفْعِ تَوْهَمِ تَحْرِيمِ الْأَكْلِ مِنْهَا ، حَيْثُ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَأْكُلُونَ مِنْ أَضْحِيَّتِهِمْ زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ مُحْرَمٌ عَلَيْهِمْ ، فَتَبِعَ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : فَكَلُوا مِنْهَا إِلَى خَطِّئِهِمْ .

(ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ) لَا يَجُوزُ لِلْحَاجِّ أَيَّامَ إِحْرَامِهِ أَنْ يَخْلُقَ رَأْسَهُ أَوْ يَقْلَمَ أَظْفَرَهُ أَوْ يَنْطِيبَ ، بَلْ قَالَ الْفُقَهَاءُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ : إِنْ قَتَلَ هَوَامَ الْجَسَدِ كَالْقَمَلِ حَرَامٌ ، فَإِذَا انْتَهَتْ أَيَّامُ الْإِحْرَامِ حُلُّهُ مَا كَانَ مُحْرَمًا عَلَيْهِ ، فَيَحْلِقُ وَيَقْلَمُ أَظْفَرَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ) . (وَلِيُؤْفُوا نَذْوَرَهُمْ) إِنْ كَانُوا قَدْ نَذَرُوا شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ أَيَّامَ الْحَجِّ أَوْ قَبْلَهَا ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَنْذَرُونَ الصَّدَقَاتِ وَغَيْرَهَا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ إِنْ رَزَقَهُمُ اللَّهُ الْحَجَّ (وَلِيُطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) أَيِ الْقَدِيمِ لِأَنَّهُ أَوْلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ ، وَذَكَرَ سَبْحَانَهُ الطُّوَافَ فِي صَيْغَةِ الْمُبَالَغَةِ حَيْثُ يَسْتَحِبُّ الْإِكْتَارَ مِنْهُ ، كَمَا يَسْتَحِبُّ الْإِكْتَارَ مِنَ الصَّلَاةِ ، فَلَقَدْ اشْتَهَرَ عَنْ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ (ص) أَنَّهُ قَالَ : الطُّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلَاةٌ .

حُرْمَاتِ اللَّهِ وَشَعَائِرِهِ الْآيَةُ ٣٠ - ٣٥ :

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا
قَوْلَ الزُّورِ * حُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا
خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *

الجزء السابع عشر

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا
لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْعَتِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ
وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ
وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *

اللغة :

حرمات جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكه . وحنفاء جمع حنيف ، وهو
من استقام على دين الحق مائلاً عن الأديان الباطلة . والسحيق البعيد . وشعائر
جمع شعيرة ، وهي العلامة مأخوذة من الإشعار بمعنى الاعلام . والمنسك موضع
العبادة ، والنسك العبادة . والمخبتين الخاشعين بدليل قوله تعالى : الذين اذا ذكر
الله وجات قلوبهم .. أي خافت .

الإعراب :

ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك . ومن الأوثان (من) بيانية أي الرجس
الذي هو الأوثان . وهو يعود الى مصدر متصيد من يعظم أي التعظيم . وحنفاء
حال من واو اجتنبوا . وغير مشركين حال ثانية . فانها،الأصل فان تعظيمها ثم
حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فصارت فانها ، والذين اذا ذكر الله عطف
بيان للمخبتين،والصابرين والمقيمي الصلاة عطف على المخبتين .

سورة الحج

المعنى :

(ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه) . للتعظيم مظاهر شتى ، تتفاوت على قدر المعظم ، وما يليق به من التعظيم والاحترام ، ولا شيء لدى المخلوق يليق بتعظيم خالقه إلا الطاعة والانقياد له في كل شيء ، فمن أطاع الله وامثل أوامره ونواهيه فقد عظمه وعظم حرماته وشعائره ، وهذا التعظيم أو هذه الطاعة ترفع من شأن المطيع عند خالقه ، لا من شأن الخالق المطاع لأن الله غني عن العالمين ، ولذا قال تعالى : (فهو خير له عند ربه) أي تعظيم أحكام الله باطاعتها خير للمطيع عند خالقه وبارئه .

(وأحل لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم) . حرم الله على الحاج الصيد أيام احرامه ، وربما توهم هذا الحاج المحرم انه اذا حرم عليه الصيد فقد حرم عليه أيضاً الأكل من لحوم الانعام ، فبين سبحانه عدم التلازم بين التحريمين ، وان المحرم من الأنعام ما نص عليه القرآن كالميتة وما ذبح على النصب . انظر تفسير الآية ٣ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٠ (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) . ابتعدوا عنها وعن عبادتها كما تبتعدون عن الأوساخ والافذار ، والأوثان كلها رجس ، ولذا قال علماء العربية : ان من هنا للتبيين لا للتبعيض ، مثلها مثل (من) في قولك : خاتم من حديد (واجتنبوا قول الزور) . وقول الزور يشمل كل محرم كذباً كسان أو غيبة أو شتماً أو فحشاً ، وأشد أنواع الزور الشهادة الكاذبة لأن فيها هدرًا لحقوق الله والناس ، قال رسول الله (ص) : عدلت شهادة الزور بالشرك بالله . ثم تلا هذه الآية .

(حنفاء لله غير مشركين به) . الحنفاء هم المستقيمون على دين الحق المائلون عن الأديان الباطلة ، وغير مشركين تأكيداً للحنفاء . وتكلمنا عن الحنفاء عند تفسير الآية ١٠٧ من سورة الإسراء (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) . هذا كناية عن ان اثم الشرك لا يعادله اثم ، وان عذاب المشرك ليس وراءه عذاب .. ومن تتبع الآيات القرآنية والسنة النبوية يلاحظ ان المشرك أكبر إثمًا من الملحد عند الله ، وقد يكون السر في ذلك ان الملحد لا يثبت النقص « للخالق » لأنه لا يعترف بوجوده من

الجزء السابع عشر

الأساس، وهذا ثم عظيم ما في ذلك ريب .. ولكن ثم المشرك أعظم لأن الاشرار انكار للمخالق الواحد من جهة ، واثبات النقص للموجود من جهة ثانية .

(ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) . شعائر الله وحرماته بمعنى واحد ، وتكلمنا عنها في تفسير الآية السابقة ، وليس من شك انه لا يطبع احكام الله الا المتقون المخلصون ، ومن تعظيم شعائر الله واطاعة أحكامه ان تذبح السمين السليم من الانعام أيام الحج ، قال رسول الله (ص) : لا تضح بالعرجاء ولا العجفاء ، ولا الحرقاء ، ولا الجذاء ، ولا العصباء . والعجفاء الهزيلة ، والحرقاء هي التي لا اذن لها . أو مخرومة الاذن، والجذاء مقطوعتها، والعصباء مكسورة القرن .

(لكم فيها منافع الى أجل مسمى) . ضمير فيها يعود الى ذبائح الحج ، والى أجل مسمى أي وقت نحرها أو ذبحها ، والمعنى ان للحاج ان ينتفع بلبين اضحيته وظهرها الى حين النحر والذبح . وفي تفسير الرازي ان رسول الله مر برجل يسوق بدنة ، وهو في جهد ، فقال له : اركبها . قال الرجل : انها هدي يا رسول الله ، فقال له : اركبها ويالك ، ثم قال الرازي : وأبو حنيفة لا يجيز ذلك ، واحتج بأنه لا يجوز أن يؤجرها ، فإذا ، لا يجوز أن يركبها، ورد الرازي على أبي حنيفة بأن هذا ضعيف لأن أم الولد من الاماء لا تباع ، ومع ذلك يجوز الانتفاع بها . (ثم محلها الى البيت العتيق) اي ان مكان ذبح الانعام هو بيت الله الحرام ، والمراد به الحرم كله ، ومنه منى ، وفي الحديث منى كلها منحر .

(ولكل أمة جعلنا منسكاً) . المراد بالمنسك هنا النسك بذبح الانعام بدليل قوله تعالى بلا فاصل : (ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام) . والمعنى لا بدع في الاضحية فلقد كانت مشروعة في الأديان السابقة (فإلهم إله واحد) فلا تذكروا اسم غيره على ذبائحكم (فله أسلموا) انقادوا لأمره واخلصوا له في القول والفعل .

(وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) . بشر يا محمد بالجنة من تواضع لله ،

سورة الحج

وخاف منه ، وثبت على دينه في السراء والضراء، وتعبّد له من غير نفاق ورياء ، وأنفق ماله في طاعة الله ومرضاته. وليس من شك ان هذه الصفات اذا اجتمعت في انسان سمّت به الى أعلى الدرجات عند الله والناس .

والبدن جعلناها لكم الآية ٣٦ - ٣٧ :

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَافُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *

اللغة :

البدن بضم الباء جمع بدنة ، وهي الناقة السمينة من بدن بدنأ اذا كثر لحمه . وصواف أي ان البدن قائتات قد صففن أيديهن وأرجلهن . ووجبت جنوبها سقطت جنوبها على الأرض وهو كناية عن خروج أرواحها بالنحر . والقانع الراضي بما يعطى له من غير مسألة . والمعتر الذي يتعرض لك لتعطيه .

الإعراب :

البدن مفعول لفعل محذوف أي وجعلنا البدن ، ولكم متعلق بجعلناها ، ومن شعائر الله متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً لجعلناها وصواف حال من البدن .

الجزء السابع عشر

المعنى :

(والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير) . البدن هي الابل خاصة كما في كثير من التفاسير ، منها تفسير الرازي والبيضاوي ، ويأحق بها البقر في الحكم ، لا في الاسم .. وعلى أية حال فان الانسان نتيجة لعوامل كثيرة ، منها البيئة التي يعيش فيها ، وقد عاش العرب وغيرهم في الجاهلية وبعدها بقرون ، عاشوا مع الابل ، وكانت جزءاً من حياتهم ، يأكلون من لحومها، ويشربون من ألبانها ، ويلبسون من أوبرها ، وتحمل أثقالهم من بلد الى بلد .. أنظر تفسير الآية ٦ من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٧ . ومن أجل هذا ذكرها الله سبحانه في العديد من آياته بلفظ عام كالانعام ، أو بلفظ خاص كما في الآية ١٧ من سورة الغاشية والآية التي نحن بصدددها ، فلقد امتن سبحانه فيها على عباده بالبدن، وجعل لها منافع كثيرة ، منها أن يتقرب العبد الى الله بنحرها في بيته الحرام ، والتعبير عن هذا النحر بشعائر الله يشعر بأنه من أفضل الطاعات والعبادات .

(فاذكروا اسم الله عليها صواف) . من شروط الذبح والنحر التسمية والاتجاه بالمذبوح والمنحور الى القبلة والنحر للابل، والذبح لغيرها ، ولا تحل الابل بالذبح ، كما لا يحل غيرها بالنحر ، والذبح معلوم ، أما النحر فهو ان يُدخِل الذابح سكيناً أو ما إليها من الآلات الحادة في لبة البعير ، وهو قائم أو بارك أو مضطجع على جنبه شريطة أن يكون متجهاً بنحره وجميع مقاديم بدنه الى القبلة ، وأفضل صور النحر ما جاء في بعض الروايات ، وهو ان يقام البعير واقفاً اتجاه القبلة ، وان تعقل احدى يديه ، ويقف الناحر متجهاً الى القبلة أيضاً ، ثم يضرب في لفته ، وهذه الرواية تصلح تفسيراً لكلمة صواف .

(فاذا وجبت جنوبها) سقطت على الأرض وخرجت الروح منها (فكلوا وأطعموا القانع والمعتر) . القانع الراضي بما تعطيه من غير سؤال ، والمعتر من يتعرض لك بالعطية (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) سخرها لنا سبحانه في كل ما نريده منها حتى الذبح ، فوجب له الشكر على هذا التسخير (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) لأن الله غني عن العالمين فضلاً عن لحوم الاضاحي ودماؤها ، بل لا غنى لشيء إلا به ومنه سبحانه وتعالى ، وقيل : ان هذا رد

سورة الحج

على المشركين الذين كانوا يلطخون أصنامهم بدم الأضاحي ، ويلوثون به حيطان الكعبة .

(ولكن يناله التقوى منكم) . وتساءل : ان معنى التقوى ان تتقي الله فيما حرمه عليك ، وهذا يعود ثوابه ونفعه عليك وحدك ، أما الله سبحانه فلا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ، اذن . فما معنى قوله تعالى : (ولكن يناله التقوى منكم) ؟

الجواب : المراد بالتقوى هنا رضا الله لأن تقوى العبد ، ورضا الله عن المتقي متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وعليه يكون المعنى ان الذي يصل الى الله من أضحايكم هو ان يرضى عنكم ولا يغضب عليكم .. فهو اشبه بقولك لولدك : ان نجاحك في الدراسة يجعلني راضياً عنك محباً لك ، وهذا كل ما أناله من دراستك ونجاحك .

(كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم) . سخر الله البدن لعباده وهداهم الى التقرب بنحرها اليه تعالى ليسبحوا بحمده ، ويعظموه في علمه وقدرته ويخافوا من عقابه ، ويطمعوا في ثوابه (وبشر المحسنين) كل المحسنين ، سواء أحسنوا في التقرب الى الله بالأضاحي أم بغيرها ، فان أنواع الاحسان لا يبلغها الاحصاء ، وأفضلها جهاد أهل البغي والضلال ، ولو بكلمة الحق والعدل .

ان الله يدافع عن الذين آمنوا الآية ٣٨ - ٤١ :

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *
أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ
أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَبْعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ

الجزء السابع عشر

فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ*
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ*

اللغة :

صوامع جمع صومعة بفتح الصاد . وبيع جمع بيعة بكسر الباء . وفي مجمع
البيان الصوامع في أيام شريعة عيسى ، والبيع في أيام شريعة موسى ، والمساجد في
أيام شريعة محمد ، وقال الخوري الشرتوني في « أقرب الموارد » : البيعة متعبدة
النصارى ، وقال الخوري معلوف في « المنجد » : البيعة معبد النصارى واليهود .

الإعراب :

أذن، المأذون به محذوف أي اذن بالقتال ، ويدل عليه يقاتلون . وان الله على
نصرهم جملة حال من واو يقاتلون . وإلا أن يقولوا استثناء منقطع ، أي ولكن
قولهم ربنا الله . ودفع مبتدأ والخبر محذوف أي ولولا دفع الله حاصل . وصلوات
على حذف مضاف أي مكان الصلوات . الذين أخرجوا بدل من للذين يقاتلون .

لا يخلو المؤمن من ناصر :

(ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور) . تدل
هذه الآية ان الله سبحانه يمنع في هذه الحياة الكفرة والطغاة عن المؤمنين بالله
واليوم الآخر ، وأوضح منها في الدلالة قوله تعالى : « إنا لنصر
رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد - ٥١ غافر » . مع ان
الله سبحانه قد نص في العديد من آياته ان اليهود كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق،

سورة الحج

منها الآية ٢١ و ١١٢ و ١٨١ من سورة آل عمران ، والآية ١٥٤ من سورة النساء ، بالإضافة الى ان تاريخ البشرية القديم والحديث مفعم بالمظالم والاعتداءات على المتقين والمخلصين .. فما هو وجه الجمع بين الآيات الدالة على ان الله ينصر أهل الحق والآيات التي أخبرت عن قتل الأنبياء ؟

الجواب أولاً : ان آيات النصر تدل بسياقها على انها خاصة ببعض الأنبياء دون بعض ، كنوح وهود وصالح ولوط ومحمد ، ويومئى الى ذلك قوله تعالى : « والله يؤيد بنصره من يشاء - ١٣ آل عمران » ، والآيات التي نحن بصددتها تدل على ان محمداً (ص) والصحابة هم المقصودون بقوله تعالى : « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » لأنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم لا شيء إلا لأنهم قالوا ربنا الله ، وقد جاء في كتب الصحاح ان هذه الآيات نزلت حين هاجر النبي من مكة الى المدينة .

ثانياً : ان المحق المخلص لا يخلو من ناصر ينصره بيده أو ماله أو لسانه ، ولا نعرف مجتمعاً اتفق جميع أفراده ضد من نطق بكلمة الحق والعدل .. أجل ، ان كثيراً من المحققين قُتلوا وأسروا وشردوا ، ولكن الله عز وجل قد أتاح لهم انصاراً يعلنون ظلامتهم ، ويشيدون بعظمتهم ، ويدبنون أعداءهم بحجج دامغة ، وأدلة قاطعة ، وهذا مظهر من مظاهر النصر ، وقوله تعالى : (ان الله لا يحب كل خوان كفور) تعليل لقوله : (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) ويشعر هذا التعليل بأن على من آمن بالله ان يناصر المؤمن بما يملك من أسباب النصر، وأدائها ان يدافع عنه اذا ذكر أمامه بسوء ، والا فهو خوان كفور .. وفي الحديث الصحيح : الساكت عن الحق شيطان أخرس .

ثالثاً : لو كان مجرد الايمان بالله يدفع العدوان والنكبات عن المؤمن - ان صح التعبير - لآمن كل الناس ايماناً تجارياً تماماً كمن يبيع دينه وضميره لكل من يدفع الثمن .

رابعاً : ان الايمان الحق أن تطيع الله في جميع أحكامه وأوامره ، وقد أمر سبحانه اذا أردنا أمراً أن نتبع الأسباب الطبيعية التي جعلها مؤدية الى ما نريد ، وقد حدد سبب النصر بوحدة الكلمة ، واعداد القوة ، قال تعالى : « ولا تنازعوا

الجزء السابع عشر

فتفشلوا وتذهب ربحكم - ٤٦ الأنفال » وقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ٦٠ الأنفال » . وفي الفتوحات المكية عبّر محيي الدين ابن عربي عن هذه الأسباب بأيدي الله ، وقد أخذ هذا التعبير من قوله تعالى : « أو لم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون - ٧١ يس » . انظر مساهمته بعنوان : « الدين لا يثبت قبحاً » ج ٣ ص ٤٤٩ .

(اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) . كان المسلمون في مكة مستضعفين يلاقون أنواع الأذى والعنف من المشركين ، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فكانوا يأتون النبي (ص) ويتظلمون اليه ، وهو لا يملك لهم إلا الوصية بالصبر ، وكان يقول لهم فيما يقول : « اني لم أؤمر بقتال » بل نهى (ص) عن قتال المشركين في أكثر من سبعين آية ، وهو بمكة ، لأن القتال آنذاك كان أشبه بعملية انتحارية . انظر تفسير الآية ٧٧ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٨١ . وبعد ان هاجر النبي الى المدينة ، وأصبح للمسلمين شوكة وقوة نزلت هذه الآية ، وهي أول آية أذن فيها للمسلمين بالقتال - على ما قيل - وقد بين سبحانه سبب هذا الاذن بأن المشركين اعتدوا على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ظلماً وعدواناً ، ووعد المسلمين بالنصر والظفر بأعدائهم ، حيث قال : « وان الله على نصرهم لقدير » .

(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله) . ظاهر الآية يدل على ان الذنب الوحيد للنبي (ص) والصحابة عند المشركين هو قولهم : لا إله إلا الله . وبهذا الظاهر أخذ جميع المفسرين ، بل قال أحد المفسرين الجدد ما نصه بالحرف : « لا صراع على عرض من أعراض هذه الحياة التي تشتجر فيها الأطماع ، وتتعارض فيها المصالح ، وتختلف فيها الاتجاهات ، وتتضارب فيها المطامع » . وقد أشرنا فيما تقدم أكثر من مرة الى ان طغاة الشرك حاربوا رسالة محمد (ص) وكلمة التوحيد لأنها تقضي على أطاعهم ومنافعهم ومصالحهم ، وتساوي بين الناس . انظر ما كتبه بعنوان : « المصلحة هي السبب » في ج ١ ص ١٥٥ و ١٧٩ .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد

سورة الحج

يذكر فيها اسم الله كثيراً) . بعد أن اذن سبحانه للمؤمنين المعتدى عليهم بقتال أهل الشرك المعتدين بيّن في هذه الآية السبب الموجب لهذا الاذن ، ويتأخص بأنه لولا القوة الرادعة لسادت الفوضى وعم الفساد في الأرض بالسلب والنهب واراقة الدماء ، وبالخصوص بين الطوائف وأهل الأديان . وعبر سبحانه عن الفتن بين الطوائف بهدم معابدها لأنها المظهر الديني لكل طائفة ، ولها علامات فارقة تميز أهل الأديان بعضهم عن بعض .. والصوامع للنصارى والبيع لليهود - أنظر فقرة اللغة - والصلوات على حذف مضاف أي مكان الصلوات ، والمراد بها معابد الطوائف الأخرى .. وتمتاز مساجد المسلمين عن معابد سائر الأديان بأن الصلاة تقام فيها خمس مرات في اليوم واللييلة ، ولذا قال سبحانه : (يذكر فيها اسم الله كثيراً) .

وقال جماعة من المفسرين : المراد من الآية ان الله يمنع المشركين بالمؤمنين ، ولولاهم لهدم أهل الشرك معابد أهل الأديان .. واذا صح هذا التفسير في وقت من الأوقات فإنه لا يصح ولا يطرد في كل عصر ومصر ، والصحيح في معنى الآية ما قلناه من انه لا غنى عن القوة الرادعة لحفظ الامن والنظام، سواء أكانت هذه القوة بيد المؤمن ، أم بيد الكافر بالله . قال الإمام علي (ع) : « لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الاجل ، ويجمع به النقيض ، ويقا تل به العدو ، وتأمين به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي ، حتى يستريح به ، ويستراح من فاجر » . وتجدر الاشارة الى أن الإمام قال هذا رداً على قول الخوارج : لا حكم إلا لله . أنظر ما كتبناه بهذا العنوان في ج ٤ ص ٣١٥ .

(ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) . هذا ترغيب في الجهاد لنصرة الحق وأهله (الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) . المراد بالتمكين في الأرض الحكم والسلطان ، وقد أقسم سبحانه مؤكداً انه ينصر الحاكمين شريطة أن يجمعوا بين أمرين : الأول أن يؤدوا حق العباد لله كاملاً في أنفسهم كالصوم والصلاة ، وفي أموالهم كالحج والزكاة ، وعبر سبحانه عن العبادة البدنية بالصلاة ، والعبادة المالية بالزكاة .

الجزء السابع عشر

الأمر الثاني : أن يعدلوا بين الناس ، ويحققوا الحق ، ويبطلوا الباطل ، وهذا هو المراد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أدخل الحكام بواحد من هذين فإن الله يهملهم ويكاهنهم إلى أنفسهم .

وتسأل : لقد شاهدنا كثيراً من الحكام لا يؤمنون بالله من الأساس فضلاً عن التعبد له بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . ومع ذلك استقام لهم الملك ، وانقادت إليهم الرعية لأنهم حققوا أهدافها ، وعملوا من أجل أمانيتها ، ولم يحاسبهم أحد من رعيتهم على كفرهم وجحودهم ، إذن عنصر الإيمان وعبادة الرحمن ليس شرطاً لدوام الملك واستقامته ؟

الجواب : المراد بنصر الله في الآية هو تثبيت الملك في الدنيا ، والثواب في الآخرة ، بل هذا الثواب هو النصر الحقيقي لأن ملك الدنيا إلى زوال ، ومشوب بالكدر ، أما نعيم الآخرة فدائم إلى ما لا نهاية ، وهو صفو وهناء من جميع جهاته .. والحاكم الكافر قد يستقيم له الملك في الدنيا إن عدل ، أما في الآخرة فله عذاب الحريق على كفره بالأدلة الكونية على وجود المكون والمصور (والله عاقبة الأمور) هو وحده مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، ويمنعه ممن يشاء وهو على كل شيء قدير .

وان يكذبوك الآية ٤٢ - ٥١ :

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ
إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ
ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ
ظَالِمَةٌ فِيهَا تَخَوِيَةُ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِشْرِ مُعْتَلَّةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

سورة الحج

بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ *
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمَلِّتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ
أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *
فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ
سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *

اللغة :

النكير الانكار ، والمراد به هنا الهلاك أي انكار بالفعل ، لا بمجرد القول .
وخاوية خالية أو ساقطة . وعروشها سقوفها . وبئر معطلة لا يستقى منها . والشيد
بكسر الشين ما طلي به الحائط من الجص ونحوه ، والمراد بالقصر المشيد هنا
الفخم . ومعجزين جمع معجز من عاجزه معاجزة أي سابقه ليظهر عجزه .

الإعراب :

فكيف خبر كان مقدم ، ونكير اسمها ، والأصل نكيري وحذفت الياء تخفيفاً .
وكأين أصلها أي فدخلت عليها الكاف كما دخلت على ذا، وصارت كلمة واحدة ،
وهي بمعنى كم الخبرية، وكتبت بالنون في المصحف - كما في تفسير البحر المحيط -
ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة أهلكتها خبر خلافاً للزخشي . وهي ظالمة مبتدأ
وخبر ، والجملة حال من هاء أهلكتها . فهي خاوية مبتدأ وخبر ، والجملة عطف
على جملة أهلكتها . وبئر وقصر عطف على القرية . فتكون منصوب بأن مضمرة

الجزء السابع عشر

لوقوع الفعل في جواب الاستفهام . والتي في الصدور صفة للقلوب . ومعاجزين حال من واو سعوا .

المعنى :

(وان يكذبوك فقد كذبت قبيلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى) . كذبت قریش محمداً (ص) ، وأخرجته من دياره ، فقال سبحانه لنبيه الكريم مسلماً ومعزياً : لا بدع فيما لاقيت من قومك فكل نبي عانى من قومه مثل ما عانيت . ثم ذكر له عدداً من الأنبياء على سبيل المثال دون الحصر ، منهم هود وقومه عاد ، وصالح وقومه ثمود ، أما أصحاب مدين فهم قوم شعيب . وتقدم نظيره في سورة الأنعام الآية ٣٤ ج ٣ ص ١٨٢ (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) . المراد بالنكير هنا العذاب ، والمعنى ان الله سبحانه أخر عذاب الكافرين الى أجله ، حتى إذا حان أخذهم به أخذ عزيز مقتدر، وتومىء الآية الى ان على العاقل ان لا يتعجل الشيء قبل أوانه . (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة) . بعد ان قال سبحانه ، انه يمهل الكافرين الى أجل مسمى أشار الى املاك القرى الظالم أهلها ، وهي كثيرة كما تشعر كلمة كأين . وتقدم مثله في الآية ٣ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠١ (فهي خاوية على عروشها) تقدم في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٠٥ والآية ٤٢ من سورة الكهف (وبشر معطلة وقصر مشيد) . البشر المعطلة هي العمارة بالماء ولكن لا يستقي منها أحد ، وقصر مشيد أي فخم، وهذا ترك أيضاً من غير أهل ، والقصد ان ديار الظالمين أصبحت متفجرة موحشة بعد ما كانت مأهولة تعج بالمقيمين والزائرين .

(أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم فلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها) . ضمير يسيروا يعود الى الذين كذبوا محمداً (ص) أي ألم يتعظ هؤلاء بمصارغ المكذبين ؟ وينظروا كيف أصبحت ديارهم خالية وأملاكهم معطلة ؟ وتقدم مثله في سورة آل عمران الآية ١٣٧ ج ٢ ص ١٥٩ والآية ٣٦ من سورة النحل ج ٤ ص ٥١٢ (فانها لا تعى الأبصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور) . وأية

سورة الحج

جدوى من السمع والبصر إذا عميت البصيرة ؛ فان الأذن والعين وسيلة وأداة ،
والعقل هو الأصل .

(ويستعجلونك بالعذاب) . الخطاب لمحمد (ص) ، وواو الجماعة لمشركي
قريش ، وكان النبي يتوعدهم بالعذاب ان أصرروا على الشرك ، وكانوا يقولون
له ما قاله الأولون لكل نبي حين ينهاتهم عن الشرك ، ويتوعدهم عليه : اتنسا
بما تعدنا ان كنت من الصادقين (ولن يخلف الله وعده) . فالتعجيل أو التأجيل
ليس بالشيء المهم ما دام الوفاء بالوعد كائناً لا محالة .. وتجدر الإشارة الى ان
الوعد من الله بالثواب على الطاعة هو حق للعبد المطيع لا يمكن الخلف فيه ، أما
وعيده تعالى بالعقاب على المعصية فحق لله على العبد العاصي ان شاء عفا ، وان
شاء عاقب إلا اذا سبق منه القول : انه لن يعفو كما في الآية التي نحن بصددنا
حيث نفى الخلف فيما وعد به من عذاب قريش لموقفها من رسول الرحمة .

(وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) . يقول سبحانه للمشركين :
علام تستعجلون عذاب الآخرة ، ويوم واحد منه أشد عليكم من عذاب ألف سنة
من سني الدنيا ، وبالاختصار فان ألف سنة كناية عن هول اليوم الآخر (وكأين
من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير) . تقدم مثله في الآية ٤٥
من هذه السورة ، وفي هذا المقطع بالذات ، وأعاد سبحانه لتأكيد الانذار والتخويف
(قل يا أيها الناس انما انا لكم نذير مبين) . هذه هي مهمة الأنبياء : التبليغ عن الله
وانذار من أعرض وتولى ، وتكرر هذا المعنى بأساليب شتى .

(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) المعنى واضح وتقدم
في العديد من الآيات ، منها الآية ٢٥ من سورة البقرة (والذين سعوا في آياتنا
معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) . سعوا أي اجتهدوا ، والمعاجز المغالب .
والمعنى ان المشركين دائمو الاقامة في النار ملازمون لها الى ما لا نهاية لأنهم
عاندوا الرسول ، وبسذلوا الجهود لإعجازه عن تبليغ رسالات ربه وصد الناس
عنها .

الجزء السابع عشر

تمني النبي والقاء الشيطان في أميته الآية ٥٢ - ٥٧ :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ *

اللغة :

ينسخ يبطل . والمراد بالشقاق هنا العصيان . وتخبث تخشع . والمريية الشك . ومهين مذل .

الإعراب :

من قبلك من رسول (من) الأولى والثانية زائدتان اعراباً ، وقال صاحب البحر المحيط : من الأولى لا ابتداء الغاية ، والثانية زائدة . فَيُؤْمِنُوا عطف على ليعلم ، ومثله فتخبث . وبغته حال من الساعة أي باغته .

سورة الحج

المعنى :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) . اختلف المفسرون : هل كلمة النبي وكلمة الرسول تعبران عن معنى واحد ، أو لكل منهما معنى ؟ والأقرب انه لا فرق بينهما من حيث ان كلا منهما ينبئه الله بما يريد ، فاذا أنبأه وأمره بالتبليغ أطلقت عليه كلمة النبي لأن الله أنبأه ، وكلمة الرسول لأنه تعالى أمره بالتبليغ ، واذا أنبأه ولم يأمره بالتبليغ فهو نبي ، وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا .

وقد روي في سبب نزول هذه الآية ان النبي (ص) تلا على قريش سورة النجم ، ولما بلغ الى قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ألقى الشيطان في تلاوة رسول الله ما نصه بالحرف « تلك الغرائيق العلى منها الشفاعة تترجى » . والغرائيق جمع غرنوق ، وهو الحسن الجميل أي ان هذه الأصنام حسنة وجميلة ، وترجى شفاعتها عند الله .

ونفى العلماء المحققون هذه الرواية ، وجزموا بأنها من وضع الزنادقة الطاعنين بكتاب الله ونبوته محمد (ص) واستندوا في ذلك الى أدلة قاطعة من العقل والنقل . النبي الذي أرسله الله لمحاربة الشرك والأوثان يمدحها وينعتها بأكمل النعوت والأوصاف ؟ كيف ولسان النبي بيان الله وترجمانه ؟ وهل للشيطان من سبيل على هذا البيان القدسي وهذه الترجمة الإلهية ؟ .

والصحيح في معنى الآية ان أغلى أمنية للنبي ، أي نبي ، أن يعرف الناس حقيقة رسالته ، ويدركوا أهدافها ، ويهتدوا بها ، ولكن أرباب الأهداف والأطماع يحاولون بين النبي وتحقيق أمنيته بالتنويه وبث الأكاذيب بكل وسيلة من وسائل الدعاية والنشر ، وقد شاهدنا ذلك ولمسناه ، بل وقاسينا منه الكثير . وهذا هو معنى القاء الشيطان في أمنية النبي ، فالنبي يتمنى الخير للناس ، والشيطان - أي المخرب - يصددهم عنه (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) . يخلق المخربون ويذيعون ، ولكن الله يزهق أباطيلهم ، وينفض أكاذيبهم بألسنة الصادقين ، وأيدي المجاهدين ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى :

الجزء السابع عشر

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون - ٣٢ التوبة » .

(ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) .
الذين في قلوبهم مرض هم اللصوص الذين يعيشون بالسلب والنهب ، والغش والخداع ، أما القاسية قلوبهم فهم الهمج الرعاع الذين ينعتمون مع كل ناعق ، والمراد بالفتنة الاختبار ، والمعنى انه لا سوق للتمويه والدعايات الكاذبة إلا عند اللصوص والهمج الرعاع .. وائى اتجهت فإنك واجد لهذه الحقيقة صوراً جلية واضحة . واجدها في الصحف والاذاعة ، وفي الكتاب والمسرح ، وفي حديث المأجورين والمخدوعين الذين يصدقون كل ما يقال لهم من غير وعي وتمحيص ، وما أكثر هؤلاء .

ثم ان الدعايات الكاذبة ، وان أضرت من جهة فإنها نافعة من جهة أخرى ، لأنها تميز بين الخائن والمخلص ، وبين العالم والجاهل ، وهذا هو القصد من (فتنة) في قوله تعالى : (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة) .. (وان الظالمين لفي شقاق بعيد) . وكل من موّه وافترى فهو ظالم ، وكل من صدق الكذب والافتراء من غير تمحيص فهو ظالم أيضاً ، والمراد بالشقاق العصيان والتمرد على أحكام الله .

(وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) .
ضمير به وله يعودان الى النبي أو القرآن ، والمعنى اذا صدق من صدق الكذب على الله ورسوله فان أهل المعرفة والاخلاص يعلمون حقيقة هذا الكذب والافتراء ، ولا يزيدهم إلا إيماناً وتمسكاً بالله ورسوله وكتبه ، وإلا خشوعاً وخضوعاً لله وهيبته (وان الله لهساد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) . يرشدهم الله الى طريقه ، فيسلكونه تقرباً اليه ، ولا ينحرفون عنه مهما تكن الضغوط والدعايات .

(ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) . المراد بالساعة الوقت الذي يخرج فيه الناس الى ربهم من الاجداث واليوم العقيم هو يوم الحساب ، وعقمه كناية عن بأس الكافرين فيه من النجاة .. وبعد ان قال سبحانه في الآية السابقة: ان أهل العلم يؤمنون بالقرآن وبنبوة محمد (ص)

سورة الحج

قال في هذه الآية : أما الكافرون فانهم في شك من أمر رسول الله ، وسيظلون كذلك الى يوم يبعثون من قبورهم أو يوم وقوفهم بين يدي الله للحساب، وعندئذ تنكشف لهم الحقيقة ، ويعلمون انهم كانوا على ضلال .
 (الملك يومئذ لله) وحده ، فلا قاضٍ أو أمير ، ولا سلطان محاسبي أو وزير يداري كما هو الشأن في هذه الحياة (بحكم بينهم) أي بين الكافرين والمؤمنين) فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) . هؤلاء نخزي ونيران ، ولأولئك روح وريحان .
 وتقدم مثله أكثر من مرة .

والذين هاجروا الآية ٥٨ - ٦٤ :

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا
 حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ
 اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ
 عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي
 النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ *
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ
 لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
 الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *

الجزء السابع عشر

اللفظة :

المدخل بضم الميم من ادخل ، وهو اسم مكان ، والمراد به هنا الجنة .

الإعراب :

ليرزقنهم الله اللام جراب لتقسم محذوف ، والقسم وجوابه خبر الذين هاجروا .
ومدخلاً مفعول فيه . وذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك . فتصبح بالرفع
لأن ألم تر لفظه الاستفهام ومعناه الخبر .

المعنى :

(والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن
الله هو خير الرازقين) للهجرة في سبيل الله مظاهر ، منها ان يخرج الانسان من
وطنه مجاهداً أهل البغي والضلال ، ومنها أن يفر بدينه ممن يصدده عن القيام
بواجبه . وفي حكمه من هاجر لطلب العلم بالدين من أجل الدين ، أو لطلب
الرزق الحلال ، أو لأداء فريضة الحج ، فأبي واحد من هؤلاء ومن اليه اذا قتل
أو مات في هجرته فان له عند الله ما للشهداء من الأجر العظيم والرزق الكريم .
وتكلمنا عن الهجرة مفصلاً عند تفسير الآية ١٩٥ من سورة آل عمران ج ٢
ص ٢٣٣ ، والاية ٩٧ من سورة النساء في المجلد المذكور ص ٤١٧ وما بعدها .

(ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حكيم) . المراد بالمدخل الجنة ،
وبداهة ان من دخلها سعد بها ، ولا يرضى عنها حولاً (ذلك) اشارة الى ما
ذكره سبحانه من ان من هاجر في سبيله وقتل أو مات فان له ما يرضيه عند
خالقه (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) أي قاتل دفاعاً عن نفسه (ثم بغي
عليه) لا لشيء إلا لأنه لم يستسلم للظلم والعدوان (لينصرنه الله) أي انه تعالى
ينصر المبغي عليه ، وينتقم له من الباغي (وإن الله لعفو غفور) فيه ايماء الى

سورة الحج

ان العفو عن المسيء عند الظفر به محبوب عند الله ، هذا اذا كان الاعتداء على حق خاص ، اما الحق العام فلا عفو عنه .

(ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير) . تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ . وذكر المفسرون أكثر من وجه لربط هذه الآية بما قبلها ، ولكنهم لم يأتوا بما تركن اليه النفس .. وفي المقدمة ج ١ ص ١٥ أشرنا الى ان القرآن ليس كتاباً فنياً ، فيكون لكل مقصد من مقاصده باب خاص ، وانما هو كتاب هداية ووعظ ينتقل من شأن الى شأن ، قال الإمام علي (ع) : ان الآية يكون أولها في شأن وآخرها في شأن آخر .

(ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير) . الله هو الحق لدوام ذاته وعظيم صفاته، وهو العلي حيث لا سلطان فوق سلطانه ، وهو الكبير الذي وسع كل شيء قدرة وعلماً ورحمة ، والقصد من ذكر هذه الصفات هو الايماء الى ان الله تعالى ينصر الذين آمنوا واتقوا ، ويخذل الذين كفروا وأفسدوا في الأرض .

(ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير) . تقدم مثله في الآية ٥ من هذه السورة ، والآية ١٦٤ من سورة البقرة وغيرها (له ما في السموات وما في الأرض وان الله هو الغني الحميد) . غني عن العالمين وحمد الحامدين ، وفي نهج البلاغة : هو الغني بلا استفادة أي ان غناه تعالى ذاتي لا نسبي ، وانه لو احتاج الى شيء لم يكن إلهاً ، وقال ابن عربي في الفتوحات المكية : لا محمود إلا من حمده الحمد . يريد ان الله هو الحمد ، وانه لا أحد يستحق الحمد والثناء إلا من حمده الله أو رضي بأن يُحمد ويُثنى عليه.

بمسك السماء ان تقع الآية ٦٥ - ٧٠ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

الجزء السابع عشر

بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَكَفُورٌ * لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي
الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ
اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي
كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ *

اللغة :

المنسك موضع العبادة ، وناسكوه على حذف حرف الجر أي ناسكون فيه .
والمراد بالمنسك هنا الشريعة والمنهاج ، وناسكوه أي عاملون أو ملتزمون به .

الإعراب :

الفلك بالنصب معطوفة على ما في الأرض أي وسخر الفلك ، وجملة تجري
حال من الفلك. والمصدر من ان تقع مفعول من أجله ليمسك أي كراهة الوقوع
على الأرض . وهم ناسكوه مبتدأ وخبر والجملة صفة لمنسكاً .

المعنى :

(ألم تر ان الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره) .
تقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٤٨ . والآية ١٣ و ١٤ من
سورة النحل ج ٤ ص ٥٠٢ .

سورة الحج

(ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه ان الله بالناس لرؤوف رحيم) .
أمسك سبحانه الكواكب بنظام الجاذبية ، كما أمسك الطير في الجو بجناحيه ، وأسند
الامسك اليه تعالى لأنه خالق الكون ، ومسبب الأسباب ، وفي بعض الآيات عبر
عن هذه الأسباب بأيدي الله ، قال تعالى : « انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا
أنعاماً - ٧١ يس » . وقال : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي - ٧٥ ص » .
وعلى أية حال فإن الغاية من قوله تعالى : (ويمسك السماء الخ) هي الإشارة الى
ان على الانسان أن يطيل الفكر في خلق الكون ، وكيف أتقنه تعالى بقدرته ،
ودبره بلطفه وحكمته ، ولولا هذا اللطف والتدبير لاختل نظام الكون ، وأصبح
بجميع كواكبه هباء منبثاً .

(وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور) . تقدم في
الآية ٢٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٦ فقرة « موتان وحياتان » أما وصف
الانسان بالكفور والظلم والفخور ونحوه فليس تحديداً لحقيقته وهويته، بل هو تفسير
لسلوكة في بعض مواقفه . أنظر تفسير الآية ٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٢
وما بعدها .

(لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه) . المراد بكسل أمة أهل الأديان ،
والمسك يطلق على ما يُذبح لوجه الله من الانعام كما في الآية ٣٤ من هذه السورة
وأيضاً يطلق على مكان العبادة ، وعلى الشريعة والمنهج ، وهذا المعنى هو المراد
هنا لقوله تعالى بلا فاصل : (فلا ينازعك في الأمر) أي ما دام لكل أهل ملة
شريعة ومنهاج فعلى أهل الأديان والملل ان لا ينازعوك يا محمد في الاسلام وشريعته ،
فتمت كانت شريعة التوراة والانجيل للماضين ، أما شريعة القرآن فهي لأهل العصر
الذي نزل فيه، ولكل عصر الى يوم يبعثون (وادع الى ربك) ولا تهتم باعراض
من أعرض ، ونزاع من نازع (انك لعلى هدى مستقيم) ومن اتبع هداك فلا
يضل ولا يشقى .

(وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فبما كنتم
فيه تختلفون) . أمر الله نبيه الكريم أن يمضي في دعوته ، واذا نازعوه عتوا
وعناداً أن يعرض عنهم ويقول لهم : الله أعلم بعملنا وعملكم ، وبالمهتدين منا
ومنكم ، وهو الحكم في يوم الفصل ، وفيه تعرفون المحق من المبطل .

الجزء السابع عشر

(ألم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والأرض ان ذلك في كتاب) . الخطاب لرسول الله (ص) والمراد تهديد الكافرين بأن ما قالوه وفعلوه وأضمره من الكفر والكيد لنبي الله فهو مسجل ومحفوظ عنده تعالى ، وسيحاسبهم عليه ، ويجازيهم بما يستحقون (ان ذلك على الله يسير) .

ويعبدون من دون الله الآية ٧١ - ٧٦ :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَنَا لَهُمْ بِهٖ عِلْمٌ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا تَسْمَعُونَ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا
وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ *

اللغة :

السلطان الحجة والبرهان . والمنكر هنا الكراهة التي هي أثر الانكار . ويسطون
بيطشون . ويصطفي يختار .

سورة الحج

الإعراب :

سلطاناً تمييز لأنه بمعنى من سلطان ، وفي الآية ٧١ من سورة الأعراف « ما نزل الله بها من سلطان » . ومن نصير (من) زائدة اعراباً ونصير مبتدأ ، وللظالمين خبر مقدم . وبينات حال من آياتنا . والنار مبتدأ وجملة وعدها خبر . وحق قدره مفعول مطلق لتقدروا لأنه مضاف الى مصدر الفعل ، وهو قدره .

المعنى :

(ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم) . ان العلم بالشيء ، أي شيء ، لا يخلو اما أن يكون علماً بديهياً ، وهو الذي يحصل للانسان بمجرد أن يتصور الشيء مثل ان المثلث غير المربع ، والمربع غير المستدير ، واما أن يكون نظرياً مثل ان الارض تدور حول الشمس ، والمراد بالسلطان في الآية الادلة النظرية ، وبالعلم الفطرة والبداهة ، والمعنى ان المشركين عبدوا الاصنام وما اليها دون أن يستندوا الى النظر والاستنباط ، أو الى الفطرة والبداهة ، وقد ظلموا الله بعبادة الأصنام حيث جعلوا له شريكاً ، وظلموا أنفسهم لأنهم عرضوها لغضب الله وعذابه (وما للظالمين من نصير) في يوم الحساب والجزاء .
(واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) . ضمير عليهم يعود الى الذين يعبدون من دون الله .. وكانوا اذا سمعوا من النبي أو المؤمنين آيات القرآن وغيرها من الحجج على التوحيد ونبوة محمد (ص) - انعكست على وجوههم علامات الغيظ والحقد ، وهما ان يبطشوا بمن سمعوا منه الدلائل والبيئات (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) . أمر سبحانه نبيه الكريم أن يقول لهؤلاء الخائفين : اذا صعب عليكم الاستماع الى الحق فان نار جهنم عليكم أشد وأعظم .

صفحات الوجه ونظرات العينين :

لا شيء أثقل على المبطل من كلمة الحق، وانتصار أهله على الباطل، وبالخصوص

الجزء السابع عشر

إذا عجز المبطل عن المتأومة والدفاع.. انه يسكت مرغماً، وهو يذوب كمدأ، ويحاول ان يتأسك ويتألك ويظهر بمظهر اللامبالاة ، ولكن نفضحه الدلائل التي تنعكس على صفحات وجهه ، ونظرات عينيه .. والانسان قد يكذب ويخادع الناس في أقواله وأفعاله ، لأنه يتحكم بلسانه ويحركه كيف يشاء ، وأيضاً يتحكم بيديه ورجليه ويحركها كما يريد ، وان كانت حركة اللسان أخف عليه وأيسر .. شيء واحد لا يمكن التحكم فيه والاملاء عليه ، وهو القلب ساجماً كان أو سقيماً ، فإن أحب أو كره ظهرت الآثار على الوجه والعين جلية واضحة لا يخفيها الابتسام المصطنع ولا الكلام المعسول ، ومن أجل هذا كانت المقياس الصحيح لما في داخل الانسان دون الأقوال وكثير من الأفعال .

(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) . بعد ان ذكر سبحانه ان المشركين أثبتوا لأصنامهم صفة الألوهية من غير دليل - ذكر في هذه الآية دليلاً حسيماً على نفي هذه الصفة ، يدركه الجهال والأطفال ، وهو ان الذباب أحقر وأضعف مخلوق ، ومع هذا لو اخذت ذبابة واحدة شيئاً مسن الأصنام ، ثم اجتمعت الأصنام بكاملها وأعلنت الحرب على الذبابة لتسترد ما أخذته منها ، لو حصل ذلك لكانت الذبابة هي الغالبة ، والأصنام كلها مغلوبة، وبالاولى ان لا تخلق ذبابة أو جناحها (ضعف الطالب) وهو الأصنام (والمطلوب) وهو الذبابة .. اذن ، فكيف تكون الأصنام آلهة ؟

وتسأل : ان الأصنام تحمل معها الدليل على انها ليست بألهة، فلماذا اهتم القرآن بإيراد الأدلة على ذلك ؟

الجواب : ان نفي الألوهية عن الأصنام من البديهيات في منطق العقل، والذين عبدوها واتخذوها آلهة لم يعبدوها بدافع من العقل، بل بدوافع أخرى كالتقليد والتربية والمصلحة ، وما إلى ذلك من الدوافع التي لا تبالي بالنقد منها يكن صائباً .

حول عقيدة التوحيد :

شعرت ، وأنا أفسر آي الذكر الحكيم اني كلما تقدمت في التفسير فتح الله

سورة الحج

عليّ أبواباً من المعرفة بأسرار القرآن وعجائبه التي لا تقف عند حد ، فكثير من الآيات تكررت في كتاب الله بلفظها أو بمعناها ، فأشرح في المرة الأولى المعنى بما أفهمه من اللفظ والسياق وغيره من القرائن . وفي المرة الثانية أعطف الآية المكرورة على ما تقدم مع الإشارة الى اسم السورة ورقم الآية السابقة ، أو أفسرها بأسلوب ثانٍ ، وقد اتبته في المرة الثانية أو الثالثة الى جهة في الآية كانت قد خفيت عليّ من قبل وعلى جميع المفسرين ، وبالأصح على أصحاب التفاسير التي لدي .

وأكثر الآيات تكراراً في كتاب الله هي الآيات الدالة على وحدانية الخالق ، والتنديد بالشرك وأهله ، فقد ذكرها سبحانه بكل أسلوب وبشئ الصور، وتكلمت عن التوحيد ونهي الشرك في المجلد الثاني ص ٣٤٤ بعنوان « دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة » ، ثم عدت الى الموضوع بأسلوب آخر في المجلد الرابع ص ٣٩١ بعنوان « عقول الناس لا تغنيهم عن دين الله » ، وأيضاً أوردته بأسلوب ثالث في تفسير الآية ٣١ من هذه السورة ، وبأسلوب رابع وخامس حسب المناسبات، وأعود اليه الآن بالبيان التالي :

ان الهدف الرئيسي للاسلام هو أن يربط الانسان بخالقه يستلهم منه الهداية فيما يعتقد ويفكر ، وفيما يقول ويفعل ، ويتجه اليه في ذلك كله ، ومن أجل هذا حارب الاسلام الشرك ، واعتبره كبيرة الكبائر ، وجريمة لا تغتفر ، كما اعتبر الرياء والعمل لغير وجه الله في حكم الشرك ، وأخذ المشركين بأقسى العقوبات وأشدّها ، وليس من شك ان ايمان الناس ، كل الناس بإله واحد، وانهم يتحركون بارادة واحدة يقتضي بطبيعة الحال أن يكونوا جميعاً على دين واحد وشريعة واحدة لا اعتماد دينية ، ولا نعرات طائفية، ولا ائجار باسم الدين والمذهب .. أما الإيمان بتعدد الآلهة ، وان البشرية تتحرك بارادات كثيرة فان هذا يستدعي بطبيعته الشقاق والتناحر بين بني الانسان .. فالاسلام - اذن - بدعوته الى عقيدة التوحيد يهدي الانسانية الى الأساس الذي يبني عليه الحب والاخاء ، والأمن والهناء .. هذا، الى ان الإله الواحد الذي يدعو الاسلام الى عبادته والعمل بشريعته هو الإله العالم الحكيم والعاقل الرحيم يحب الخير لجميع الناس على السواء ، ويكره الشر بشئ صورته ومظاهره ، ويمجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين أساءوا بما كانوا يعملون .

الجزء السابع عشر

(ما قدروا الله حق قدره) لأنهم عبدوا غيره ، وعصوا أمره (ان الله لقوي عزيز) ينتقم منهم ولا يجادون من دونه ولياً ولا نصيراً (الله يصطفي من الملائكة رسلاً) كجبريل ينزل بالوحي على النبيين (ومن الناس) وأيضاً اصطفى الله رسلاً من الناس يدعون الى مرضاته (ان الله سميع بصير) يسمع أقوالهم ، ويعلم ما يضمرون وما يفعلون (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) . هذا كناية عن انه تعالى لا تخفى عليه خافية ، وهو شرح وتفسير لقوله : ان الله سميع بصير (والى الله ترجع الأمور) . منه البداية ، واليه النهاية . وتعبير ثانٍ انا لله وانا اليه راجعون .

وافعلوا الخير لعلكم تفلحون الآية ٧٧ - ٧٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ *

اللغة :

اجتباكم اختاركم . والخرج الضيق . والملة الدين . واعتصموا بالله تمسكوا بدينه .

الإعراب :

حق جهاده مفعول مطلق لجاهدوا لأنه مضاف الى الجهاد . ومن حرج (من) زائدة اعراباً وحرج مفعول لجعل . وملة مفعول لفعل محذوف أي اتبعوا ملة ابراهيم .

سورة الحج

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده) . خاطب سبحانه في هذه الآية الذين صدقوا به وبنبيه ، خاطبهم بأن مجرد التصديق لا يجديكم نفعاً إلا اذا جمعتم بين أوصاف أربعة : الأول أن تحافظوا على إقامة الصلاة لله وحده ، وهذا هو المراد بقوله : اركعوا واسجدوا . الثاني أن تجنبوا محارم الله ، كالنفاق والحيانة واثارة الفتن والافتراء على الأبرياء وتدبير المؤامرات للتخريب والفساد ، وهذا المعنى هو المقصود بقوله : واعبدوا ربكم . الثالث أن تفعلوا الخير ، كإغاثة الملهوف وإصلاح ذات البين والتعاون على الصالح العام ، وهو المعنى بقوله : وافعلوا الخير . الرابع أن تجاهدوا بأنفسكم وأموالكم أعداء الله والانسانية . ومتى اجتمع في الانسان هذه الخصال فهو من أهل الفلاح والصلاح ، وتقدم أكثر من مرة ان كلمة لعل من الله تفيد الحتم والوجوب ، ومن غيره تفيد الاحتمال والرجاء .

(هو اجتباكم) ضمير هو لله ، والخطاب في اجتباكم للمسلمين ، ووجه الاجتباء والاختيار انه تعالى خصهم بسيد الرسل وخاتم النبيين وشريعته الخالدة بشمولها ويسرها (وما جعل عليكم في الدين من حرج) . هذا أصل من أصول الشريعة الاسلامية تتجلى فيه سعتها ولينها ومرونتها . وفي الحديث : « ان دين الله يسر » لا عسر فيه ولا مشقة ، وهذا هو دين الفطرة ، وقد فرع الفقهاء على هذا الأصل العديد من الفتاوى والاحكام في جميع أبواب الفقه ، واشتهر على ألسنتهم وفي كتبهم : الضرورات تبيح المحظورات .. الضرورة تقدر بقدرها .. الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف .. يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام .. ومن أجل ذلك مظاهر اليسر في الاسلام انه لم يقم بين الانسان وخالقه أية واسطة ، كما هو شأن الأديان الأخرى .

(ملة أبيكم ابراهيم) . المراد بالملة الدين . ودين ابراهيم يدخل في الاسلام بجميع أصوله ، وكثير من شريعته وفروعه ، و ابراهيم (ع) هو الأب الحقيقي للأنبياء ، والروحي لأهل الأديان السماوية بالنظر الى سبقه وتقدمه ، واتفاق الجميع على نبوته وتعظيمه .

الجزء السابع عشر

(هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) قيل : ضمير « هو » سماكم يعود الى ابراهيم ، وان « في هذا » متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي وفي هذا شرف لكم ، والجملة مستأنفة . وقيل : « هو » يعود الى الله تعالى وان الإشارة في قوله : « وفي هذا » الى القرآن ، والمجرور متعلق بفعل محذوف معطوف على سماكم ، والتقدير ان الله سماكم يا أمة محمد المسلمين في الكتب المتقدمة على القرآن : وأيضاً سماكم المسلمين في القرآن .. وكلا التفسيرين جائز لأن ابراهيم (ع) يتكلم بلسان الله . انظر تفسير قوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام - ١٩ آل عمران » ج ٢ ص ٢٦ .

(ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) . الحاكم غداً هو الله ، والشاهد الأول رسول الله ، والشاهد الثاني أهل العلم بالله ، والرسول يشهد على أهل العلم بالله انه بلغهم عن الله ليعملوا ويبلغوا أمة محمد (ص) وغيرها من الأمم ، وأهل العلم يشهدون على أمة محمد وغيرها انهم بلغوا ما بلغهم الرسول ، فان قصر أحد من العلماء عن العمل أو التبليغ ، أو من الذين بلغهم العلماء فقد باء بغضب من ربه ومأواه جهنم وبئس المصير . وتقدم مثله في الآية ١٤٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٢٤ (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) هذا تأكيد لما تقدم في الآية السابقة (واعتصموا بالله) تمسكوا بطاعته ، وابتعدوا عن معصيته ، وفي نهج البلاغة : من العصية تعذر المعاصي (هو مولاكم) ان اطعمم واستقمتم (فنعم المولى ونعم النصير) لمن تولاه واتكل عليه لا على سواه .

الجزء الثامن عشر

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

١١٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صفات المؤمنين الآية ١ - ١١ :

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
اللُّغُوِّ مَعْرُضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *
فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ
الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

اللغة :

اللغو ما لا فائدة فيه من الكلام . والمراد بملك اليمين الإمام . والعادون الذين يتجاوزون الحدود . الراعون الحافظون . والوارثون الذين يستحقون الجنة تماماً كما يستحق الوارث ميراث قريبه . والفردوس الجنة .

سورة المؤمنون

الإعراب :

الذين هم في صلاتهم عطف بيان من « المؤمنون » . وعلى أزواجهم متعلق « يحافظون » . وما ملكت استعملت « ما » فيمن يعقل . والذين يرثون بدل من « الوارثون » . وسجدة هم فيها خالدون حال .

المعنى :

كل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله كان له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم في هذه الحياة ، أما في الآخرة فلن يفوز بثواب الله ورضوانه إلا إذا جمع بين الحلال التالية :

١ - (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) . الخشوع والخضوع ضد الاستعلاء والكبرياء ، قال تعالى : « خاشعين من الذل - ٤٥ الشورى » . والخشوع في الصلاة نتيجة اليقين بالله والخوف من عذابه ، والصلاة بلا يقين ليست بشيء ، قال الإمام علي (ع) : نوم على يقين خير من صلاة في شك .

٢ - (والذين هم عن اللغو معرضون) . ان المؤمن الحق في شغل بطاعة الله عن اللغو والباطل . قال الامام علي (ع) : ان اولياء الله هم الذين نظروا الى باطن الدنيا اذا نظر الناس الى ظاهرها ، واشتغلوا بآجلها اذا اشتغل الناس بعاجلها . وقال : من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره .

٣ - (والذين هم للزكاة فاعلون) . انظر ما كتبناه في الزكاة ج ١ ص ٤٢٨ .

٤ - (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم او ما ملكت أيماهم فانهم غير ملومين) . المراد بملك اليمين الإمام ، ولا اثر لهن اليوم ، والزنا من الكبائر والفواحش في شريعة الاسلام ، ومسا فشا في مجتمع إلا كان مصيره الى الانحلال (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أي من طلب نكاح غير زوجته وأمه فقد تجاوز حدود الله ، واستحق غضبه وعذابه .

وتسأل : هل قوله تعالى : « فمن ابتغى وراء ذلك » يشمل الاستمناء باليد

المكثي عنه بجلد عميرة ؟

الجزء الثامن عشر

الجواب : أجل ، يشمله لأن الله سبحانه أباح الزوجة والأمة ، وحرم ما عداهما أياً كان ، ولذا أفتى الفقهاء بتحريمه إلا الحنفية والحنابلة فقد أجازوه لمن يخاف الوقوع في الحرام - روح البيان لاسماعيل حقي - وسئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن الاستمناة ؟ قال : هو أثم عظيم ، قد نهى الله عنه في كتابه ، ولو علمت بمن يفعله ما أكلت معه . قال السائل : أين هو في كتاب الله يا ابن رسول الله ؟ فقرأ الإمام : فمن ابتغى وراء ذلك الخ ثم قال : والاستمناة وراء ذلك .

٥ - (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) . تكلمنا مفصلاً عن الأمانة ووجوب تأديتها بشئ أنواعها عند تفسير الآية ٥٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٥٥ ، أما العهد فهو كل ما أمر الله به ونهى عنه ، قال تعالى : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم - ٤٠ البقرة » .

٦ - (والذين هم على صلواتهم يحافظون) . يواظبون عليها في أوقاتها ، وتكلمنا عن الصلاة مفصلاً عند تفسير الآية ٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٧ ، وأيضاً عند تفسير الآية ١١٠ من نفس السورة والمجلد ص ١٧٥ .

(اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) . فأى مؤمن جمع بين الحصول المذكورة فقد استحق الجنة بعمله كما يستحق الوارث الميراث من قريبه ، وأين تراث الدنيا وحطامها الزائل من تراث الآخرة ونعيمها الدائم ؟

خلق الانسان والسماوات الآية ١٢ - ١٧ :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

سورة المؤمنون

الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ *
وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ *

اللغة :

السلالة ما يستخرج من الشيء . والمراد بالطرائق السموات لأن بعضها فوق بعض ، يقال : طارق بين الثوبين اذا لبس أحدهما على الآخر .

الإعراب :

من سلالة متعلق بخلقنا ، ومن طين بمحذوف صفة للسلالة . وجعلناه تتعدى الى مفعولين لأنها بمعنى صيرناه ، وكذلك خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا المضغفة عظاماً . وكسونا أيضاً تتعدى الى مفعولين . وخلقاً مفعول مطلق لأنشأناه لأنها مثل قت وقوفاً . وأحسن الخالقين صفة لله ، وان كانت الاضافة هنا لا تفيد تعريفاً لأن كلمة أحسن الخالقين لا تطلق إلا عليه تعالى ، بل لا خالق سواه . وبعد ظرف متعلق « بميتون » .

الله والانسان :

أشار سبحانه الى خلق الانسان في العديد من آي الذكر الحكيم ، لا نعرف من أين وكيف وجدنا ، وما هي حقيقتنا والأدوار التي نمر بها وكفى ، بل نندرك عظمة الخالق في خلقنا نحن ، كما نندركها في خلق السموات والأرض ، فتؤمن به ، ونسير على هداه طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، ومن هذه الآيات :
« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً - (الانسان) .. أجل ، لم يكن الانسان ثم كان ، أما الذي كونه ، ونقله من العدم الى الوجود فنبشنا عنه خالق الكون

الجزء الثامن عشر

حيث قال : (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين) .

عرض ، جلت عظمته ، في هذه الآية النشأة الأولى للانسان ، وكيف انتقل به سبحانه من طور الى طور ، والهدف الأول من ذلك أن ندرك الدلائل على وجود الخالق وعظمته ، أن نفكر وننظر الى هذا المخلوق العجيب في صورته وهيئته ، وفي عقله وادراكه ، هذا الانسان صاحب التاريخ والحضارات ، هذا الكائن الذي يملك من القوى والطاقات ما لا يملكه مخلوق ، والذي خاطبه العارفون بهذا التعظيم : « وفيك انطوى العالم الأكبر » هذا العجيب من أين أتى ؟ ومن أي شيء خلق ؟ وتجيئنا الآية بأنه خلق من طين ، من تراب وماء ، من الأصل الذي خلقت منه الحشرات والنباتات .. وهنا يكمن الدليل والبرهان ، فان الشيء الواحد لا ينشئ شيئين متناقضين : الادراك واللاادراك ، والعمى والبصر .. اذن هناك سر ، ولا تفسير لهذا السر الا بقوة قادرة عالمة وراء هذا الشيء الواحد ، وهذه القوة هي التي فرقت وميّزت بين الشئين المتناقضين اللذين خلقا من أصل واحد ، وبعد هذه الاشارة الى الهدف من الآيات الواردة في خلق الانسان نبين المعنى المراد من الآيات التي نحن بصدددها .

(ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين) . المراد بالانسان هنا ابن آدم ، لا آدم بالذات لأن سياق الكلام ، وهو قوله تعالى : « ثم جعلناه نطفة » يحتم ذلك .. وآدم وأبناؤه كلهم من طين ، من تراب وماء ، والفرق ان آدم خلق منها مباشرة ، وأبناؤه بواسطة الأغذية التي تتوالد من الأرض والماء .

(ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) في أصلاب الآباء ، ومنها الى أرحام الأمهات (ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغفة) تقدم في الآية هـ من سورة الحج . (فخلقنا المضغفة عظاماً) . قسم المضغفة الى عظام وعروق ولحم ، ثم خلق من المجموع أعضاء عديدة ومتنوعة ، والتفصيل في علم التشريح (ثم أنشأناه خلقاً آخر) انساناً سوياً مابيناً في شكله وحقيقته لخلق الأول (فبَارِكْ اللهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) . ولا شيء أدل على هذه الحقيقة من خلق الكون بنظامه الثابت ، ومن

١ انظر ما قلناه بعنوان « الانسان بذاته برهان » في ج ١ ص ٧٤ .

سورة المؤمنون

خلق الانسان ببيانه وقلبه وعقله .. ونكرر ما قلناه مراراً : انه قد جرت عادة القرآن الكريم أن يسند التغييرات الكونية الى الله لأنه ، جلّت عظمته ، السبب لخلق الكون (ثم انكم بعد ذلك لميتون) ومن مات فمرجهه الى خالقه (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) وتسالون عما كنتم تعملون .

معنى السموات السبع :

(ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) . المراد بالطرائق السموات لأن بعضها فوق بعض .. عند تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة قلت : ان ذكر السبع لا يدل على حصر السموات بها ، وان السبب لذكرها بالخصوص قد يكون لخصائص فيها .. اكتفيت بهذا القول آنذاك لأنني لا أعلم أكثر منه ، فما انا من أهل الاختصاص بعلم الفلك ، ولما وصلت الى تفسير هذه الآية قرأت مقالا علمياً في جريدة الأخبار المصرية تاريخ ١٧ تموز سنة ١٩٦٩ بعنوان : « الله والانسان والقمر » جاء فيه ما يلي :

« ثبت علمياً ان في الفضاء أكواناً غير الكون الذي نعيش فيه - أي المجموعة التي نراها من الكواكب بالعين المجردة أو بواسطة المكبر - وان في كل كون من تلك الأكوان الأخرى شمساً أقوى من الشمس التي تشرق كل يوم لتضيء هذه الكرة الأرضية ، ويدور حول تلك الشمس عدد من النجوم في جاذبيتها .. ولا يمكن الوصول الى كوكب من كواكب تلك الاكوان الأخرى على الاطلاق مع العلم بأننا استطعنا بالأجهزة العلمية ان نثبت وجودها، والسر في عجزنا هذا ان شمس تلك الاكوان ونجومها تبعد عنا ملايين السنين الضوئية .. فلو افترضنا ان الانسان يمكن أن يسافر بسرعة الضوء فإنه يحتاج الى ملايين السنين ليستطيع الوصول الى أقرب كوكب من كواكب تلك الأكوان .. هذه حقيقة أثبتها العلم ، وأجمع عليها العلماء المتخصصون حديثاً » .

وعلى هذا يكون المراد بالسموات السبع الاكوان الفضائية العلوية السبعة، وليس الكواكب السبعة ، وان لكل كون فضائي علوي مجموعة من الكواكب التي لا يحصى عددها، وان الانسان لا يستطيع الوصول اليها لأنه لا يعيش ملايين السنين .

الجزء الثامن عشر

أما الارضون السبع التي اشارت اليها الآية ١٢ من سورة الطلاق فهي في الاكوان السبعة أي في كل مجموعة من الكواكب لكل كون كوكب أرضي .

وأنزلنا من السماء ماء الآية ١٨ - ٢٢ :

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ
لِقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ
وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ *

اللفظة :

بقدر أي بمقدار معلوم . والمراد بالشجرة هنا شجرة الزيتون . وطور سيناء
الجبل الذي ناجى فيه موسى ربه ، وعبر سبحانه عنه في الآية ٢ من سورة التين
بطور سينين . والصبغ الغمس ، والمراد به هنا الزيت يغمس فيه الحيز .

الإعراب :

شجرة عطف على جنات أي وأنشأنا شجرة . وسيناء ممنوعة من الصرف للعلمية
والتأنيث . وقيل : بالدهن متعلق محذوف حالاً أي وفيها الدهن ، مثل ركب
الأمير بجنده أي ومعه جنده ، والأولى أن تكون « تنبت » متضمنة معنى تخرج
لأنها تعدت الى الدهن بالباء ، وعليه يكون بالدهن متعلقاً بتنبت .

سورة المؤمنون

المعنى :

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر) . بعد أن قال سبحانه : وما كنا عن الخلق غافلين ضرب لذلك مثلاً بانزال الماء بمقدار ما ينتفع به الناس ، لا هو بالكثير فيفسد ، ولا بالقليل فيتضرر الزرع والضرع (فأسكنناه في الأرض) في العيون والآبار والجداول والأنهار لتنتفعوا به في غير فصل الشتاء (وإنا على ذهاب به لقادرون) . ان الذي أنزله عليكم قادر على أن يمنع عنكم ، أو يجعله غوراً فلا يجديكم نفعاً ، ولكنه لم يفعل رحمة بكم .

(فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) رطباً وتراً من النخيل ، وعناباً وزبيباً من الأعناب ، ونخص النخيل والأعناب بالذكر لأن العرب كانوا يعجبون بهما ولا يكادون يعرفون غيرهما (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين) . المراد بالشجرة هنا شجرة الزيتون ، وطور سيناء الجبل الذي ناجى فيه موسى ربه ، والمراد به البقعة التي هو فيها .. وفي الزيتون فوائد ، منها انه طعام بذاته ، وأيضاً يستخرج منه الزيت اداماً ، وقال كثير من المفسرين : ان الله سبحانه خص هذه الأنواع الثلاثة بالذكر لأنها أكرم الأشجار وأكثرها نفعاً ، والصحيح ما أشرنا اليه من انها كانت أكثر انتشاراً من غيرها عند العرب . وتقدم نظير هذه الآيات أكثر من مرة . أنظر الآية ١٠ وما بعدها من سورة النحل ج ٤ ص ٥٠١ .

(وان لكم في الأنعام) الإبل والبقر والغنم والمعز (لعلبة) آية تعتبرون بها (نسقيكم مما في بطونها) ألباناً (ولكم فيها منافع كثيرة) من ذلك أصوافها وأشعارها وأوبارها (ومنها تأكلون) أي من لحمها (وعليها وعلى الفلك تحملون) من مكان الى مكان . تقدم في عديد من الآيات . أنظر تفسير الآية ٥ وما بعدها من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٨ .

نوح الآية ٢٣ - ٣٠ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ

إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ* فَقَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى* إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا
 بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ* قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي* فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ
 اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ
 فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ
 وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ* فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ
 مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَقُلْ
 رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ*

اللغة :

الملا رؤوس القوم . أن يتفضل أن يكون له الفضل . جنة جنون . فترَبَّصُوا
 فانتظروا . بأعيننا برعايتنا . والمراد بالتنور هنا وجه الأرض . والاستواء الاستقرار .
 واسلك ادخل . ومبتلين مختبرين .

الإعراب :

ما لكم من إله (من) زائدة اعراباً وإله مبتدأ . والمصدر من أن يتفضل
 مفعول يريد أي يريد الفضل . ان هو (ان) نافية وهو مبتدأ وخبره رجل ،

سورة المؤمنون

وبه جنة مبتدأ وخبر والجملة صفة لرجل . ورب أصلها يا ربي . وان أصنع (ان) مفسرة لأوحينا . وبأعيننا متعلق بمحذوف حالاً من الفلك أي محفوظة بأعيننا . وكل بالتنوين أي من كل نوع . وزوجين مفعول اسلك . واثنين توكيد لزوجين . ومترلاً مفعول فيه لأنه اسم مكان ، وإذا كان بمعنى انزال فهو مفعول مطلق . وان كنا (ان) مخففة وأصلها إنا واسمها (نا) وجملة كنا خبر .

المعنى :

كل ما جاء في هذه الآيات قد سبق ذكره في سورة هود من الآية ٢٥ الى ٤٩ ج ٤ ، وقد استغرق تفسيرها من صفحة ٢٢٢ الى ٢٣٧ . ولذا نمر مرأ سريعاً بها .

(ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) . دعاهم الى عبادة الله وحده ، وحذرهم من الشرك ، فخاف المترفون على مناصبهم ومكاسبهم من دعوته ، فأطلقوا الاشاعات الكاذبة ، وأثاروا حوله الشبهات الباطلة .. وقد ذكر سبحانه منها ثلاثاً :

١ - (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم) . قالوا : كيف يكون نوح نبياً وهو بشر مثلكم ؟ انه لا يهدف من دعواه النبوة إلا ان يكون رئيساً عليكم وتكونوا مرؤوسين له .. هذه هي لغة التجار يفسرون كل شيء بالربح .

٢ - (ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى) . ما سمعوا ان الله أرسل بشراً رسولاً .. وأيضاً ما سمعوا ان إله الكون واحد .. اذن ، فنوح ليس برسول ، والآله كثيرة ، ومنها أصنامهم .. ولا فرق بين هذا المنطق، ومنطق من يقول : أنا لا أعترف بوجود المريخ لأنني لم أصعد اليه .

٣ - (ان هو إلا رجل به جنة) . أطلقوا هذه الاكذوبة ، وهم على يقين منها، تماماً كما كانت قريش على يقين من افتراءها حين قالت عن رسول الله (ص) : ساحر ومجنون . (فتربصوا به حتى حين) . انتظروا بنوح حتى يموت أو يرجع عن دعوته .

الجزء الثامن عشر

(قال رب انصرني بما كذبون) التجأ اليه تعالى وطلب منه النصر عليهم بعد بأسه من هدايتهم (فأوحينا اليه ان اصنع الفلك بأعيننا) كناية عن حفظه تعالى للسفينة ورعايته لها (ووحينا) أي أمرنا (فإذا جاء أمرنا وفار التنور) أي نبع الماء من الأرض (فاسلك فيها من كل زوجين اثنين) ذكراً وأنثى (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) أي إلا امرأة نوح وابنه منها ، وقيل : اسمه كنعان (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) لا تسألني نجاة أحد من الكفرة الفجرة لأن كلمة العذاب حقت عليهم جميعاً حتى امرأتك وولدك .

(فإذا استويت انت ومن معك على الفلك) استقر بكم الحال ، وانتم في السفينة (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) . في هذه الآية درس هام ، وهو ان الله سبحانه إذا أهلك الطاغية فلا ينبغي ان يشمت المظلوم بهلاك ظلمه ، بل يحمد الله سبحانه على خلاص الناس من بغيه وطغيانه ، وان ينظر الى هلاكه على انه وسيلة لا غاية (وقل رب أنزلي منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) . انزلي من السفينة وعند خروجي منها منزلاً تحفظني فيه من كل سوء أنا وأهلي ومن آمن بك ، وأنت خير من أنزل عباده بأحسن المنازل (ان في ذلك لآيات) . ذلك اشارة الى اهلاك قوم نوح ، ونجاته مع من آمن به ، والمراد بالآيات هنا العبر والعظات لمشركي قريش وغيرهم (وان كنا لمبتلين) أي انا قد اخترنا العباد بإرسال الرسل وانزال الكتب لتمييز الخبيث من الطيب ، وتنجلي للعيان نوايا وأفعال كل منها ، فيثاب أو يعاقب باستحقاق .

هود الآية ٣١ - ٤١ :

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ
 أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ * أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ
 وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ *
 إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا
 رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
 بِمَا كَذَّبْتَنِي * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَاخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ
 فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *

اللفظة

القرن أهل العصر الواحد ، والمراد بهم عباد قوم هود . وأترفناهم نعمناهم
 من الترف وهي النعمة . هيهات بعد . يصبحن يصرن . والصيحة العذاب .
 والغثاء ما يحمله السيل مما يمر به من الأشياء الحقيمة البالية . وبُعْدًا هلاكاً .

الإعراب :

ان اعبدوا (ان) مفسرة لأن الارسال يتضمن معنى القول . ومخرجون خبر
 انكم اذا متم ، وانكم الثانية تأكيد لأنكم الأولى ، وتكررت للفاصل الطويل ،
 والمصدر من انكم الأولى واسمها وخبرها مفعول ثانٍ ليعدكم أي يعدكم الاخراج .
 وهيهات اسم فعل بمعنى بعد ، ويحتاج الى فاعل ، وفاعله ضمير مستتر يعود الى
 الاخراج أي بعد اخراجكم . وعمَّا قليل (ما) زائدة اعراباً وقليل مجرور بعن ،
 والمجرور متعلق بيبصحن واللام لا تمنع من ذلك لأنها لمجرد التأكيد كما قال
 أبو البقاء في كتاب الاملاء . وبعداً مصدر في موضع الفعل أي بعدوا بعداً .

المعنى :

(ثم انشأنا من بعدهم قرناً آخرين) . ضمير بعدهم يعود الى قوم نوح ، والمراد بالقرن هنا الجماعة ، ولم يصرح سبحانه باسمهم ، وقال المفسرون : المراد بهم عاد قوم هود ، وهذا هو الحق بدليل ما ورد في سورة الاعراف : « والى عاد أخاهم هوداً - الى قوله - واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح - ٦٩ » . وتقدم الكلام عن هود وقومه في سورة هود من الآية ٥٠ الى ٦٥ ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤١ . ولذا نمر بالآيات التي نحن بصددنا مروراً خاطفاً كما مررنا بالآيات السابقة التي تحدثت عن نوح وقومه .

(فأرسلنا فيهم رسولا منهم) . أرسل الله هوداً الى عاد ، وهو منهم وفيهم (ان اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) . دعا قومه الى التوحيد ، وترك الشرك مبشراً بمرضاة الله وثوابه ، ومنذراً بغضبه وعذابه (وقال الملأ من من قومهم الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) وما دام كذلك فلا ميزة له ولا فضل ، فكيف تطيعونه ؟ (ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذا لخاسرون) هم الخاسرون ظاهراً وواقعاً بمعصيتهم نبي الله ، ولكنهم عكسوا الآية ، وشوهوا الحقيقة ، وهذا هو دأب المترفين الطغاة في كل زمان ومكان .

(أيعدكم انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون) من قبوركم أحياء تماماً كما أنتم الآن .. ان هذا لشيء عجاب .. (هيهات هيهات لما توعدون) من الإحياء بعد الفناء (ان هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) لأن من مات مات فات ، وهذا بيان وتأكيد لما قبله من استبعادهم البعث بعد الموت ذاهلين ان الذي أنشأهم أول مرة هو الذي يعيدهم ، وان ذلك أهون عليه من الانشاء ان صح التعبير (ان هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين) . لا يؤمنون لهود لأنه بزعمهم لا يتورع عن الكذب على الله ، أما عبادتهم الأصنام فهي عين الاخلاص لله ، والحرص على طاعته وتقواه !! وأخيب الناس سعياً من أساء ، وهو يحسب انه قد أحسن الصنع .

(قال رب انصرني بما كذبون) قال هذا بعد اليأس من هدايتهم (قال

سورة المؤمنون

— الله — عما قليل ليصبحن نادمين (على شركهم وتمردهم حيث يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر) فأخذتهم الصيحة بالحق (المراد بالصيحة العذاب ، وقوله بالحق اشارة الى انهم استحقوا العذاب بما كسبت أيديهم (فجعلناهم غثاء) تماماً كالاشياء الحقةرة البالية التي يحملها السيل (فبعداً للقوم الظالمين) . بعدوا عن الله وطاعته ، فأبعدهم عن فضله ورحمته .

كلما جاء امة رسولها كذبوه الآية ٤٢ - ٥٠ :

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَا كُفْرًا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ *

اللغة :

تترى من الوتر وهو الواحد أي واحداً بعد واحد . أحاديث جمع أحداث أي يتحدث الناس بما جرى عليهم . السلطان الحججة . وعالين متكبرين . والربوة

الجزء الثامن عشر

المرتفع من الأرض . وذات قرار أي مستوية يستقر الناس عليها . والمعين الماء الجاري .

الإعراب :

ترى مصدر وضع موضع الحال من الرسل أي متواترين متتابعين، والفعل تواتروا . وبعضهم مفعول أول وبعضاً مفعول ثان ، وتعدت تبع الى مفعولين بواسطة همزة التعدي . وبعداً مصدر في موضع الفعل . وهرون بدل من «أخاه» . ومثلنا صفة لبشرين ولم يثن مثل لأن المراد به جنسنا .

المعنى :

(ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين) . ضمير بعدهم يعود الى عاد، وقرون أي جماعات ، وأول هذه الجماعات التي جاءت بعد عاد هي ثمود بدليل ما جاء في سورة الاعراف : « والى ثمود أخاهم صالحاً - الى قوله - واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد - ٧٤ » (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) . كل شيء ، ما عدا الله سبحانه ، له أمد وأجل ، لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه ، ومنه اهلاك الأمم التي كذبت رسلها ، وقد كان العذاب يأتيها بغتة دون تنبيه واشعار (ثم أرسلنا رسلنا تورا) . كانت الأمم تأتي متتابعة الواحدة تلو الأخرى ، وكذلك الرسل كان الواحد منهم يأتي تلو الآخر، لأن الله سبحانه جعل لكل أمة رسولا .

(كلما جاء أمة رسولها كذبوه) أو قتلوه لا لشيء إلا لأنه جاءهم بما لا تهوى أنفسهم ، كما نصت الآية ٨٧ من سورة البقرة : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » . (فاتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث) . ضمير بعضهم وجعلناهم يعود الى الأمم التي كذبت رسلها، والمعنى ان الله أهلك الأمم التي كذبت رسلها الواحدة تلو الأخرى ، وجعلها عبرة

سورة المؤمنون

لمن اعتبر ، وخبراً يتناقله الناس جيلاً بعد جيل (فبعداً لقوم لا يؤمنون) بالحق ولا يعملون به .

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) ومنها انقلاب العصا ثعباناً ، ولعان اليد (وساطان مبین) الحجج الدامغة (الى فرعون وملكه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين) . وأي علو واستكبار أعظم من قول فرعون : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري .. وأكثر الناس أو الكثیر منهم يحملون هذه الروح الفرعونية ، ويدعون الربوبية لو تهبأ لهم ما تهبأ لفرعون ، ووجدوا من يستجيب لهم كما وجد (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومها لنا عابدون) . ادعى فرعون الربوبية وسام الاسرائيليين سوء العذاب .. يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، وموسى وهرون من بني اسرائيل ، فكيف يكون تبعاً لهما ؟ .

(فكذبوهما فكانوا من المهلكين) . وكل امرئ يجهل قدره ويتجاوز حده فصييره إلى الهلاك لا محالة (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) . المراد بالكتاب التوراة ، وضمير لعلهم لبني اسرائيل .. ولكنهم لم يهتدوا ولن يهتدوا بعد ان حرفوا التوراة واتبعوا الشهوات ، وملأوا الدنيا فساداً وضلالاً .. وقد تكررت قصة موسى وفرعون في كتاب الله مرات ومرات ، وبيننا السبب الموجب لذلك عند تفسير الآية ٩ من سورة طه ، فقرة : « تكرار قصة موسى » (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) عيسى معجزة لأنه خالق من غير أب ، وأمه معجزة لأنها حملت من غير ذكر . انظر ج ٢ ص ٦١ وما بعدها (وآويناها الى ربوة) المراد بها فلسطين لأن السيد المسيح (ع) ولد فيها ، وهي (ذات قرار ومعين) والقرار المكان الذي يستقر فيه الانسان ويطمئن ، والمعين الماء الجاري .

رب واحد ودين واحد الآية ٥١ - ٥٥ :

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّوا

أَمْرَهُمْ يَبِينُهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْتُهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ
حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ * نَسَارِعُ لَهُمْ
فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ *

اللفظة :

المراد بالأمة هنا الملة . وتقطعوا تفرقوا . وزبراً جمع زبور وهو الكتاب أي
افترقوا في اتباع الكتب والمراد بالغمرة هنا الجهل والضلال، وأصلها من غمرة الماء .

الإعراب :

هذه اسم ان ، وأمتكم خبرها ، وأمة حال ، وواحدة صفة لأمة . وزبراً
حال من أمرهم . وانما كلمتان أن وما بمعنى الذي وما اسم أن، وجملة نساوع
خبر ، والمصدر من أن واسمها وخبرها مفعول يحسبون .

المعنى :

في الآية ١٧٢ من سورة البقرة قال سبحانه للمؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا
كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » . وفي هذه
الآية قال للرسول : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون
عليم) . والغرض ان يبين سبحانه ان الدين الحق هو التقوى والعمل الصالح ،
لا التقشف والامتناع عن الملذات والطيبات .. وكل ما تستلذه وتميل اليه نفسك
فهو طيب وظاهر عند الله اذا لم يبه عنه ، تماماً كما هو طيب عندك .. وفي
الحديث : ان الله جميل يحب الجمال ، وان رسول الله (ص) كان يلبس ما تيسر
من الصوف والقطن والبرود البانية .. ولم يكن يرد طيباً ولا يتكلفه ، وقد أكل

سورة المؤمنون

الخلوى والعسل ، وكان يحبها ، وأكل لحم الجزور والضان والدجاج ، وأكل القثاء والبطيخ بالرطب ، والتمر بالزبد وكان يحبه ، وأكل الخبز باللحم والكبد المشوية ، والثريد بالسمن .. وعلى الاجمال كان هديه (ص) أكل ما تيسر، ولبس ما تيسر ، فان أعوزه صبر .. وأطيب الأشياء على الاطلاق هو الأكل من كد اليمين وعرق الجبين، قال الرسول الأعظم : من أطيب ما أكل الرجل من كسبه .

(وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) . لكلمة الأمة معان ، منها الجماعة كقوله تعالى : « كلما دخلت أمة لعنت أختها - ٣٨ الأعراف » ، ومنها الحين كقوله : « وادكر بعد أمة - ٤٥ يوسف » أي بعد حين، ومنها الملة كما في الآية التي نحن بصدددها . وهذه في الآية اشارة الى ملة الأنبياء أجمعين ، والخطاب في أمتكم لكل الناس بدليل قوله تعالى بلا فاصل : « فتقطعوا أمرهم الخ ، والمعنى لماذا يتباغض الناس ويتفرقون شيعاً ، فطائفة تنتسب الى موسى ، وثانية الى عيسى ، وثالثة الى محمد مع ان ربهم واحد ، ودينهم واحد ، والهدف منه واحد ؟ وفي الحديث : الأنبياء اخوة من علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد .

وتسأل : ان شرائع الأنبياء متعددة ومتفاوتة ، فكيف يكون دينهم واحداً ؟ .
الجواب : ان الاختلاف في الشريعة لا يستدعي الاختلاف في الدين، ما دامت الأصول واحدة - مثلاً - قوانين الدول المسيحية كثيرة ومتفاوتة، ومع هذا تجمعهم عقيدة دينية واحدة .

(فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) . ضمير تقطعوا وما بعده يعود الى أتباع الأنبياء ، والمراد بالزبر الكتب ، والمعنى ان الأنبياء على دين واحد ، ولكن أتباعهم على أديان شتى ، فقد اتبع كل فريق كتاباً يؤمن به ويكفر بسواه ، فاليهود آمنوا بالتوراة بعد أن حرقوها، وكفروا بالانجيل والقرآن ، والنصارى حرقوا الانجيل وآمنوا به وبالتوراة المحرقة ، وكفروا بالقرآن . أنظر ما كتبناه بعنوان « كل يعزز دينه » ج ١ ص ١٨١ .

(فذرهم في غمرتهم حتى حين) . بعد ان بلغهم النبي (ص) رسالات ربه ، وألقى اليهم المعذرة بما حذر وأندر أمره الله سبحانه ان يعرض عنهم ، ويدعهم بما هم فيه من الغفلة والضلال .. وهذا تهديد ووعيد بدليل قوله تعالى بلا فاصل

الجزء الثامن عشر

(أحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نساوع لهم في الخيرات بل لا يشعرون).
لقد اغتروا بالاولاد والأموال ، وظنوا انها تدوم لهم ، وما دروا ان الله يمتحنهم
بها ، وانها الى أجل معدود ، ثم يأخذهم أخذة العزيز المقتدر .

أيضاً صفات المؤمنين ٥٧ - ٦٢ :

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا
وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا
كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

اللغة :

الوسع القدرة والطاقة . والمراد بالكتاب هنا صحائف الأعمال .

الإعراب :

وقلوبهم وجلة مبتدأ وخبر ، والجملة حال من واو يؤتون . والمصدر من انهم
الى ربهم مجرور بمن محذوفة أي من رجوعهم الى ربهم . وأولئك يسارعون خبر
ان الذين . ووسعها مفعول ثانٍ لنكلف .

سورة المؤمنون

المعنى :

بعد ان ذكر سبحانه الذين يعيشون في غمرة ، ويحسبون ان الله يسارع لهم في الخيرات - ذكر المؤمنين وانهم يتصفون بالحصل التالية :

١ - (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) . وتسال : ان الخشية هي الخوف ، والاشفاق يتضمن معنى الخوف ، أو هو أقصى حدوده ودرجاته كما قيل ، وعليه يكون المعنى انهم خائفون من الخوف ، وهو غير مستقيم ؟
الجواب : المراد بالاشفاق هنا الحرص على طاعة الله ، وتقدير الكلام هكذا : هم يحرصون على طاعته تعالى خوفاً من عذابه .

٢ - (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) . المراد بالآيات هنا الدلائل على وجود الله وعظمته ، ونبوة أنبيائه ، وصدق كتبه .

٣ - (والذين هم برهم لا يشركون) .

وتسال : ان الذين يؤمنون بآيات الله هم الذين لا يشركون، فما وجه العطف والتعدد ؟

وأجاب الرازي بأن المراد بالشرك هنا الشرك الخفي كالرياء وعدم الاخلاص في العمل ، والمراد بالايمان في الآية السابقة مجرد التصديق .

٤ - (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم الى ربهم راجعون) . ينفقون بما أعطاهم الله ، ويؤدون حقوقه وحقوق الناس كاملة ، ومع هذا يخافون الله ان لا يتقبل منهم .

(أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) . اللام في لها للتعليل ، والهاء تعود الى الخيرات ، وسابقون أي الى الجنة ، والمعنى ان هؤلاء الذين توافرت فيهم هذه الخلال يسرعون الى طاعة الله ، ولا يتوانون ، وهم من أجل ذلك يسبقون الناس غداً الى الجنة (ولا نكلف نفساً الا وسعها) لأن تكليف ما لا يطاق ظلم ، والله الذي نهى عن الظلم لا يفعله (ولدينا كتاب ينطق بالحق) سجل لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، ويجزي الله عليها، ان خيراً فخير وان شراً فشر (وهم لا يظلمون) . بنقص ثواب من أحسن، ولا بزيادة عذاب من أساء .

بل قلوبهم في غمرة الآية ٦٣ - ٧٢ :

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
 عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ * لَا تَجْتَرُوا
 الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ
 عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِبُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ * أَفَلَمْ
 يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا
 رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ
 وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ *
 أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *

اللفظة :

الغمرة الجهل والضلال . وجار صاح . ونكص أدبر . وسامراً أي تسمرون وقد
 استعمل هنا لفظ الفرد في الجمع . وتهجرون من الهجر في الكلام ، وهو الهديان
 أو الفحش في المنطق . والجنة الجنون . والمراد بالخروج هنا الجعل والعطاء .

الإعراب :

ولهم أعمال مبتدأ وخبر ، ومثله هم لها عاملون ، والجملة صفة لأعمال . حتى
 إذا (حتى) للابتداء وإذا شرطية . وإذا هم (إذا) هذه للمفاجأة وقعت في جواب

سورة المؤمنون

إذا الشرطية . ومستكبرين حال من واو تنكصون . وبه الضمير للقرآن . وسامراً
حال أي سامرين .

المعنى :

(بل قلوبهم في غمرة من هذا وهم أعمال من دون ذلك). ضمير قلوبهم للمشركين، وهذا إشارة إلى ما ذكره سبحانه في الآيات السابقة من صفات المؤمنين ، وهي الإيمان بآيات الله ، والخوف منه ، والمصارعة إلى الحيرات ، والمعنى ان المشركين في غفلة عن هذه الصفات .. وأيضاً لهم سيئات غير الشرك والغفلة ، فانهم يسخرون من القرآن ، ويفترون على رسول الله ، ويقولون : ساحر مجنون (هم لها عاملون) . وتساءل : ان ضمير لها يعود إلى الأعمال ، وعليه يكون المعنى هم عاملون للأعمال ؟ الجواب : المراد بالأعمال هنا السيئات : فكأنه قال ، عظمت كلمته : هم يعملون السيئات .

(حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) . هذا هو دأب المترفين، يبادون في الغي والضلال (انظر تفسير الآية ١٦ من سورة الإسراء) ولا يحسبون للمفاجآت والمخبات، ولا يعتبرون بالسابقين من أمثالهم ، حتى إذا وقعت الواقعة ، وأن أوان الحساب والجزاء رفعوا أصواتهم بالبكاء والعيول خاضعين متضرعين حيث لا ناصر ولا معين ، ولا كلمة تواسي أو تتوجع إلا قول العزيز القهار : (لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون) . لا تستغيثوا ولا تتضرعوا فهذا يوم حساب وجزاء ، لا يجدي فيه تضرع واستغاثة ، ولا ينجو من عذابه إلا من عمل له .
(قد كانت آياتي تلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) . حذرهم سبحانه بلسان رسله من هذا اليوم مرات وبشئ الأساليب ، فأبوا إلا التكذيب والعناد ، فجزاهم بما أسلفوا ، ولا يظلم ربك أحداً (مستكبرين به سامراً تهجرون) . ضمير به للقرآن ، ومستكبرين أي مكذبين، لأن الاستعلاء يتضمن معنى التكذيب ولذا تعدى بالباء ، والمعنى أنهم كذبوا بالقرآن ، واتخذوا منه ومن نزل عليه موضوعاً للسمر والهلديان (أفلم يدبروا القول) وهو القرآن وما فيه من الدلائل على التوحيد وصدق محمد (ص) . (أم جاءهم - محمد - ما لم يأت آباءهم

الجزء الثامن عشر

الأولين) كيف وفي القرآن تصديق من سبق من الأنبياء ، وخبر ما حدث لهم مع أقوامهم .. هذا ، الى ان مشركي العرب يعرفون ابراهيم وهوداً وصالحاً وشعيباً ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة من العرب ، اذن ، فأي بدع في نبوة محمد ؟ . (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) . أم يعتذر مشركو قريش بأنهم لا يعرفون محمداً ، وهو منهم وفيهم ، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين (أم يقولون به جنة) وهم يعلمون انه أعقل الناس وأكملهم ، ومن هنا وصفوه بالصدق والأمانة .. اذن ، هناك سر ، يتلخص بما يلي :

نور الشمس وأهواء المترفين :

(بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) . جاء محمد (ص) بالحق ، وكفى به ذنباً عند المبطلين .. وما هو هذا الحق الذي جاء به محمد؟ هل هو النطق بالشهادتين وكفى ، ولو كان هذا هو هدفه الأول والأخير لكان على من خاربه وقاومه من الرؤساء والمترفين أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .. ولكن محمداً (ص) لم يكتف بهذا وحده ، بل أراد أيضاً أن يقيم الحياة الاجتماعية على أساس العدل والمساواة ، لا ظالم فيها ولا مظلوم ، وان يعيش كل انسان كجزء من كل ، وفرد من جماعة ، له ما لها وعليه ما عليها ، لا يخشى أحداً إلا الله وحده ، ولا فضل لمخلوق عليه إلا بالتقوى والعمل الصالح .. ومن هنا ظهرت شراسة الطغاة وضاوتهم ضد رسول العدل والرحمة ، وحاربوه بكل سلاح، ولكن النبي (ص) كان على يقين من أمره وان العاقبة لمبدئه ورسالته ، ومن أجل هذا كان ينظر الى خصومه كما ينظر الى غمامة صيف أو ظل زائل .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) . المراد بالحق هنا الله ، وأهواؤهم الباطل والضلال والفوضى والفساد .. ونظام الكون بأرضه وسمائه يقوم على الحق والعدل ، اذن ، فساد الكون لا مفر منه لو اتبع الحق أهواءهم .. وما من شك لو ان الله سبحانه يستجيب الى ما يبتغون ويهون لمنعوا الشمس عن المستضعفين ، واحتكروا الكون بما فيه لأنفسهم وأولادهم وأصهارهم .

سورة المؤمنون

(بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . أتى محمد (ص) العرب بعامة ، وبالخصوص قريشاً ، أتاهم بذكرهم أي بسلطانهم ومجدهم وتاريخهم ، فأنكروه ، بل قاوموه وحاربوه ، ولولاه لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، قال تعالى : « وانه - أي القرآن - لذكر لك ولقومك - ٤٤ الزخرف » . (أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين) . أتاهم الرسول بعز الدنيا والآخرة فأعرضوا عنه مع العلم بأنه ما ابتغى منهم جزاء ولا شكوراً ، لأن الله قد كفاه أمر آخرته ودنياه .

تدعوهم الى صراط مستقيم الآية ٧٣ - ٨٠ :

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَنْصَرُّونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *
وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

اللغة :

ناكبون زائفون . ولجوا تمادوا . ويعمهُون يتحجرون . واستكانوا خضعوا
وتواضعوا . ومبلسون آيسون . وأنشأ وذراً بمعنى خلق . والمراد بالأفئدة هنا العقول .

الإعراب :

قليلًا ما تشكرون (قليلًا) صفة لمفعول مطلق محذوف أي شكرًا قليلًا ، وما زائدة اعراباً .

المعنى :

(وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) . بعد أن يتن سبحانه ضلال المشركين ، وانه لا عذر لهم في تكذيب محمد (ص) ، بعد هذا مخاطب جل وعز نبيه الكريم بأنه يملك الحجج الكافية الوافية على انه محق في دعوته ، وان المشركين الذين كفروا به وباليوم الآخر قد زاغوا عن الحق ، وضلوا طريق الخير والهداية ، وانهم مسا يضررون بذلك إلا أنفسهم ، أما أنت يا محمد فما يضرونك من شيء .

(ولو رحمتهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) . بعد أن هاجر رسول الله (ص) من مكة الى المدينة ضيق على قريش ، فبعث السرايا تقطع عليهم الطريق ، وكان يقود بعضها بنفسه ، وأمر بمقاطعتهم كل من آمن به ، فوقعوا في شدة وخرج ، ولكنهم ظلوا على بغيتهم وكفرهم ، ولو ان الله سبحانه كشف عنهم ما هم فيه لما اعتبروا وما رجعوا عن ضلالتهم (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) . ان حذرهم وأندرهم يعرضون ، وان أخذهم بالعذاب لا يعتبرون ، وان كشفه عنهم يتمردون .. وهكذا الى يوم يبعثون حيث ينكشف الغطاء لهم ويشاهدون جزاء غفلتهم وتمردهم ، وعند ذلك ينقطع منهم الأمل في النجاة ، ويأسون من كل خير ، ويندمون على ما فات « ولات ساعة مندم » .

(حتى اذا فتحنا عليهم باباً اذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون) أي آيسون ، وقد حذرهم سبحانه من هذا العذاب الشديد ، وتقدم اليهم بالوعيد ، ولكن هانت عليهم أنفسهم فأوردوها مورد الهلكة والهوان (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) لتنتفعوا بما تسمعون وتبصرون وتلدركون من خير وصلاح .. ان نعم

سورة المؤمنون

الله تعالى على الانسان لا يبلغها الاحصاء، وأعظمها العقل ، وبعده السمع والبصر ،
وانما قدم السمع في الذكر لأن المولود يسمع منذ ولادته ، ولا يبصر إلا في اليوم
الرابع - هكذا يقال - أما تأخر العقل فواضح . (قليلاً ما تشكرون) أي تطيعون
(وهو الذي ذرأكم في الأرض واليه تحشرون) خلقنا في هذه الأرض ثم يحشرنا
إليه بعد الموت (وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون)
ان هذا صنع القدير العليم . أنظر المجلد الأول ص ٧٦ والثاني ص ٣٧ .

قالوا مثل ما قال الأولون الآية ٨١ - ٩٠ :

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوْلُونَ * قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن يَدِينُهُ مَلَكَتْ
كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ فَأَنى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *

اللغة :

أساطير أكاذيب . وملكوت مبالغة في ملك الله وسلطانه . وتُسْحَرُونَ تخدعون
عن الحق .

الإعراب :

مثل صفة لمفعول مطلق محذوف أي قولاً مثل ما قالوا . وان هذا (ان) نافية .
ولله في جميع الآيات متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف يقدر بما دل عليه السياق
أي الأرض ومن فيها لله ، والسماوات والعرش لله ، وملكوت كل شيء لله .
فأنتي تسحرون (أنتي) بمعنى كيف في موضع نصب على أنها حال ، وقيل :
بمعنى أين أي من أين تسحرون .

المعنى :

(بل قالوا مثل ما قال الأولون) . ضمير قالوا يعود الى المشركين الذين
كانوا في عهد رسول الله (ص) ، فقد أنكروا البعث ، وتذرعوا بأمرين : الأول
الاستبعاد الذي عبروا عنه بقولهم : (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون) .
الأمر الثاني : أنهم ما رأوا أحداً مات ، ثم عاد ثانية الى الحياة ، وهذا المعنى
هو المراد من قولهم : (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير
الأولين) . لقد سمعنا هذا من قبلك يا محمد ، وأيضاً سمع به آباؤنا ، ولكن
لم يظهر له أثر ، فمن الذي مات ، ثم ظهر وأخبر ؟ .. ولو تأملوا النشأة الأولى
لمسا أنكروا النشأة الآخرة . وتقدم مثله في الآية ٥ من سورة الرعد و ٤٩ من
سورة الاسراء .

وقد جادل سبحانه منكري البعث بالحسنى ، وكشف لهم عن أخطائهم بأسلوب
علمي حكيم في ثلاث آيات :

١ - (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون) . أمر نبيه أن يوجه
اليهم هذا السؤال لأنهم يقررون ويعترفون بأن الله هو خالق الكون بدليل قوله
تعالى : (سيقولون لله) أي ان الأرض بما فيها ملك له ، ولا معنى لملكه إلا
الخلق والانشاء ، واذا كان سبحانه قادراً على خلق الأرض فهو أيضاً قادر على
أن يحيي الموتى (أفلا تذكرون) تفهمون وتتدبرون هذه الحقيقة ، وهي : ان من

سورة المؤمنون

يقدر على النشأة الأولى يقدر على الثانية .. وكل قادر غير الله يقدر على شيء ،
ويعجز عن أشياء ، ويعلم قليلاً ، ويجهل كثيراً ، أما هو فإنه على كل شيء
قدير ، وبه علم .

٢ - (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله) . ولا فرق
بين أن يقولوا : الله رب السموات ، وبين أن يقولوا : السموات ملك لله لأن
اللام هنا للملك ، ورب الشيء مالكة وصاحبه ، والعرش كناية عن سلطانه تعالى
وسيطرته .. ومن كانت السموات طوع أو امره يهون عليه إعادة من مات (قل
أفلا تتقون) غضب الله وعذابه . وتكلمنا عن السموات السبع عند تفسير الآية ١٧
من هذه السورة .

٣ - (قل من بيده ملكوت كل شيء) . المراد بملكوت كل شيء ان
كل شيء خاضع له تعالى ، ومفتقر اليه ، وانه غني عن كل شيء (وهو يجير
ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون) هو رحمة لمن استرحمه ، وغوث لمن استغاث به ،
ولا راحم ومغيث لمن حقت عليه كلمة غضبه وعذابه (سيقولون لله) ملك الكون
بأرضه وسماؤه (قل فأتى تسحرون) أي ما دمتم تعترفون بذلك فكيف
أنكرتم البعث ، ونخدعتم عن الحق ؟ . (بل أتيناهم بالحق) كلا لم يُخدعوا عن
الحق ، ولم يلتبس عليهم بالباطل بعد أن قامت عليه الدلائل الجلية الواضحة (وأنهم
لكاذبون) . انهم لم يُخدعوا عن الحق ، ولكنهم تخادعوا عنه ، وأظهروا كذباً
وزوراً انهم لم يقتنعوا بالبعث ، محتجين ان دليله خفي عليهم .

وتسأل : من أين جاء العلم بأنهم أنكروا البعث ، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ،
بل ان كثيراً من الآيات قد دلت بصراحة على انهم أنكروا البعث لمجرد الاستبعاد
غفلة عن النشأة الأولى ، وجهلاً بقياس الاعادة على الابتداء ؟

الجواب : أجل ، ولكن من أنكر ما قامت عليه الحجج القاطعة الساطعة بحيث
لا يكون له أي مبرر في الجحود والانكار اطلاقاً فهو تماماً كمن أنكر الشيء ،
وهو به مؤمن .

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا
 خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ
 فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُّهُمْ لِقَادِرُونَ *
 أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ
 أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبُّ أَنْ يُخْضِرُونِ *
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا
 فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ
 يُبْعَثُونَ *

اللغة :

همزات الشيطان وساوسه التي تدفع بالانسان الى معصية الله . والبرزخ الحاجز
 بين الشيتين .

الإعراب :

إذا زائدة اعراباً . ولذهب اللام وقعت في جواب لو المحذوفة أي لو كان
 معه إله لذهب الخ . وعالم الغيب بالجر صفة لله . وإما تريني (إما) كلمتان (ان)
 الشرطية ، وما الزائدة وهي التي سوغت دخول نون التوكيد على تريني . فلا

سورة المؤمنون

تجعلني جواب ان الشرطية . والمصدر من ان نريك مجرور بعلى، ومتعلق «بقادرون». وبالي على حذف مضاف أي بالطريقة التي . وأصل يحضرون يحضرونني فحذفت احدى النونين مع الياء تخفيفاً ، وواو الجماعة للشياطين . وأصل ارجعون ارجعونني، وواو الجماعة يعود اليه تعالى تعظيماً . وكلا حرف ردع وزجر . ومن ورائهم متعلق بمحذوف خبراً مقدماً، وبرزخ مبتدأ مؤخر ، والى يوم متعلق بالخبر المحذوف، وجملة يعثون مجرورة باضافة يوم .

المعنى :

(ما اتخذ الله من ولد) . ليس لله شريك ولا ولد .. ولو كان له ولد لكان شبيهاً به ، والله سبحانه ليس كمثلته شيء (وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق) . لو كان للكون خالقان لاختص كل واحد بجزء من الكون ، له حدوده ونظامه وخصائصه المتميزة عن الجزء الآخر ، مع ان نظام الكون واحد ، وخصائصه واحدة ، فخالقه - اذن - واحد .

(ولعلنا بعضهم على بعض) . وأيضاً لو تعدد الخالق لاستدعى ذلك أن يكون كل واحد غالباً ومغلوباً ، وقاهراً ومقهوراً في آن واحد ، اذ المفروض انه إله، ومن صفات الإله أن يكون هو الأعلى على كل شيء ، وإلا لم يكن إلهاً .. بالاضافة الى التنافس والتناحر بين الآلهة على السيطرة والسلطان ، كما يحدث بين الحكام ، وهذا هو الفساد بعينه (سبحانه الله عما يصفون) من ان له ولداً أو شريكاً . وتقدم الكلام مفصلاً عن ذلك عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ .

(عالم الغيب والشهادة) . المراد بعالم الغيب ما غاب علمه عن الخلق ، وعالم الشهادة ما أمكنهم العلم به . وتجدر الإشارة الى ان هذا التقسيم يصح بالنسبة الى الخلق دون الخالق لأن جميع الأشياء لديه سواء ، علماً وقدرة (فتعالى عما يشركون) مما لا علم له به ، واذا لم يعلم الخالق بوجود شيء فعنايه ان هذا الشيء غير موجود (قل رب إني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم

الجزء الثامن عشر

الظالمين) . أمر الله نبيه الكريم أن يدعوهم ويسأله السلامة والنجاة من سخطه وعذابه الذي يحل بالمجرمين والظالمين مع العلم بأنه (ص) في أمن وأمان .. ولكن الغرض من هذا الدعاء هو تهديد أهل الشرك والبغي، وكثيراً ما يستعمل المرشدون هذا الأسلوب تعريضاً بمن غضب الله عليه ، وأعد له عذاباً مهيناً .

(وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) . أُنذر النبي (ص) قريشاً بالعذاب على تكذيبه وانكار نبوته ، فضحكوا وسخروا ، فقال سبحانه لنبيه : لا تحزن ، نحن قادرون على أن نريك أهلاكهم واستئصالهم ، ولكن تؤخر ذلك للحكمة ومصلحة لك وللإسلام .. وقد تكون هذه الحكمة ان الله يعلم بأن بعضهم أو بعض أبنائهم سيؤمنون بالله ورسوله ، ويكونون قوه ودعاة للإسلام والمسلمين، كما حدث ذلك بالفعل .

الدفاع بالأحسن :

(ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) . ما هو الدفاع بالأحسن؟ هل هو الصبر على الأذى والسكوت عن المؤذي كما قال كثير من المفسرين ؟ . ان الدفاع يختلف باختلاف الموارد ، فقد يكون استعمال القوة والعنف لردع المعتدي دفاعاً بالأحسن وذلك اذا كان المعتدى عليه يملك القوة الرادعة ، وكان السكوت عن المسيء يغريه بالاساءة والعدوان ، قال الإمام علي (ع) : الوفاء لأهل الغدر غدر ، والغدر بأهل الغدر وفاء .. وقد يكون السكوت عن المعتدي والصبر على أذاه دفاعاً بالأحسن اذا أدى الاغضاء عنه الى ندمه وتوبته من اساءته ، أو كان المعتدى عليه عاجزاً عن الردع .. فإن المقاومة - وهذه هي الحال - تحدث ما لا تحمد عقباه من تمادي المعتدي في غيه وغير ذلك من ردود الفعل .

ومن أجل هذا صبر رسول الله (ص) على الأذى ، وهو في مكة لمجزه عن الردع ، وأدب المعتدين بعد هجرته الى المدينة لأنه كان يملك القوة الرادعة .

(وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب ان يحضرون) . همزات الشياطين وساوسهم . وان يحضرون أي ان يقربوا مني .. وبداهة انه لا سلطان

سورة المؤمنون

للسياطين على الأنبياء لقوله تعالى : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين - ٤٢ الحجر » .

وتسأل : اذا لم يكن للسياطين على الأنبياء سلطان فلماذا أمر الله نبيه ان يتعوذ منهم ؟

الجواب : ان الاستعاذة من الشيء لا تستدعي امكان وقوعه ، فان المعصومين يتعوذون بالله من غضبه وعذابه أكثر من غيرهم مع انهم في أمن وأمان .. وبكلام آخر ان الالتجاء الى الله دعاء ، والدعاء يجوز لدفع السوء والبلاء مع العلم بعدم وقوعه .. وأشرنا فيما تقدم الى ان الاتقياء كثيراً ما يُعرضون بالاشقياء في أدمعتهم .

(حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي اعمل صالحاً فيما تركت) . حين أمكنته الفرصة من العمل الصالح ضيعها وأهملها ، وبعد ان حضره الموت وعائنه طلب الرجعة الى الحياة ليعمل .. وهكذا كل مقصر يضيع الفرصة حين يتمكن منها ، فإذا فاتته تلهف عليها ، ومات أسفاً (كلا انها كلمة هو قائلها) . كلا حرف ردع وزجر ، والمراد بالكلمة قوله : « ارجعون لعلي اعمل صالحاً » والمعنى لا رجوع أبداً .. حتى لو استجاب الله لطلب هذا المقصر وأرجعه ثانية الى الحياة لعاد الى طغيانه وعصيانه ، أما قوله : لعلي اعمل صالحاً فهو مجرد كلام بلا معنى ولا وفاء ، وقد أوضح سبحانه ذلك في الآية ٢٨ من سورة الأنعام : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » . انظر ج ٣ ص ١٧٩ .

(ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) . من ورائهم كناية عن جميع الجهات . والبرزخ الحائل ، والمعنى انهم طلبوا الرجعة الى الحياة الدنيا ، وبينهم وبينها حائل يبقى الى يوم القيامة ، وحينذاك ينتهي البرزخ ويرتفع الحائل ، ولكن لتذهب الحلائق الى ربها وتقف بين يديه للحساب والجزاء .

فلا انساب بينهم يومئذ الآية ١٠١ - ١١١ :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ

الجزء الثامن عشر

ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ
فِيهَا كَالْحُحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ *
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ
كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ
خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ
تَضْحَكُونَ * إِنْ يَجْزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ *

اللفظة :

تلفح تحرق . كالحون مكشرون في عبوس . اخسئوا كلمة تستعمل في زجر
الكلاب .

الإعراب :

فأولئك مبتدأ ، والذين عطف بيان وخالدون خبر أولئك ، وفي النار متعلق
ب «خالدون» ويجوز أن يكون الذين خبر أولئك وخالدون خبر بعد خبر . وسخرياً
مفعول ثانٍ لاتَّخَذْتُمُوهُمْ . والمصدر من أنهم هم الفائزون مفعول ثانٍ لجزيتهم ،
قال تعالى : وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً .

سورة المؤمنون

المعنى :

(فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) . النفخ في الصور كناية عن بعث من في القبور، ولا أنساب بينهم أي لا تعاطف ولا تراحم بين الأرحام والأقارب « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت » . وبالأولى عن غيره .. أبداً لا شيء في ذلك اليوم الا الايمان والعمل الصالح : « وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً- ٩٧ مريم » . وفي الحديث : ان الله يقول يوم القيامة: اليوم أضع نسبكم ، وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ والنسب مأخوذ من المناسبة ، والقراية مأخوذة من القرب. ولا قرب من الله إلا بالتقوى . أنظر المجلد الثاني ص ١٣٧ فقرة «التقوى» والرابع ص ١٣٦ فقرة « أين المتقون » ٤.

(فن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون) تقدم في الآية ٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٣ فقرة « ميزان الأعمال » ، وأيضاً تكلمنا ثانية عن هذا الميزان عند تفسير الآية ٤٧ من سورة الأنبياء فقرة « الميزان يوم القيامة وصاحب الاسفار » . (تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) . كلحت الوجوه كشرت في عبوس ، وعبر سبحانه هنا بالوجه عن جميع البدن لأنه أشرف ما فيه ، وعن رسول الله (ص) انه قال : (تلفح وجوههم النار) لفحة تسيل لحوهم على أعقابهم (ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) . هذا توبيخ وتقريع لأنهم كذبوا بحجج الله وبياناته (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين) . اعترفوا بذنوبهم بعد أن انقطع التكليف ، وانسد باب التوبة . وتقدم مثله في الآية ٤ من سورة الأعراف و ١٤ من سورة الأنبياء (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون) . قالوا هذا بعد أن برزوا لفصل القضاء. وبعد أن حقت عليهم الحقائق، وقد كانوا من قبل في طغيانهم يعمهون ، ومن أجل هذا (قال - الله لهم - انحسثوا فيها ولا تكلمون) وهي كلمة يُزجر بها الكلاب، وقد تجلى فيها غضب الله وجبروته .

(انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير

الجزء الثامن عشر

الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون) . بعد ان
وبخ سبحانه المجرمين، وزجرهم عن الكلام بين لهم أنهم كانوا يسخرون ويضحكون
من عباد الله الصالحين الذين طلبوا من الله الرحمة والغفران ، حتى شغلهم الهزاء
والضحك عن ذكر الله تعالى ، وهذا هو المعنى المقصود من قوله تعالى : (حتى
أنسوكم ذكري) أي نسيتموني لأنكم كنتم في شغل شاغل بالسخرية من المتقين
(اني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) . صبر المؤمنون الصالحون
على أذى المجرمين ، فأنعم الله على أولئك ، وانتقم من هؤلاء : « فالיום الذين
آمنوا من الكفار يضحكون - ٣٤ المطففين » .

كم لبثتم في الأرض الآية ١١٢ - ١١٨ :

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى
اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبُّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *

اللغة :

العادين جمع عاد : وهو من يحصي العدد « وأحصى كل شيء عدداً » .
حسابه محاكمته أو جزاؤه .

الإعراب :

كم خبرية تتضمن معنى ظرف الزمان ، ومحلها النصب بلبثتم . وعدد منصوب على التمييز ، وجاز نصب ميمز (كم) هنا لوجود الفاصل بينها وبينه ، ولولاه لوجب الجر ، لأن ميمز الخبرية واجب الخفض إلا إذا فصل بينها فاصل . وسنين مجرورة بالإضافة ، وقرىء عدداً سنين وعليه تكون سنين بدلاً من عدد . وقليلاً صفة لمفعول محذوف أي زمناً أو لبثاً قليلاً . والمصدر من انكم تعلمون فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت علمكم . وعبثاً مصدر في موضع الحال من خلقناكم أي عابثين . وإنما خلقناكم (أنما) كلمتان أن المشددة وما الكافة عن العمل . وانكم عطف على أنما خلقناكم . وهو بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف أي لا إله موجود إلا هو ، ورب العرش خبر بعد خبر . ومن يدع (من) شرطية . وجملة لا برهان له صفة « إلهاً » . وإنما حسابه جواب الشرط .

المعنى :

(قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين) . ضمير قال يعود الى الله عز وجل ، أو الى الملك المأمور غداً بالسؤال . والخطاب لمنكري البعث ، والمسؤول عنه المدة التي قضوها في الكفر والفساد ، وهم في الحياة الدنيا ، والغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ على جحودهم هذا اليوم وسخريتهم ممن كان يحذره من هوله وعذابه (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العاديين) أين نحن من هذا السؤال ؟ . كفانا ما نحن فيه .. وان كان لا بد من الجواب فقد مكثنا ساعات .. ومن أراد معرفة ذلك فليسأل من كان يحصي علينا أعمارنا وأعمالنا ، ولا يدع منها صغيرة ولا كبيرة ، أما نحن ففي زهول عن كل شيء . تقدم نظيره في الآية ١٠٣ من سورة طه .

(قال ان لبثتم إلا قليلاً لو انكم كنتم تعلمون) قال لهم سبحانه : مكثتم سنوات لا يوماً واحداً أو بعض يوم كما قلتم .. ولكن هذه السنوات قليل لأنها الى زوال ، وكل زائل قليل ، وان طال به الزمن ، ولو عرفتم هذه الحقيقة

الجزء الثامن عشر

وانتم في دار الدنيا ، وآمنتم بهذا اليوم ، وتزودتم له لكنتم الآن في أمن وأمان ، ولكن كفرتم به فحقت عليكم كلمة العذاب (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون) . الخطأ بوجه بظاهرة لمن أنكر البعث ، والمراد منه في الواقع كل من عصى الله وأفسد في الأرض ، سواء أجهد البعث من الأساس ، أم آمن به ولم يعمل له . والبعث ما لا فائدة فيه ، ولا حكمة من وجوده ، والله سبحانه منزّه عن العبث ، ولو لم يبعث الانسان بعد الموت ، ويميز الخبيث من الطيب ، ويجز كلاً بما يستحق لكان خلق الانسان عبثاً لا جدوى منه (فتعالى الله الملك الحق) الملك أي القادر القاهر ، والحق يزهق العبث والباطل ، واذا كان الحق بالذات هو الذي خلق الانسان وأوجده فكيف يكون خلقه سدى ؟ وكيف يتركه عبثاً دون تكليف وحساب، ودون سؤال وجواب ، أساء أو أحسن؟ (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) هو الواحد في ملك الكون يدبره ويصرفه بلا شريك في خلقه وتدبيره، وفي علمه وحكمته - اذن - فمن أين يأتي العبث والفساد في خلق الانسان وغير الانسان ؟ (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به) . ومن أين يأتي بالبرهان على الشرك ، وكل شيء يدل على انه واحد ؟ وكفى دليلاً على الوحدانية نظام هذا الكون الذي لا خلل فيه ولا فساد « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » .. وما أنكر هذه الحقيقة إلا من كفر بالبداهات وجحسد جميع الدلائل والبيّنات ، ومثله يهمل ولا يجادل (فلانما حسابه عند ربه) وهو موفيه ما يستحق (انه لا يفلح الكافرون) لأنهم عن الصراط ناكبون . وكما افتتح سبحانه هذه السورة بـ (قد أفلح المؤمنون) فقد ختمها بهذا الأمر: (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) . وهو وحده المسؤول ان يسعنا برحمته ومغفرته ، ولا يقطع رجاءنا من منته وكرمه بالنبي وآله صلوات الله عليه وعلى كل من استن بسنته .

سُورَةُ النُّورِ

قال الرازي : مدينة كلها ، وقال الطبرسي : بلا خلاف ، وآياتها ٦٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حكم الزنا والقذف الآية ١ - ٥ :

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ*
الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدُ
عَذَابُهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ*
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
مِائِينَ جَلْدَةٍ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ* إِلَّا
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*

اللغة :

سورة من سور البناء ومنعته وارتفاعه . وفرضناها أوجبنا العمل بها . ويرمون
المحصنات أي يقذفون العفيفات بالزنا .

الإعراب :

سورة خبر لمبتدأ محذوف أي هذه سورة . وتذكرون أي تتذكرون . والزانية والزاني مبتدأ والخبر فاجلدوا ، ودخلت عليه الفاء لأن الألف واللام في الزانية بمعنى التي ، وفي الزاني بمعنى الذي . ومثمة مفعول مطلق أو قائمة مقامه لأنها مضافة إلى الجلد ، وكذلك ثمانين فإن المميز الجلد أيضاً .

المعنى :

(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات) . أنزل سبحانه هذه السورة على نبيه الكريم ، وفيها تعاليم إلهية أوجب العمل بها على كل مكلف لأنها تهدف إلى بناء المجتمع الانساني بكامله على أساس مصلحته ونموه ، وهذه التعاليم بيّنة واضحة لا تقبل النقاش والجدال في كل ما تهدف إليه من صيانة الانسانية من الفساد والضلال ، ومن أجل هذا أو غيره سميت بسورة النور وكل القرآن هدى ونور (لعلكم تذكرون) أنزل سبحانه هذه السورة بيّنة واضحة لتعلموا وتعموا .

(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) . الخطاب في اجدلوا لمن يقيم الحدود ، وهو الإمام أو نائبه العالم العادل ، وظاهر الآية يدل على ان من زنى يُجلد، محصناً كان أو غير محصن ، لأن الـ الجنسية اذا دخلت على المفرد أفادت الاستغراق ، وشملت جميع الأفراد ، ونعني بالمحصن البالغ العاقل المتزوج المتمكن من وطء زوجته متى شاء ، فلو وطأ ، وهو صغير أو مجنون أو كان عترباً أو متزوجاً ، ولكن غابت عنه زوجته أو كان بها مرض يمنع من الوطء فهو في حكم غير المحصن .. وكذلك المرأة ، وسئل الإمام أبو جعفر الصادق (ع) عن معنى المحصن ؟ فقال : من كان له فرج يغدو عليه ويروح فهو محصن .

هذا ما دل عليه ظاهر الآية ، وهو ان الجلد للزاني المحصن وغير المحصن ، ولكن قد ثبت بالسنة المتواترة واجماع المذاهب الاسلامية ان حكم المحصن والمحصنة الرجم بالحجارة حتى الموت ، وعليه يكون الجلد لغير المحصن والمحصنة ، ولها

سورة النور

الرجم لأنها قد خرجا عن عموم الآية بالسنة النبطية وقيام الاجماع ، بل جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم ان عمر بن الخطاب قال : « ان الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل آية الرجم ، فقرأناها وعقلناها ووعيناها » . (البخاري ج ٨ ص ٢٠٩ طبعة سنة ١٣٧٧ هـ ومسلم ص ١٠٧ القسم الأول من الجزء الثاني طبعة سنة ١٣٤٨ هـ) . وفي رواية ثانية للبخاري ج ٩ ص ٨٦ ان عمر بن الخطاب قال : لولا ان يقول الناس : زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي .

وتسأل : قال تعالى في الآية ١٥ من سورة النساء : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلاً » فقد أوجب سبحانه في هذه الآية ان تحبس الزانية في البيت ولا تخرج منه إلا ميتة أو يجعل الله لها سيلاً آخر ، ثم أوجب عليها الجلد في الآية التي تفسرها ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : قلنا عند تفسير آية النساء في ج ٢ ص ٢٧١ : ان المراد بقوله تعالى : « يجعل الله لهن سيلاً » انه جل وعز لم يجعل عقوبة الحبس في البيت حكماً دائماً ، بل لفترة محدودة ، ثم يحدث التشريع النهائي ، وهكذا كان . حيث نسخت عقوبة الحبس في البيت وحلت محلها عقوبة الرجم للمحصنة ، والجلد لغيرها .. وقال بعض العلماء : لا نلجأ الى النسخ إلا بورود النص ، أو اذا تعذر الجمع بين الحكيمين ، والمفروض ان الشارع لم ينص على نسخ عقوبة الحبس ، وان الجمع بينها وبين عقوبة الجلد ممكن ، وعليه يكون مفاد الآيتين ان الزانية غير المحصنة يجب ان تجلد مئة ، وان تحبس في البيت أيضاً .

ونحن مع هذا القائل إذا أقنعنا بأن المراد بالسبيل في قوله تعالى : (يجعل الله لهن سيلاً) ، المراد به شيء غير تشريع الحكم النهائي الذي يتبادر الى الأذهان ، أما تفسير السبيل بالزواج كما ذهب اليه هذا العالم فبعيد عن الافهام .

(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) لا تعطلوا الحد عن الزاني والزانية ، بل أقيموا واشتدوا عليهما ، وأوجعوهما ضرباً ورجماً ، ولا تمنعكم من ذلك شفقة ولا رحمة فإنه لا هوادة في دين الله .. ان غضب الايمان لا يطفئه شيء إلا رضى

الجزء الثامن عشر

الرحمن ، قال الرسول الأعظم (ص) : « لو سرقت فاطمة لتقطعت يدها » . وفي نهج البلاغة : فرض الله التصاص حقناً للدماء ، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم .. (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . هذا تأكيد وتحريض على اقامة الحدود وان التهاون بها استخفاف بالدين (وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين) . والغرض من ذلك ان يشيع حديث العقوبة بين الناس فيتعضوا ويزدجروا .. وقيل : أقل ما تصدق عليه كلمة الطائفة ثلاثة أفراد ، وقيل : بل يكفي الواحد بدليل قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا - ٩ الحجرات » . وتكلمنا مفصلاً في الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق (ع) عن تعريف الزنا وشروطه وأقسامه وطرق اثباته وحدته وكيفية اقامته وعن توبة الزاني وغيرها مما تعرض له الفقهاء .

(الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) . قيل : هذه الآية من مشكلات القرآن ومتشابهاته لأن ظاهرها الإخبار بأن الزاني لا ينكح إلا زانية مثله أو مشركة ، وان الزانية لا ينكحها إلا زان مثلها أو مشرك ، مع ان الزاني قد يتزوج عفيفة شريفة ، والزانية قد تتزوج عفيفاً شريفاً ، فكيف جاء ظاهر الآية على خلاف الواقع ؟ .

وفي رأينا ان الآية من المحكمات الواضحات ، فليست هي إخباراً عن الواقع كي يقال : انها تنافره وتناقضه ، ولا حكماً شرعياً يحرم على الزاني ان يتزوج مسلمة عفيفة . وعلى الزانية ان تتزوج مسلماً عفيفاً ، بل عليهما إذا أرادا الزواج أن يتزوج هو بزانية مثله أو مشركة ، وان تتزوج هي بزاني مثلها أو مشرك . كما زعم كثير من المفسرين .. كلا ، ليس هذا هو المراد ، لأن المسلم تحرم عليه المشركة ، وان ثبت عليه الزنا من قبل ، وكذا المسلمة فإنها تحرم على المشرك حتى ولو ثبت عليها الزنا من قبل .. كلا ، ليست الآية إخباراً عما هو كائن ، ولا حكماً شرعياً ، بل معناها الظاهر ... بصرف النظر عما قيل في سبب نزولها - ان الزنا من أفحش القبائح وأشنعها ، ولا يفعله إلا عاهر فاجر ، فاذا رغب فيه راغب فلا يجد أحداً يستجيب لرغبته إلا من هو مثله في الفسق والفجور رجلاً كان أو امرأة ، وبكلمة أحصر ان معنى الآية أشبه بقولك للمجرم : لا يفرك

سورة النور

على جريمتك إلا مجرم مثلك لا دين له ولا ضمير . وابن هذا من الإخبار عما وقع أو من تشريع الأحكام ؟

وقوله تعالى : (أو مشركة .. أو مشرك) يومىء إلى أن الزنا بمنزلة الشرك بالله .. وقد ساوى سبحانه في الحكم بين الشرك وقتل النفس المحترمة والزنا حيث قال : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقِ اثمًا — ٦٨ الفرقان » ، وسئل النبي (ص) عن أعظم الذنوب فذكر هذه الثلاثة (وحرّم ذلك على المؤمنين) وأيضاً على المؤمنات ، وانما اكفى بذكر المؤمنين تغليباً .. وذلك إشارة الى الزنا بدليل ظاهر السياق .

(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) . المراد بالرمي القذف بالزنا ، وقوله : الذين يرمون ظاهر بخصوص الرجال ، ولكن النساء مثل الرجال في هذا الحكم ، والمراد بالمحصنات العفيفات ، سواء أكنّ متزوجات أم غير متزوجات ، وقد ألحق العلماء بين في الحكم الرجل المحصن ، تماماً كما ألحقوا النساء بالرجال في الرمي ، وبكلمة ان حكم الجلد يشمل الرجل والمرأة ، سواء أقدفها هو بالزنا ، أم هي التي قدفته به .. ويُجلد القاذف أو القاذفة اذا لم يأت أحدهما بأربعة شهود ، يشهد كل واحد منهم انه رأى الميل في المكحلة يدخل ويخرج .. والغرض من كثرة الشهود والتشدد في شهادتهم ان لا يشهد أحد بالزنا حرصاً على السرّ وحماية الأسرة من الشتات والضياع .

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) الضمير في لهم يعود الى من رمى المحصنين أو المحصنات دون أن يأتي بأربعة شهود ، والمعنى ان من قذف محصناً أو محصنة ولم يثبت ذلك بأربعة شهود فهو فاسق لا تقبل له شهادة في أي شيء على الإطلاق إلا بعلمه أن يتوب ويعمل صالحاً ، وبعد التوبة وحسن السيرة تقبل شهادته ، سواء أناب قبل الحد أم بعده . وقال أبو حنيفة : لا تقبل شهادته وان تاب لأن ردها من جملة الحد والتأديب .. وهذا اشتباه لأن قوله تعالى بلا فاصل : (فان الله غفور رحيم) يومىء الى قبول شهادته مطلقاً ، حتى ولو تاب بعد الحد، وأصرح

الجزء الثامن عشر

من الآية في الدلالة قول الرسول الأعظم (ص) : التائب من الذنب كمن لا
ذنب له .

اللعان بين الزوجين الآية ٦ - ١٠ :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ
أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَةَ
اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَذْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشهَدَ
أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا
إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ
تَوَّابٌ حَكِيمٌ *

اللعنة :

يدراً يدفع . والمراد بالعذاب هنا الحد .

الإعراب :

أنفسهم بدل من شهداء . فشهادة أحدهم أربع .. قرىء بنصب أربع ورفعها ،
وعلى النصب تكون شهادة أحدهم خبراً لمبتدأ محذوف وأربع قائم مقام المفعول
المطلق لشهادة ، والتقدير فالحكم ان يشهد أحدهم أربع شهادات ، وعلى الرفع
تكون شهادة مبتدأً ثانياً وأربع خبره ، والجملة خبر المبتدأ المحذوف ، والمبتدأ المحذوف

سورة النور

وخبره خبر المدين يرمون . وبالله متعلق بشهادات . والخامسة الأولى مبتدأ وما بعدها خبر . والمصدر من أن تشهد فاعل يدرأ . والخامسة الثانية بالنصب معطوفة على أربع شهادات الثانية وبالرفع مبتدأ وما بعدها خبر . ولولا فضل الله جواب لولا محذوف أي هلكتم .

المعنى :

في كتب الفقه باب يسمى باب اللعان ، ومصدره هذه الآيات ، وهو أشبه بالمباهلة بين زوج يقذف زوجته بالزنا ولا شهود لديه على دعواه ، وبين الزوجة التي تنفي تهمة الزنا عن نفسها ، والغاية من هذا اللعان سقوط الحد عن الزوج بسبب القذف ، أو نفي الولد عنه ، ولا يُشرع اللعان إلا في موردين :

الأول : ان يقذف الزوج بالزنا زوجته الشرعية التي عقد عليها بالعقد الدائم ، وأن تكون الزوجة سالمة من الصمم والحرس ، وان يدعي الزوج المشاهدة ، وان لا تكون له بينة شرعية على الزنا ، فاذا انتفى واحد من هذه الشروط فلا يجوز اللعان .

الثاني : ان ينكر الزوج من ولدته على فراشه ، ويمكن أن يلحق به ، وذلك بأن تضعه لسته اشهر فصاعداً من حين الوطء ، ولم يتجاوز أقصى مدة الحمل ، والا انتفى عنه الولد من غير لعان .

ومتى توافرت كل هذه الشروط ، ورمى الزوج زوجته بالزنا أو نفى الولد عنه ، فعليه حد القذف إلا ان يقيم البينة أو يلاعن ، وصورة الملاعنة ان يقول عند الحاكم الشرعي : اشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة ، يقول ذلك أربع مرات ، ثم يقول في الخامسة بعد ان يعظه الحاكم : وعليه لعنة الله ان كان من الكاذبين .

ثم تشهد الزوجة بالله اربع مرات انه لمن الكاذبين فيما رماها به ، ثم تقول في الخامسة : ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين . ويجب ان يكونا قاثمين عند الملاعنة ، ومتى تمت الملاعنة بشروطها المتقدمة لحقتها الأحكام التالية :

الجزء الثامن عشر

- ١ - انفساخ عقد الزواج .
 - ٢ - تحريم المرأة على الزوج الملاحن حرمة مؤبدة .
 - ٣ - يسقط حد القذف عن الزوج .
 - ٤ - ينتفي الولد عن الزوج شرعاً ، فلا يتوارثان ، ولا تجب نفقة أحدهما على الآخر ، أما بالنسبة الى المرأة فهو ولدها الشرعي ، وهي أمه الشرعية .
- وإذا عرفنا اللعان بين الزوجين وشروطه وأحكامه اتضح لدينا المقصود من الآيات ، ولذا نقتصر في تفسيرها على ذكر الكلمات التي يشير اليها سياق الكلام:
- (والذين يرمون أزواجهم) بالزنا (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) على ما يدعون (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين) . يقول الزوج عند الحاكم الشرعي أربع مرات : أشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة (والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) . ثم يقول الزوج في الشهادة الخامسة : عليه لعنة الله ان كان من الكاذبين في دعواه .
- (ويدراً عنها العذاب) أي يُدفع الحد عن الزوجة بشرط (ان تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين) فتقول عند الحاكم أربع مرات : اشهد بالله انه لمن الكاذبين فيما قذفتي به (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فيما رماني به من الفاحشة (ولولا فضل الله عليكم) هلكتم (وأن الله تواب رحيم) وفي هذا ايماء الى الحكمة من تشريع اللعان ، وان الغاية منه السر ودرء الحد عن الزوج بسبب القذف ، وافساح المجال أمام الزوجة لدفع التهمة عنها .

جاءوا بالآفك الآية ١١ - ٢٠ :

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى
كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ
مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ
عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَيَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ
تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ
اللَّهُ رَوْفٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

الإفك أشد الكذب . والعصبة الجماعة . والسذي تولى كبره أي تحمل معظم
الإفك . وأفضتم فيه نخضتم فيه . تلقونه أي تلتقون الإفك ويرويه بعضكم عن بعض .
والبهتان كذب يحير المكذوب لفظاعته . وتشيع تنتشر .

الإعراب :

عصبة خبر ان . لا تحسبوه كلام مستأنف . لولا أداة تخصيص بمعنى هلا .

الجزء الثامن عشر

والمصدر من ان نتكلم اسم يكون . والمصدر من أن تعودوا مفعول من أجله
ليعظكم . والمصدر من أن تشيع مفعول يحبون .

ملخص قصة الإفك :

اتفق المفسرون والرواة من جميع الطوائف والمذاهب الاسلامية الا من شذ ،
اتفقوا على أن هذه الآيات نزلت لبراءة عائشة من تهمة الزنا ، وسبب التهمة ان
النبي (ص) كان اذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فمن أصابتها القرعة أخرجها
معه ، وفي السنة الخامسة الهجرية غزا رسول الله (ص) بني المصطلق ، وجاءت
القرعة على عائشة ، فصحبها معه ، ونصر الله نبيه الكريم على بني المصطلق ،
وتزوج بنت زعيمهم الحارث بعد ان أسلمت بدعوة منه، وكان اسمها برة فغيره
الرسول الى جويرية ، وأسلم أبوها ومعظم رجال القبيلة ، وعاد النبي الى المدينة
بموكبه الظافر يسير الليل والنهار، حتى اذا كانت الليلة الثانية نزل بالجيش ليستريح
قليلاً .

ولما أذن بالرحيل ذهبت عائشة لحاجتها ، وحين عادت فقدت عقدها، فرجعت
تلتسمه وتبحث عنه في الموضع الذي فقدته فيه ، حتى اذا وجدته رجعت الى
منازل الجيش فلم تر أحداً ، فانتظرت لعلهم يرجعون في طلبها حين يفتقدونها ،
وكان صفوان بن المعطل وراء الجيش ، فر بها وعرفها لأنه كان يراها قبل نزول
الحجاب ، فأناخ راحلته وتنحى جانباً حتى اذا ركبت قادها وأوصلها الى الجيش
أو الى المدينة ، وهنا سنحت الفرصة لأهل الإفك فأشاعوه وأذاعوه، ورموا عائشة
بالحيانة مع صفوان .. وأول من أطلق لسانه بهذا الإفك رأس النفاق عبد الله بن
أبي ، وروج له حسان بن ثابت ومسطح وآخرون من المنافقين .. فأنزل الله
هذه الآيات لبراءة عائشة .

وبهذه المناسبة نشير الى أمرين : الأول ان الشيعة الإمامية يعتقدون ويؤمنون
ان نساء الأنبياء جميعهن عفيفات طاهرات ، وان النبي ، أي نبي لا يضع مائه
إلا في أرحام مطهرة ، وان زوجته قد تكون كافرة ولن تكون بغياً، لأن الرسول

سورة النور

أكرم على ربه وأعز من أن يجعل تحته بغياً ، قال العالم الإمامي الطبرسي في مجمع البيان : « ان نساء الأنبياء يجب أن يتزهنّ عن مثل هذه الحال لأنها تشين ، وقد نزه الله أنبياءه عما هو دون ذلك توقيراً لهم وتعظيماً عما ينفر من قبول قولهم والعمل بدعوتهم » ، وقد روي عن ابن عباس انه قال : ما زنت امرأة نبي قط ، وكانت الحياينة من امرأة نوح انها كانت تنسبه الى الجنون ، والحياينة من امرأة لوط انها كانت تدل على اضيافه .

الأمر الثاني قال البعض : ان النبي (ص) استشار الإمام علي (ع) مع من استشار في أمر عائشة : فأشار عليه بطلاقها ، وان هذا هو الدافع لخروجها على الإمام يوم الجمل ، وقد استند هذا القائل الى رواية لا نعرف مكانها من الصحة .. بالاضافة الى أن النبي لا يحتاج الى أحد يشير عليه ، لأنه أعلم وأفضل الخلق أجمعين ، وكيف يشك النبي في زوجته ، وهو يعلم انه أكرم على الله من أن يجعل تحته بغياً ؟ .. ولو شك رسول الله في عائشة لكان مقصوداً في قوله تعالى : (ولولا اذ سمعتموه قلم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم) . كلا ، ان محمداً (ص) لم يشك في عائشة ، ومن نسب اليه هذا الشك فقد جاء بهتان عظيم .

هذا ، الى ان هناك رواية ثانية تقول : ان الإمام قال لرسول الله : ان نعلك متزه من النجاسة فكيف بزوجتك ، وان النبي سُرَّ بذلك . قال اسماعيل حقي في تفسيره روح البيان : « استشار النبي علياً في أمر عائشة . فقال يا رسول الله انها بريئة ، وقد أخذت براءتها من شيء حدث معك ، وهو اننا كنا نصلي خلفك في ذات يوم ، وأنت تصلي بنعليك ، ثم انك خلعت احدهما ، فقلنا ليكن ذلك سنة لنا ، فقلت : لا ، ان جبريل قال لي : ان في تلك النعل نجاسة ، واذا لم تكن النجاسة في نعلك فكيف تكون بأهلك ؟ فسرّ النبي بذلك » . ولم نذكر هذه الرواية إيماناً بها بل لتعارضها بها رواية النصيح بالطلاق .

المعنى :

(ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) .

الجزء الثامن عشر

الذين رموا عائشة بالحياة هم جماعة تظاهروا كذباً وزروراً بأنهم على ملة الاسلام، وليسوا منه في شيء .. وقد عز ذلك على النبي وصحابته ، فقال لهم عز وجل : لا تظنوا ان هذا الإفك شر وضرر .. كلا ، بل فيه نفع كثير ، منه تمييز المؤمن الطيب من المنافق الخبيث الذي يجب ان تشيع الفاحشة في الأبرياء ، ومنه ابتلاء رسول الله (ص) وأمته ، فيزيد الذين اهدوا هدى ، ولا يزيد المنافقين إلا خساراً .

(لكل امرئ منهم ما اكتسب من الأثم) . ضمير منهم يعود الى أهل الإفك ، والمعنى ان لكل واحد من هؤلاء من العذاب بقدر ما أشاع وأذاع من الكذب والافتراء، وفي ان تهمة القذف ثبتت على حسان بن ثابت ومسطح وامرأة من قريش ، فأقام النبي (ص) عليهم الحد ، وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة ، أما عبد الله بن أبي فقد دبر الحملة وأفلت من حد القذف لشدة حذره بعد ان أوقع فيها غيره ، وهو المقصود بقوله تعالى : (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) في الدنيا بافتضاحه واطهار كيده وزيفه على الناس ، حتى طالب برأسه من أجل ذلك أحد سادة الخزرج ، وأيضاً طالب بها احد سادة الاوس ، وألح في طلبها كثير من شباب الانصار ، ومنهم ابنه بالذات ، أما عذابه في الآخرة فألم وأعظم .

(لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين) . الهاء في سمعتموه تعود الى الإفك . وبأنفسهم أي ظن بعضهم ببعض لأن بني الانسان جميعاً متكافلون متضامنون ، وبالخصوص المؤمنين فإن الايمان عهد وذمام ، وفي الحديث : المؤمنون كنفس واحدة : وفي الآية ١٠ من الحجرات : انما المؤمنون اخوة . هذا النحو من الاستعمال كثير في القرآن ، منه : « ولا تقتلوا أنفسكم - ٢٩ النساء » . ومنه : « فسلموا على أنفسكم - ٦١ النور » . وتشير الآية الى ان المؤمن حقاً لا يجوز له اذا سمع الإفك والباطل ان يسكت عنه . أما القول المشهور : اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب فان المراد به الكلام من غير علم ، وكلام اللغو والباطل كالكذب والغيبة والنميمة .

وتسأل : ان قوله تعالى : (وقالوا هذا إفك مبين) يدل على ان المؤمن

سورة النور

يجب أن يجزم بتكذيب الفاحشة وحديث الزنا بمجرد سماعه ، ودون أن يتثبت ، ولا يتفق هذا مع المبدأ العقلي والاسلامي القائل : ان النافي بلسان الجزم تماماً كالمثبت ، كل منهما يحتاج الى دليل قاطع ؟ .

الجواب : أجل ؛ لا شك في هذا المبدأ ، وانه عام لكل شيء ، ولكن ليس المراد بالنفي هنا نفي الزنا في الواقع وفي علمه تعالى ، كلا ، بل المراد نفي حكمه وآثاره كاقامة الحد واللغو فيه ، واعتباره كأن لم يكن في الواقع الا اذا ثبت بالطريق الشرعي ، فاذا انتهى طريق الاثبات انتهى الحكم قطعاً ، ولذا يحد القاذف ثمانين جلدة مع عدم الاثبات ، وبتعبير ثان ان عدم الدليل الشرعي على الزنا دليل على عدمه حكماً وآثاراً ، وأقوى الشواهد على ذلك قوله تعالى : (لولا جاءوا عليه - أي على الزنا - بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أي كاذبون في حكم الله بالدنيا ، أما علمه تعالى الذي يتعلق بالأشياء على حقيقتها فيبتي عليه حكم الآخرة .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) . أفضتم نخضتم ، وضمير فيه للإفك وحديثه ، ورحمته تعالى في الدنيا على من عصى هي السر والامهال لكي يتوب ، وفي الآخرة العفو اذا تاب وأتاب ؛ ثم بين سبحانه سبب استحقاقهم العذاب العظيم دنيا وآخرة ، بيّنه بقوله : (اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) . تديرون حديث الافك بالسنتكم ، وينقله بعضكم عن بعض من غير دليل ، وتظنون ذلك سهلاً وهو من أعظم الذنوب والآثام عند الله ، ومن أقوال الإمام علي (ع) : اللسان سبع إذا خُلِي عنه عقر .

(ولولا اذ سمعتموه قلم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا) من الأساس فضلاً عن الشك فيه ، بل ينبغي تنزيه اللسان عن حديث الزنا ، حتى ولو ثبت بالبينة الشرعية إلا في مقام الردع والزجر عنه .. والذين يتحدثون ويتلذذون بحديث الزنا والفجور هم اراذل الناس وشرارهم (سبحانهك هذا بهتان عظيم) وأي شيء أعظم بهتاناً وانماً من الافتراء على الأبرياء ؟ والمؤمن الحق يذب عن أخيه المؤمن ، ولا يتهمه بالسوء والشر ما وجد له في الخير سبيلاً .

الجزء الثامن عشر

(يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين) . يعظكم ينهاكم ، ومثله أي مثل حديث الإفك ، فلا يجوز اللغو فيه والاستماع اليه .. وفي تعليق الاطاعة على الايمان اشارة الى ان المؤمن إذا نهاه الله عن شيء أو أمره به امتثل وأطاع (ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) . يفصل ويوضح لنا الحلال والحرام في كتابه وعلى لسان نبيه ، ويعلم العاصي منا والمطيع ، ويعامل كلاً بعلمه وعدله وحكمته .

(ان الذين يخبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) الفاحشة على حذف مضاف أي حديث الفاحشة .. ولا فرق بين من فعل الفاحشة ومن أشاعها ، فكل منهما يقام عليه الحد إذا ثبت عليه الفعل أو القذف ؛ وله في الآخرة عذاب الحريق .. وكل ناقص يود ان يكون له أشبهه ونظائر ، لأن من يحمل علامات النقص لا يطبق رؤية الكمال على غيره (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) والمؤمن لا يقول ولا يفعل بغير علم ، بل يرد ما يجهل الى من يعلم (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم (وان الله رؤوف رحيم) بعباده يريد لهم الخير ، وان أرادوا الشر لأنفسهم .

لا تتبعوا خطوات الشيطان الآية ٢١ - ٢٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ

سورة النور

الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ *

اللغة :

لا يأتل لا يحلف ، من قولك : آليت إذا حلفت . والمراد بالمحصنات هنا
ذوات العفة والصون وبالغافلات سلبيات الصدور اللاتي لا يفكرن في الفاحشة .

الإعراب :

من احد (من) زائدة إعراباً وأحد مفعول زكى . والمصدر من ان يؤتوا
منصوب بنزع الخافض أي على الايتاء . واللام في ليعفوا وليصفحوا لام الأمر .
والا تحبون (الا) هنا للتحضيض مثل هلا . والمصدر من أن يغفر مفعول تحبون .
يوم تشهد: (يوم) متعلق بما تعلق به لهم عذاب ألم . ويومئذ متعلق بيوفيههم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) بإشاعة الفحشاء في الذين
آمنوا ، ولا بشيء مما يوسوس به ويدعوكم اليه (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه
يأمر بالفحشاء والمنكر) . من أمكن الشيطان من نفسه قاده الى كل قبيحة ورذيلة
(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً) . لقد دلنا سبحانه على
طريق الخير وطريق الشر ، ونهانا عن هذا ، وأمرنا بذلك ، وزودنا بالقدرة على

الجزء الثامن عشر

الفعل والترك ، وفتح باب التوبة لمن عصى وأذنب ، وهذا هو فضله ورحمته ، أما تركيته فلا تمنحها إلا لمن سمع وأطاع (ولكن الله يركي من يشاء والله سميع عليم) وحكيم أيضاً لا يركي إلا أصحاب الأعمال الزاكية ، والقلوب الصافية .

(ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) . روي ان هذه الآية نزلت في أبي بكر حين حلف ان لا ينفع مسطح بن اثانة أبداً بعد أن اشترك مع من اشترك في اشاعة الفاحشة في ام المؤمنين ، وقد اجتمعت هذه الصفات الثلاث في مسطح أي القريبى من أبي بكر ، والمسكنة والهجرة في سبيل الله ، فهو ابن خالة أبي بكر ، وهو مسكن لا مال له ، وهو من المهاجرين والبدرين (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) . هذا وعد من الله سبحانه ان يعفو ويرحم من عفا وصفح عن أساء اليه .. وكان الإمام زين العابدين (ع) يعنو عن سيء اليه ، ثم يخاطب الله بقوله : ربنا انك أمرتنا بالعفو عن ظلمنا ، وقد عفونا كما أمرت ، فاعف عنا ، فانك أولى بذلك منا ومن المأمورين .

(ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) . في الآية ٤ من هذه السورة بين سبحانه ان من يقذف امرأة بالزنا ، ولم يأت بأربعة شهداء فعقوبته في الحياة الدنيا أن يجلد به الحاكم الشرعي ثمانين جلدة كائناً من كان القاذف ، وسكت سبحانه عن عقوبة القاذف وعذابه في الآخرة ، وفي الآية التي نفسرها بين جل وعز ان عقاب القاذف في الآخرة هو العذاب العظيم اذا كانت المقدوفة عفيفة بريئة مما رميت به ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : الغافلات أي الذاهلات عن الزنا ، لا يفكرن فيه ، أو لا يفعلنه والأمر كذلك فيمن قذف بالزنا عفيفاً بريئاً .

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) . في الدنيا يحتاج المدعي الى شهود - مثلاً - اذا ادعت امرأة ان فلاناً قذفها بالزنا، وأنكر المدعى عليه ، فعليها الاثبات ، فان عجزت ردت دعواها ، أما في الآخرة فلا تحتاج الى شهود ، ولا تطالب بهم لأن الفاعل لا سبيل له الى الانكسار ، ولو افترض انه أنكر أو حاول شهدت عليه جوارحه وأعضاؤه ، فكل عضو يشهد

سورة النور

على المهمة التي أداها ؛ فإسائه يشهد على الكلام ، ويده على البطش ، ورجله على المشي وهكذا (يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين). المراد بدينهم هنا جزاؤهم الواجب ، والمعنى ان الله سبحانه يحاسبهم غداً، ويجزيهم جزاء الحق والعدل ، وعند ذلك يعلمون ان ما وعدهم به من البعث والحساب والجزاء حق لا مهرب منه .

الحبيثات للخبيثين الآية ٢٦ - ٢٩ :

الْحَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ
لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْمَعُوا
عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا
فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ
أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا
بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
تَكْتُمُونَ *

اللفظة :

تستأنسوا تستأذنوا . والجناح الحرج والأثم . والمتاع ما يتمتع به الإنسان في العاجل .

الإعراب :

تستأنسوا منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، ومثله حتى يؤذن . وتذكرون أصله
تذكرون . والمصدر من ان تدخلوا مجرور بفي محذوفة .

المعنى :

(الحبيثات للخبيثين والحبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) .
الحبيث هو القبيح من كل شيء ، فيشمل العقيدة والنوايا والصفات والأقوال والأفعال
بشئ أنواعها ، ولا يختص بالزنا ، والطيب هو الحسن من كل شيء ، وأطلق
القرآن الكريم كلمة الحبيث على الرديء من الأرض والمال والكلام والمأكول المحرم ،
وعلى كل من استحق سخط الله وعذابه من شياطين الانس والجن .. وقال جماعة
من المفسرين : المراد بالحبيثات هنا من خبث من النساء ، وبالحبيثين من خبث
من الرجال ، وبالطيبات من طاب منهن ، وبالطيبين من طاب منهم ، وان معنى
الآية : الحبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والحبيثون منهم للخبيثات منهن ،
وكذلك الطيبون والطيبات .

وهذا القول لا يتفق مع الواقع ، فلقد رأينا الحبيثة يتزوجها الطيب ، والطيبة
يتزوجها الحبيث ، بل لا يتفق هذا مع صريح القرآن ، قال تعالى : « ضرب
الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين
فخانتاهما » الى قوله « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب
ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله - ١١ التحريم » . ومعلوم
ان نوحاً ولوطاً نبيان معصومان ، وان فرعون هو القائل : أنا ربكم الأعلى .

والذي نراه ان المراد بالحبيثات في الآية ما خبث من الأقوال والأفعال ،
وبالطيبات ما طاب منها ، وبالحبيثين من خبث من الرجال والنساء تغليبا للذكور
على الاناث ، وبالطيبين من طاب منهم ومنهن أيضاً من باب التغليب ، وعليه
يكون المعنى ان ما خبث من الأقوال والأفعال لا يصدر إلا ممن خبث من الرجال

سورة النور

والنساء وما طاب من الأقوال والأفعال لا يصدر إلا ممن طاب منهم ومنهن ،
تماماً كما قال الشاعر : « وكل اناء بالذي فيه ينضح » .

(أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) . أولئك اشارة الى
الطيبين والطيبات ، وضمير يقولون يعود الى الخبيثين والخبيثات ، وان الله سبحانه
ينعم بالغفران والجنان على من طاب نفساً وفعلاً .

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على
أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) . حتى تستأنسوا أمر بالاستئذان قبل الدخول
الى بيت الغير تماماً كقوله تعالى : « واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا - ٥٩
النور » ، فكل من يريد الدخول الى بيت الغير فعليه أن يستأذن أولاً ، لأن
الدخول تصرف في مال الغير ، فلا يحل إلا بإذن صاحبه، ومن هنا قال الفقهاء :
الاستئذان واجب ، والسلام مستحب ، ويكفي في الاستئذان والاذن كل ما دل
عليها ، فقرع الباب استئذان ، وأهلاً وسهلاً إذن ، وبعد الاذن يدخل ويسلم .
(فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) . وتساءل : ان لم
يكن في الدار أحد فمن الذي يأذن بالدخول ؟ .

وأجاب الشيخ المراغي وغيره بأن المراد « ان لم يكن فيها أحد يملك الاذن
بأن كان فيها عبد أو صبي » . والأرجح في الجواب ان الدار ان كانت خالية
من أهلها فلا يجوز للغريب عنها أن يدخلها إلا إذا رأى صاحبها أولاً ، وأذن ،
كما لو قال له : اذهب الى داري وائتني منها بكذا، أو اسبقني اليها وأنا لاحق بك .
(وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أركى لكم) ولا تلحوا في طلب الدخول ،
ولا يكن في أنفسكم أية غضاضة على صاحب البيت ، واحملوه على الأحسن وقولوا :
له عذر مشروع . انظر تفسير قوله تعالى : « وقولوا للناس حسناً - ٨٣ البقرة »
ج ١ ص ١٤١ فقرة : « أصل الصحة » (والله بما تعملون عليم) . هذا تهديد
ووعيد لمن يشتم ويستغيب من لا يأذن له بدخول بيته .

(ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم) . المراد
بهذه البيوت الأماكن العامة كالفنادق والحوانيت ، فمن كان له متاع في فندق أو
في حانوت فله ان يدخله ويأخذ متاعه منه دون أن يستأذن صاحبه إذناً خاصاً لأن

الجزء الثامن عشر

من فتح بابه للجميع فقد اذن لهم اذناً عاماً ، وأيضاً لا أسرار لصاحب الفندق والحائوت فيها ، فلا موجب - اذن - للاستئذان (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) . فيه إجماع الى أن الانسان لا يحل له أن يدخل بيت غيره بقصد الحياة والاساءة الى أهله ، وان من قصد ذلك فإن الله يعلم قصده ، ويؤاخذه عليه .

الحجاب وغض النظر الآية ٣٠ - ٣١ :

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنَ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

اللفة :

الخمير جمع خمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها . والجيوب جمع جيب ، وهو فتحة في أعلى القميص ، والمراد به هنا الصدر . والإربة الحاجة والمراد بها الحاجة

سورة النور

الى النساء . ولم يظهروا على عورات النساء أي لا يدرون ما هي ، ولا يفرقون بينها وبين غيرها من أعضاء الجسم .

الإعراب :

يغضوا مضارع مجزوم بلام الأمر المحذوفة أي ليغضوا . والا ما ظهر بدل من زيتهن . والا ليعولتھن بدل باعادة حرف الجر من لأحد المحذوف أي ولا يبدین زيتهن لأحد الا ليعولتھن . وغير اولي الإربة صفة للتابعين .

المعنى :

هاتان الآيتان من آيات الاحكام ، وقد تضمنتا وجوب غض النظر على النساء والرجال ، وحفظ الفروج من الزنا، والحجاب ، والتفصيل فيما يلي :

١ - (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) . أمر سبحانه الرجال أن يكفوا عن النظر ، ولكنه أطلق ولم يذكر متعلق الفعل ، وييسين عن أي شيء يكفون أبصارهم ، سكت سبحانه عن ذلك معولاً على دلالة السياق ، فان الظاهر منه تحريم النظر الى الأجنبية .. وقد اتفق أكثر الفقهاء على ان الرجل لا يجوز له النظر الى شيء من بدن الأجنبية إلا الى وجهها وكفيها شريطة أن يكون النظر من غير تلذذ ، وان لا يخشى معه الوقوع في الحرام .. هذا اذا كانت المرأة مسلمة يحرم دينها السفور، أما غيرها التي لا يحرم دينها السفور فقد اختلف الفقهاء في جواز النظر الى غير الوجه والكفين منها ، فأجازه جماعة منهم، وأجازوا أيضاً النظر الى شعور المسلمات من أهل البوادي لأنهن لا ينتهين اذا نهين .

٢ - (ويحفظوا فروجهم) من الزنا ، وأدخل سبحانه كلمة « من » على الأبصار دون الفروج لأن الفرج يجب صيانته إلا في حالة واحدة ، وهي خلوة الزوجين على عكس النظر فانه لا يحرم إلا في بعض الحالات (ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون) . ذلك إشارة الى الغض عن المحرمات ، وهو أظھر للنفس ، وأقرب للتقوى ، وأبعد عن الذنوب والآثام .

الجزء الثامن عشر

٣ - (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) . قال فقهاء الشيعة الإمامية : يحرم على المرأة أن تنظر من الرجل ، ما يحرم عليه أن ينظر منها ، ويحل لها أن تنظر منه ما يحل له أن ينظر منها أي إلى الوجه والكفين فقط ، ومعنى هذا أن المرأة لا يحل لها أن تنظر إلى شعر الرجل ، تماماً كما لا يحل له أن ينظر إلى شعرها ، وقال غيرهم : بل يجوز أن تنظر إلى جميع بدنه إلا ما بين السرة والركبة . والتفصيل في كتابنا الفقه على المذاهب الخمسة ، فصل ما يجب ستره وما يحرم النظر إليه من البدن .

٤ - (ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها) . المراد بالزينة هنا موضعها لأن الزينة بما هي لا يحرم النظر إليها ، والمراد بالظاهر من موضع الزينة الوجه والكفان فقط ، وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على وجوب الحجاب ، وأن جميع بدن المرأة عورة إلا ما استثني منه أي الوجه والكفين ، فقد سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن الذراعين : هل هما من الزينة التي قال الله عنها : ولا يبدن زينتهن ؟ فقال : نعم ، وما دون الوجه والكف من الزينة . أي المحرمة . وفي أحكام الآيات للجصاص أحد أئمة الأحناف : « المراد بما ظهر الوجه والكفان » . وفي تفسير الرازي الشافعي : « اتفقوا على أن الوجه والكفين ليسا بعورة » .

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) . يضربن أي يلقين . والخمار غطاء الرأس . والجيب فتحة القميص ، والمراد به هنا الصدر من باب اطلاق اسم الحال على المحل ، والمعنى يجب على النساء أن يسدلن الأخرمة من الأمام ليسترن الصدور والنحور .. وكان نساء الجاهلية يغطين رؤوسهن بالأخرمة ، ويسدلنها من وراء الظهر ، فتبدو صدورهن ونحورهن ، ويقين على ذلك حتى نزلت هذه الآية ، فأسدلن الأخرمة إلى الأمام يسترن بها الصدور والنحور .

سفور أو متجر لبيع اللحوم ؟

رخص الاسلام للمرأة أن تكشف عن الوجه والكفين لأن ضرورة الحياة تستدعي ذلك، واعتبر ما عداها عورة لأنه طريق المخاطر والمهالك، قال الرسول الأعظم (ص):

سورة النور

« من رعى غنمه حول الحمى نازعته نفسه أن يرعاها فيه » .. وهذا هو الواقع المشهود ، فأنتى أتجهت ببصرك رأيت له العديد من الصور .. فما ان اسفرت المرأة عن شعرها حتى ذهبت الى الحلاق ، ومنه الى كشف الصدر والكتف والساق ، الى « الميني جيب والمكريجيب » الى الأزياء التي تتطور يوماً فيوماً ، وتجسم الأنوثة وتحكيها عضواً عضواً ، وتعرضها في الشوارع والأسواق كأنها لحم في متجر جزار .. والسر ان أكثر النساء لا يذهبن الى أبعد من اظهار زيتهن وعرض جهاهن .

وأعجب ما قرأته في هذا الباب ان في مدينة هامبورغ بألمانيا الغربية شارعاً رهيباً يصطف على طول جانبيه محلات ، وفي كل محل تعرض في واجهاته نساء على الزبائن والناظرين ، وهن عرايا في أوضاع شاذة لا تخطر على بال .. وان كل ما يبدو مستحيلاً فهو متحقق بالفعل ، ويستمر هذا العرض طوال الليل والنهار .. هذه هي عاقبة الحرية الزائفة .. قرأت هذا ، وأنا أرتجف من هول ما قرأت ، وأول شيء أوحى به اليّ هذا الشارع العاري انه في المستقبل القريب أو البعيد سينتقل الى بلادنا ، تماماً كما انتقل الميني جيب وغيره ، ما دمنا مستمرين في محاكاة الغرب .. نستجير بالله مما يحبه الغد .

وبهذه المناسبة نشير الى ان المرأة اذا كانت مولعة باظهار زيتنها وجهاها، وتجسم أنوثتها بكل أسلوب فان كثيراً من الرجال مولعون باظهار شخصيتهم وإصاق الشهرة بهم ، ولو كذباً وخداعاً ، واذا كانت المرأة تحقد وتحسد من ينافسها في الزينة والجمال فان الرجال المولعين بالشهرة أكثر حسداً ، وأشد حقداً على من له اسم يذكر .. في سنة ١٩٥٧ نشر كاتب مصري كلمة يسخر فيها من فتوى شيوخ الأزهر بتحريم لبس « المايو » للمرأة ، وقال فيما قال : ان الاسلام بريء من هذه الفتوى .. فنشرت كلمة في الرد عليه، وأثبت ان شيوخ الأزهر نطقوا بكلمة الاسلام والقرآن ، واستشهدت بآية : « ولا يبدين زيتهن » .

وبعد أيام صادف ان زرت شيخاً مع أحد الزملاء ، ولما استقر بنا الجلوس أقبل عليّ الشيخ وقال : كيف تحلل لبس « المايو » وترد على شيوخ الأزهر الذين أفتوا بتحريمه ؟ .

الجزء الثامن عشر

قلت : بالعكس ، أيدت فتوى الشيوخ ، وفندت رأي من رد عليهم .
قال : كلا ، وقد احتفظت بالصحيفة التي نشرت فيها كلمتك لأجابهك بها .
قلت : هاتها .. فقام مسرعاً ، وجاء بالصحيفة وشرع يقرأ بحماس كالظافر المتصر .

قلت : ماذا رأيت ؟.. فهت وأسقط في يده .. وحضر هذا المشهد - والله الحمد - رفيقي السيد وشيخ من أقارب الشيخ - على الهامش ما زال الشاهدان من الأحياء ، نحن الآن في صيف سنة ١٩٦٩ .

ولا أجد تفسيراً لاقدام هذا الشيخ على تكذيب نفسه بنفسه إلا انه - غفر الله له - كان يتمنى لي العثرات واللعنات ، فأخذ يبحث بالسراج والفتيلة - كما يقول العاملون - ليشيعها ويذيعها ، ولما قرأ اسمي في الصحيفة تحرك حقه الكامن المكبوت ، وطفى حبه للتشهير بي على بصره وبصيرته ، فأراه البياض سواداً ، والحق باطلاً .. ولا بدع فان البغض تماماً كالحب يعمي ويصم ، وصدق الله العظيم : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون - ١٧٨ الأعراف » .
وما ذكرت هذا الحديث شاكياً أو متبرماً .. كلا ، فقد علمتني التجارب ان لا أبالي بالكواذب ، ولكن أملاه عليّ القلم ، ولم يدع لي سبيلاً للاختيار ، وهذا شأنه معي كلما انصرفت اليه .

وبعد أن نهى سبحانه النساء المسلمات عن كشف مواضع الزينة إلا الوجه والكفين ، بعد هذا رخص لمن بابداء غيرهما لاثني عشر صنفاً :

١ - (ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن) فلكسل من الزوجين ان يرى من صاحبه ما يشاء .

٢ - (أو آبائهن) ويدخل فيهم الأجداد من الأب والأم .

٣ - (أو آباء بعولتهن) ويدخل في آباء الأزواج الأجداد من الأب والأم .

٤ - (أو أبنائهن) وولد الولد ولد ذكراً كان أو أنثى .

٥ - (أو أبناء بعولتهن) وان نزلوا .

٦ - (أو اخوانهن) من الأم والأب أو من أحدهما .

سورة النور

٧ - (أو بني اخوانهن) وان نزلوا .

٨ - (أو بني اخواتهن) كذلك .

٩ - (أو نسائهن) يحرم على المسلمة ان تتجرد من عورتها أمام مثلها حتى ولو كانت أمها أو ابنتها ، كما يحرم عليها أن تنظر الى عورتها .. ويحل لها ان تتجرد عما عدا السوءة أمام مسلمة مثلها ، ولا يحل ذلك أمام غير المسلمة ، هذا ما دلت عليه الآية ، وما خالفها فترك . وفي بعض الروايات ، ان المسلمات اذا تجردن أمام غير المسلمات وصفن ذلك لأزواجهن .

١٠ - (أو ما ملكت إيمانهن) من الاماء والجواري ، أما العبد فلا يجوز له ان ينظر الى سيدته إلا الوجه والكفين ، ولو كال خصياً ، وما خالف ذلك الأقوال والروايات فترك .. وعلى أية حال فإنه لا موضوع اليوم لهذا الحكم ، حيث لا إماء ولا عبيد .

١١ - (أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال) وهم الذين يخالطون الأسرة ، ويتبعونها في أكثر الأحيان ، ولا شهوة لهم في النساء لسبب بدني كالهرم والعنن أو عقلي كالعته .

١٢ - (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) المراد بالطفل الجنس ، وهم الصبيان الذين لا يفرقون بين العورة وغيرها من أعضاء البدن .
(ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) كان النسوة يلبسن الخلاخل ، وما زالت هذه العادة في كثير من البلدان العربية ، وكان بعضهن يضربن الأرض بأرجلهن لتقعق خلاخلهن لتهيبج الرجال أو الإشعار بأنهن من ذوات الخلاخل ، فنهاهن الله عن ذلك . وفيه إيماء الى ان على المرأة أن لا تأتي بأية حركة تثير الشهوة وتوقظ المشاعر (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) . انتهوا عما نهى الله ، ومن سبقت منه الخطيئة فليتداركها بالتوبة فإنها مسموعة عند الله .

وانكحوا الايامى منكم الآية ٣٢ - ٣٤ :

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا

فَقَرَاءُ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ
مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ
اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ
إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا
مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ *

اللغة :

الأيامى جمع ايم ، وهو غير المتزوج رجلاً كان أو امرأة بكرة كسانت أو
ثيباً . والإماء جمع أمة ، وهي المملوكة . والمراد بالكتاب هنا مكاتبه العبد مع
سيده على مال معين فإن أداه كاملاً يصبح حراً . والبغاء الزنا . والتحصن العفة .

الإعراب :

منكم متعلق بمحذوف حالاً من الأيامى ، ومن للبيان . ومثلها من عبادكم .
وحتى يغنيهم الله الفعل منصوب بأن بعد حتى . والمصدر المجرور بلام لتبتغوا
متعلق بتكرهوا .

المعنى :

(وأنكحوا الأيامى منكم) . الخطاب للمسلمين جميعاً ، والأمر هنا للاستحباب ،

سورة النور

لا للوجوب ، والايام من لا زوج له ، ويطلق على الأعزب والعزباء .. بعد أن أمر سبحانه الرجال والنساء بحفظ الفروج ، والكف عن النظر المحرم ، ونهى النساء عن التبرج وابداء الزينة أمام الأجانب - بعد هذا أمر بالتعاون على تيسير الزواج لكل من احتاج اليه من النساء والرجال ، لأن العزوبة مصدر القبائح والردائل كالزنا واللواط، والزواج وقاية من ذلك، ولذا قال الرسول الأعظم (ص): شراركم عزابكم .. الزواج من سنتي ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .

(والصالحين من عبادكم وامائكم) . المراد بالصالحين هنا المؤمنون . والعباد جمع عبد . والإماء جمع أمة، والمعنى وأيضاً زوجوا ما تملكون من العبيد والاماء إذا كانوا مؤمنين .. ولا موضوع اليوم لهذا الحكم (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) . أكثر الناس لا ينظرون الى دين الخاطب وأخلاقه ، بل ينظرون الى جاهه وماله .. فتد سبحانه بمن يفعل ذلك ، وقال : ان الله قادر على ان يغني الفقير ، ويفقر الغني ، والفقير عنده تعالى هو فقر الدين والأخلاق ، وفي الحديث : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير (والله واسع عليم) يسع بفضلته ورحمته من سأله ومن لم يسأله .

(وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) . وتسال : قال سبحانه في الآية السابقة : (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) . وهذا بظاهره وعد منه تعالى بالغنى للفقير ، وانه لا ينبغي له أن يمتنع عن الزواج لمجرد الفقر لأن الله يكفيه ويغنيه .. ثم قال جل وعز بلا فاصل : من لا يجد المهر والنفقة للزواج فلا يدخل في الفاحشة ، وعليه أن يصبر حتى يوسع الله .. فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : لا تنافر بينهما كي يُسأل عن وجه الجمع ، لأن المقصود بالآية الأولى أولياء المرأة ، وانه لا ينبغي لهم أن يردوا الخاطب لفقره، والمقصود بالآية الثانية الفقير بالذات ، وان الناس اذا ردوه ولم يزوجه لفقره فعليه أن يصبر ويسعى متكللاً على الله حتى تنهيا له أسباب الزواج .

(والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) . من كان عنده مملوك قادر على الكسب عبداً

الجزء الثامن عشر

كان أو أمة فله أن يكاتبه، أي يتفق معه على أن يؤدي المملوك مبلغاً من المال في وقت معين قسطاً واحداً ، أو أقساطاً ، فان أداه كاملاً الى سيده يصبح المملوك حراً ، وإذا أدى البعض أعتق منه بقدر ما أدى ان كان العقد مطلقاً غير مشروط بتأدية الجميع ، والا لم يعتق منه شيء ، وقيل : العبد لا يتبعض، إما أن يتحرر كاملاً ، واما ان يكون رقاً كذلك ، ويستحب للسيد ان يحط عن المملوك شيئاً من المال المتفق عليه ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (وآتوهم من مال الله) وقد اصطلح الفقهاء على تسمية هذه المعاملة بين المملوك وسيده بالمكاتبه لقوله تعالى: يتفون الكتاب .. فكاتبوهم .

(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) . المراد بالفتيات هنا الاماء ، ولا وجود لهن في هذا العصر ، والبغاء الزنا.. وكان أهل الجاهلية يُكرهون الاماء والجواري على الزنا التماساً للمال، فنهى سبحانه عن ذلك. وتساءل : ان الظاهر من قوله تعالى : (ان أردن تحصناً) ان اكره الأمة على الزنا انما يحرم اذا أرادت العفة والصون ، أما اذا أرادت الزنا ورغبت فيه فلا بأس أن تزني ، مع العلم بأن الزنا محرم في شتى الأحوال ؟ .

الجواب : ان المعنى المراد من أداة الشرط يختلف باختلاف المقاصد والقرائن ، فقد يكون المراد بأداة الشرط مثل (ان) و (إذا) القيد والتعليق حقيقة وواقعاً أي ان يقصد المتكلم تحقيق المشروط عند وجود شرطه ، وعدمه عند عدمه ، ومثال ذلك أن تقول لصاحبك : ان فعلت أنت هذا فعلت أنا مثله . فقد علقته فعلك على فعل صاحبك ، وجعلت فعله شرطاً لفعلك بحيث إذا لم يفعل هو لم تفعل أنت .

وقد يقصد المتكلم بأداة الشرط مجرد بيان الموضوع من غير تعليق شيء على شيء ، مثل ان تقول لصاحبك : ان رزقت ولداً فلا تشتري له دراجة ، فأنت لا تريد بكلمة (ان) هنا القيد والتعليق ، وإنما أردت ابداء رأيك وكراهيتك أن يركب الأولاد الدراجة ، ولو أردت الشرط والقيد لكان المعنى ان لم تزرق ولداً فاشتر لوليدك دراجة .. وهذا هو الهديان بعينه ، وقوله تعالى : (ان أردن تحصناً) من هذا الباب أي ان كلمة (ان) لا يراد بها القيد والشرط ، بل

سورة النور

ذُكرت لمجرد بيسان الواقع ، وإنه اذا أرادت الأمة العفة والصون فبالأولى ان تريدوها أنتم .. ولو أريد بكلمة (ان) التعليق والشرط حقيقة لكان المعنى : عليكم أن تکرهوا الفتيات على فعل الزنا ان اردن الزنا .. وبداهة ان الاكراه لا يتصور مع وجود الارادة، تماماً كما لا يتصور ركوب الدراجة من الولد مع عدم وجوده .

المنطوق والمفهوم :

وبتعبير ثان ان كلمة (ان) و (اذا) وما اليها تدل على شيء واحد في مقام ، وتدل على شيئين في مقام آخر ، وتسمى احدى الدالتين بدلالة المنطوق ، والثانية بدلالة المفهوم في اصطلاح أهل الاصول ، والمنطوق هو النص الحرفي الذي يتفوه به المتكلم ، والمفهوم هو الذي لم ينطق به ، ولكن يدل عليه بالتلويح والاشارة ، لا بالنص والعبارة ، ومثال ذلك ان تقول لصاحبك : ان أكرمتني أكرمتك ، فالمنطوق هنا يدل على اكرامك له عند اكرامه لك .

أما المفهوم فهو الذي يشير اليه المنطوق ، ويستفاد من مضمونه لا من نصه ، وهو في المثال المذكور ان لم تكرمني فأنا لا أكرمك ، فهذه الجملة لم ينطق بها المتكلم ، ولكنها مفهومة من منطوق كلامه المشتمل على (ان) . والآية التي نحن بصددنا من النوع الأول أي لها دلالة واحدة ، وهي دلالة المنطوق والعبارة فقط ، وليس لها دلالة المفهوم والاشارة اطلاقاً .. والمنطوق الذي دلت عليه الآية هو عدم جواز الإكراه على الزنا مع ارادة السر ، ولا شيء وراء هذه الدلالة على الاطلاق ، لأن هذا الشيء الذي وراء المنطوق لا يخلو ان يكون واحداً من اثنين : إما جواز الاكراه على الزنا مع ارادته والرغبة فيه ، وهذا محال لأن الاكراه على الشيء لا يجتمع مع ارادته والرغبة فيه ، وهذا واضح ، واما جواز الاكراه مع عدم ارادته ، وهذا محال من الله لأنه تعالى لا يبيز الفحشاء بحال من الأحوال .

(ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم) للمكروهات على الزنا لأن العقاب على من أكره ، لا على من استكره ، قال الرسول الأعظم (ص) : رفع عن أمي ما استكرهوا عليه .. ومن أكره غيره على الحرام يغفر له الله إذا

الجزء الثامن عشر

تاب وأتاب (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) . المراد بالآيات أحكام القرآن وتعاليمه ، وهي ظاهرة واضحة و (مثلاً) إشارة الى أخبار الماضين وقصصهم ، وموعظة للمتقين أي هدى لمن طلب الهداية ، والمعنى ان الله سبحانه أنزل القرآن تبياناً واضحاً لما نحتاج اليه من الأحكام ، ونبأ عن الماضين ، وهدى لمن اثم به ، وعزاً لمن تولاه .

الله نور السموات والأرض الآية ٣٥ - ٣٨ :

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

اللغة :

المشكاة تطلق على الكوة في الحائط غير نافذة بوضع فيها المصباح ونحوه ،

سورة النور

وأيضاً تطلق على العمود الذي يكون المصباح على رأسه . درّي أي يشبه الدر في صفاته . والغدو جمع غدوة ، وهي الصباح ، والآصال جمع أصيل ، وهو المساء .

الإعراب :

زيتونة بدل من شجرة ، وما بعدها صفة . نور على نور (نور) خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك نور على نور و (على نور) متعلق بمحذوف صفة لنور . والمصدر من ان ترفع منصوب بترع الخافض أي بأن ترفع . وفي بيوت متعلق بيسبح ، وفيها بدل من في بيوت مثل : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها - ١٠٨ هود » . ورجال فاعل يسبح . وليجزئهم متعلق بمحذوف أي فعلوا ذلك ليجزيهم . وأحسن مفعول ثانٍ ليجزيهم لأنه بمعنى يعطيهم .

المعنى :

أشار سبحانه في كتابه العزيز الى عظمة الكون وما فيه مئات المرات ، معبراً عنه في العديد من آياته بالسموات والأرض .. والغرض من ذلك ان يستدل الانسان بعظمة الكون على وجود المكوّن وعظمته ، وأن يكون على يقين من ربه وخالقه ، وقد ذكر سبحانه في بعض الآيات ان خلق الكون أشد وأكبر من خلق الانسان على ما فيه من بديع الصنع ، وجمال الخلق ، قال تعالى : « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها - ٢٧ النازعات » . وقال : « نخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٥٧ غافر » .

فالسموات والأرض بإحكامها وترتيبها ونظامها هي أعظم الأدلة وأظهرها على عظمة الخالق في قدرته وعلمه وحكمته .. ولأن الكون أوضح الأدلة على وجود الله، ولأن النور أظهر من كل ظاهر قال سبحانه : (الله نور السموات والأرض) . والمراد بنور الله عظمته في قدرته وعلمه وحكمته ، وتتجلى هذه العظمة في خلق

الجزء الثامن عشر

الكون ، فكل شيء في أرضه وسماؤه يدل دلالة صريحة واضحة على وجود الله وعظمته ، وهذا يتبين معنا انه لا فرق بين ان نقول : السموات والأرض نور الله ، وبين ان نقول : الله نور السموات والأرض ، لأن معنى الجملة الأولى ان عظمة الكون تدل على عظمة الله ، ومعنى الثانية ان عظمة الله تتجلى في عظمة الكون ، فهو تماماً مثل قولك : اتقان هذا البناء يدل على مهارة الباني ، ومهارة الباني قد تجلت في اتقان هذا البناء .

(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور) . هذا مثال ضربه الله سبحانه على وضوح الأدلة وظهورها على وجوده ، وانها قائمة في كل جزء من أجزاء الكون ، ويتلخص هذا المثال بسراج وضع في كوة بجدار البيت تحصر نوره وتجمعه ، ولا ينفذ اليه الهواء، وهذا السراج داخل قنديل من الزجاج الشفاف الصافي الذي يتلأأ كالكوكب المضيء ، أما الزيت الذي فيه فهو من زيتونة لا هي شرقية تصيبها الشمس عند شروقها فقط ، ولا هي غربية تصلها الشمس عند غروبها فقط ، بل هي شرقية غربية لأنها تواجه الشمس صباحاً ومساءً ، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا حائط ، ومن هنا جاء زيتها نقياً صافياً ، يكاد يضيء من غير احراق ، فإذا مسته النار أشرق نوره وتألقت (نور على نور) . نور المصباح ، ونور الزجاج الصافي ، ونور الزيت النقي . وبكلام أخصر زاد المصباح إنارة لنقاء الزيت، وصفاء القنديل وحصر الكوة لنور المصباح ووقايتها له من تلاعب الأرياح .

(يهدي الله لنوره من يشاء) إذا سلكوا السبيل الذي نصبه للهداية لأن الله سبحانه حكيم لا يفعل الشيء اعتباطاً ، والذين يهديهم ويشيهم هم الذين يرون دلائله ويعملون بها ، وقد أشار اليهم في الآية التالية بقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) الخ . (ويضرب الله الامثال للناس) ومنها هذا المثال البليغ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة (والله بكل شيء عليم) يعلم الجحود العنود لدلائله الساطعة وبيناته القاطعة ، ويجزيه جهنم وبس المهاد . (في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه) . المراد بالبيوت هنا المساجد،

سورة النور

وبرفعها بناؤها .. بعد ان ذكر سبحانه أنه يهدي لنوره من يشاء ذكر المساجد وانه تعالى قد رخص بيناتها لأن المؤمنين يعمرونها بالصلوات صباحاً ومساءً (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) . التجارة والبيع هنا كناية عن مطلق العمل للدنيا من أي نوع كان، وإنما حص التجارة بالذكر لأنها أكثر ربحاً وأقوى صارفاً من جميع الأعمال ، والمعنى ان المؤمنين يعملون للدنيا في الأسواق والحقول والمصانع وغيرها ، وأيضاً يعملون الآخرة ، فيصلون ويصومون ويزكون ويحجون ، ولا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، ولا الآخرة عن الدنيا عاملين بقوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا - ٧٧ القصص » .

(يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) هذا كناية عن هلع المجرمين وفزعهم، أما الطيبون فهم بأمان من الفرع الأكبر (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) من الصالحات والمبرات ، قال الإمام علي (ع) : لن يفوز بالخير إلا عامله ، ولن يجزي جزاء الشر إلا فاعله (ويزيدهم من فضله) أضعافاً مضاعفة (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أي بغير استحقاق ، بل تفضلاً منه وكرماً . قال صاحب الأسفار : من خلت صحيفته من السيئات دخل الجنة بغير حساب ، ومن خلت صحيفته من الحسنات دخل النار بغير حساب . وأما الذين يحاسبون فهم الذين خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً .

أعمالهم كسراب الآية ٣٩ - ٤٢ :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ

يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ
يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ* وَاللهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ*

اللفظة :

السراب شعاع من ضوء الشمس في الهجيرة يتخيله الرائي ماء يجري على الأرض .
وقية جمع قاع ، وهو المنبسط من الأرض . ولجى عظيم الماء تتراكم أمواجه .
ويغشاه يغطيه . وصافات باسطات أجنحتها في الهواء . والمصير المرجع .

الاعراب :

بقية الباء حرف جر ، وقية مجرور بها متعلقاً بمحذوف صفة لسراب . أو
كظلمات معطوف على سراب . من فوقه موج مبتدأ وخبر والجملة صفة موج .
من فوقه سحاب مثله . وظلمات خبر لمبتدأ محذوف أي هذه ظلمات . من نور
(من) زائدة اعراباً ونور مبتدأ . والطير عطف على من في السموات . وصافات
حال من الطير .

المعنى :

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم
يجده شيئاً) . المراد بالكافرين هنا من جحد نبوة محمد (ص) تعصباً وعناداً ،
أو عن اهمال وتقصير ، أي لم يبحث عن الحقيقة ، وهو قادر على البحث

سورة النور

والنظر .. بعد أن ذكر سبحانه الذين لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله ، وانه يجزيهم أحسن ما عملوا ذكر هؤلاء الجاحدين ، وانهم وثقوا بالباطل ، واعتقدوه حقاً ينفعهم عند الله ، تماماً كالظالمىء يثق بالسراب الغرّار الخدوع ، فاذا أراد أن ينهل منه وجده هجيراً يزيدة ظماً على ظماً .. ولا يختص هذا الوصف بمن كفر بالله أو بنوه عمداً (ص) .. كلا ، فانه ينطبق على الكثيرين من أمة محمد (ص) الذين يظنون بأنفسهم الخير والتقوى ، وهم مطية الشيطان ، وأعداء الرحمن .. وهل يجتمع الخير والتقوى مع الغرور والحقد على عباد الله ، والتكالب على الدنيا وحطامها ؟ .

(ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) . وجد الله أي وجد حسابه وجزاءه ، وضمير عنده يعود الى العمل ، أو الى المجيء الذي دلت عليه كلمة جاءه ، والمعنى ان الكافر يعتقد ، وهو في دار الدنيا انه سوف ينجو من عذاب الله بما قدم من صالح الأعمال.. ولكنه حين يقف بين يدي الله لنقاش الحساب لا يجد شيئاً مما توهم وتخيّل ، بل يجد ذنباً وآثماً ، وحساباً وعقاباً ، ونخاب منه الأمل تماماً كما نخاب من وثق بالسراب .

(أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها) . بحر عميق الغور ، تراكب فوقه الأمواج الواحدة فوق الأخرى ، وفوق الجميع سحاب ثقيل كثيف .. وهذا أبلغ تشبيه لأهل الشهوات والأهواء الذين غرقوا في بحر القبائح والرذائل : كذب ورياء وحقد ودس وغرور وكبرياء وطمع وحرص .. الى ما لا نهاية ، ومن عاش في هذه الظلمات التي لا يرى فيها شيئاً كيف يرى الحقيقة ويدركها ؟

(ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) . قال الطبرسي : المراد من لم يجعل الله له نجاتاً في الآخرة فلا نجات له . والذي نفهمه نحن ان الذين لا يهتدون الى طريق الحق الذي أرشدهم الله اليه فإنهم يعيشون في حيرة الجهل والضلالة .

(ألم تر ان الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون) . انظر الآية ٤٤ من سورة الإسراء ،

الجزء الثامن عشر

فقرة « كل شيء يسبح بحمده » (والله ملك السموات والأرض) لأنه خالقهما، والخالق هو المالك الحق (والى الله المصير) للحساب والجزاء .

الماء الآية ٤٣ - ٤٦ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ *
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

اللغة :

يزجي يسوق سوقاً رقيقاً . ركاماً متراكماً بعضه فوق بعض . ويؤلف يجمع .
والودق المطر والقطر . من خلاله من بينه . السنا بالقصر الضوء وبالمد المجد .
يقلب الليل والنهار يتصرف فيها .

الإعراب :

من جبال بدل اشتمال من السماء مع اعادة حرف الجر . وقال الطبرسي : فيها

سورة النور

متعلق بمحذوف صفة لجبال ، ومثلها من برد أي صفة بعد صفة . من يمشي على بطنه ، ومن يمشي على أربع (من) استعملت هنا فيمن لا يعقل .

المعنى :

(ألم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد) . يرسل سبحانه الرياح ، فتثير سحاباً يسوقه من بلد الى بلد ، ثم يجمع بعضه فوق بعض على هيئة الجبال ، وفي هذا السحاب ماء سائل ، ومتجمد في قطع ثلجية تسمى برّداً يخرج من السحاب (فيصيب به من يشاء ويصرفه عن يشاء) . يتصرف سبحانه في البرد على موجب حكمته ، فان اقتضت اهلاك زرع أو أي شيء أرسل عليه البرد ، والا صرفه عنه . وتقدم مثله في الآية ١٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٨٨ وقلنا هناك وفي مناسبات شتى : ان الظواهر الكونية تستند الى أسبابها الطبيعية مباشرة ، وتنتهي اليه تعالى بالواسطة لأنه خالق الكون بما فيه .

(يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) . ضمير برقه يعود الى السحاب ، ويذهب بها يخطفها ، قال تعالى : « يكاد البرق يخطف أبصارهم - ٢٠ البقرة » (يقرب الله الليل والنهار) طولاً وقصراً (ان في ذلك) الثقلب (لعبرة لاولي الأبصار) الذين لا يقفون عند الأسباب الظاهرة ، ويدركون مبدعها وموجدها .

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع) . ان لقدرة الله ووحدانيته شواهد وبيّنات لا يبلغها الاحصاء ، منها ما يتجلى في خلق الجماد ، ومنها ما نشاهده في خلق النبات ، ومنها في خلق الحيوان ، وما يدب على الأرض ، واليه الاشارة في هذه الآية ، ومحل الشاهد في الدابة على قدرة الله وعظمته ان الماء عنصر أساسي في تكوين الدابة وتركيبها ، وحقيقة الماء واحدة مع ان الدابة التي خلقت منه متنوعة ، فمنها من يمشي على بطنه كالزواحف ، ومنها من يمشي على رجلين كالانسان، ومنها ما يمشي على أربع كالانعام والحيل والبغال والحمير والوحوش ..

الجزء الثامن عشر

الى غير ذلك من الأنواع التي أشار اليها سبحانه بقوله : (يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير) . ان الدواب جميعاً من أدنى نوع الى أعلاه يسير على أكمل نظام ، ويفعل ما يلائمه ويتفق مع مصلحته ، وهذا دليل قاطع على ان وراء ذلك خالقاً عظيماً ومدبراً حكماً .

(لقد أنزلنا آيات مبينات) . أقام سبحانه الدلائل على وجوده وعظمته ووحدانيته ، ومنها خلق الدابة بشتى أنواعها ، ولم يدعْ عذراً لتعلل . قال الإمام علي (ع) : ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات ، وساكن وذوي حركات ، فأقام من شواهد البينات على لطيف صنعه ، وعظيم قدرته ما انفادت له معرفة به مسلمة له (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) . لا شك ان من سلك الصراط المستقيم الذي أمر سبحانه بسلوكه فهو مهتد عند الله ، أما من عصى أمره تعالى ، وحاد عن صراطه فهو ضال عند الله وعند الناس ، ما في ذلك ريب .

المنافقون الآية ٤٧ - ٥٤ :

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *

سورة النور

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً
مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ يَخْبِرُ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا
وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ *

اللغة :

يتولى يعرض . والمراد بالمرض هنا الهوى والبغض . والحيف الجور .

الإعراب :

إذا فريق (إذا) فجائية وقعت في جواب الشرط لأنه جملة اسمية . ومذعنين
حال من واو يأتوا . والمصدر من أن يحيف مفعول يخافون . وقول المؤمنين خبر
كان ، والمصدر من أن يقولوا سمعنا اسمها، أي انما كان قول السمع والطاعة قول
المؤمنين . ويتقه الأصل يتقيه فحذفت الياء للجزم لأن الفعل المعطوف عليه مجزوم .
وجهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف الى الأيمان ، وهي بمعنى القسم . وطاعة
خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا طاعة أو مبتدأ والخبر محذوف أي طاعة معروفة أمثل ،
ومعروفة صفة طاعة .

المعنى :

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك
بالمؤمنين) . الذين يقولون : آمنا وأطعنا على ثلاثة أنواع : الأول يقولون كلمة
الإيمان بالسنتهم ، ويعرفونها بقلوبهم ، ويعملون بموجبها ، وهؤلاء غير مقصودين

الجزء الثامن عشر

من الآية التي نحن بصددنا . النوع الثاني : يقولون ويعتقدون ولكنهم يعصون ولا يفعلون ، أي يؤمنون نظرياً لا عملياً . النوع الثالث : يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وهم المنافقون ، والآية تشمل النوع الثاني والثالث ، ولا تختص بالمنافقين فقط ، كما قيل . لأن الإيمان بلا عمل لا يجدي نفعاً بدليل قوله تعالى : « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً - ١٥٧ الانعام » .

(وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون) . قال أكثر المفسرين : وقعت خصومة بين منافق ، ويهودي على أرض ، فقال المنافق : أخاصمك الى كعب الاحبار اليهودي لعلمه بأنه يقبل الرشوة .. وقال اليهودي : بل نتحاكم عند محمد (ص) ليقينه بأنه لا يقبل الرشوة . فرفض المنافق ، فنزلت الآية ، وسواء أصحت الرواية أم لم تصح فإنها أوضح تفسير للآية .

امتنح دينك وإيمانك :

(وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مدعين) . انهم لا يعرفون الحق إلا إذا وافق أهواءهم ، فإن خالفها تنكروا له . وهذه الأنانية البشعة الجشعة لا تختص بالمنافقين وحدهم ، فإنها تطبع أيضاً حياة الكثير من المؤمنين ، أو الذين يرون أنفسهم مؤمنين .. انهم يجاهرون بالحق : وينكرون الباطل ، ولكن أي باطل ينكرون ؟ وبأي حق يجاهرون ؟ ان الحق في مفهومهم وإيمانهم ما يتفق مع مصالحتهم ، والباطل ما يخالفها ، ولكنهم يذهلون عن باطن أنفسهم وواقعهم .. هم يؤمنون بأنهم لا يفعلون إلا الحق ، ولا ينطقون إلا بالصدق ، وفي الوقت نفسه لا ينبعثون ولا يتحركون إلا بدافع من أهوائهم ومصالحهم .

وهؤلاء أسوأ حالاً من المنافق الذي يخدع الناس ، ولا تخدعه نفسه لأنه على يقين من كذبه وريائه ، أما أولئك فإنهم يسيئون وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا .. ولا يظلمهم من ينفي عنهم صفة الإيمان لأن المؤمن حقاً لا ينخدع بحيل الشيطان وأباطيله ، ويتهم نفسه إذا زينت له عملاً من أعماله .. فإن الشيطان لا مهمة له إلا أن يزين للناس سوء أعمالهم ، وإلا ان يريهم الباطل حقاً ، والضلال صلاحاً ..

سورة النور

قيل : ان رجلاً قال لابليس : لا سبيل لك على المؤمنين من أمثالي ، فضحك إبليس وقال له : ان كلامك هذا هو الشاهد على انك وأمثالك مطية لي .. ان غرورك هذا هو المنفذ الذي أدخل منه الى قلبك ، فأفسده وأعماه حتى عن الواضح المحسوس .

وبعد ، فمن أراد أن يمتحن دينه وإيمانه فليُنظر : هل يتهم نفسه أو يزكّيها من كل عيب ؟ وهل تقبل الحق حتى ولو كان عليها ، فإن آثمها وقبلت الحق مها كانت النتائج فهو من المؤمنين وإلا فهو من الهالكين .

(أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) . رفضوا أن يتحاكموا عند الرسول ، ولا موجب لهذا الرفض إلا البغض والكراهية لرسول الله ، أو الشك والريب في نبوته ، أو الخوف من ظلمه وجوره . وأياً كان السبب الموجب فانه لا يأبى حكم الرسول الأعظم (ص) إلا كافر أو ظالم لنفسه ولغيره (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) . بعد أن ذكر سبحانه المنافقين ، وانهم الذين يمتنعون عن المحاكمة عند الرسول اذا دعوا اليها ذكر المؤمنين ، وانهم الذين يستجيبون لكل من دعاهم الى الله ورسوله ، ويلبون دعوته خاضعين طائعين . وهؤلاء هم حزب الله الذين عناهم بقوله : « أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون - ٢٢ المجادلة » .

(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) برضوان الله وجنانه .. وعطف الخوف من الله وتقواه على طاعته تعالى هو من باب عطف التفسير لأن من أطاع الله فقد خافه واتقاه ، ولكن المفسرين أبوا إلا أن يفرقوا بين هذه الأفعال ، فقالوا : أطاع الله فيما أمر ونهى ، وخافه فيما عصى ، واتقاه فيما يأتي (وأقسموا بالله جهد إيمانهم لننصركم لن يخرجن) . ضمير أقسموا للمنافقين ، والمعنى انهم حلفوا الايمان المغلظة لنصركم الرسول بالخروج من ديارهم وأموالهم ليسمعوا ويطيعوا . فزجرهم سبحانه عن الايمان الكاذبة بقوله : (قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون) . قل يا محمد للمنافقين لا تحلفوا ، فان الله يعلم ان طاعتكم هذه طاعة كذب ورياء ، وانكم أعداء الله ورسوله ، وقد أعد لكم من ألم العذاب ما تستحقون .

الجزء الثامن عشر

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ظاهراً وباطناً ، لا نفاقاً ورياء (فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) . ضمير عليه للرسول ، والخطاب في عليكم للمنافقين ، والمعنى ان الرسول مكلف بالتبليغ ، وأنتم مكلفون بالطاعة ، ومن أهمل فعليه يقع حساب الالهة وتبعته ، سواء أكان رسولاً ، أم مرسلأ اليه (وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) . من أدى ما كلف به فعلى الله أجره وثوابه ، وقد بلغ الرسول وأدى ما عليه ، وبقي ما عليكم .

استخلاف المؤمنين في الأرض الآية ٥٥ - ٥٧ :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا أُوَاهُمُ النَّارُ وَلَٰئِن سَأَلْتَهُم

الإعراب :

اللام في ليستخلفنهم وما بعده جواب لقسم محذوف . وكما استخلف الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق أي استخلفاً مثل استخلاف الخ . وجملة يعبدونني حال من ضمير ليبدلنهم . وشيئاً مفعول مطلق .

المعنى :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) . ظاهر الآية يدل على ان أية أمة تؤمن بالله ورسوله ، وتلتزم العمل بشريعته فان الله يستخلفها ويمكن لها في الأرض كان على ربك حتماً مقضياً.. وقد أخذ بعض المفسرين بهذا الظاهر ، ثم شرع يشرح ويفسر معنى الايمان والعمل الصالح وحدودهما وقيودهما .

أما نحن فع الذين قالوا : ان المقصود بالآية هم النبي والصحابة خاصة ، فإنهم لا قوا الكثير من الأذى والعناء في ذات الله قبل الهجرة وبعدها ، ورماهم المشركون واليهود عن قوس. واحدة ، وكانوا ، وهم في المدينة الى عام الفتح ، لا يصبحون ولا يمسون إلا مع السلاح، حتى قال قائلهم - كما في تفسير الطبري - ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح .. فقال له النبي (ص): لا تعبرون يسيراً حتى يجلس الرجل ليس معه سلاح . وتحقق وعد الله ورسوله ، فامضت الأيام حتى عاشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وحكموا البلاد العربية كلها ، وفتحوا الكثير من بلاد المشرق والمغرب .

(وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم) . يشير سبحانه الى انتشار الاسلام وسلطانه في شرق الأرض وغربها (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) . وهذه هي نتيجة الصبر والتوكل على الله ، وتقدم ذلك بصورة أوسع في الآية ٢٦ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٦٩ . (يعبدوني لا يشركون بي شيئاً) . والشرك لا يختص بعبادة الأصنام ، فن أطاع المخلوق في معصية الخالق فهو في حكم الشرك .

(ومن كفر بعد ذلك) اشارة الى الاستخلاف والتمكين في الأرض ، والأمن بعد الخوف (فأولئك هم الفاسقون) والله لا يهدي القوم الفاسقين (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) . هذا بيان وتفسير لقوله تعالى في الآية السابقة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات (لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وماؤاهم النار ولبئس المصير) . الخطاب في لا تحسبن لرسول الله (ص) ، والغرض منه تهديد من خالف رسالته وعاندها ، وأيضاً هو

الجزء الثامن عشر

تهديد لكل من بدل نعمة الله كفوفاً ، وفي نهج البلاغة : أقل ما يلزمكم لله أن لا تستعينوا بنعمته على معاصيه .

وجه آخر لاعجاز القرآن :

في ج ١ ص ٦٥ فقرة « سر الاعجاز في القرآن » أشرنا إشارة سريعة الى أقوال العلماء في اعجاز القرآن ، وعند تفسير آية المباهلة ٦١ من سورة آل عمران قلنا : ان إقدام النبي (ص) على المباهلة واثقاً بالنصر الذي أخبره به القرآن ، وتحققه كما أخبر ، ان هذا من أعظم الأدلة على صدق القرآن ومن أوحى اليه ، وعند تفسير الآية ٥٣ من سورة النساء قلنا : ان كشف القرآن عن طبيعة اليهود ، وأنهم لو ملكوا ل فعلوا كما فعلوا الآن بفلسطين - دليل قاطع على اعجاز القرآن وصدقه ، حيث تحقق ما أخبر به بعد أكثر من ألف وثلاثمئة سنة .

والآن ، ونحن نفكر في تفسير هذه الآية : وعد الله الذين آمنوا السخ تنبها الى وجه آخر لاعجاز القرآن ، وهو ان كلمات القرآن عربية تتداولها الناس كتابة ومشافهة قبل القرآن وبعده ، ولا تختلف عن غيرها في الحروف والتركييب ، ومع ذلك فان الجملة من القرآن تتحمل من المعاني الكثيرة ما لا تحمله في غير القرآن حتى الحديث النبوي يفقد هذه الميزة ، ولذا قال الإمام علي (ع) لابن عباس : « لا تخاصم الخوارج بالقرآن ، فان القرآن حمال ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة ، فانهم لن يجدوا عنها محيصاً.

والسر في ذلك يكمن في سعة المتكلم ، لا في سعة الكلام نفسه ، وإلا لجاء على نسق واحد في القرآن وغير القرآن .. ان الكلام جامد لا حياة فيه ، والمتكلم هو الذي يبعث فيه الحياة والايحاء، ومن هنا اختلف ايجاء الكلام باختلاف المتكلم ، فان ما يوحيه كلام العالم غسير ما يوحيه كلام الجاهل ، وان تشابهت الجمل والكلمات ، حتى آيات القرآن يختلف ابحاؤها باختلاف من يتلوها .. وكذلك الحال بالنسبة الى كلام المخلص والمنافق .. وعلى هذا فإن اتساع القرآن للعديد من الوجوه والمعاني دليل قاطع على انه ممن وسع كل شيء علماً .

سورة النور

الطفل والملوك والاستئذان الآية ٥٨ - ٦٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ
ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ
عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَاعِدُ
مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

اللغة :

ملكتم ائمانكم العبيد والاماء . والحلم البلوغ . وكل شيء يستره الانسان من
أعضائه حياءً فهو عورة . والجناح الأثم والقواعد من النساء العجائز . وتبرج
المرأة اظهار محاسنها .

الإعراب :

ثلاث مرات مفعول فيه ليستأذنكم لأن المراد بالمرات هنا الأوقات . وثلاث

الجزء الثامن عشر

عورات برفع ثلاث خبر مبتدأ محذوف أي هي ثلاث عورات ، وبالنصب بدل من ثلاث مرات . وطوافون خبر مبتدأ محذوف أي هم طوافون .. وبعضكم على بعض (بعضكم) فاعل لفعل محذوف دل عليه طوافون أي يطوف بعضكم على بعض أو خبر مبتدأ محذوف أي بعضكم يطوف على بعض . والقواعد مبتدأ ، واللائي صفة ، وجملة فليس عليهن جناح خبر . والمصدر من ان يضعن مجرور بفي محذوفة . والمصدر من ان يستغفن مبتدأ، وخير خبر، أي الاستغاف خير هن .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) في الآية ٢٧ من هذه السورة نهى سبحانه عن دخول بيوت الآخرين إلا بعد الاستئذان ، وفي الآية ٢٨ أمر بالرجوع مع عدم الإذن ، وفي الآية ٣١ نهى المرأة عن ابداء زينتها إلا ما ظهر منها ، واستثنى بعض الأقارب والعبد والتابع الذي لا مأرب له في النساء والطفل الذي لم يظهر على عورة النساء، وفي الآية التي نحن بصددتها قال سبحانه : مروا عبيدكم واماءكم والصغار الذين لم يبلغوا ويميزوا بين العورة وغيرها ذكراناً كانوا او اناثاً ، مروهم أن يستأذنوا قبل الدخول عليكم في ثلاثة أوقات لأنها مظنة انكشاف العورة ، وهذه الأوقات هي :

١ - (من قبل صلاة الفجر) حيث يقوم الانسان من فراشه ، وهو في ثياب النوم .

٢ - (وحين تضعون ثيابكم من الظهر) أي وقت القيلولة والاستراحة لأن الانسان يتخفف من ملابسه التي يستقبل الناس بها .

٣ - (ومن بعد صلاة العشاء) حيث يتجه الانسان الى شأنه الخاص .

(ثلاث عورات لكم) . هذا بيان للفرق بين الأوقات الثلاثة وغيرها، وبيان السبب للاستئذان فيها ، وأنها مظنة انكشاف العوره (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) . لا إثم عليكم أي المؤمنون الأحرار ، ولا على الخدم والصبيان اذا دخلوا من دون استئذان في غير هذه الأوقات (طوافون عليكم بعضكم على

سورة النور

بعض) ترددون عليهم ، ويترددون عليكم ، ولا غنى لأحدكما عن الآخر (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) لقد بين لكم هذه الأحكام ، وأمركم بالتزامها ليؤدبكم بعلمه وحكمته .

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا) في جميع الأوقات، لا في الأوقات الثلاثة فقط ، لأن الرخصة في غيرها إنما هي للذين لم يبلغوا الحلم ، أما من بلغه فلا فرق بينه وبين غيره من الكبار ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (كما استأذن الذين من قبلهم) أي كما يجب الاستئذان على الكبار في جميع الأوقات كذلك يجب على من بلغ الحلم من غير فرق ، ويبلغ الصبي الحلم بالانزال ، أو بلوغ خمس عشرة سنة ، وتبلغ الصبية بالحيض أو الحمل أو بلوغ تسع على قول ، وخمس عشرة على قول (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) . ولا نفهم وجهاً لهذا التكرار من دون فاصل بين الآيتين إلا التأكيد والمبالغة في الأمر بالاستئذان .

(والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً) . وهن اليائسات من الحيض والولد ، ولا يطمعن في الرجال ، ولا الرجال فيهن (فليس عليهن جناح ان ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) . لا بأس للعجوز ان تخلع ثوبها الظاهر الذي تلبسه في الشوارع والأسواق على ان لا تقصد بذلك اظهار زيتها للرجال لينظروا اليها ، وان لم تكن لذلك أهلاً ، ولكن عسى من لاقط او قائل : كانت في الزمان الغابر ..

(وأن يستعفن خير لمن) . الأولى للعجوز أن لا تخلع ثيابها أمام الأجانب، حتى الظاهر منها، وان جاز لها ذلك ، لأن الترك أبعد عن التهمة . وفي الحديث: دع ما لا بأس به حذراً مما به بأس (والله سميع عليم) يسمع الأقوال ، ويعلم ما توسوس به الصدور .

ليس على الأعمى حرج الآية ٦١ :

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ
أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً
أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

اللفظة :

يطلق الحرج على الضيق وعلى الإثم ، وهذا المعنى هو المراد هنا . وأشتاتاً
متفرقين .

الإعراب :

جميعاً حال من واو تأكلوا . وتحية مفعول مطلق لسلموا .

المعنى :

المخاطب في قوله تعالى : (ملكتم مفاتيحه) من كان له السلطة على المسال

سورة النور

بالولاية أو الوصاية أو الوكالة . وقوله : (فسلموا على أنفسكم) أي ليسلم بعضهم على بعض، والمعنى الظاهر من الآية أن لا بأس على الأعمى والأعرج والمريض ولا على غيرهم أن يأكلوا دون أن يستأذنوا من بيوتهم وبيوت أقاربهم المذكورين مجتمعين مع أصحاب البيوت أو غير مجتمعين . وأيضاً لا بأس أن يأكل بالمعروف الوكيل وأمثاله من نذال الموكل به ، وكذا للصديق أن يأكل من بيت صديقه ، فكل واحد من هذه الأصناف له أن يأكل من هذه البيوت شريطة أن لا يعلم بعدم الرضا من أصحابها .. وقال كثير من الفقهاء : انه يتناول شيئاً من الفاكهة أو الخضار أو الطعام المعتاد الذي أعد للغداء أو العشاء أو الفطور دون الشيء العزيز الذي يدخر لحالات خاصة .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) يدل على ان للانسان أن يأكل من بيته دون ان يستأذن من نفسه، وهذا كلام غير مستقيم؟
الجواب : ان المراد من بيوتكم بيوت أزواجكم وأولادكم على حذف مضاف لقوله تعالى : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً - ١١ الشورى » . وفي الحديث : ان أطيب ما يأكل المرء كسبه ، وان ولده من كسبه . وفي حديث آخر : أنت ومالك لأبيك . فصح اطلاق النفس على الزوج والزوجة لأن كلا من الآخر ، وعلى الولد لأنه من والده ولوالده .

سؤال ثان : لماذا خص سبحانه بالذكر الأعمى والأعرج والمريض مع العلم بأنهم يدخلون في قوله : (على أنفسكم) لأن المخاطب جميع المكلفين ، ولا أحد يتوهم ان السلامة من العمى والعرج والمريض شرط لجواز الأكل كي يُنبيه الى خطئه وتوهمه ؟.

وتعددت الأقوال في الجواب عن هذا السؤال ، وأنهاها بعض المفسرين الى خمسة ، وأقربها ان الصحابة كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى ، لأنه لا يستطيع معرفة الجيد من الطعام ، فيلحقه الحيف ، والأعرج وان أبصر الطيب من الطعام لكنه يعجز عن الجلوس مع الجماعة للأكل حيث كانت تمتد الموائد على الأرض . والمريض يعجز عن مشاركة الصحيح في الأكل ، حيث ينتهي هذا قبله ، ويبقى المريض وحده على المائدة فيخجل من الانفراد .. وأيضاً امتنع الصحابة

عن الأكل من البيوت المذكورة دون استئذان بعد ان نزل قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ١٨٧ البقرة » . فأباح سبحانه لهم الأكل من هذه البيوت من غير استئذان ، والأكل مع الأعمى والمريض والأعرج .

لم يذهبوا حتى يستأذنوه الآية ٦٢ - ٦٤ :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

اللغة :

الأمر الجامع هو الأمر الهام الذي يستدعي أن يجتمع الكل للتعاون عليه . والسلة بفتح السين وتشديد اللام السرقة الخفية ، والتسلل الخروج في خفية ، وهذا المعنى هو المراد من يتسللون . ولوإذا يلوذ بعضهم ببعض ويستتر به مخافة أن يراه الرسول (ص) . والمراد ببيخالفون يعرضون أو يخرجون، ولذا جيء بعن .

الإعراب :

المؤمنون مبتدأ ، والذين آمنوا بآية ورسوله خبر . كدعاء بعضهم بعضاً دعاء مصدر مضاف الى فاعله وبعضاً مفعول، والمعنى لا تدعوا الرسول كما يدعو بعضهم بعضاً . ونوياً مصدر في موضع الحال أي ملاوذين . والمصدر من أن نصيبهم مجرور بمن محذوفة ويتعلق بيحذر . ويوم معطوف على ما أنتم أي يعلم ما أنتم عليه ويعلم يوم يرجعون .

المعنى :

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) كان المنافقون يتهربون ، ويتسلل من يكون منهم في مجلس الرسول كلما دعا المسلمين الى أمر هام ، فترلت هذه الآية لتبين ما يجب للنبي على أمته من الطاعة ، وما يجب للاسلام على المسلمين من التعاون لإعلاء شأنه وكلمته ، وان المسلم الحق هو الذي يستجيب لدعوة الرسول ، ويتعاون مع الجماعة بمبلغ جهده على كل ما فيه خيرهم وصلاحهم بجهة من الجهات ، ولا يتهرب من هذا الواجب متعللاً بالمعاذير ، واذا كان صادقاً في عنده أبداه للرسول (ص) ، واستأذن منه ، وهذا الانقياد يجب لكل إمام وحاكم يؤدي حق الرعية وينصح لها باخلاص .

(ان الذين يستأذنونك) وهم صادقون في أقوالهم، ومضطرون لقضاء مصالحهم (أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) حقاً وواقعاً، أما الذين يتعللون بالاعذار الكاذبة فأولئك هم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .. ان المؤمن كالجندي يلازم قائده منتظراً منه الاشارة ، ولا يفارقه بحال لأنه لا يدري متى تدعو اليه الحاجة ، فاذا عرض له ما يضطره الى البعد عن قائده طلب منه الاذن (فاذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم) . فوض سبحانه أمر الإذن للرسول (ص) ، ان شاء أذن ، وان شاء منع ، وأمره

الجزء الثامن عشر

بالدعاء لمن استأذنه صدقاً و إخلاصاً ، لا كذباً ونفاقاً .

وتسأل : قال تعالى لنبيه الكريم في الآية ٤٣ من سورة التوبة : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » وفي آية النور فوض أمر الاذن اليه ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : أمر الله نبيه في آية التوبة بالثبوت حتى يميز الكاذب من الصادق ، وفي آية النور ترك له حرية التقدير بعد ان يعرف حقيقة طالب الإذن وأهدافه والنتائج المترتبة على الاذن مؤمناً كان الطالب أو منافقاً ، وعلى هذا الأساس يأذن أو يمنع ، فقد تستدعي المصلحة الاذن للمنافق لأن في وجوده مع الجماعة المسلمة مضرة ، وقد تستدعي المصلحة ان لا يأذن للمؤمن لأن المصلحة تستدعي بقاءه مع المسلمين .

(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضهم بعضاً) . الخطاب لمعاصري النبي (ص) ، يؤدبهم به تعالى مع نبيه الكريم بأحسن الآداب حيث أمرهم أن لا يدعوه عند الاستئذان وغير الاستئذان باسمه أو كنيته ، مثل يا محمد ويا أبا القاسم كما يدعوا بعضهم بعضاً بل ان يدعوه بأكرم صفاته وأجلها ، وهي النبوة والرسالة ، مثل يا نبي الله ويا رسول الله .. فان توقيره من توقيره تعالى ، فلقد قرن طاعته بطاعته في العديد من الآيات ، وقال في الآية ١٥٦ من سورة الاعراف : « فالذين آمنوا به وعزروه - أي وقروه - ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون » وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض - ٢ الحجرات » .

(قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوذاً) . قد هنا للتحقيق ، والمعنى ان الله لا يخفى عليه تسلل المنافقين من مجلس الرسول خفية حين يذكر الجهاد ونحوه من الأمور العامة التي تهتم المسلمين . وفي بعض الروايات أنهم كانوا ينصرفون من مجلس الرسول (ص) مستتراً بعضهم ببعض ، والى هذا تشير كلمة (لوذاً) .. (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) . الضمير في أمره يعود الى الله تعالى ، والمراد بالفتنة هنا البلاء في الدنيا .. وهذا تهديد

سورة النور

ووعيد بعذاب الدنيا والآخرة لمن عصي الله ورسوله .

(ألا ان لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه
فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) . ان الله غني عن العالمين لا تنفعه طاعة
من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ، وهو عليم بما تكن الصدور ، وباليوم
الذي يجمع الناس فيه ، ويقفون بين يديه للحساب ، فيخبرهم بأعمالهم ومقاصدهم
ويعاملهم بما يستحقون ، ولا يظلم ربك أحداً .

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نزل الفرقان على عبده الآية ١ - ٦ :

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِيهَا تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأُصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا *

اللغة :

تبارك عظمت بركته . والفرقان ما يفرق بين الحق والباطل ، والمراد به هنا القرآن . والإفك الكذب . وأساطير خرافات سطرها الأولون . واكتتبها كتبها . وبكرة صباحاً ، وأصيلاً مساءً .

سورة الفرقان

الإعراب :

اسم ليكون ضمير مستتر يعود الى عبده لأنه أقرب من الفرقان ، والمصدر من ليكون مجرور باللام ويتعلق بنزل . والذي له ملك السموات بدل مسن الذي نزل . وظلماً مفعول جاءوا لأنها بمعنى أتوا . وأساطير خبر لمبتدأ محذوف أي هذه أساطير . وجملة اكتتبها حال من أساطير على حذف قد، أي قد اكتتبها . وبكرة وأصيلاً مفعول فيه لتعلى، أي تعلى عليه في الصباح والمساء .

المعنى :

(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) . ان بركات الله عظيمة ، وبعمه كثرة ، وفي طليعتها هذا القرآن الذي نزله على عبده محمد (ص) ، فإنه يهدي للتي هي أقوم ، وينذر من خالفه بعذاب أليم .. وقد وصف سبحانه محمداً بالعبودية مضافاً الى الله تعظيماً له وإجلالاً ، لأن أعظم الناس من لا يذل ولا يخضع إلا لمن يستحيل في حقه الذل والخضوع .. وأحقر الناس وأذلهم من خضع لغير الله أو اعتر بغير الله . وتقدم نظير هذه الآية في أول سورة الكهف .

(الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) . هذا رد على عرب الجاهلية الذين أشركوا بالله ، وعلى النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله، ووجه الرد ان الكون بما فيه ومن فيه مملوك لله ، والمملوك لا يكون شريكاً للمالك ، ولا ولداً له (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) بأسبابه واتقانه ونظامه بحيث يؤدي وظيفته على أكمل وجه .. وبداهة انه لا مكان للصدقة في الاتقان والاحكام ، وانه ما لجأ اليها إلا جاهل أو مكابر .

(واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) . ان البديهيات يشترك في معرفتها العالم والجاهل ، لأن الانسان يدركها بفطرته ، ولا يحتاج في معرفتها الى دليل ، بل هي دليل على غيرها ، ومن أوضح البديهيات ان الإله يجب أن يكون قادراً على الخلق والنفع والضر والإحياء والاماتة والبعث والنشر بعد الموت ..

الجزء الثامن عشر

والأصنام التي تعبدونها أيها المشركون لا تقدر على شيء من ذلك فكيف تكون آلهة ؟ .
ولما كان هذا الرد حجة واضحة تدمغ المشركين ، ولا تدع لهم مجالاً للانكار
والجدال فقد لجأوا الى المناورات والافتراءات (وقال الذين كفروا ان هذا إلا إفك
افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) . هذا اشارة الى القرآن ، وفاعل افتراه ضمير
مستتر يعود الى محمد (ص) ، والهاء تعود الى القرآن .. لمسا ضاق أعداء الحق
بالقرآن ومن أنزل على قلبه قالوا : ألقاظ القرآن وصياغتها من صنع محمد ، أما
محتواه من أحكام ومواظ وقصص وغيرها فهو من أهل الكتاب ، فلقد كانوا
يعدون بها محمداً ، وهو بدوره يصوغها ببلاغته ، وينسبها الى الله .. ولا هدف
له من وراء ذلك إلا شهوة الرياسة ، وحب التفوق والامتياز على الناس .. والذين
ابتدعوا هذه الفرية هم بالذات أصحاب المناصب والامتيازات الذين غلبت عليهم
شقتهم وشهوتهم للسيادة والسيطرة على الفقراء والمستضعفين ، ابتدعوا هذه الفرية
وهم على يقين من ان محمداً هو الصادق الأمين ، وان القرآن لا يشبه كلام
الآدميين ، فلقد تحداهم به محمد من قبل ، وحاولوا ففجزوا .. ولو سح ان
رسول الله (ص) استعان على القرآن بأهل الكتاب لكان الأولى أن يستعين المشركون
باليهود ويأتوا بسورة من مثله ، لأن المشركين واليهود قد تحالفوا وتكاتفوا ضد
محمد والمسلمين ، ولكن ماذا يصنعون ، وقد عجزوا عن مقابلة الحجة بالحجة ؟
هل ينقادون ويسلمون ؟ كيف ، والاسلام يساوي بين السيد القرشي والعبد
الحبشي ، ولا يرى فضلاً لمخلوق على مثله إلا بالتقوى ، ويحرم الظلم والاستغلال
الذي تقوم عليه حياة المفترين والمعاندين ؟ .. اذن ، لا وسيلة للاحتفاظ بحياتهم
هذه إلا الاشاعات والافتراءات ، والا ان يُقال عن محمد (ص) : انه ساحر ..
كذاب .. مجنون .. وعن القرآن : انه أساطير الأولين ، جمعها محمد من هذا
وذاك .

(فقد جاءوا ظلماً وزوراً) . أتوا ظلماً عظيماً لله ولرسوله ولأنفسهم التي
ساقوها الى موارد التهلكة ، وأتوا زوراً واضحاً بنسبة الإفك الى القرآن .. وكلمة
الظلم والزور تُشعر بأنهم نسبوا الافتراء الى الرسول الأعظم (ص) وهم يعلمون
انهم لكاذبون .. وتجدر الاشارة الى ما يجتره اليوم أعداء الاسلام ، ورددوه قبل
اليوم - من ان محتوى القرآن مصدره التوراة والانجيل - فهذا امتداد لما قاله الظالمون

سورة الفرقان

والمزورون في عهد رسول الله (ص) ، وان الدافع على هذا الظلم والتزوير واحد ، وهو الخوف من الحق الذي يفضح هؤلاء وأولئك، ويظهر للملأ مساوئهم ومقاصدهم .
(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً) . احتار المفترون ماذا يقولون ؟ هل يشيعون ان محمداً درس علوم القرآن على غيره ؟ ومن يصدق ، وكل الناس يعلمون ان محمداً أمي لا يقرأ ولا يكتب ؟ وأخيراً خُبل اليهم أنهم وجدوا المخرج ، وهو ان يقولوا ويكذبوا ان القرآن لا شيء فيه سوى أساطير كُتبت لمحمد ، وتليت عليه مراراً وتكراراً حتى حفظها ، ثم صاغها بأسلوبه وأذاعها على الناس على أنها من عند الله لا من عنده .. وهكذا يفعل أرباب الأهداف والأغراض في كل زمان ومكان، يشيعون ويفترون على الطيبين الأحرار لا شيء إلا حرصاً على عدوانهم وطغيانهم ، وإلا خوفاً على مكاسبهم الظالمة من الحق وأهله .. ولكن أين المهر ؟ وهل تُطفأ أنوار الشمس بالنفخ من الأفواه ؟ .
وهل الكواذب تغير الحقائق ؟ ان الكاذب مفضوح وملعون على كل لسان ، وان تستر بألف حجاب وحجاب ..

(قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) . قل يا محمد : كلا ، ليس القرآن خرافة وأساطير ، ولا هو مأخوذ من التوراة والانجيل .. انه علم ونور أنزله الله على قلبك لتهدي به الأجيال الى نهج الحق والخير والعدل ، انه من الله الحكيم العليم بأسرار الكون ، وما يصلح الخلائق ويفسدتهم ، وأنت تبلغهم عن الله ما فيه خيرهم وشرهم ، ونجاتهم وهلاكهم (انه كان غفوراً رحيماً)
يرحم العاصي بالأمهال ، مع التحذير والانذار ، ولا يعالجه بالعقوبة على خطيئته عسى أن يرجع الى ربه ، ويتوب من ذنبه ، فإن فعل غفر له ، وعفا عما سلف ، وإلا لقي جزاءه وما يستحق من أليم العذاب .

يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ الْآيَةُ ٧ - ١٦ :

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ
 جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي
 إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ
 لَكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا *
 إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا
 مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا
 وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي
 وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
 كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا *

اللفظة :

مسحوراً مغلوباً على عقله . وأعدنا هيأنا . والسعير شدة اللهب . والتغيظ الهيجان
 والغليان . والزفير مد النفس وترديده . ومقرنين مقيدين . والثبور الهلاك .

الإعراب :

ما مبتدأ ولهذا خبر والرسول عطف بيان من هذا . وجملة يأكل حال من
 الرسول . ولولا أداة تفضيظ . فيكون منصوبة بأن مضمرة بعد الفاء الواقعة في
 جواب لولا . أو يلقي وما بعده عطف على أنزل إليه . وجنات بدل من (خيراً) .

سورة الفرقان

ويجعل بالجزم عطفاً على جعل لأنها جواب ان الشرطية فهي مبنية لفظاً مجزومة محلاً . ومنها متعلق بمحذوف حالاً من (مكاناً) ومكاناً ظرف لألقوا. ومقرنين حال من واو ألقوا . وثبوراً مفعول به . وخالدين حال من واو يشاءون . واسم كان على ربك ضمير مستتر يعود الى ما يشاءون أي كان الذي يشاءونه وعداً على ربك .

المعنى :

ان حكمة الله في ارسال رسله الى الناس هي أن يبينوا لهم ما يصلحهم وما يفسدهم ليكونوا على بصيرة من أمرهم ، ويكون لهم على الله الحجة حين الحساب والجزاء ، ولا تتحقق هذه الحكمة إلا اذا كان الرسول واحداً من الناس في حياته وطبيعته وغرائزه ، ولو كان من غير جنسهم وطبيعتهم لنفروا منه ، ولم يركنوا اليه ركونهم الى من هو مثلهم يتكلم كما يتكلمون ، ويفعل كما يفعلون ، ويتأثر بهم ويتأثرون به .. أجل ، يجب أن يبلغ الرسول من الكمال أقصى ما يبلغه انسان في حدود الانسانية وصفاتها وطاقاتها ، لأن الكمال هو القوة التنفيذية لرسالته وتعاليمه . أنظر تفسير الآية ٣٥ من سورة طه فقرة « حقيقة النبوة » .. وبعد هذا التمهيد ننظر الى أقوال المشركين واعتراضاتهم على نبوة محمد (ص) وهي :

١ - (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) . يريدون من رسول الله أن يحتجب في برج من العاج ، ودونه الحراس والحجاب ، تماماً كما يفعل الملوك والجبابة .. وجهلوا أو تجاهلوا ان صاحب الرسالة أياً كان، نبياً أو غير نبي، لا يمكنه أن يؤدي رسالته إلا اذا كان مع الناس في تجاربهم وأعمالهم، وكيف يستجيبون له ، وهو عنهم في حجاب ، أو من عالم غير عالمهم .

٢ - (لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً) . من مقترحات المشركين على محمد (ص) أن يكون معه أحد الملائكة .. ولا بدع ، فمن جعل لله شريكاً في خلقه فبالأولى أن ينكر نبوة محمد اذا لم يكن معه شريك في تأدية الرسالة ، ومن قبلهم قال فرعون عن موسى : « فلولا ألقي عليه اسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين - ٥٣ الزخرف » .

منطق أرباب المال : بنك وعقار :

٣ - (أو يلقي إليه كتر أو تكون له جنة يأكل منها) . هذا هو منطق أرباب المال .. بنك وعقار ، فكيف يؤمنون بمن يقول : لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ؟ ان الفضل والحرية عندهم بالمال .. بالبذخ والترف من غير كد وعمل ، أما من يكد ليعيش فهو عبد ، عليه أن يسمع ويطيع .. فكيف يختار الله محمداً ، ويفضله على الأغنياء ، وهو يعاني الفقر والعوز ؟ . ولو اختاره الله واصطفاه ، كما يدعي ، لأنزل عليه كتراً من السماء ، أو كان له بستان يعيش منه من غير كد وعناء .. وما زال هذا المنطق يسيطر حتى اليوم ، فالحكم والسلطان في أكثر البلاد أو الكثير منها لأصحاب الشركات والمصارف ، أو لمن يختارونه حارساً لمكاسبهم وثروتهم . أنظر تفسير الآية ٩٠ من سورة الاسراء ، فقرة « التفكير من خلال المال » .

(وقال الظالمون - للمؤمنين - ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) . تقدم نظيره في الآية ١٠٣ من سورة الاسراء (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) بأنك فقير ومسحور (فضاؤوا فلا يستطيعون سبيلاً) لابطال نبوتك وردك بالحجة والدليل .

شأن الجاهل المغرور :

كذبوا برسالة محمد (ص) ، ونعتوه بالافتراء فكانوا هم المقترين ، لأن من قال للعالم : أنت جاهل ، وللمخلص : أنت خائن - فقد شهد على نفسه بالجهل والحياة . وعلى هذا فان الأمثال التي ضربوها لرسول الله (ص) هي شواهد وأمثال لجهلهم وافتراءهم وعنادهم للحق ، ولكنهم لا يشعرون ، تماماً كمن رأى قبح وجهه في المرآة فظن القبح فيها ، لا في وجهه .. وهذا هو شأن الجاهل المغرور . (تبارك الذي ان شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً) . ان الذي خلق الكون بأرضه وسماؤه قادر على ان يهب نبيه الكريم الكثير من المال والعقار ، ولكن العظمة عند الله لا تقاس بالمال ، وإنما تقاس بالتقوى وصالح الأعمال ، وجزاء المتقين والصالحين نعيم قائم ، وهناء دائم ، أما الحياة الدنيا فهي أهون من ان يجعلها الله ثواباً لأولياته وأهل طاعته ، وفي

سورة الفرقان

الحديث : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء » .

(بل كذبوا بالساعة) . أنكروا نبوة محمد (ص) وتعللوا بأنه فقير ومسحور ، وهم كاذبون حتى عند أنفسهم ، والدافع الأول هو الخوف على مصالحهم ومنافعهم .. وقالوا : لا حشر ولا نشر كيلا ينكر عليهم منكر بأنهم يؤثرون الفاني على الباقي .. وكل من قاس الفضيلة بالمال ، وآثره على مرضاة الله فهو في حكم من كذب بقاء الله ، وان آمن به نظرياً (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) . قيل : ان الرؤية والتغيظ والزفير هي صفات لخزنة النار الموكلين بها ، وعليه يكون في الكلام حذف مثل « واسأل القرية » . وقيل : ان الله يخلق في النار غداً حياة وعملاً .. وقال ثالث : بل هي صفات لأهل النار ، ونسبت الى النار مبالغة . وفي رأينا انها كناية عن ألم العذاب وشدة الهول .

(وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً) . ان نار الله لا تضيق بشيء ، كما صرحت بذلك الآية ٢٩ من ق : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » . والمراد من الضيق ان أهل النار يضيقون بها ويُسْتَكْرَهُون على الدخول فيها ، فقد سئل رسول الله (ص) عن هذه الآية : فقال : « والذي نفسي بيده انهم يُسْتَكْرَهُون في النار كما يستكره الوتد في الحائط » أي يدخل فيه بالضرب والضغط . وتقدم مثل هذه الآية في سورة ابراهيم الآية ٥١ ، فقرة « جهنم والأمامحة الجهنمية » . (قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً » . تدل كلمة « على » في الآية على ان الله سبحانه قد كتب على نفسه الوفاء بالوعد كما كتب عليها الرحمة . ومسؤولاً أي ان المطيع له الحق في ان يسأل الله الوفاء بوعدده .. وفي تفسير الرازي : « إن قيل : كيف يقال : العذاب خير أم جنة الخلد ؟ وهل يجوز ان يقول العاقل : السكر أحلى أم العلقم ؟ قلنا : هذا يحسن في معرض التقرير ، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً ، فتمرد واستكبر ، فضربه ضرباً موجعاً ، وهو يقول له على سبيل التوبيخ : هذا أطيب أم ذاك ؟

ويوم يحشرهم وما يعبدون الآية ١٧ - ٢٠ :

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *

اللغة :

بوراً هلكى . والصرف بفتح الصاد الدفع . والمراد بالفتنة هنا الامتحان .

الإعراب :

هؤلاء بدل من عبادي . وسبحانك منصوب على المصدرية . ومن أولياء (من) زائدة اعراباً وأولياء مفعول أول لتتخذ، ومن دونك مفعول ثانٍ مقدم ، والمصدر من أن نتخذ فاعل ينبغي . والجملة من أنهم ليأكلون الخ حال من المرسلين أي إلا وهم يأكلون ، ولا وجه لجعل الجملة مستثنى كما قال صاحب مجمع البيان لأن جميع الرسل يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق دون استثناء .

المعنى :

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتهم عبادي هؤلاء أم

سورة الفرقان

هم ضلوا السبيل) . ذكر سبحانه في الآيات السابقة المشركين وأقوالهم عن رسول الله (ص) وما يلاقونه غداً من عذاب الحريق ، وفي الآيات التي نحن بصددتها ذكر جل وعز انه يوم القيامة يجمع بين المشركين والذين اتخذوهم شركاء لله ، ثم يسأل سبحانه الفريق المعبود على مسمع ومرأى من الفريق العابد المشرك، يسألهم: أنتم غررتم بهؤلاء الضالين ، وقلتم لهم : نحن شركاء لله ؟ والغرض من هذا السؤال تبكيت المشركين وتأكيد الحججة التي لزمتهم بلسان الأنبياء والرسل .

(قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) . أجاب الفريق المعبود : تنزهت يا إلهنا وتعاليت عن الشريك .. كيف ندعو الى عبادتنا ونحن نوحدهك ونعبدك بصدق واخلاص ، ونخاف عقابك ، ونرجو ثوابك ، ولا نستعين بأحد سواك .. وفي هذا الجواب تقريع وتوبيخ للمشركين تماماً كما في السؤال (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) ما زال الكلام للفريق المعبود ، ومعناه نحن ما أضلنا المشركين، ولكن حكمتك يا إله العالمين قضت أن تمهلهم وآباءهم ، وأن تنعم عليهم بطول العمر والأموال والأولاد عسى أن يتوبوا ويستغفروا ، ولكنهم انصرفوا عنك الى الدنيا وملذاتها ، فكانوا من الهالكين بتقصيرهم وسوء اختيارهم .

(فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً) . الخطاب من الله للمشركين ، والمعنى كنتم أيها المشركون تقولون : نحن نعبد من نعبد ليشفعوا لنا عند الله ، ويقربونا منه زلفى .. فإذا رأيتم ؟ لقد تبراؤا منكم ، وكذبوكم في أقوالكم وأباطيلكم ، وهذا العذاب ينزل بكم ، ولا دافع يدفعه عنكم أو ناصر ينصركم من الله (ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً) ولا شيء أكبر وأعظم من نار جهنم ، وهي الجزاء لكل ظالم مجرم .

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) . نفى المشركون النبوة عن محمد (ص) لأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فقال سبحانه رداً عليهم : وأية غرابة في ذلك ؟ فجميع الأنبياء من قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ومنهم من تعتقدون انتم أيها المشركون بنبوتهم كإبراهيم وإسماعيل (ع) . أنظر تفسير الآية ٧ من هذه السورة.

(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) . المراد بالفتنة هنا الامتحان والاختبار .. ان

الجزء الثامن عشر

الله سبحانه يخبر عباده ، وهو أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي يُستحق بها الثواب والعقاب كما قال الإمام علي (ع) ، ومن الأشياء التي امتحن الله بها عباده ، بل من أظهرها ارسال الرسل اليهم مبشرين ومنذرين ، فمن آمن بهم ، وسمع لهم وأطاع فقد استحق الثواب ، ومن كفر وعاند استحق العقاب ، فوجود النبي كمنذر ومبشر هو امتحان للمؤمنين والكافرين ، وسبب لإظهار ما يَكُنه كل من الفريقين .. وأيضاً وجود الكافرين والمنافقين هو امتحان وابتلاء للأنبياء الصالحين ، لأن أهل الشر والفساد لا يدعون أهل الصلاح وشأنهم ، بل يحاولون ايداءهم بكل سبيل ، بالاشاعات والافتراءات ، والدس والمؤامرات ، تماماً كما فعل المشركون مع رسول الله (ص) ، ويفعل الآن العملاء المأجورون مع الأحرار المخلصين .. وابتداء تاريخ الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل بتاريخ الانسانية ، فلقد قتل قابيل هايبيل ، وهما من نطفة واحدة ، وخرجا من رحم واحد ، قتله لا لشيء إلا لأن الله تقبل عمل هايبيل لصلاحه ، ولم يتقبل عمل قابيل لفساده (أتصبرون) أي اثبتوا على الحق أيها المؤمنون ، ولا تكثرثوا بالمنافقين وأكاذيبهم (وكان ربك بصيراً) بمن يفترى على الأبرياء الصالحين ، ومن يثبت على الحق مهما تكن النتائج ويجزي كلاً بما يستحق .

الجزء التاسع عشر

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا
لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ
لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا
عَمَلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ
مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ
تَنْزِيلًا * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا *
وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا *
يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ
جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا *

اللغة :

الرجاء الأمل والتوقع ، وقيل : المراد به هنا الخوف . والعتو التمرد وتجاوز
الحد . وحجراً محجوراً حراماً محرماً . وقدمنا قصدنا . والهباء الغبار الدقيق .
والمثور المنفرد . والمستقر مكان القرار كالبيت . والمقيل مكان القيلولة .

الإعراب :

لولا بمعنى هلا . ويوم يرون الملائكة (يوم) متعلق بفعل محذوف ، تقديره
اذكر أو يحزنون يوم يرون الملائكة . وبشرى اسم لا النافية للجنس ، وللمجرمين

سورة الفرقان

خبرها ، ويومئذ تأكيد ليوم يرون . وحجراً محجوراً منصوب على المصدر بفعل لا يذكر لفظاً مثل معاذ الله . وأصحاب الجنة مبتدأ وخبر خبر ويومئذ متعلق به . ومستقراً ومقبلاً تمييز . الملك مبتدأ ، والحق صفة، وللرحمن خبر ، ويومئذ متعلق بما تعلق به للرحمن . وكان يوماً عسيراً اسم كان ضمير مستتر يعود الى يوم تشقق السماء . ويا ليتني (يا) للتنبية اي ليتني . يا ويلنا تقدم في الآية ٣١ من سورة المائدة .

المعنى :

(وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) . ما زال الكلام عن المشركين الذين لا يرجون ثواب الآخرة ، ولا يخافون عقابها ، وقد حكى سبحانه في هذه الآية أنهم اقترحوا إنزال الملائكة عليهم لتخبرهم بأن محمداً (ص) نبي ، أو يأتي الله بنفسه ويخبر هو مباشرة . وتقدم نظيره في الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

(لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) . وأي استكبار وطغيان وجهل وغرور أعظم من هذه الجرأة واقتراحهم أن يروا الله جهرة ، ويكلمهم مشافهة؟ ولا فرق بينهم وبين من قالوا : لا نؤمن بالله لأننا لا نراه .. ولكنهم في الوقت نفسه يؤمنون بأشياء لا تقع تحت حاسة من الحواس .

لقد زعم الماديون انه لا شيء إلا الطبيعة العمياء ، فهي التي أوجدت نفسها، أو أوجدتها الصدفة ، وهي نظمت ورتبت هذا الكون العجيب ، وهي التي خلقت العقل والسمع والبصر ، أي ان الطبيعة - في منطقتهم - قادرة على كل شيء ، ولكنها لا تدرك شيئاً ، وبهذا ناقضوا أنفسهم ، لأن اعترافهم بوجود النظام هو بذاته اعتراف بوجود قوة قادرة عالمة ، وقولهم : لا شيء إلا الطبيعة العمياء هو انكار ونفي لهذه القوة ، ومعنى هذا ان الطبيعة تدرك ولا تدرك ، وتعلم ولا تعلم .

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) اقترح المشركون أن تنزل عليهم الملائكة، فأجاب سبحانه بأن لهم يوماً يرون فيه الملائكة ، وهو يوم القيامة

الجزء التاسع عشر

ولكن لا شيء فيه يبشرهم بخير ، بل هو وبال عليهم وعلى أمثالهم من المجرمين : « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون - ٥٥ العنكبوت » (ويقولون حجراً محجوراً) ضمير يقولون يعود الى الملائكة ، والمعنى ان الملائكة يقولون للمجرمين : حراماً محرماً عليكم اليوم أن تروا أو تسمعوا ما تحبون ، وقيل : يعود الضمير الى المجرمين لأنه أقرب ، وعليه يكون المعنى ان المجرمين يقولون للملائكة : حراماً محرماً عليكم ايذاؤنا وتعذيبنا ، وكسل من التفسيرين جائز ، ويرجع الى معنى واحد ، وهو خوف المجرمين من شر يوم القيامة وهوله .

(وقدما الى ما عملوا من عمل) كانوا يظنون أنه ينفعهم في هذا اليوم (فجعلناه هباء منثوراً) لأنه أسس على غير الايمان والاخلاص ، ومثله قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد - ١٨ ابراهيم » ج ٤ ص ٤٣٥ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) . ذكر سبحانه المؤمنين عند ذكر الكافرين - على عادته - وقال : لهؤلاء عندنا منازل الشر والجهنم ، ولأولئك منازل الخير والنعم .. وليس المراد هنا من كلمة خير وأحسن التفضيل ، بل المراد ان كلاً من المستقر والمقيل هو خير وحسن في نفسه ، مثل الله أكبر أي كبير في ذاته وصفاته .

(ويوم تشقق السماء بالغمام) . المراد باليوم يوم القيامة ، وبالغمام ان الكواكب تتحلل الى ذرات صغيرة لا تقع تحت العين والوزن ، وبها يمتلئ الفضاء كما يمتلئ بالغمام والضباب . وقد أشار سبحانه الى خراب الكون وتناثر الكواكب في العديد من الآيات ، منها : « اذا الشمس كورت » ذهب نورها « وإذا النجوم اندثرت » تساقطت : ومنها « وإذا الكواكب انتثرت » تفرقت (ونزل الملائكة تنزيلاً) بما يسر المحسنين ، ويسوء المجرمين (الملك يومئذ الحق للرحمن) وحده ولا أحد يملك معه شيئاً من الأمر والتصرف (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) . وأي يوم أعظم عسراً على المجرم من يوم محاكمته ونقاشه الحساب على جريمته وصدور الحكم عليه بالحق والعدل . ولو كان حكماً بالاعدام لانتهى بذهاب وقته ،

سورة الفرقان

ولكنه حكم بخلود العذاب : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب - ٥٥ النساء » .

(ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) . هذا كناية عن شدة الحسرة والندامة ، وهي نهاية كل مغرور ومفتر كذاب . وفي الدعاء المروي عن النبي (ص) : أعوذ بك من الذنوب التي تورث الندامة (يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً) . المراد بفلان هنا كل متبوع أضل تابعيه وقادهم الى الهلاك . وفي الحديث : « يحشر المرء على دين خليله » . وقال جماعة من المفسرين : ان هذه الآية نزلت في عقبة بن أبي معيط ، وأبي ابن خلف ، وان الظالم الذي يعرض على يديه هو الأول ، وفلاناً هو الثاني .. وعلى افتراض صحة هذا القول ، فإن سبب النزول لا يخص عموم الآية . (لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً) . المراد بالذكر هنا القرآن لأن الله سبحانه قد أطلق عليه هذه الكلمة في العديد من الآيات ، منها : « والقرآن ذي الذكر - ١ ص » ، وتدل الآية على ان الذين استمعوا للقرآن قد اقتنعوا به فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكن شياطين الانس قد غرروا بهم ، وصرفوه عن الحق ، فكان مآلهم الهوان والخذلان .. وهذا مآل كل من فعل وترك بوحى من أرباب الأهواء والأغراض ، لا بوحى من إيمانه وضميره .

اتخذوا هذا القرآن مهجوراً الآية ٣٠ - ٤٠ :

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا لَهُمُ الْبَاسَ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءًا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نَسِيرًا *

اللغة :

نشبت نقوي . والترتيل المهمل والتأني . والمراد بالمثل هنا كل ما يعترضون به على النبي (ص) . ويحشرون على وجوههم يسحبون عليها . والتدمير الاهلاك . ويطلق الرس على البشر ، وأصحابه قوم شعيب - على قول - وقرونًا جماعات . والتبیر الاهلاك . لا يرجون لا يأملون ولا يتوقعون . والنشور البعث .

الإعراب :

مهجوراً مفعول ثان لاتخذوا . وهادياً ونصيراً تمييز وقيل : حال . ولولا بمعنى هلا . وجملة حال من القرآن أي مجتمعاً . وكذلك، الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف أي نزلناه تنزيلاً مثل ذلك أي متفرقاً . والمصدر من نشبت متعلق بالفعل المحذوف، وهو نزلناه . وأحسن غير منصرف للوصف ووزن الفعل ،

سورة الفرقان

وهو معطوف على الحق ، وتفسيراً تمييز . وعلى وجوههم متعلق بمحذوف حالاً من واو يحشرون أي منكبين . ومكاناً تمييز وسبيلاً مثله . وأخاه مفعول أول لجعلنا، وهرون بدل منه ، ووزيراً مفعول ثانٍ . وقوم نوح مفعول لفعل محذوف أي وأغرقنا قوم نوح . وعاداً وما بعده عطف على (هم) في جعلناهم للناس آية . وكلاً ضربنا (كلاً) مفعول لفعل محذوف أي ضربنا كلاً أو عذبنا كلاً . وكلاً تبرنا (كلاً) مفعول تبرنا المذكورة .

المعنى :

(وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) . أي أعرضوا عنه ، وأبوا أن يؤمنوا به ، أو ينظروا اليه نظرة الفاحص والباحث عن الحق ليكون على بصيرة منه ويقين .. كذب صناديد قريش بنبوة محمد (ص) ، وقالوا عنه وعن القرآن ما قالوا حرصاً على مناصبهم ، وخوفاً على مكاسبهم، فرغ النبي شكواه منهم الى ربه الذي بيده مقاليد الأمور وتدبيرها ، وهكذا العاقل لا يشكو حاجته إلا لمن بيده قضاؤها .. أجل ، قد يشكو الى صديق يواسيه أو يسليه، أو يتوجع . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : « من شكك الى أخيه فقد شكك الى الله ، ومن شكك الى غير أخيه فقد شكك الله » . يريد بأخيه أخاه في الإيمان ، وان المؤمن اذا شكك الى مؤمن مثله دعا الله أن يفرج عنه، وأمره بالصبر والتوكل على الله ، ولا يؤيسه من رحمته تعالى ، أما غير المؤمن فانه يشمت به ، أو يشير عليه بما يصرفه عن الله .

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) . مصلح يقول للطاغية : يا مجرم ، ويدمغه بالفساد والضلال ، وبالعدوان على حقوق الناس ومقدساتهم ، ويجرده من سلطانه وكيانه ، يفعل هذا وغير هذا ، ثم يقف الطاغية جامداً لا يحرك ساكناً؟ كلاً. وتقدم نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ١١٢ ج ٣ ص ٢٤٩ . وأجبنا هناك عن سؤال من يسأل : اذا كان الله هو الذي جعل لكل نبي عدواً من الأشرار فلماذا يعاقب من نصب العداة للأنبياء ؟ .

(وكفى بربك هادياً ونصيراً) . الخطاب لرسول الله (ص) ، وفيه وعد

الجزء التاسع عشر

منه تعالى أن يمد رسوله بالنصر على أعدائه ، كما أمدّه بالهداية الى الحق ، وان يُظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) . نزل القرآن على مكث وفقاً لحاجات الناس ، وكان مبدأ نزوله والرسول الأعظم (ص) في الأربعين من عمره الشريف، واستمر الوحي آناً فآناً الى ان انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى، وهو في سن الـ ٦٣ ، وحاول المشركون أن يصرفوا الناس عن القرآن بكل سبيل فقالوا : هو أساطير الأولين .. ولكنهم لم يتمسكوا بهذه الفرية ، ويصروا عليها، لأنها تكذب نفسها بنفسها ، فابتدعوا دعاية أخرى وقالوا : لو كان القرآن من عند الله لأنزله دفعة واحدة لأن الله لا يحتاج الى تأمل وتفكير كالمؤلفين .. وما من شك لو نزل القرآن دفعة واحدة لقالوا - كما هو شأن المعاندين - لولا نزل على مكث لنتفهمه ونتأثر به ونعتاد عليه .. ولكن الحقائق تفرض نفسها على رغم المعاندين والمعارضين (كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً) أي نزلنا القرآن على التوالي ليقوى قلبك يا محمد على حفظه ، وفهم معناه ، وضبط احكامه .

(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً) . الخطاب لرسول الله (ص) ، والواو في يأتونك ويحشرون لأعدائه المشركين ، والمراد بالمثل كل ما يعترضون به على الرسول الكريم .. في الآية ٥ من هذه السورة حكى سبحانه اعتراضهم على القرآن بأنه أساطير الأولين، وفي الآية ٧ حكى قولهم عن الرسول انه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وفي الآية ٨ قالوا : هو رجل مسحور ، وفي الآية ٢١ قالوا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، وفي الآية ٣٢ قالوا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .

وبعد ان أبطل سبحانه كل ما قالوه خاطب نبيه الكريم : (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) أي ان المشركين يخاصمونك ويجادلونك يا محمد بالباطل ، ونحن نمدك بالحق الواضح ، والحجة التي تدحض أقوالهم ، وتفضحهم في أباطلهم .. هذا في الدنيا ، أما جزاؤهم في الآخرة فان الزبانية تسحبهم على وجوههم ، ومن كانت هذه حاله فهو شر خلق الله وأشقاهم في مقره ومكانته ، وعمله وسيرته .

سورة الفرقان

(ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً) . تقدمت قصة موسى وفرعون في العديد من الآيات ، منها الآية ١٠٣ الى الآية ١٤٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧١ الى ص ٣٩٢ ، وعند تفسير الآية ٩ من سورة طه ذكرنا سبب التكرار لقصة موسى (ع) .

(وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً) . أيضاً تقدمت قصة نوح أكثر من مرة . أنظر تفسير الآية ٢٥ الى الآية ٤٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢٢٢ الى ٢٣٧ .

(وعاداً) أنظر تفسير الآية ٥٠ الى ٦٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢٣٧ الى ٢٤٣ (وثمود) أنظر تفسير الآية ٦١ الى ٦٨ من سورة هود ج ٤ ص ٢٤٣ الى ٢٤٧ (وأصحاب الرس) اسم بشر وأصحابه قوم شعيب ، وتقدمت قصته في سورة هود من الآية ٨٤ الى ٩٥ ج ٤ ص ٢٥٦ الى ٢٦٤ (وقروناً بين ذلك كثيراً) وأيضاً أهلكنا أمماً وجماعات كثيرة بين عادٍ وأصحاب الرس لأنهم كذبوا الأنبياء والرسل .

(وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيراً) . أهلكناهم بعد البيان والانذار والمواعظ بالقصص وضرب الأمثال ، ولكنهم أصروا على الكفر والضلال ، فكان جزاؤهم الحراب والدمار (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً) . المراد بالقرية هنا قرى قوم لوط لقوله تعالى : « ولوطاً آتينا حكماً وعلماً ونجينا من القرية التي كانت تعمل الجاثث - ٧٤ الأنبياء » . وقوله : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود - ٨٢ هود » . والمعنى ان المشركين كانوا يمرون في أسفارهم بقرى لوط ، ويرون آثار الهلاك والدمار ، وكان عليهم أن يتعظوا بها ويؤمنوا بنبوتك يا محمد ، ولكنهم جمحدوا وعاندوا لأنهم لا يوقنون بالبعث والحساب والجزاء .

الجزء التاسع عشر

أهذا الذي بعث الله رسولا الآية ٤١ - ٤٤ :

وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنَّ
كَأَدَّ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ
عَلَيْهِ وَكَيْلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا *

الإعراب :

هزوا مصدر بمعنى اسم المفعول أي مهزواً به . ومفعول بعث ضمير محذوف
أي بعثه ، رسولاً حال منه . وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف
أي انه ، واللام في ليضلنا للتأكيد، وجملة يضلنا خبر ان . وفي كاد ضمير مستتر
يعود الى الرسول . لولا تدل على امتناع شيء لوجود شيء آخر . والمصدر من
صبرنا مبتدأ ، وخبره محذوف أي لولا صبرنا لوجود لأضلنا الرسول .

بن موقفين لعيسى ومحمد :

(وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا) . أقام
النبي (ص) ثلاث عشرة سنة بمكة يدعو قومه الى الإيمان بآله واحد يأمر بالعدل،
وينهى عن الجور ، ويستوي عنده الأسود والأبيض ، والغني والفقير ، ولا فضل
إلا بالتقوى .. فلا غرابة بعد هذا ان يضيق بمحمد (ص) عتاة قريش ، ويؤذوه
ويسخروا منه ومن دعوته .. وقد كان مبدأ المساواة مادة خصبة لهزئهم وسخريتهم ..
بلال العبد الذليل الفقير مثل أبي جهل صاحب الجاه والمال ، بل أفضل عند

سورة الفرقان

الله لأنه أبر وأتقى .. ان هذا لشيء عجاب !.. ولكن النبي (ص) صبر على الأذى ، ومضى في دعوته وأدى مهمته لأن ما يدعو اليه يهون كل شيء من أجله .. وهكذا يصمد العظيم للسفهاء وقوى الشر والضلال ، وهو واثق ان الله معه ، وان الغد له لأن الباطل الى زوال وان طال أمده .

وقارن مصطفى صادق الرافعي بين عيسى (ع) حين سخر منه بنو اسرائيل ، وبين محمد (ص) حين سخرت منه قريش ، وقال فيما قال :

« لقد هزئوا بالسيد المسيح من قبل ، فقال للساخرين منه : ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيتسه ، وبهذا رد عليهم رد من انسلخ منهم .. أما نبينا (ص) فلم يجب المستهزئين، اذ كانت القوة الكامنة في بلاد العرب كلها كامنه فيه. انه سكت سكوت المشرع الذي لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلم، وكان في سكوته كلام كثير في فلسفة الارادة والحريسة والتطور ، وان لا بد أن يتحول القوم ، وان لا بد أن ينفطر هذا الشجر الأجرد عن ورق جديد أخضر ينمو بالحياة .. انه لم يتسخط ولم يقل شيئاً ، وكان كالصانع الذي لا يرد على خطأ الآلة بسخط ويأس ، بل بإرسال يده في اصلاحها » .

وعلينا نحن المسلمين أن نتعلم من هذا الدرس النبوي الثبات والصمود على الحق والتضحية في سبيله بكل عزيز ، وان لا نياس من انتصار الحق على الباطل ، وان كثر أنصاره ، فان منهم من خدعته الكواذب التي تتكشف وتتبخر مع الأيام ، ومنهم من غلبت عليه شقوته في ساعة ذهل فيها عن ربه وضميره ، ثم يعود اليه ، ويتوب من ذنبه .. وأيضاً لا ينبغي أن نثق ونطمع في كل من طلب الحق وأقبل عليه ، فما أكثر الناكثين والمارقين ، ومن يتاجرون بالقيم والدين .

(إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها) . هذا من كلام المشركين الذين سخروا من الرسول الأعظم (ص) وقالوا : « أهذا الذي بعث الله رسولا » قالوا هذا منكرين جاحدين ، ثم اعترفوا من حيث لا يشعرون بأن محمداً كاد يشككهم في أصنامهم ، ويصرفهم عن عبادتها بما ظهر على يده من المعجزات ، وأقام من الدلائل والبيئات ، واعترفوا أيضاً بأنهم قاوموا عقولهم وتغلبوا عليها بشهواتهم وأهوائهم « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها » . انها لوقاحة

الجزء التاسع عشر

مفضوحة ، وتناقض ظاهر بينها وبين السخرية من محمد .. سخروا منه ، واعترفوا له بقوة الحججة في آن واحد .. وهكذا كل مبطل: تتضارب أقواله من حيث لا يشعر .. والسر ان الحق يفرض نفسه ، ويبرزها جلية واضحة في أقوال المعاندين والجاحدين رغم أنوفهم .

(وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً) . قالوا : كاد محمد يضلنا . فأجابهم سبحانه: ستعلمون غداً يوم تواجهون الهول الأكبر انكم الضالون الخاسرون ، لا محمد ومن آمن به (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) . كل من تغلب هواه على دينه فقد اتخذ إلهه هواه ، أراد ذلك أم لم يرد ، ومن كان كذلك فلا أمل في هدايته ، لأن كل آية لا تعكس رغبته وهواه فهي عنده سخرى وهراء (أفأنت تكون عليه وكيلاً) تحفظه من الضلال والفساد ؟ دعه فلا خير فيه ، وقد انذرت واعدت ، وعلينا حسابه وعقابه .

أضل من الأنعام :

(أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) . قال سبحانه : أكثرهم ، لأن البعض منهم عاندوا في البداية ، ثم رجعوا عن ضلالهم ، وآبوا الى رشدهم ، وانقادوا الى الحق ، وأبلوا البلاء الحسن في سبيل الله ، ونفى جل وعز السمع والعقل عن الذين أصروا على الجحود والضلال لأنهم لم ينتفعوا بأسماعهم وعقولهم ، وكل ما لا جدوى من وجوده فهو بحكم العدم ، وشبههم ، جلت حكمته ، بالأنعام لأنهم لم يتدبروا الأدلة والبراهين ولم يتعظوا بالحكمة والعبر ، بل هم أضل من الأنعام لأن الأنعام تؤدي ما عليها كاملاً بحسب تكوينها وخصائصها ، وتنقاد الى صاحبها أمراً وزجراً ، وتعرف ما يضرها فتتقيه ، وما ينفعها فتبتغيه ، وهم لا يؤدّون ما عليهم ، ولا ينقادون لخالقهم ، ولا يتقون عذابه ، ولا يعملون لثوابه .. وفوق هذا كله فان الأنعام والبهائم لا تضر أحداً من جنسها وغير جنسها ، بل ينتفع الناس بظهورها وألبانها وأصوافها ، أما أهل الفساد والضلال فانهم شر ووبال على مجتمعهم ، وسبب لأدوائه وبلائه ، ومصدر لتأخره وانحطاطه .

سورة الفرقان

وتجدر الإشارة الى ان هذا الوصف لا يختص بمن كفر بالله أو أشرك به ، فكل من جحد الحق مع قيام الدليل عليه فهو أضل سبيلاً من الأنعام ، سواء أجدده مكابرة وعناداً، أم عن إهمال وتقصير في البحث عن أدلة الحق ومصادره .

وراء الظواهر الطبيعية الآية ٤٥ - ٥٤ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُباتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ
بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي
كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا *
وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ
بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا *

اللغة :

لباساً أي ساتراً كاللباس . وسباتاً سكوناً ضد النشور أي جعل سبحانه الليل

الجزء التاسع عشر

لسكون الناس ، والنهار لحركتهم . وأناسي جمع انسي ككرسي وكراسي .
وكفوراً من كفران النعم . ومرج نخلط . والفقرات العذب جداً . والاجاج
المالح أو المرّ جداً . والبرزخ الحاجز ، وحجراً محجوراً أي حراماً محرماً أن يفسد
الاجاج الفرات . والنسب والصهر يعان كل قربي بين الذكور والاناث .

الإعراب :

كيف، حال من الضمير المستتر بمد . وبُشراً حال من الرياح . وانعاماً وأناسي
مفعول ثانٍ لنسقيه .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات طرفاً من النعم التي أسبغها على عباده ، ودلت
على وجوده وعظمته ، نبهنا اليها جل وعلا لنؤمن به ونعبده مخلصين له الدين ،
وفيما يلي التفصيل :

١ - (ألم تر الى ربك كيف مد الظل) وهو الفيء وجمعه ظلال ، قال
تعالى : « يتفياً ظلاله - ٤٨ النحل » . وقيل الظل أعم من الفيء حيث يقال :
ظل الجنة ، ولا يقال : فيؤها ، ومهما يكن فإن القصد التذكير بنعمة الظل الذي
يجد الانسان فيه الراحة والمتعة، وبأن الله هو الذي ييسطه ويقبضه (ولو شاء لجعله
ساكناً) أي جعل الأرض ساكنة، وبسكونها يسكن الظل ويثبت على حال واحدة،
لأن الظل لا استقلال له في ذاته واسمه يدل عليه، وانما هو تبع لصاحبه إن تحرك
تحرك ، وان سكن سكن .

(ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) لولا وجود الشمس لم يكن للأرض ظل ،
فوجودها يدل على وجوده ، تماماً كما يدل وجود العلة على وجود المعلول (ثم
قبضناه اليها قبضاً يسيراً) بسط سبحانه الظل رويداً رويداً ، وأزاله أيضاً رويداً
رويداً بحسب حركة الأرض .

سورة الفرقان

ونسب اليه تعالى الظل ومداه وقبضه مع ان ذلك يستند الى الأرض مباشرة كما ذكرنا لأنه جل وعز هو المؤثر الأول في الوجود ، وان الفيض كله من عنده ، وليست الظواهر الكونية إلا وسائط .

٢ - (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً) . وصف سبحانه هنا الليل باللباس ، وفي الآية ٩٦ من سورة الأنعام وصفه بالسكن : « وجعلنا الليل سكناً » والمعنيان متقاربان لأن اللباس يحجب الأبصار ، ولا صوت للسكون يصل الى الأسماع .

٣ - (والنوم سباتاً) سكوناً وانقطاعاً عن العمل ، يقال : سبت القوم اذا استراحوا وانقطعوا عن العمل .

٤ - (وجعل النهار نشوراً) حركة وعملاً ، وأوضح تفسير هذه الآية قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون - ٧٣ القصص » أي لتسكنوا في الليل ، وتعملوا في النهار طلباً للعيش .

٥ - (وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) . المراد برحمته هنا المطر ، والمعنى ان الرياح تبشر بنزول الماء من السماء وهو طاهر في نفسه مطهر لغيره على حد تعبير الفقهاء (لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا انعاماً وأناسي كثيراً) . قال سبحانه هنا بلدة، وفي الآية ٥٦ من سورة الأعراف قال : « سقناه لبلد ميت » . ويدل هذا على ان البلدة والبلد بمعنى واحد ، ولذا قال : بلدة ميتاً ولم يقل ميتة . أنظر تفسير الآية ٥٦ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢، وأيضاً تفسير الآية ٣٠ من سورة الأنبياء (ولقد صرفناه بينهم ليدكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) . ضمير صرفناه يجوز أن يعود الى القرآن ، وعليه تكون الآية بمعنى قوله تعالى : « ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدكروا وما يزيدهم إلا نفوراً - ٤١ الاسراء » . ويجوز أن يعود ضمير صرفناه الى المطر ، ويكون المعنى ان الله سبحانه أرسل المطر من مكان الى مكان لأنه لو دام واستمر في مكان واحد هلك أهله غرقاً ، ولو انقطع عنهم كلية لما اتوا عطشاً، وعلى كل عاقل أن يتدبر هذه الحكمة والنعمة ويشكر الله عليها، ولكن أبى أكثر الناس إلا الجحود بالله ، والكفران بأنعمه .

الجزء التاسع عشر

(ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً) . قبل ان يبعث الله محمداً (ص) جعل لكل أمة رسولا : « ولكل أمة رسول - ٤٧ يونس » ، ومنذ عهد محمد (ص) الى آخر يوم أقفل سبحانه باب ارسال الرسل الى الخلائق ، واكتفى برسول واحد لجميع الأمم في جميع الأجيال ، وهو محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله ، فدينه هو الدين الأخير للانسانية كلها ، ومن أجل هذا أخذ الله عهداً على كل نبي أن يبشر به وبصفاته : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين - ٨١ آل عمران ، ج ٢ ص ٩٨ . وليس فوق هذه المنزلة إلا الله وحده ، وقد ذكر الله صاحبها بهذه النعمة العظمى حيث قال له : (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً) ولكننا لم نفعل ، وأوكلنا انذار الامم كلها اليك وحدك تعظيماً لشأنك لأن العظمة على مقدار التكليف وثقله .

القرآن والاداعة :

(فلا تطع الكافرين وبجاهدكم به جهاداً كبيراً) . الخطاب في لا تطع لرسول الله (ص) ، ويجوز النهي عن الشيء حتى مع العلم بأن المكلف لا يفعله اطلاقاً ، وبالتخصص اذا كان الناهي هو الله تعالى ، وضمير به يعود الى القرآن ، والمعنى لا تستجب يا محمد لشيء مما يدعوك اليه الكافرون ، ولا تدع فرصة إلا وبلغت القرآن ، وتلوته على مسامعهم ، أحبوا ذلك أم كرهوا ، وإذا لاقيت منهم الأذى في هذه السبيل فاصبر ، ولا يصدنك أذاهم عن اعلانه واداعته ، فإن اداعة آيات الله هي الجهاد الأكبر في سبيل الحق والانسانية .

وليس الغرض من هذا التأكيد والترغيب هو تحدي العتاة والطفاة ببلاغة القرآن وكفى ، وانما الغرض توعية المستضعفين والجاهلين ، وإرشادهم الى حرمتهم التي اعتدى عليها الأقوياء ، وان العدالة والمساواة حق إلهي وطبيعي لكل فرد ، وانه لا قوي ولا غني ولا شريف إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وان القرآن هو الذي يضمن هذا الحق ، ولا يؤدي تأديته في ذلك دين ولا شريعة إلا اذا قامت على

سورة الفرقان

ما قام عليه من العدل والمساواة ، وبهذا نعرف السر في قوله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون - ٢٠٣ الاعراف » .
لقد أمر الله نبيه الكريم أن يجاهد الجهاد الأكبر بقراءة القرآن واذاعته لأن بها يرتفع صوت الحق والعدل ، وينشر العلم والوعي بين الناس ، ويحس كل انسان بكرامته ، فيحرص عليها ، ويدافع عنها، وبهذا يتبين ان تلاوة القرآن من الاذاعات العالمية هي لخير الانسانية كلها ، لا للمسلمين وحدهم ، وان الدافع على هذه الاذاعات ليس البلاغة البيانية - كما يظن - وانما الدافع الأول دعوة القرآن التي ترسي قواعد العدل والمساواة بين الناس أجمعين .

(وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً) . ليس المراد بالبحرين في الآية بحران معينان ، وانما المراد بهما نوعان من الماء : أحدهما عذب ، وثانيها مالح ، فإن كلمة بحر تطلق في اللغة على الماء الكثير عذباً كان أم مالحاً ، والمعنى ان الله سبحانه جعل الماء المالح في أرض منخفضة يركد فيها الماء ، وجعل مجاري الماء العذب كالأنهار والجداول في أرض مرتفعة عن سطح البحر ، بحيث يصب الماء العذب في الماء المالح ، فيبقى العذب على عذوبته ، والمالح على ملوحته ، ولو انعكس الأمر ، وجعل سبحانه الماء الحلو في أرض منخفضة ، والماء المالح في أرض مرتفعة ، وصب المالح في العذب لأفسد المالح العذب ، وأصبح الماء كله مرأ ، ووقع الناس في العسر والحرج .. وليس هذا من باب الصدفة ، بل هو بتقدير حكيم عليم ، وقوله تعالى : (وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً) معناه ان الماءين وان التقيا عند مصب الأنهر فإن أحدهما لا يطفئ على الآخر ، بل تبقى لكل منهما خصائصه وآثاره .. فسبحان الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

٦ - (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً) . المراد بالنسب القرابة بالتوالد ، وبالصهر القرابة بالمصاهرة ، والمعنى ان الله سبحانه خلق من النطفة انساناً هو أعجب الكائنات ، وجعل بين أفراد القرابة والتعاطف . انظر تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون . (وكان ربك قديراً) ومن مظاهر قدرته ان جعل من خليصة ذكراً ، ومن خلية أنثى مع ان حقيقة الخليتين واحدة ، ومصدرهما واحد .

وكان الكافر على ربه ظهراً الآية ٥٥ - ٦٢ :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى
رَبِّهِ ظَهِيْرًا * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيْلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ
الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيْرًا * الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا
الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوْرًا * تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ
بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيْرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوْرًا *

اللغة

الظهير المعين . والمراد بالبروج منازل الشمس والقمر ، وقيل : المراد بها
الكواكب السيارة المعروفة عند العرب . والمراد بخلفة ان أحدهما يخلف الآخر .

الإعراب :

مبشراً ونذيراً حال من كاف أرسلناك . إلا من شاء استثناء منقطع أي لكن
من شاء . وكفى به الباء زائدة اعراباً والهاء فاعل ، وخبيراً حال ، وبدنوب
عباده متعلق بخبر . الذي خلق السموات بدل من الحي الذي لا يموت . والرحمن

سورة الفرقان

خير مبتدأ محذوف أي هو الرحمن . ونقوياً تمييز محمول عن فاعل ، والأصل زاد نقورهم . وخلفة مفعول ثانٍ لجعل ، وقال أبو حيان الأندلسي : هي حال .

المعنى :

(ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) تقدم بالحرف الواحد في الآية ١٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٣ (وكان الكافر على ربه ظهيراً) أي يعين أهل الباطل على أهل الحق، وكل من أعان الباطل فقد أعان على الله ونصب له العداة ، وان سبحة و قدسه بلسانه ، قال الرسول الأعظم (ص) : « من أعان ظالماً ، وهو يعلم انه ظالم فقد برىء من الاسلام » . ومها شككت فاني لا أشك في أن من يتعمد الظلم كافر ، بل الكافر « العادل » خير منه ، والآيات القرآنية كثيرة وصریحة في ذلك ، أما الأحاديث النبوية فقد تجاوزت حد التواتر .. أجل ، علينا أن نعامله في الظاهر معاملة المسلم ، لا لشيء إلا لقوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) تقدم بالحرف في الآية ١٠٥ من سورة الاسراء (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً) . لا مطمع لي فيكم ولا في أموالكم ، ولا أريد أن أبيعكم أذرعاً في الجنة ، إن أريد إلا الإصلاح ، فمن شاء منكم أن يتخذ السبيل الى الهداية فأجره على الله . وتقدم مثله في الآية ٩٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢١ والآية ٨٨ من سورة هود ج ٤ ص ٢٦١ .

(وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) . بشر وأنذر يا محمد متوكلاً على الله ، مخلصاً له في أقوالك وأفعالك ، ومترهاً مقامه عن المثل ، وعن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته ، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله فيحاسبه ويجازيه (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش) . المراد بالاستواء الاستيلاء ، والأرجح ان المراد بالأيام الدفعات أو الأطوار ، إذ لا أيام قبل وجود الكون والشمس ، وتقدمت هذه

الجزء التاسع عشر

الآية في سورة الاعراف الآية ٥٤ ج ٣ ص ٣٣٨ ، وفي سورة يونس الآية ٣ وفي سورة هود الآية ٧ . (الرحمن فاسأل به خبيراً) به متعلق بخبير ، والهاء تعود الى خلق السموات والأرض المفهوم من السياق ، وفي الكلام حذف وتقديم وتأخير أي هو الرحمن فاسأل عن خلق السموات والأرض خبيراً به ، وهو الله . (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً) . اذا قال النبي (ص) للمشركين : اعبدوا الرحمن ولا تعبدوا الأصنام قالوا متجاهلين ساخرين : ما هو الذي تدعوننا لعبادته ، وتسميه بالرحمن ؟ . أتريدنا ان نطيعك ، ونعصي آباءنا فيما كانوا يعبدون ؟ . وتذكرنا هذه الجهالة والسفاهة بجهالة الشباب الذين اذا قيل لهم : صلوا وصوموا قالوا : أصلاة في القرن العشرين ؟ والغريب ان هؤلاء الشباب يتغنون بالحرية والانسانية .. وكأن الحرية هي الزندقة والتهتك ، والانسانية هي التحرر من قيمها ومثلها .. وما دروا ان الحر هو الذي يعبد الله ولا يخضع لسواه ، وان الانسانية هي دين الله الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر .

(تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرراً منيراً) . المراد بالبروج منازل الشمس والقمر. انظر تفسير الآية ١٦ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٧٠ ، والمراد بالسراج هنا الشمس لقوله تعالى : « وقرراً منيراً » . وقال سبحانه في الآية ٥ من سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » . وفرق البعض بين الضوء والنور بأن الضوء يستند الى الكواكب مباشرة وبلا واسطة كضوء الشمس ، والنور يستند الى الكواكب بالواسطة كنور القمر فإنه مكتسب من الشمس ، واستدل على هذه التفرقة بآية جعل الشمس ضياء والقمر نوراً . (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) . خلفه أي ان الليل والنهار يتعاقبان ويخلف أحدهما الآخر ، يذهب الليل ويأتي النهار ، ثم يذهب هذا ويأتي ذاك ، وهكذا دواليك ، ولا يمكن أحدهما الى ما لا نهاية أو طويلاً أكثر من حاجة الحلائق .. والتعاقب على هذه الصورة يدل دلالة قاطعة على وجود مدبر حكيم، وتعاقب الليل والنهار يستند مباشرة الى حركة الأرض ، وحركة الأرض تستند الى سببها ، ولكن سلسلة الأسباب تنتهي بجميع حلقاتها الى المبدأ الأول ، أما الحكمة من هذا التعاقب فلأنسه لو استمر وجود

سورة الفرقان

الظلمة أو الضياء لتعذرت الحياة على وجه الأرض .. وقوله تعالى : « لمن أراد أن يذكر » معناه ان من طلب الدليل على وجود الله وجده في جميع الأشياء ، ومنها تعاقب الليل والنهار ، وقوله : « أو أراد شكوراً » معناه ان من أراد أن يشكر الله على نعمه فليشكره أيضاً على تعاقب الليل والنهار فانه من النعم الكبرى.

عباد الرحمن الآية ٦٣ - ٧٧ :

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ
رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا *

اللفظة :

المهون الرفق واللين . والاسراف مجاوزة الحد . والتقتير التضييق . والقوام وسط
بينهما . ومتاباً مرجعاً حسناً . وقررة العين كناية عن السرور لأن العين تستقر عنده .
والغرفة كناية عن الدرجة الرفيعة . ولزاماً لازماً .

الإعراب :

عباد الرحمن مبتدأ، والذين يمشون خبر . وهوناً حال من واو يمشون . وسلاماً
نصب على المصدر . وسجداً وقياماً حال . ومستقر ومقاماً تمييز . وكان بين ذلك
أي وكان الانفاق . ويضاعف بالجزم بدلاً من يلقى . ومهاناً حال . وكذلك
كراماً وصماً وعمياناً . ودعاؤكم مبتدأ محذوف الخبر أي لولا دعاؤكم موجود .

المعنى :

بعد أن ذكر سبحانه صفات الكافرين ، وتوعدهم عليها ذكر - على عادته -
صفات المؤمنين وما أعد لهم عليها من الأجر والثواب ، وهذه هي صفاتهم :
١ - (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) . قال الإمام جعفر الصادق
في تفسير ذلك : « هو الرجل يمشي على سجيته التي جبل عليها ، لا يتكلف ولا
يتصنع » . أجل ، على سجيته يمشي من غير تصنع .. ومنفرداً ، لا حواشي
وأتباع من خلفه ، ولا خدم وحشم من أمامه يركبون الخيول أو الدراجات النارية

سورة الفرقان

ترجع الناس بأصواتها اعلاناً عن مقدمه ليفسحوا له ويصفقوا اجلالاً وتعظيماً .

٢ - (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . المراد بخطاب الجاهلين سفاهة السفهاء ، كهزئهم أو شتمهم أو جدالهم بالهوى والغرض .. وسلاماً كناية عن تجاهلهم والإعراض عنهم استخفافاً بشأنهم ، وترفعاً عما لا يليق بالرجل الكريم ، والمعنى ان المؤمن اذا سمع كلمة السوء تجاهلها حتى كأنه لم يسمعها أو كأن المقصود بها غيره ، وهذا هو المهجر الجميل المراد بقوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا - ١٠ المزمل » . وليس من شك ان الإعراض عن السفیه انما يحسن حيث لا قوة تردعه وإلا وجب تأديبه ، ولا بد من تقييد الآية بذلك .

٣ - (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) . يبيتون أي يدركهم الليل . والمؤمنون ينصرفون في ظلمة الليل الى الله وعبادته ، لأنها أبعد عن الرياء ، ولا يقضون الليالي في المقاهي والملاهي ، وتبذير الأموال، وتبذير المؤامرات ضد المؤمنين والمخلصين ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون - ١٩ الذاريات » .

٤ - (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً) لازماً لا مفر منه ، ودائماً لا تحوّل عنه (انها ساءت مستقراً ومقاماً) . آمنوا بالجنة والنار ايمانهم بما شاهدوا وعابنوا ، فخافوا من هذه ، وطمعوا في تلك ، قال الإمام علي (ع) في وصفهم : فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون .

٥ - (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) لا افراط ولا تفريط ، لا تقتير ولا تبذير ، بل وسط واعتدال ، وهذا هو نهج الاسلام الاعتدال في كل شيء ، لا إلحاد ولا تعدد آلهة ، ولا دكتاتورية ولا فوضى ، ولا إلغاء ملكية ولا ملكية طاغية . انظر تفسير الآية ٢٩ من سورة الإسراء ، فقرة « الاسلام ونظرية الأخلاق » .

٦ - (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) ومن عمل رياء أو أطاع مخلوقاً

الجزء التاسع عشر

في معصية الخالق فهو كمن دعا مع الله إلهاً آخر. (ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) . والنفس التي تُقتل بالحق والعدل هي التي قتلت نفساً بغير الحق ، أو زنت عن إحصان ، أو ارتدت عن دين الحق ، أو سعت في الأرض فساداً والتفصيل في كتب الفقه. (ولا يزنون) لأن الزنا من أكبر الكبائر ، ولذا ساوى الله سبحانه بينه وبين الشرك بالله ، وقتل النفس ، وجعل حكم الثلاثة القتل بالشروط التي ذكرها الفقهاء (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) . ذلك إشارة الى الشرك والقتل والزنا ، والاثام العقوبة (يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) . وأي عذاب وهوان أشد من عذاب جهنم ؟ فكيف اذا كان مضاعفاً مع الخلود الى ما لا نهاية .

(إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) . من تاب عن الذنب كمن لا ذنب له ، وفوق ذلك يشبه الله على التوبة ، ويعطيه من الحسنات ما يعادل سيئات ذنوبه ، بحيث تمحو حسنات التوبة سيئات الذنوب : « ان الحسنات يذهبن السيئات - ١١٦ هود » ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (يبدل الله سيئاتهم حسنات) فإن السيئة بما هي لا تستحيل إلى حسنة ، ولا الحسنة بما هي تستحيل إلى سيئة (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً) بعد ان بين سبحانه في الآية السابقة انه يثيب الثائب ثواب المحسنين أثني عليه في هذه الآية بأنه قد رجع الى خالقه رجوعاً حسناً ، وتدارك ما كان منه .

٧ - (والسذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) . المراد بالشهادة هنا الحضور مثلها في قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه - ١٨٤ البقرة » . والمراد بالزور الباطل ، وباللغو كل ما لا خير فيه ، والمعنى ان المؤمنين لا يحضرون مجالس الباطل ، ولا يعينون أحداً عليه ، وبالأولى أن لا يفعلوه ، ولا يشتركوا في كلام لا خير فيه ، وإذا مروا به كرموا اسماعهم عنه ، كما نزهوا ألسنتهم عن التفسوه به ، تماماً كالنحلة تسرع اذا مرت بالجيف والروائح الكريهة .

٨ - (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يحزوا عليها صماً وعمياناً) . الشاعر

سورة الفرقان

يصغي الى الشعر ، ويتذوقه ، ويقبل عليه بكله .. وهكذا كل صاحب مهنة إذا حدثته بمهنته واختصاصه ، فإنه يُقبل عليك بقلبه وسمعه وبصره .. وإذا حدثت انساناً بما هو بعيد عنه ، ولا تمت الى مهنته بصلة تحول عنك وعن حديثك، وان كان هدى ونوراً .. وبهذا يتبين لك السر في اقبال المؤمن على القرآن ، وادبار الكافر عنه ، يقبل المؤمن على كتاب الله لأنه يؤمن به ، ويدرك معناه ومرماه ، ويجد فيه نفسه وعقيدته وصالح أعماله، وما أعدّه الله له من الأجر والثواب، ويدبر الكافر عن كتاب الله لأنه يجحده، ويجهل أهدافه وأسراره ، ولا يجد فيه إلا الدم والتنديد به وبعقيدته وصفاته ، والا التهديد على كفره وفساده .

٩ - (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) . يتمنى الشقي الفاجر أن يقتدي به الناس لا اقتناعاً منه بأنه على هدى من ربه .. كلا ، بل لتخف عنه المذمة والملامة ، ويرر خطيئته بكثرة المخطئين ، ولذا لا يحب ان يكون أولاده وزوجته على شاكلته ، تماماً كما لا يحب المريض أن يصاب أهله بدائه .. أما البر التقي فهو على يقين من دينه وبصيرة من أمره ، ولذا يتمنى من أعماق قلبه مبدأ وعقيدة أن يسير جميع الناس على نهجه ، وان يكون أولاده على شاكلته يفرح بدينهم وسلوكهم ، ويتضاعف بهم عدد المتقين والمطيعين .. فالمخلصون يسألون خالقهم أن يجعلهم قدوة لمن رغب في تقوى الله لا ليرروا أعمالهم عند الناس ، ولا طلباً للجاه في الدنيا وقبض الأموال باسم حقوق الله ، بل رغبة في عظيم المنزلة عند الله وحده .

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً) . بعد أن بين سبحانه أوصاف المتقين ذكر ان جزاءهم عنده الخلود في الهناء والنعيم ، والأمن والأمان مع التوقير والاحترام .. ونخص الصبر بالذكر للإشارة الى ان كل محق لا بد أن يلاقي الأذى والعناء من المبطلين ، وان ثواب الله لا يظفر به إلا من صمد وصبر واستمر على مبدئه وعقيدته مهما كان الثمن ويكون .

(قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً) . المراد بالدعاء هنا ان الله سبحانه دعا المشركين بلسان نبيه الى الايمان والطاعة ، والدليل

الجزء التاسع عشر

على ان هذا هو المراد بالدعاء قوله تعالى : (فقد كذبتم) فهو مثل : « فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » . والمعنى لستم عند الله أيها المشركون بشيء يستحق العناية والذكر لولا شيء واحد ، وهو دعوتكم الى الايمان والطاعة كي تلزمكم الحجة عند الحساب والجزاء اذا لم تسمعوا وتطيعوا ، وقد عرضتم عن الدعوة وكذبتم الداعي ، فحقت عليكم كلمة العذاب ، وأصبح عقابكم لازماً ، لا مفر منه .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

قال الطبرسي : هي مكية إلا قوله تعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخر
السورة فانه نزل بالمدينة . وآياتها ٢٢٧ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لعلك باجع نفسك الآية ١ - ٩ :

طَسْمٌ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاجِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا
خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَدَّتٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ
مُغْرَضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوْ لَمْ
يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *

اللفظة :

الباجع المهلك، وبجع نفسه أهلكتها . والاعناق الرقاب ، وتطلق على الجماعات .
والزوج الصنف .

الإعراب :

تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبر . ولعل تتضمن هنا معنى الاشفاق . ونفسك مفعول به لبأخ . والمصدر من الا يكونوا مفعول من أجله . وظل للنهار ، تقول : ظل أي أقام نهاراً ، وبات لليل تقول : بات أي أقام ليلاً ، وهما من أخوات كان يرفعان الاسم وينصبان الخبر ، وأعناقهم اسم ظلت وخاضعين خبر ، وأصل الكلام فظلوا لها خاضعين ، ثم حذف واو الجماعة وأقيمت الأعناق مقامها لأنها موضع الخضوع ، وتركت كلمة خاضعين على أصلها . ومن ذكر (من) زائدة إعراباً وذكر فاعل يأتيهم ، وكم مفعول انبتنا .

المعنى :

(طسم) . تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب المبين) . تلك اشارة الى آيات هذه السورة ، والكتاب القرآن ، والمبين بين الحق ويظهره (لعلك بأخ نفسك ألا يكونوا مؤمنين) . الخطاب من الله لمحمد (ص) يعاتبه فيه على شدة حزنه وأسفه لاعراض قومه عن الهدى والحق . وتقدم مثله في الآية ٣٥ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٨٣ والآية ٦ من سورة الكهف .

(إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) . يقول سبحانه لنبيه الكريم : هوّن عليك ، لو أردنا أن يؤمنوا قسراً وجبراً لأنزلنا عذاباً من السماء يرونها عياناً ، وقلنا لهم : اختاروا ، أما الهلاك ، وأما الإيمان .. وليس من شك أنهم يستسلمون أذلاء خاضعين .. ولكن هل يعد هذا إيماناً يستحقون عليه الثواب ؟ كلا ، ان الإيمان الحق ما كان بالارادة والاختيار ، لا بالاكراه والاجبار ، ولذا أقدرناهم على فعل الشر والخير ، وأمرناهم بهذا ، ونهيناهم عن ذلك ، وتركنا لهم أن يختاروا ليستحقوا الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية .

وتسأل : لقد فعل سبحانه ذلك بيني اسرائيل في عهد موسى (ع) بدليل قوله تعالى : « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم أخذوا ما

سورة الشعراء

آتيناكم بقوة - ١٧١ الأعراف . فكيف أثبتته هناك ، ونفاه هنا ؟ .

الجواب : ان القرآن الكريم يدل بصراحة ووضوح على ان الله سبحانه عامل اليهود معاملة لا تشبه شيئاً مما عامل به سائر العباد ، لأن لهم في نظر القرآن طبيعة شاذة لا يقاس عليها .. وقد تكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ١٢٢ بعنوان « لا قياس على اليهود » .

(وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزون) . أقدرنا المشركين وأرشدناهم بلسانك يا محمد الى ما فيه خيرهم وصلاتهم ، فأعرضوا وسخروا .. فدعهم وشأنهم ، فانهم ملاقون ما وعدناهم من العذاب لا محالة . وتقدم مثله في الآية ٦٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٠٥ .

(أو لم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) . كفر من كفر بالله ، وهو يرى الدلائل والبيئات على وجوده وعظمته ، ومن هذه الدلائل اخراج النبات أصنافاً وألواناً من الأرض الميتة . أنظر تفسير الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ والآية ٣ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٥ . (وان ربك هو العزيز الرحيم) . وبعزته يقهر الطغاة ، وبرحمته يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقاب حتى يأتيهم من عنده البشير النذير ، ويدع لهم الفرصة للتدبر والتوبة . قال الإمام علي (ع) : لا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تلهيه رحمة عن عقاب .

موسى الآية ١٠ - ٢٢ :

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ *

الجزء التاسع عشر

قَالَ كَذَّابًا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ *

الإعراب :

إذ في محل نصب بفعل محذوف أي اذكر . وان ائت (ان) مفسرة بمعنى أي . وقوم فرعون بدل من القوم الظالمين . ويضيق صدري عطف على أخاف ، ومثله لا ينطلق . وأفرد الرسول مع انها اثنان لأن المرسل واحد ، والرسالة واحدة ، والمرسل اليه واحد ، بالإضافة الى ان موسى هو الأصل . ان أرسل (ان) بمعنى أي مفسرة لمضمون الرسالة المفهومة من كلمة الرسول . واذن حرف جواب وجزاء معاً ، ولكن المراد بها هنا الجواب فقط أي نعم فعلتها . والمصدر من ان عبدت في محل رفع بدلاً من نعمة .

المعنى :

هذه الآيات الى الآية ٦٨ هي في قصة موسى (ع) التي تقدمت مرات ، وعند تفسير الآية ٩ من سورة طه ذكرنا السبب الموجب لتكرارها (وإذ نادى ربك موسى ان ائت القوم الظالمين قوم فرعون) . تقدم في الآية ٢٤ من سورة طه . (الا يتقون) . هذه جملة مستأنفة ، ومعناها لقد آن الأوان ان يخاف فرعون

سورة الشعراء

وقومه عاقبة البغي والطغيان (قال رب اني أخاف أن يكذبون) . وفي الآية ٤٥ من سورة طه : « اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » أي يعجل علينا بالعقوبة قبل أن نبلغه الرسالة (ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل الى هرون). أمر الله سبحانه موسى أن يحمل رسالته الى فرعون .. وهذا تكليف شاق وعسير لطغيان فرعون وقوة سلطانه من جهة ، ولأن الرسالة بذاتها حمل ثقيل من جهة ، قال تعالى يخاطب نبيه الكريم محمداً (ص) : « انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » - ٥ المزمّل . وموسى سريع الغضب للحق ، وفي لسانه عقدة تمنعه من الانطلاق في الكلام ، فخاف ان يقصر في أداء الرسالة الكبرى والقيام بواجبها .. ولا أحد كالأنبياء يخاف من التقصير في حق الله ، وبالمخصوص أولي العزم ، وهذا من العصمة ، ومن ثم طلب موسى من الله ان يرسل جبريل الى أخيه هرون ليكون عوناً له على هذه المهمة .

(ولحم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) . يشير بهذا الى ما حدث له من قتل الفرعوني حين استغاثه العبري كما في الآية ١٥ من سورة القصص : «فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه» .. يخاف موسى ان هو حمل رسالة الله الى فرعون أن يقتلوه قبل أن يبلغ الرسالة ويفوت الغرض منها ، أما اذا كان معه أخوه هرون، وحدث ذلك فيقوم مقامه في التبليغ .

(قال - الله .. كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني اسرائيل) . يخاف موسى من ضيق الصدر ، وحبس اللسان ، والقتل ، فأمنه الله وقال له : لن يكون شيء من ذلك لأنني أنا الناصر لكما والمعين . وتقدم مثله في الآية ٤٦ و ٤٧ من سورة طه .

(قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك ستين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) . انطلق موسى وهرون الى فرعون ، ودخلا عليه ، وهما يلبسان مدارع الصوف ، ويديهما العصي ، ودعواه الى الله ، وشرطا له بقاء ملكه ودوام عزه ان أسلم وأطاع .. وسخر فرعون من هذين اللذين يشترطان له دوام العز وبقاء الملك ، ولا جاه لهما ولا مال .. ولكنه تمالك ، ولم يأمر بقتلها خشية أن يقال :

الجزء التاسع عشر

لما عجز عن مقارعة الحججة بالحجة لجأ الى السيف .. ولكن بأية حجة يتذرع فرعون ؟ وبأي منطق يجادل ويناقش ؟ .. لا شيء سوى أن يلف ويدور ، وان يذكر موسى بالماضي والإنعام عليه .. ألم نحضنك رضيعاً ، ونربك غلاماً . وأقت في بيتنا أعواماً ، ثم قتلت منا رجلاً ، وهربت خائفاً تترقب ؟ أهكذا تجحد نعمتنا ، وتكفر باحساننا ؟ وفوق ذلك تدعي انك رسول الله الينا ؟ وكيف تجمع بين ماضيك ، وهو فقر وتشريد ، وبين ادعائك الرسالة من عند الله ؟ أتريدنا أن نسمع لك ونطيع ، ونحن سادتك وأولياء نعمتك ؟ . ثم التفت فرعون الى جلسائه وقال : « فلولا ألقى عليه اسورة من ذهب » .. ان في الذهب وحده يكمن السر كل السر في منطق الطغاة .. فلا نبوة ولا سيادة ولا فضل إلا للذهب وبالذهب .

وأجاب موسى (ع) عن قتل الفرعوني (قال فعلتها اذاً وأنا من الضالين) أي من الجاهلين بأن وكزتي تؤدي الى القتل .. اني قصدتُ بها الردع والتأديب فأخطأت القصد ، فأني ذنب لي في ذلك ؟ وبالمناسبة فإن العمدة ركن أساسي من أركان الجناية عند أهل التشريع (ففررت منكم لما خفتكم) . ما فررت من وجه العدالة ، بل فررت من الظلم والخوف ان تعاملوني معاملة المجرم القاتل المتعمد .. وكان قد قال قائل لموسى : « ان الملاء يأتمرون بك ليتمتلكوك فاخرج اني لك من الناصحين - ٢٠ القصص » .

(فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين) . ذكره فرعون بالفقر والتشريد فقال له موسى : ان الكرامة لا تقاس بالمال والسلطان ، وإنما هي بيد الله يهبها من يشاء من عباده ، وقد وهب لي العلم بدينه وشريعته ، وبأوجه الخير والصواب ، وكرمني بالرسالة اليك وإلى قومك .

وقال موسى رداً على قول فرعون : ألم نربك فينا وليداً ، قال يرد عليه : (وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل) . أتمن علي يا فرعون بتربيتك لي ، وتتجاهل ان السبب هو طغيانك وعدوانك ، وانك ذبحت أبناء قومي ، واستعبدت نساءهم ، ولما خافت علي أمي من جورك قذفتني في البحر .. وكان الذي كان من حياتي في بيت غريب بعيداً عن حنان الأم ، وعطف الأب ؟ ..

أهذا هو فضلك عليّ؟ ما كان أغناك عن الخالين؟ فألقم فرعون حجراً، وراح يلتمس لأباطيله ما تقرأه فيما يلي :

قال فرعون وما رب العالمين الآية ٢٣ - ٣٧ :

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ *
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَنْ
أَتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ
بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ
فَإِذَا هِيَ نُجْعَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ * قَالَ
لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ * يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٌ *

حوار بين موسى وفرعون :

— (قال فرعون وما رب العالمين) .. زعمت يا موسى انك رسول رب
العالمين . ألا تبين لنا ما جنس هذا الرب ؟ وما هي حقيقته ؟

الجزء التاسع عشر

- (قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) . قال موسى : ان الله لا يُعرف إلا بأوصافه وآثاره ، ومنها خالق هذا الكون العجيب في ترتيبه ونظامه .. فتفكروا وتدبروا ان كان لكم عقول تدرك ان هذا النظام لا يكون إلا بقدره عليم حكيم .

- (قال - فرعون - لمن حوله ألا تستمعون) . اسمعوا وتعجبوا .. ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين .

- (قال ربكم ورب آبائكم الأولين) . قال موسى مصرأ ومؤكدأ : ان الله هو خالق الكون ، وخالقكم ، وخالق آباءكم ، وخالق فرعون هذا الذي تريبون وتعبدون .

- (قال - فرعون - ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) .. موسى مجنون في منطق فرعون .. ولماذا ؟ لأنه يقول : فرعون مربوب وليس برب ، ومخلوق لا خالق .. وعلى هذا المنطق الفرعوني كل من ادعى شيئاً ليس فيه ، فمن يدعي العلم وهو جاهل ، أو الإخلاص وهو خائن ، أو الصدق وهو كاذب فإنه على ملة فرعون وستة .. ولو وجد هذا الدعي من يصدقه لقال : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري تماماً كما قال فرعون .

(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) . أصر موسى على موقفه وان الله هو خالق كل شيء ، وأشار الى شروق الشمس وغروبها ، حيث لا يجرأ فرعون أن يقول : انه يأتي بها من المشرق ، ويرسلها الى المغرب .. ولذا بهت حين سمع هذه المقالة من موسى ، تماماً كما بهت نمرود من قبله حين تحداه ابراهيم الخليل (ع) بقوله : « فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر - ٢٥٨ البقرة » .

ولما أفرغ فرعون ما في كنانته اضطربت نفسه ، وأخذ يهدد ويتوعد (قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) .. السجن والتنكيل والتعذيب هو السلاح الوحيد لكل طاغ وباغ منذ القديم ضد الحق والعدل والخيرية .. ولكن جهاد المحقين الأحرار وصدودهم يجعل سلاح الطغاة يرتد الى نحورهم وصدورهم ،

سورة الشعراء

تماماً كما ارتد سلاح فرعون الى نحره وصدره ، وقديماً قيل : من سل سيف البغي قُتل به ، قال تعالى : « وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا - ٤٠ العنكبوت » .

(قال أوّلو جثثك بشيء مبین قال فسأت به ان كنت من الصادقين) . لم يخش موسى من تهديد فرعون، وقال له في ثقة واطمئنان : أتجعلني من المسجونين، حتى ولو كنت محقاً بالدليل الذي يزيل الشك عنك وعن غيرك ؟ . وبماذا يجيب فرعون عن هذا الاحراج ؟ هل يقول له : نعم أسجنك وان كنت محقاً .. كيف وهذا اعتراف صريح بأن موسى رسول رب العالمين ، وان فرعون مفتر بدعواه الربوبية ، ولذا اضطر مرغماً أن يقول لموسى : « فأنت به ان كنت من الصادقين » .

(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) . هذه الآية وما بعدها الى قوله تعالى : « سحار عليم » تبلغ ست آيات ، وبها ينتهي المقطع الذي نحن بصدده ، وقد ذكرت هذه الآيات الست في سورة الاعراف من الآية ١٠٧ حتى الآية ١١٢ ج ٣ ص ٣٧٥ ، وهي واحدة هنا وهناك في ترتيبها ونصها الحرفي إلا في شيئين : الأول قال هنا « سحار » . وقال في الاعراف « ساحر » . والمعنى واحد في حقيقته ولا فرق إلا في المبالغة .

الثاني جاء في الآية ١٠٩ من سورة الاعراف « قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم » وجاء هنا في الآية ٣٤ من سورة الشعراء « قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم » والفرق كبير بين المعنيين - كما يبدو - لأن آية الاعراف نسبت هذا القول الى جماعة فرعون ، لا إلى فرعون ، وآية الشعراء نسبت الى فرعون بالذات ، لا الى جماعته ، فما هو وجه الجمع ؟ .

وما وجدت أية إشارة الى ذلك فيما لدي من التفاسير والمصادر ، ولا أدري ما هو السبب .. وأياً كان فالذي أراه في الجواب ان فرعون هو الذي ابتداءً وقال لجماعته : « ان هذا لساحر عليم » . ثم أخذ جماعته يتداولون قوله هذا فيما بينهم ،

الجزء التاسع عشر

ويقول بعضهم لبعض : حقاً ان موسى لساحر عليم .. كما هو شأن المرءوسين في تقليدهم لرؤسائهم بكل شيء ، وعنايتهم بأقوالهم وحفظها والاستشهاد بها .. وعليه فلا تنافر بين الآيتين .. قال فرعون ذلك لجماعته ، وجماعته أيضاً قالوه تقليداً له .

جاء السحرة الآية ٣٨ - ٥١ :

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ *
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا
لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ
وَعَصِيَّهْمُ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا
آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنٌ
أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَابِنَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا
إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ *

سورة الشعراء

اللغة :

تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ان تقطع اليسد اليمنى والرجل اليسرى ،
والعكس بالعكس . ولاضير : لا ضرر .

الإعراب :

أن كنا (ان) مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور باللام المحذوفة ، والمعنى
نطمع في غفران ربنا لكوننا أول من آمن بالله في هذا المشهد الحافل .

المعنى :

(فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو يوم العيد كما في الآية ٥٩ من سورة
طه : « قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى » . (وقيل للناس هل
انتم مجتمعون) لتشهدوا هذه المباراة ؟ والجواهر لا يحتاجون الى من يحثهم على
حضور هذا المشهد وأمثاله ، فإنهم يتلهفون عليه ، وينساقون اليه بفطرتهم .. وهذا
ما يريد موسى ويتمناه ليحقق الحق ، ويبطل الباطل بمرأى من الناس (لعلنا
نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين) . والذين قالوا هذا للناس هم فرعون وملأه ،
وظاهر قولهم هذا يومىء الى أنهم على شك من دين السحرة ، وانهم يبحثون
عن الحق ليتبعوه ، ولكن هذا غير مراد لأنهم والسحرة على دين واحد، والمعنى
المقصود لعلنا نبقي ثابتين على ديننا ، ولا نتبع دين موسى .

(فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا أجراً ان كنا نحن الغالبين) . هذه
الآية وما بعدها الى آخر آيات هذه المقطع قد ذكرت في سورة الاعراف من الآية
١١٣ حتى نهاية الآية ١٢٦ ج ٣ ص ٣٧٧ . ولا فرق هنا وهناك إلا في بعض
التعابير ، مثل قوله تعالى في سورة الاعراف: « وجاء السحرة فرعون قالوا إن
لنا لأجراً » . وقوله هنا في سورة الشعراء : « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون
أئن لنا لأجراً » .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ * فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي
 الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هُوَ لَشَرُّ ذَمَّةٍ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ *
 وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ
 كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا
 تَرَاهِ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ
 رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ
 فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا
 مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللفظة :

سرى سار ليلاً . والشردمة الطائفة القليلة من الناس ، وفي البحر المحيط
 شردمة كل شيء بقيته الحسيسة . وغائظون جمع غائظ ، وهو الغاضب ، وفي
 بعض كتب اللغة لا يقال : أغاظه واغتاظ فلان من كذا . وحاذرون جمع حاذر ،
 وهو المحترز المتيقظ ، وقال الطبرسي : الحاذر فاعل الحذر ، والحذير المطبوع
 على الحذر . ومشرقين داخلين في وقت شروق الشمس . وتراهي الجمعان تقابلا
 ورأى كل منها صاحبه . والفرق بكسر الفاء الجزء . والطود الجبل . وأزلفنا
 قربنا .

الإعراب :

حاذرون صفة لجميع . ومشرقين حال من واو اتبعوهم . وكلا حرف ردع
وزجر .

المعنى :

(وأوحينا الى موسى ان أسر بعبادي انكم متبعون) . أمر الله موسى أن يخرج ليلاً هو وبنو اسرائيل من أرض مصر ، وأخبره ان فرعون وجنوده لاحقون بهم لارجاعهم (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين) . لما علم فرعون بخروج موسى وقومه جمع لهم ليرغمهم على الرجوع الى سلطانه ، ويتكل بهم ما شاء له التنكيل وقال : (ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون) . من هو موسى وقوم موسى ؟ انهم ليسوا بشيء بالنسبة الينا ، وقد حاولوا إزعاجنا والتمرد على أمرنا .. ولكن نحن لهم بالمرصاد ، وسينذوقون وبال أمرهم .. ولكن فوق تدبير فرعون لله تدبير .. حشد فرعون جيوشه لموسى ، فكان مصيره ومصيرهم الى الاغراق والاهلاك .. قال الإمام علي (ع) : تذلل الأمور للمقادير حتى يكون الختف في التدبير .

(فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) . خرج فرعون وجنوده لينتقموا من موسى ومن معه ، فانتقم الله منهم ، وأخرجهم مما كانوا يملكون وبه يتنعمون .. قصور عالية ، وأنهار جارئة ، وقطوف دانية ، وكنوز مخبأة ، ونواد ، وجنيات ، ومسابع ومنتزعات ، كل هذه وما اليها تركوها الى غير رجعة (وكذلك أورثناها بني اسرائيل) . قال الطبري والطبرسي : ان الله سبحانه أورث بني اسرائيل ديار فرعون وقومه . وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ، وهذا المعنى هو الظاهر لأن آية أورثناها جاءت بعد آية أخرجناهم . وقال آخرون : ان الله أورث بني اسرائيل مثل ما كان لفرعون وقومه لأن الاسرائيليين لم يعودوا الى مصر بعد أن خرجوا منها .

الجزء التاسع عشر

ومها يكن فان محل الشاهد في الآية ان الله لا يدع الظالمين وظلمهم ، وانه ينتقم منهم على أيدي المخلصين أو بأي سبب من الأسباب ولو بعد حين ، وهذا ما نعتقد ونؤمن به ، أما تحقيق المسائل التاريخية، وغيرها فندعه لأهل الاختصاص إلا اذا كنا على يقين منه .

(فأتبعوهم مشرقين) خرج فرعون بخيله ورجله في طلب موسى وأصحابه، فأدركوهم حين شروق الشمس (فلما تراءى الجمعان) جمع موسى وجمع فرعون رأى كل منها الآخر (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) قالوا فرعاً وهلعاً : لحق بنا العدو ، ولا طاقة لنا به (قال كلا ان معي ربي سيهدين فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) . قال موسى لقومه : لا تخافوا من فرعون وقوته ، ان الله أقوى وأعظم ، وهو معي وسترون .. وما أتم كلامه حتى أمره الله أن يضرب البحر بعصاه ، ولما ضربه انشق اثني عشر طريقاً على عدد الأسباط الاسرائيليين، وارتفع الماء بين طريق وطريق كالجبل العظيم ، وتجاوز موسى وقومه البحر الى الشاطئ الثاني . وتقدم مثله في الآية ٧٧ من سورة طه .

(وأزلفنا ثم الآخرين وانجينا موسى ومن معه أجمعين ثم اغرقنا الآخرين) . ازلفنا أدنيا ، وثم بفتح الاء أي هناك ، والمراد بالآخرين جمع فرعون، والمعنى ان الله سبحانه بعد ان جاوز بني اسرائيل البحر الى الضفة الثانية ، وأصبحوا بمنجاة وصل جمع فرعون، وشاهدوا المعجزة الكبرى في وقوف مياه البحر كالجبال ومسالكه الممهدة ، ففرح فرعون وقال لجمعه : انظروا كيف استجاب البحر لرغبتى ، وفتح لي الطريق الى الخارجين على ارادتي . ثم اقتحموا تلك المسالك، وساروا في أمان واطمئنان .. وما ان توسطوا البحر حتى انطبق عليهم أجمعين ، ولم ينج واحد منهم بعد ان حذروا كثيراً وأمهلوا طويلاً، ولكن لجوا في طغيانهم يعمهون .

(ان في ذلك لآية) معجزة خارقة ، وعبرة وعظة (وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك هو العزيز الرحيم) . ضمير أكثرهم يعود الى بني اسرائيل الذين أنجاهم الله من فرعون ، لا الى المغرقين كما قال جماعة من المفسرين أخذاً بظاهر السياق .

سورة الشعراء

والدليل على ان المراد بنو اسرائيل ، لا المفرقون ان أتباع فرعون كلهم كافرون دون استثناء ، وبالخصوص من كان معه ، وان بني اسرائيل لما أنجاهم الله من فرعون وتجاوز بهم البحر وأهلك عدوهم قالوا لموسى : نريد صنماً نعبد من دون الله : « وجاوزنا بيني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة - ١٣٨ الاعراف » . وعليه يكون معنى الآية ان الاسرائيليين شاهدوا انفلاق البحر وغيره من المعجزات ، ومع ذلك أصر أكثرهم على الكفر والتمرد .

ابراهيم الآية ٦٩ - ٨٩ :

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي

يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *

الإعراب :

كلمة عدو تطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، ومثلها كلمة الصديق . ورب العالمين مستثنى منقطع . والذي خلقني مبتدأ أول و (فهو) مبتدأ ثان ويهدين خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، كما قال أبو البقاء في كتاب الاملاء . ويوم لا ينفع بدل من يوم يبعثون . ومن أتى الله (من) مفعول لا ينفع المحذوف أي لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا من أتى الله الخ .

المعنى :

ذكر سبحانه قصة ابراهيم موزعة فيما تقدم من السور حسبما اقتضته المناسبة .. وفي هذه الآيات أعاد سبحانه الحوار الذي دار بين ابراهيم (ع) وقومه في سورة الأنبياء ، أعاده بأسلوب آخر .

(وائل عليهم نبأ ابراهيم) . الخطاب لرسول الله (ص) ، وضمير عليهم يعود لقريش الذين زعموا أنهم من نسل ابراهيم وعلى دينه .

(اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) ؟ . عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١١٢ ذكرنا اختلاف المفسرين في ان ابراهيم هل قال هذا لأبيه الحقيقي أو المجازي أي أخي أبيه .

(قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) . نداوم على عبادتها وتقديسها ، واعترفهم بعبادة الأصنام يشعر بأن كلمة صنم لم تكن تعني في مفهومهم الذم كما نفهم منها نحن بل تعني العظمة والجلال .

(قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) ؟ . من شأن المعبود

سورة الشعراء

أن يسمع ويرى ، وينفع ويضر، فهل تتوافر هذه الصفات فيما تعبدون؟. والاستفهام هنا للانكار .

(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) . هذا اعتراف صريح بأنهم مقلدون.. ولا عجب فقد رأينا في القرن العشرين وعصر الفضاء ، رأينا أتباع الأحزاب والمنظمات بشتى أنواعها يقلدون رؤساءهم ، ويستدلون بأقوالهم ، ويأخذونها أخذ البديهيات من غير تحقيق وتمحيص .

(قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لي إلا رب العالمين) . اذا قلتم انتم آباءكم فأنا لا أقلد أحداً ، وأعلن براءتي من آلهتكم وعداوتي لها ، ولا أعبد إلا رب العالمين ، فهو ولي في الدنيا والآخرة ، فان كانت أصنامكم آلهة كما تزعمون فلتنزل كيدها بي وسخطها، فإني أتحداكم وأتحداهما. (الذي خلقتني فهو يهدين) . لقد وهبني الله عقلاً أهتدي به الى الحق ، وأنا أتبعه وأحسن استعماله ، ولا أقلد أحداً كما تزعمون (والذي هو يطعني ويسقين) بتيسير الأسباب لي ولجميع خلقه ، فلقد خلق سبحانه هذه الأرض ، وأودعها ما يحتاجون اليه ، وقال : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » (واذا مرضت فهو يشفين) بما خلق من الدواء ، قال رسول الله (ص) : ان لكل داء دواء ، فاذا أصاب الدواء الداء برىء باذن الله . وفي حديث ثان : ان الله أنزل الداء والدواء ، فتداووا، ولا تتداووا بحرام (والذي يميتني ثم يحيين والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) . الموت والحياة وغفران الذنوب بيد الله وحده ، ما في ذلك ريب . وابراهيم (ع) معصوم من الخطأ والخطيئة ، ومن عصمة كل معصوم أن يعظم خوفه من الله .

(رب هب لي حكماً) . ليس المراد بالحكم هنا السلطان ، بل الحكمة وفصل الخطاب : « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب - ٢٠ ص » (والحقني بالصالحين). وفقني لأن أأخذوا حذوهم ، واعمل عملهم (واجعل لي لسان صدق في الآخرين). المراد بالآخرين ما يأتي بعده من الأمم ، والمعنى اجعل ذكري حسناً بين الناس من بعدي ، وقد استجاب الله دعاءه ، حيث اتفقت على تقديسه وتعظيمه أهل الأديان السماوية كلها .

الجزء التاسع عشر

(واجعلي من ورثة جنة النعيم) . ومن أولى بها من ابراهيم ؟ (واغفر لأبي انه كان من الضالين) . انظر ج ٤ ص ١١١ تفسير قوله تعالى : (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) . (ولا تخزني يوم يبعثون) . هذا دعاء ومناجاة يتعبد بها فيما يتعبد الأنبياء والصلحاء (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) من آفة الكفر والنفاق ، والحقد ، الرياء ، وغيره من الآفات والأمراض ، ومتى سلم القلب من الرذائل سلمت معه جميع الجوارح ، فيسلم اللسان من الكذب والغيبة ، والسمع من الاصغاء الى اللغو والباطل ، واليد من ممارسة الحرام ، والفرج من الزنا وفجور الخ .

الجنة للمتقين والجحيم للغاوين الآية ٩٠ - ١٠٤ :

وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أُتْمِعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نَسَوْنَكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللغة :

أزلفت قربت . وبرزت بتشديد الراء من التبريز وهو الاظهار . والغاوين

سورة الشعراء

جمع غاو وهو من ضل عن طريق الهداية والحق . وككبوا تكرر لكب، ومعناه الطرح والإلقاء . ونسويكم نجعلكم سواء معه . والحميم خالص الود .

الإعراب :

جنود ابليس عطف على (الغاؤون) . ان كنا (ان) مخففة من الثقيلة، واللام في لفي ضلال اللام الفارقة . واذ ظرف متعلق بمبين . فنكون منصوبة بأن مضمره لوقوعها بعد لو المتضمنة معنى التمني ، والمصدر المنسبك عطف على كرة .

المعنى :

(وأزلقت الجنة للمتقين) . انها قرية ممن اهتدى واتقى ، بعيدة عن ضل وغوى (وبرزت الجحيم للغاوين) أظهرها الله للذين جحدوها وكذبوا بها (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله) وترجونهم لهذا اليوم، وتقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى (هل ينصرونكم أو ينتصرون) ؟ . انهم لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون .

(فككبوا فيها هم والغاؤون وجنود ابليس أجمعون) . ضمير (هم) لأهلهم ، والغاؤون الذين عبدوها ، وجنود ابليس كل ضال ومضل ، يجمع الله بعضهم الى بعض ، ثم يلقي بهم في قعر جهنم ، وبش المهاد (قالوا وهم فيها مختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون) . يقول الغاؤون غداً، وبعد فوات الاوان ، يقولون لأهلهم وشياطينهم: كان دليلنا العمى والضلال حين عبدناكم وجعلناكم سواء مع الله ، وما صدنا عن سبيل الحق والهداية إلا المجرمون ، وهم الرؤساء والزعماء أرباب المنافع والمصالح أصل الفساد والبلاء .

(فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) . لا شافع غداً ولا جازع .. ولا يجدي الانسان نفعاً إلا قلب سليم ، وعمل صالح ، والشقي من حُرِمَ منها (فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين) . بعد أن يشوا من كل شيء تمنوا الرجعة الى الدنيا

الجزء التاسع عشر

ليؤمنوا ويعملوا .. وتقول الآية ٢٨ من سورة الأنعام : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ». أنظر ج ٣ ص ١٧٩ (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم) . تقدم بالنص الحرفي الآية ٦٧ و ٦٨ من هذه السورة .

نوح الآية ١٠٥ - ١٢٢ :

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا *
قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ * قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ
بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ
مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

الإعراب :

نوح بدل من (أخوهم) . وان اجري (ان) نافية، ومثلها ان حسابهم، وان

سورة الشعراء

انا . وما علمي (ما) نافية وعلمي مبتدأ والخبر محذوف أي ما علمي ثابت وبما متعلق بعلمي . وبطارد الباء زائدة إعراباً وطارد خبر أنا .

المعنى :

(كذبت قوم نوح المرسلين) . المرسل اليهم واحد ، وهو نوح (ع) ، ولكن من كذب رسولاً واحداً من رسل الله فقد كذب جميع رسله بالنظر الى ان المرسل واحد ، والرسالة واحدة (اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) ومن أخذ بالتقوى كان في أمن وأمان من غضب الله وعذابه (اني لكم رسول أمين) وصف نفسه بالأمانة التي عرفوه بها صغيراً وكبيراً، تماماً كما عرفت قريش محمداً (ص) بالصدق والأمانة في جميع أدواره وحالاته (فاتقوا الله وأطيعون) فلاني أدعوكم الى ما فيه خيركم وصلاحكم دنياً وآخرة (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى الا على رب العالمين) . كل رسول أجره على المرسل ، لا على المرسل اليه . وهل يستجيب الناس ويثقون بمن يطمع فيهم وفي أموالهم ؟ تقدم مثله في الآية ٩٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢١ والآية ٢٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢٢٥ (فاتقوا الله وأطيعون) لا سبب لتكرار الأمر بالتقوى إلا لأنها العمدة والأصل . (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) . طعنوا برسالة نوح لا لشيء إلا لأن الفقراء قد آمنوا بها والفقراء لا قيمة لهم - اذن - رسالة نوح لا قيمة لها .. وبكلام آخر ان المترفين لا يحبون حياة الفقراء ، فكيف يؤمنون بما آمنوا به ؟ .. وهكذا يفعل الترف في النفس المجرمة ، يعميها عن الحق ، ويخلق فيها الطغيان والكبرياء .

(قال وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي) . قال نوح للذين جادلوه في الفقراء : ان قيمة المرء بمقاصده وأعماله ، لا بالجاه والمال ، وما علمت من الذين تزدرى أعينكم انهم أساءوا الى أحد في قول أو فعل، والسرائر الى الله ، فهو وحده يعلمها ويحاسب عليها (لو تشعرون) ان قيمة الانسان بالأعمال لا بالأموال ، وان الظاهر للناس ، والباطن لله (وما أنا بطارد المؤمنين ان انا إلا نذير مبين) . تقدم في الآية ٢٩ من سورة هود ج ٤ ص ٣٢٦ .

الجزء التاسع عشر

(قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) . عجزوا عن الجدال بالحق فلجأوا الى التهديد واستعمال القوة .. وهذا دأب أشداء الباطل في كل زمان ومكان (قال - نوح - رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً) لما هددوه بالقوة استعان عليهم بالله وقوته ، وتضرع اليه ان يحكم بينه وبينهم حكماً ينتصر به للمحق ، وينتقم به من المبطل (ونجني ومن معي من المؤمنين) حين تنزل العسذاب على الكافرين (فأنجيناها ومن معه في الفلك المشحون) بمن آمن معه من أهله وغيرهم ، وبالكائنات من كل زوجين اثنين (ثم أغرقنا بعد الباقين) . تقدم في سورة الاعراف الآية ٦٤ ج ٣ ص ٣٤٦ والآية ٤٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢٣٢ (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك هو العزيز الرحيم) . تقدم بنصه الحرفي مع التفسير في الآية ٦٧ و ٦٨ من هذه السورة .

هود الآية ١٢٣ - ١٤٠ :

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُوْدٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ * أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ

سورة الشعراء

هَذَا إِلَّا خُلِقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ *

اللغة :

الريع بكسر الراء وفتحها المكان المرتفع وأيضاً الطريق المنفرج ، ويطلق الريع بالفتح على نمو الزرع . والمراد بالمصانع هنا القصور التي لا خير فيها . والبطش الأخذ باليد. وإذا وصف الانسان بكلمة الجبار فالمراد بها الدم وانه متكبر متعظم، وإذا وصف بها ذو الجلال فالمراد بها المدح وانه عال لا يبلغه شيء .

الإعراب :

ان هذا (ان) نافية . وبمعذبين الباء زائدة ومعذبين خبر نحن .

المعنى :

تقدمت قصة هود في سورة الأعراف الآية ٦٥ - ٧٢ ج ٣ ص ٣٤٦ - ٣٤٨
وأيضاً ذكرت في سورة هود الآية ٥٠ - ٦٠ ج ٤ ص ٢٣٧ - ٢٤٣ .
(كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود الا تتقون اني لكم رسول
أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري إلا على رب العالمين).
تقدم مثله بالنص الحرفي في المقطع السابق الآية ١٠٥ - ١١٠ من غير تعديل إلا
في الاسم ، فهناك قوم نوح ، وهنا هود وعاد ، والسر ان رسالة الأنبياء واحدة
تحدها الدعوة الى الايمان بالله الأحد ، وطاعته في أمره ونهيه .
(أتبنون بكل ريع آية تعبثون) . الريع المكان المرتفع، والمراد بالآية هنا البناء،

الجزء التاسع عشر

وكل بناء يسد حاجة من حاجات الحياة فهو خير، ومن الدين لأن دين الله هو دين الحياة ، أما البناء الذي لا جدوى منه إلا التكاثر والتفاخر فهو شر ديناً وعقلاً ، وهذا النوع من البناء هو المقصود بالآية بدليل قوله تعالى : (تعبثون) فإن العبث هو الذي لا تدعو الحاجة اليه (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) . ليس المراد بالمصانع هنا ما نفهمه نحن من هذه الكلمة لأن المصانع التي تنتج ما ينفع الناس هي من صميم الدين ، وإنما المراد بالمصانع البناء الذي لا نفع فيه من أي نوع كان .

(وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون) . بطش الجبار أن يظلم ، ويقسو في ظلمه ، ويتعاضم لأنه قادر على ظلم الضعيف ، والثابت في دين الله ان الظلم من أكبر الكبائر ، بل هو تماماً كالكفر بالله ، وأثبتنا ذلك فيما سبق بنص القرآن .. وأفحش أنواع الظلم ظلم الضعيف .. وقد نزلت هذه الآية حيث لا أسلحة جهنمية ، ولا ملايين مخصصة تجار الحروب لقتل الناس بالجملة ... نزلت يوم كان البطش باليد ، وأقصاه بالسيف أو الرمح أو السهم ، وإذا وصف سبحانه بأقبح الصفات وأفحشها من اعتدى على الضعفاء بصفعة كف ، وهدده بأشد العقوبات فبأي شيء يجازي الذين يملطون الشعوب المستضعفة بالصواريخ وقنابل النابالم ، وبالأسلحة الكيميائية وغيرها من أسباب الفناء والهلاك ، ويملاؤون الأرض بالقواعد العسكرية، والسماة بالسفن العدوانية لا لشيء إلا ليتحكموا بأرواح العباد، ومقدرات البلاد حسب أهوائهم ومصالحهم ؟ .

(واتقوا الذي أمدمكم بما تعلمون أمدمكم بانعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . دعاهم هود الى طاعة الله ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وإمهاله لهم ، وحذرهم من عاقبة التماهي في البغي ، فسا زادهم ذلك إلا فراراً واستكباراً (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فما نحن لك بمؤمنين ، ولا يزيدنا وعظك إلا إديباراً عنك ، فلا تتعب نفسك في غير جدوى (ان هذا الا خلق الأولين وما نحن بمعذبين) . هذا إشارة إلى دينهم ، وما يعبدون من الأصنام، وانهم ليسوا بتاركيها لأنهم ورثوا عبادتها أباً عن جد .. هذه هي حججهم ، ولا شيء غيرها: انا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم

سورة الشعراء

مهنتون (فكذبوه فأهلكناهم) . أنذر هود قومه بالأدلة والبراهين فلم يكثرثوا
فكانوا من الهالكين .

صالح الآية ١٤١ - ١٥٩ :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ *
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنجِتُونَ مِنْ
الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا
أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ *
وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللغة :

طلع النخل عنقود التمر في أول تكوينه وقبل ان يخرج من كمنه . والهضم

الجزء التاسع عشر

البائع الناضج . وفارهي من القره وهو النشاط والفرح . ومسحّرين مبالغة في المسحورين . والشرب بكسر الشين النصيب .

الإعراب :

آمين حال من واو تتركون . وفي جنات بدل من فيما هاهنا بإعادة حرف الجر . وفارهي حال من واو تنحتون .

المعنى :

تقدمت قصة صالح (ع) في سورة الاعراف الآية ٧٣ - ٧٩ ج ٣ ص ٣٤٩ - ٣٥٢ وفي سورة هود الآية ٦١ - ٦٨ ج ٤ ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .
(كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تنقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان اجري الا على رب العالمين).
تقدمت هذه الآيات بألفاظها في المقطع السابق الخاص بهود ، والذي قبله الخاص بنوح ، وقلنا : ان السر في ذلك وحدة الرسالة .

(أتركون فيما هاهنا آمين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعتها هضم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهي) . كانت ثمود غارقة في الترف والرخاء .. أثمار وأنهار ، وقصور وأنعام غافلين عن كل شيء إلا عن شهواتهم وملذاتهم ، فحذرهم أخوهم صالح من سوء العاقبة وقال لهم : أتغفلون عن الله ، وهو غير غافل عنكم ؟ وهل أمتهم المفاجآت والمخبات ؟ . (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) . المراد بالمسرفين المفسدين الرؤساء والزعماء لأنهم أصل الداء والبلاء إلا من ندر ، فلا دين ولا قيم في مفهومهم إلا مصلحتهم ومصلحة ذويهم .. وكان في قوم صالح تسعة من هؤلاء المسرفين المفسدين كما في صريح الآية ٤٨ من سورة النمل : « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون » .

(قالوا انما أنت من المسحّرين) . لقد سحرك ساحر ، وأفسد عقلك حتى

سورة الشعراء

صرت تهرف بما لا تعرف .. وهكذا يقول أكثر شباب اليوم أو الكثير منهم لمن يقول لهم : صلوا وصوموا (ما أنت إلا بشر مثلنا) يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فكيف ينزل عليك الوحي من دوننا ؟ . (فأت بآية ان كنت من الصادقين) . قالوا هذا ، وهم على عزم سابق أن يصروا على الكفر والعناد حتى ولو أتاهم بألف دليل ودليل ، ولولا ذلك لكان طلبهم حقاً وعدلاً .

(قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) . سألوه أن يأتي بمعجزة تدل على نبوته ، فأتاهم بناقاة من الطريق غير المألوف ، واشترط عليهم أن يكون الماء بينها وبينهم مناصفة ، ترده يوماً ، ويردونه يوماً، وحذرهم أن يمسوها بأذى وإلا أخذهم الله بعذابه (فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب) . تقدم في الآية ٧٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥١ .

لوط الآية ١٦٠ - ١٧٥ :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ
الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْخَرَجِينَ *
قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللغة :

الذكران جمع ذكر . وعادون جمع عاد وهو المعتدي . والقالون جمع القالي
وهو المبغض . والغابرين جمع الغابر وهو الباقى .

المعنى :

تقدمت قصة لوط في سورة الاعراف الآية ٨٠ - ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٢ - ٣٥٤
وفي سورة هود الآية ٧٧ - ٨٠ ج ٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

(كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون) أخوهم
في المعاشرة والسكنى ، لا في الدين ولا في النسب ، حيث جاء وعمه ابراهيم
الخليل (ع) من بابل الى مصر ثم الى فلسطين حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ،
وأقام لوط في وادي الأردن ، و ابراهيم في المرتفعات التي في الشمال (اني لكم
رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب
العالمين) . بدأ لوط بما بدأ به نوح وهود وصالح (ع) ، لأن رسالة الجميع
واحدة .. اقرأ في هذه السورة الآيات التي تحدثت عن كل واحد منهم .

(أتأتون الذكران من العالمين) . اتركبون هذا الفعل الشنيع بالذكور من أولاد
آدم (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) . انكم بهذا تخالفون حكم الفطرة ،
وقانون الطبيعة ، والغرض المقصود من خلق الذكر والأنثى .. ولذا تأبى عملكم
الحيوانات والوحوش وتنفر منه .. ولكن مجلس العموم البريطاني شرع اللواط ،
وأعطى الدليل بذلك على ان بريطانيا أخس من الحيوانات في أخلاقها وقيمها ..
وغير بعيد أن يكون هذا نتيجة لتاريخها الاستعماري الطويل البغيض ، فإن للطغيان

سورة الشعراء

والعدوان أسوأ العواقب والآثار (بل أنتم قوم عادون) تجاوزتم كل حد في أهوائكم وسفاهتكم ، وعصيانكم وتمردكم .

(قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) . تقدم في الآية ١١٦ من هذه السورة (قال اني لعمركم من القالين) وفي معناه : « اني بريء مما تعملون - ٢١٦ الشعراء » (رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) . تقدم مثله في الآية ٨٣ وما بعدها من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٣ والآية ٦٠ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٨٢ .

شعب الآية ١٧٦ - ١٩١ :

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا
مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَةٍ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ *

اللغة :

الايكة الشجر الملتف الكثيف . والمخسرين بكسر السين والراء جمع المخسر وهو الذي اذا عامله أحد الناس خسر لأنه يأخذ منه أكثر من حقه . والقسطاس الميزان . والبخس النقص . والجبلة الحلقة والطبيعة . وكسفاً جمع كسفه وهي القطعة . والظلة بضم الظاء هي السحابة التي استظلوا بها من العذاب فأحرقتهم .

المعنى :

تقدمت قصة شعيب في سورة الاعراف الآية ٨٥ - ٩٣ ج ٣ ص ٣٥٥ - ٣٦٤ وفي سورة هود الآية ٨٤ - ٩٥ ج ٤ ص ٢٥٦ - ٢٦٤ .

(كذب اصحاب الأيكة المرسلين) . قال المفسرون : أصحاب الايكة طائفة من الناس كانوا يسكنون في مكان قريب من مدينتين ، فيه شجر كثير (اذ قال لهم شعيب ألا تتقون) . لم يقل سبحانه أخوهم شعيب كما قال : أخوهم هود ، وأخوهم صالح لأن شعيباً ليس من مدين نسباً ، ولا صلة له بأصحاب الايكة الاصلة الجوار ، وقد بعثه الله اليهم كما بعثه الى قومه أهل مدين (اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما اسألكم عليه من أجر ان اجري إلا على رب العالمين) . تقدم هذا بالحرف في الآيات السابقة على لسان نوح وهود وصالح ولوط ، وهو كلام كل نبي دون استثناء .

(أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) . تقدم مثله في الآية ٨٥ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٥٦ والآية ٨٤ من سورة هود ج ٤ ص ٢٥٧ (واتقوا

سورة الشعراء

الذي خلقكم والجبلة الأولين) والجبلة عطف على الضمير في خلقكم، والمعنى خافوا عذاب الله الذي أوجدكم وأوجد الذين من قبلكم .

(قالوا إنما أنت من المسحرين) . تقدم بالحرف في الآية ١٥٣ من هذه السورة . (وما أنت إلا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين) . أنت تتعمد الكذب في دعوى الرسالة بدليل أنك بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ولو نزل الوحي على البشر لكان جميع الناس أنبياء .. قال ابن هشام في كتاب المغني - إذا لم تخفي الذاكرة - ان رجلاً قال لآخر : ماذا فعل أبوك بحماره ؟ فقال له : باعه بكسر العين . فقال السائل منكراً : لماذا كسرت العين ؟ قال : لأنك كسرت الرءاء .. أتجر باؤك ، وبائني لا تجر ؟ والى هذا وأمثاله يؤدي القياس بأهله .

(فأسقط علينا كسفاً من السماء ان كنت من الصادقين) . حذرهم من العذاب ، فسخروا منه ، وقالوا : أين هو هذا العذاب الذي تهددنا به ؟ أنزله علينا قطعاً من السماء ان كنت صادقاً في دعواك (قال ربي أعلم بما تعملون) والأمر إليه وحده ، ان شاء عجل ، وان شاء أجل (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه عذاب يوم عظيم) . لم يبين سبحانه ما هي هذه الظلة ، وقال المفسرون : انها سحابة استظلوا بها من حر أصابهم ، فأمطرتهم ناراً أحرقتهم عن آخرهم .

نزل به الروح الأمين الآية ١٩٢ - ٢١٢ :

وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ
مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ
يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ
الْأَعْيُنِ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي

قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا
يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ *
مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا
مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا
يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ *

اللفظة :

الروح الأمين جبريل (ع) . والزبر الكتب . والاعجمين بياء الجمع جمع
الأعجم ، وهو الذي لا يتكلم العربية ، وقيل : هو الذي لا يتكلم إطلاقاً انساناً
كان أم بهيمة ، والاعجمين بياء النسبة وياء الجمع جمع الأعجمي . وقال الطبرسي :
العجمي ضد العربي ، والاعجمي ضد الفصيح . ومعزولون ممنوعون ومصروفون .

الإعراب :

ضمير انه وبه للقرآن بدلالة سياق الكلام . وضمير لهم لقريش متعلق بمحذوف
حالا من آية ، وآية خبر يكن ، والمصدر من أن يعلمه اسم يكن . فَيَأْتِيهِمْ
بالنصب عطفاً على يروا . وبغته مصدر في موضع الحال من الضمير المستتر في
يأتيهم أي مباغتاً . سنين ظرف زمان منصوب بمتعناهم . ذكري مفعول من أجله
لـ (منذرون) . وفي ينبغي ضمير مستتر يعود الى المصدر المتصيد من تنزلت .

المعنى :

(وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين).
 ضمير انه للقرآن ، والمراد بالروح الأمين جبريل (ع) ، والخطاب في قلبك
 لمحمد (ص) .. بعد أن ذكر سبحانه قصص من تقدم من الأنبياء ذكر محمداً
 والقرآن ، وان جبريل نزل به على الرسول الأعظم ليجاهد الكافرين والمعاندين
 بآياته وبيناته .. وسمي جبريل بالروح لأنه نزل بالقرآن ، وهو هدى وشفاء
 للارواح : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء - ٤٤ فصلت » ، وسمي أيضاً
 بالأمين لأنه مطيع لله، حريص على تأدية رسالاته كما هي الى أنبيائه تعالى، وهو أيضاً
 علم بها وبمقاصدها (بلسان عربي مبين). أنظر تفسير الآية ٢ من سورة يوسف
 ج ٤ ص ٢٨٦ . وبيننا هناك السبب لتزول القرآن باللغة العربية .

(وانه لفي زبر الأولين) أي ان بعض الكتب السابقة على محمد(ص) بشرت
 به وبالقرآن .. وفيما تقدم أثبتنا بالأدلة العقلية والنقلية ان القرآن وحي من عند
 الله ، فمن الأدلة العقلية ان القرآن تحدى الجاحدين أن يأتوا بسورة من مثله ،
 فحاولوا وعجزوا ، وانه أخبر عن المغيبات ، فجاءت كما هي ، وانه يتحمل
 الكثير من وجوه التفسير ، ولا سر لهذا إلا لأنه ممن أحاط بكل شيء علماً ..
 أنظر تفسير الآية ٢٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٦٥ وما بعدها، وتفسير الآية ٥٣
 من سورة النساء ج ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها ، وتفسير الآية ٨٢ من سورة النساء
 ج ٢ ص ٣٨٩ ، وتفسير الآية ٥٥ من سورة النور، فقرة « وجه آخر لاعجاز
 القرآن » .

أما الأدلة النقلية فمنها ان التوراة والانجيل الأصليين قد بشرا بمحمد (ص) كما
 صرحت الآية ١٥٧ من سورة الأعراف ، وأيضاً بشرت به بعض الكتب الدينية
 الموغلة بالقدم - غير التوراة والانجيل - أنظر تفسير الآية ٤٦ من سورة البقرة
 ج ١ ص ٢٣٣ ، وفقرة « هل الأنبياء كلهم شرفيون » ج ٢ ص ٤٩٢ .

(أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل) . كان علماء اليهود قبل البعثة
 يبشرون بمحمد (ص) ، ويحدثون العرب عنه ، ويذكرونه بصفاته لقريش وغيرهم

الجزء التاسع عشر

من العرب ، ولما بُعث أسلم البعض من اليهود الذين كانوا يتحدثون عنه كعبد الله ابن سلام وأصحابه ، وأسلم أيضاً جماعة من العرب ، وتنكر له سائر اليهود وعتاة قريش .. وهذه الآية تقول للذين كذبوا بمحمد (ص) بعد أن سمعوا حديث اليهود عنه ، تقول لهم : كيف كذبتم به ، وقد سمعتم علماء اليهود من قبل يبشرون به ، ويعترفون بأنه مذكور بصفاته في التوراة ؟ أليس في شهادتهم هذه دليل قاطع على صدق محمد (ص) ؟ وليس من شك ان هذا دليل كاف واف لمن طلب الحق لوجه الحق ، ولكن العتاة الذين أنكروا نبوة محمد (ص) أنكروها خوفاً على مصالحهم ، وحرصاً على مكانتهم ، ولم ينكروها لضعف الدليل وقصور الحجة : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون - ١٠١ يونس ».

(ولو نزلناه على بعض الاعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) . انهم لا يؤمنون بالحق وبياناته ، سواء أجاهاهم بها عربي أم أعجمي ، لأن الحق والعلم عندهم هو المصلحة ، وما عداها ليس بشيء .. وقد كررنا ذلك فيما تقدم على الرغم من وضوحه وبداهته .

(كذلك سلكناه في قلوب المجرمين) أي ان المجرمين اذا سمعوا الحق أو القرآن جحدوه وكذبوا به ، وبكلام أوضح ان البذر الصالح إنما ينمو ويأتي ثمره إذا صادف أرضاً طيبة صالحة ، أما إذا صادف أرضاً سيئة خبيثة فإن صلاحه لا يجدي نفعاً : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً - ٥٨ الاعراف » . وكذلك الحق يأتي بأطيب الثمار والآثار إذا صادف نفساً زكية نقية ، ولا يثمر شيئاً إذا كانت النفس خبيثة مجرمة ، وعلى هذا فمعنى (كذلك سلكناه في قلوب المجرمين) ان القرآن لا أثر له في نفوسهم إلا الجحود والتكذيب .

(لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) . ضمير لا يؤمنون يعود الى المجرمين ، وضمير به الى القرآن ، والمعنى ان المجرمين لا يؤمنون بالحق مهما كانت دلائله إلا اذا رأوا العذاب فجأة ، أما اذا أُنذروا به من قبل فيعرضون ويسخرون .. وبداهة ان الخضوع بين يدي العذاب نفاق لا ايمان ، وإكراه لا اختيار (فيقولوا هل نحن منظرون) ؟ . استعجلوا العذاب قبل أن

سورة الشعراء

يروه ، وقالوا لنبيهم ساخرين : فأتنا به ان كنت من الصادقين، ولما رأوه عياناً ندموا ، وتمنوا لو أمهلهم الله قليلاً كي يؤمنوا ويطيعوا .. وهكذا المضيق يتمنى الرجعة أو الامهال بعد فوات الاوان .

(أبعذابنا يستعجلون) . هذا من كلامه تعالى يرد به على الذين قالوا لنبيهم : فائتنا بما تعدنا .. فأسقط علينا كسفاً من السماء . ومعناه كيف تستعجلون العذاب ، واذا نزل لا تستطيعون له صرفاً ، ولا منه مفرأ (أفرايت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) . تمنى المجرمون الامهال حين رأوا العذاب ، فأجاب سبحانه بأن الامهال والاملاء وان طال أمده فانه لا يجدي نفعاً عند نزول العذاب ، بل كلما طال أمد المجرمين في الدنيا ، وازدادوا من نعيمها ازدادوا إثماً وجرماً ، وتضاعف عقابهم وعذابهم .

(وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) هذا بمعنى قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » - ١٥ الاسراء » (ذكرى وما كنا ظالمين) في اهلاك القرى ، حيث أرسلنا الى أهلها رسلاً منذرين بالعذاب ، مذكرين بطاعة الله ، ومزودين بالأدلة والبراهين ، فكذبوا الرسل فحق عقاب الله .

(وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون) . كان أهل الجاهلية يعتقدون بالكهانة ، وان لكل كاهن شيطاناً يأتيه بأخبار الغيب ، ولما نزل القرآن قالوا هذا من وحي الشيطان الى الكهنة، وهؤلاء بدورهم يوحون به الى محمد (ص) أو هو كاهن تنزل عليه الشياطين ، فرد سبحانه هذا الزعم بأن القرآن هدى ونور ، وبينات قاطعة ساطعة ، وأبين الشياطين والكهنة من الهدى والبيئات ؟ .. انهم أضعف وأحقر .. هذا ، الى (انهم عن السمع لمعزولون) ممنوعون من سماع القرآن حين يوحى الله به الى جبريل لينقله الى محمد (ص) . واذا عجز الشياطين عن انشاء آية من مثله ، وعن سماع كلمة واحدة منه فكيف ينقلونه الى الكهنة، ويخبرونهم به ؟ .

وأندر عشيرتك الأقربين الآية ٢١٣ - ٢٢٠ :

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ * وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ
عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *
الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ *

المعنى :

(فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) . ظاهر السياق يدل ان
الخطاب لرسول الله (ص) ، ولكن القصد منه الإخبار بأن كل من يدعو مع الله
إلهاً آخر فهو من المعذبين كائناً من كان .

(وانذر عشيرتک الأقربين) . النبي (ص) مأمور بانذار الناس أجمعين :
« يا أيها المدثر قم فانذر » . وفي الآية ٢ من سورة يونس : « ان أنذر الناس
وبشر الذين آمنوا » . وخص سبحانه عشرة الرسول بالذكر لأن المؤدب يبدأ بنفسه
ثم بأهله وعشيرته ، ثم بالآخرين ، ولأن عشيرته اذا صدقوه وآمنوا به كانوا عوناً
له على بث الدعوة وانتشارها .

وقد كثر كلام المسلمين حول هذه الآية ، فقال جماعة من السنة : انه حين
نزلت قال رسول الله (ص) : يا فاطمة ابنة محمد . يا صفية ابنة عبد المطلب .
يا بني عبد الله اعملوا فإني لا أملك لكم من الله شيئاً .

وقال الشيعة وجماعة آخرون من السنة ، منهم الإمام أحمد بن حنبل والنسائي
والسيوطي وأبو نعيم والبيهقي والثعلبي وصاحب السيرة الحلبية وصاحب كثر العمال
قالوا وغيرهم : ان النبي (ص) عندما نزلت هذه الآية دعا بني عبد المطلب ،
وهم يومئذ أربعون رجلاً ، فيهم أعمامه أبو طالب وحزرة والعباس وأبو لهب ،
وكان قد أولم لهم ، وبعد ان أكلوا وشربوا قال : يا بني عبد المطلب اني قد
جتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم اليه ، فأبكم يؤازرني على

سورة الشعراء

هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ فأحجم القوم جميعاً إلا علياً قال : أنا يا نبي الله . فأخذ النبي (ص) برقبته ، وقال : ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا^١ وذكر هذا الحديث محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد (ص) » في الطبعة الأولى ، وحذفه في الطبعة الثانية.

وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : « وروي في ذلك أحاديث عن رسول الله (ص) . » يشير بذلك الى الأحاديث التي جاء فيها ذكر الإمام علي(ع) ، والأحاديث التي لم يذكر فيها اسمه .. ولا تنافر وتعارض بين هذه الأحاديث ، فان الجمع بينها ممكن وقريب جداً .. أولم الرسول (ص) للأربعين من عشيرته ، وقال لهم : أيكم يؤازرنني على هذا الأمر الخ ، ثم قال لهم بمناسبة ثانية : اني لا أملك لكم من الله شيئاً .

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) . تقدم في الآية ٨٨ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٩٠ (فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون) . الخطاب لرسول الله (ص) والواو في عصوك لعشيرته الذين أنذرهم . والقريب من الله ورسوله من قرآبه التقوى، والبعيد عنها من أبعده المعصية كائناً من كان (وتوكل على العزيز الرحيم) دعهم وشأنهم ان عصوك، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وتوجه الى الله وحده في جميع أمورك .

(الذي يراك حين تقوم) الى التهجد في جوف الليل : « وبالاسحار هم يستغفرون - ١٨ الذاريات » (وتقلبك في الساجدين) . قال الشيعة الإمامية : ان جميع آباء النبي موحدون ، ومن أدلتهم هذه الآية ، حيث فسروها بأن النبي تقلب في أصلاب الموحدين ، واللفظ يتحمل هذا المعنى ، ويتحمل أيضاً تفسير من قال : ان الله يراك يا محمد مع المصلين، وظاهر السياق يدل على هذا التفسير دون ذلك (انه هو السميع العليم) يسمع الأقوال ، ويعلم السرائر والأفعال ، ويجزي عليها ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

١ انظر أعيان الشيعة الأمين ج ٣ ص ١١٠ طبعة ١٩٦٠ ودلائل الصدق لمظفر ج ٢ ص ٢٣٢ طبعة ١٩٥٣ .

الشعراء يتبعهم الغاؤون الآية ٢٢١ - ٢٢٧ :

هَلْ أَنْبَأْتُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *
يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ
أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا
ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ *

اللفظ :

أنبأتم أخبركم . أفاك كذاب . وأثيم فاعل الإثم .

الإعراب :

جملة يلقون السمع صفة لكل أفاك . وأي منقلب (أي) صفة لمفعول مطلق
مخروف أي انقلاباً أي انقلاب .

المعنى :

القرآن حرب على المبطلين ، ولكنه يحاربهم أولاً وقبل كل شيء بمنطق العقل
السليم ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة الى الإيمان
بالحق ، ويوضحه لهم بكل أسلوب ، ويسألهم برفق ولين أن يدلوا بما لديهم من
حجة وسلطان : « لولا يأتون عليهم بسطان بيتن - ١٥ الكهف » . واذا تذرعوا
بحجة واهية أبطلها القرآن وبيتن ما فيها من ضعف وخلل .. وقال المشركون

سورة الشعراء

وأصحاب المصالح الكثير عن رسول الله (ص) والقرآن .. من ذلك زعمهم بأن القرآن من وحي الشيطان ، وزعمهم أيضاً بأن محمداً (ص) شاعر .. ورد سبحانه ذلك بما يلي :

(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم) . هذا رد لقولهم : ان القرآن من وحي الشياطين ، ووجه الرد ان الشياطين توسوس وتوحي بالباطيل الى الكذاب الأثيم من أمثالهم : « شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول - ١١٢ الانعام » . ولا سبيل للشياطين على أهل الأمانة والصدق كالأنبياء والصلحاء .. هذا الى ان القرآن حق وخير ، ووحى الشياطين شر وزور ، فكيف يكون من وحيهم ؟ (يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) . المراد بإلقاء السمع هنا الاصغاء والاستماع ، وضمير يلقون يعود الى الكافرين ، والمعنى ان الذين يستمعون الى الشياطين ، ويتلقون منهم الأكاذيب والباطيل هم الكافرون ، وأكثر الكافرين يكذبون في أحاديثهم وأقوالهم .. ومحمد (ص) صادق في جميع أقواله وأفعاله ، فكيف يقال : استمع وتلقى من الشياطين ؟

(والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) . هذا رد لقول المشركين : ان محمداً شاعر .. وبيان الرد ان بين محمد والشعراء فرقاً كبيراً من وجوه :

أولاً : ان الذين اتبعوا محمداً (ص) انما اتبعوه ثقة به وبِعظمته ، وإيماناً بالله ونبوة نبيه يرجون تجارة لن تبور في مودته ، ولذا فدوه بالأرواح وقاتلوا من من أجله الآباء والأبناء ، أما الشعراء ، وبالخصوص القدامى منهم فإنهم كانوا يعيشون في الأحلام والأوهام .. وقدماً قيل : « أحلام شاعر » . وقيل : أعذبه أكذبه أي الشعر ، ولا يتبع هؤلاء الشعراء إلا من كان على شاكلتهم .

ثانياً : ان أكثر الشعراء كانوا في القديم يناصرون الطغاة ، ويدعمون ظلمهم وطغيانهم ، فكان الشاعر يعصر عبقريته ومواهبه لينظم قصيدة أو أبياتاً يتغنى فيها بعظمة الجبابرة والقيصرة ، وأين هذا من رسالة محمد (ص) التي هي ثورة على الظلم والفساد ؟

ثالثاً : ان الشعراء يقولون كثيراً ، ويفعلون قليلاً ، ولا يستخفهم شيء إلا الأهواء والأغراض ، يندفعون وراءها انى توجهت ، أما محمد (ص) فانه ما

الجزء التاسع عشر

ينطق عن الهوى ، ولا يتبع إلا ما يوحى اليه من ربه ، فكيف يقال : هو شاعر؟ . : «وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين - ٦٩ يس» .
وتسأل : ألا يدل ذم القرآن للشعراء على ان الاسلام يحارب الشعر والفن ؟
الجواب : كلا .. لأن القرآن ما ذم الشعر من حيث هو ، ولا الشعراء من حيث هم ، وإنما ذم الشعر الذي هو زور وباطل ، وذم الشعراء الذين يعرضون عن الحق ويسلكون الطرق الملتوية، أما الشعراء الذين يعبرون عن آماني المستضعفين ويقفون مع المظلومين ، ويناصرون العدالة وحرية الانسان ، ويثورون على الطغاة والعتاة ، وعلى الجهل والتخلف ، أما هؤلاء فانهم في طبيعة المجاهدين في سبيل الله . قيل لرسول الله (ص) : ما تقول في الشعر ؟ فقال : « ان المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنما ينضحونهم بالنبل » . وهذا النوع من الشعر الذي هو نبل في قلوب الظالمين هو مما عناه الرسول الأعظم (ص) بقوله : ان من الشعر لحكمة . وقال تعالى : « خلق الانسان علمه البيان - ٤ الرحمن » . وليس من شك ان الشعر من أعلى فنون البيان وأبلغها ، كما أنه ثروة اللغة وكنزها الثمين .

ولذا استثنى سبحانه الشعراء الطيبين المجاهدين ، استثناهم بقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا) . أي انتصر الشعراء للحق وأهله ممن اعتدى عليه وعليهم ، ونافعوا عن الانسان وحرية وكرامته .. وهذا نص صريح من الله سبحانه على ان شعر الثورة ضد الظلم والطغيان هو من صميم الدين والايمان وصالح الأعمال ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم - ١٤٧ النساء » (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . هذا تهديد ووعد بسوء العاقبة لكل من طغى وبغى . والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطاهرين .

فهرست

سورة الإسراء

٧	الإسراء الآية ١
٨	الإسراء بالروح والجسد
١٠	بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى
١١	الدرس العملي في الإسراء
١٢	وآتيننا موسى الكتاب الآية ٢ - ٣
١٤	بنو اسرائيل والإفساد مرتين الآية ٤ - ٨
١٩	قضاء الله ودولة اسرائيل
٢١	القرآن يهدي للتي هي أقوم الآية ٩ - ١٢
٢٣	الاسلام دين الفطرة
٢٧	طائره في عنقه الآية ١٣ - ١٥
٢٩	أمرنا مترفيها ففسقوا فيها الآية ١٦ - ٢١
٣٠	المترفون
٣٤	فلا تقل لها أفّ الآية ٢٢ - ٢٥
٣٥	البر بالوالدين
٣٦	الوصايا العشر الآية ٢٦ - ٣٩
٣٩	أين العدل ؟
٤٠	الاسلام ونظرية الأخلاق

٤٣	القول بغير علم
٤٥	أفأصفاكم ربكم بالبنين الآية ٤٠ - ٤٤
٤٧	كل شيء يسبح بحمده
٤٨	وإذا قرأت القرآن الآية ٤٥ - ٤٨
٥١	أفذا كنا عظاماً ورفاناً الآية ٤٩ - ٥٢
٥٣	وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن الآية ٥٣ - ٥٧
٥٦	وان من قرية الآية ٥٨ - ٦٠
٥٧	المهدي المنتظر
٦٠	فسجدوا إلا ابليس الآية ٦١ - ٦٥
٦٢	تقديم الأفضل على المفضول
٦٤	يزجي لكم الفلك الآية ٦٦ - ٦٩
٦٥	كرمنا بني آدم الآية ٧٠ - ٧٢
٦٦	بماذا كرم الله بني آدم ؟
٧٠	هل يُخدع النبي عن دينه الآية ٧٣ - ٧٧
٧٢	أقم الصلاة لدلوك الشمس الآية ٧٨ - ٨١
٧٦	قوة الحق وقوة الباطل
٧٧	القرآن شفاء ورحمة الآية ٨٢ - ٨٥
٧٩	الروح من أمر ربي
٧٩	الله وعلم الخلايا
٨١	لئن شئنا لنذهبن الآية ٨٦ - ٨٩
٨٣	التفكير من خلال المال الآية ٩٠ - ٩٦
٨٤	حب الذات
٨٧	ومن يهد الله الآية ٩٧ - ١٠٠
٩٠	أتينا موسى تسع آيات الآية ١٠١ - ١٠٤
٩٣	وبالحق أنزلناه الآية ١٠٥ - ١١١

هل نزل القرآن نجوماً ؟ ٩٥
الحنفاء ٩٦

سورة الكهف

- ١٠٠ أنزل على عبده الكتاب الآية ١ - ٨
١٠٣ أصحاب الكهف والرقيم الآية ٩ - ١٢
١٠٦ نبأهم بالحق الآية ١٣ - ١٨
١١١ وكذلك بعثناهم الآية ١٩ - ٢٢
١١٦ ان شاء الله الآية ٢٣ - ٢٦
١١٧ المشيئة العليا
١٢٠ واتل ما أوحى اليك الآية ٢٧ - ٢٩
١٢٣ لا نضيع أجر من أحسن الآية ٣٠ - ٣١
١٢٤ بين غني كافر وفقير مؤمن الآية ٣٢ - ٤٤
١٢٦ خلاصة القصة
١٣١ زينة الحياة الدنيا الآية ٤٥ - ٤٦
١٣٢ المال والبنون زينة الحياة الدنيا
١٣٣ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً الآية ٤٧ - ٤٩
١٣٥ سجدوا إلا إبليس الآية ٥٠ - ٥٣
١٣٨ وكان الانسان أكثر شيء جدلاً الآية ٥٤ - ٥٦
١٤٠ ذكر بآيات ربه فأعرض الآية ٥٧ - ٥٩
١٤٢ موسى ومجمع البحرين الآية ٦٠ - ٦٤
١٤٤ موسى يلتقي بصاحبه الآية ٦٥ - ٧٠
١٤٦ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة الآية ٧١ - ٨٣
١٤٧ الوقوف عند الشبهة
١٥٥ ذو القرنين الآية ٨٤ - ٩٢
١٥٨ يأجوج ومأجوج الآية ٩٣ - ١٠٠

١٦٢	جهنم والأخسرون أعمالاً الآية ١٠١ - ١٠٧
١٦٥	الذين آمنوا وعملوا الصالحات ١٠٨ - ١١١
	سورة مريم
١٦٨	ذكرها الآية ١ - ٦
١٧٠	البشارة يحيى الآية ٧ - ١١
١٧١	يحيى الآية ١٢ - ١٥
١٧٣	مريم الآية ١٦ - ٢١
١٧٥	الحمل بعيسى الآية ٢٢ - ٢٦
١٧٨	لقد جئت شيئاً فريباً الآية ٢٧ - ٣٥
١٨٠	هذا صراط مستقيم الآية ٣٦ - ٤٠
١٨٢	ابراهيم الآية ٤١ - ٥٠
١٨٦	موسى واسماعيل وادريس الآية ٥١ - ٥٨
١٨٧	الوفاء
١٨٩	فخلف من بعدهم خلف الآية ٥٩ - ٦٥
١٩١	لسوف أخرج حياً الآية ٦٦ - ٧٢
١٩٣	أي الفريقين خير الآية ٧٣ - ٧٦
١٩٦	أفرايت الذي كفر بآياتنا الآية ٧٧ - ٨٧
١٩٩	قالوا اتخذ الرحمن ولداً الآية ٨٨ - ٩٨
٢٠١	النصارى وبنو هاشم

سورة طه

٢٠٣	طه الآية ١ - ٨
٢٠٥	حديث موسى الآية ٩ - ١٦
٢٠٦	تكرار قصة موسى
٢٠٨	وما تلك يمينك يا موسى الآية ١٧ - ٣٥
٢١٣	حقيقة النبوة
٢١٥	علي وهارون
٢١٥	قد أوتيت سؤلك يا موسى الآية ٣٦ - ٤١
٢١٨	اذهب أنت وأخوك الآية ٤٢ - ٤٨

٢٢٠	فن ربكما يا موسى الآية ٤٩ - ٥٦
٢٢٣	فرعون يجمع السحرة الآية ٥٧ - ٦٤
٢٢٧	بين موسى والسحرة الآية ٦٥ - ٧٦
٢٣١	فاضرب لهم طريقاً في البحر الآية ٧٧ - ٨٢
٢٣٣	السامريّ والعجل الآية ٨٣ - ٨٩
٢٣٧	موسى يعتب على هرون الآية ٩٠ - ٩٨
٢٤٠	غرائب اسرائيل
٢٤١	كذلك نقصّ عليك الآية ٩٩ - ١١٢
٢٤٥	أنزلناه قرآناً عربياً الآية ١١٣ - ١٢٢
٢٤٧	أوصاف القرآن
٢٤٨	زدني علماً
٢٥٠	قال اهبطا منها الآية ١٢٣ - ١٢٩
٢٥٣	فاصبر على ما يقولون الآية ١٣٠ - ١٣٢
٢٥٥	فقهر النبي معجزة كبرى
٢٥٦	لولا يأتينا بآية الآية ١٣٣ - ١٣٥
	سورة الأنبياء
٢٦١	اقرب للناس حسابهم الآية ١ - ٦
٢٦٣	فاسألوا أهل الذكر الآية ٧ - ١٥
٢٦٥	محمد والعرب
٢٦٦	هل أفعاله تعالى معللة بالأغراض الآية ١٦ - ٢٣
٢٦٩	من علم حجة على من لا يعلم
٢٧٠	هاتوا برهانكم الآية ٢٤ - ٢٩
٢٧٢	وجعلنا من الماء كل شيء حي الآية ٣٠ - ٣٦
٢٧٦	خلق الانسان من عجل الآية ٣٧ - ٤٤
٢٧٩	انذركم بالوحي الآية ٤٥ - ٥٠
٢٨٠	الميزان يوم القيامة وصاحب الأسفار
٢٨٢	ابراهيم الآية ٥١ - ٦٠
٢٨٥	قالوا فأتوا به الآية ٦١ - ٧٠
٢٨٨	ونجيناه ولوطاً الآية ٧١ - ٧٧

- ٢٩٠ داود وسليمان الآية ٧٨ - ٨٢
- ٢٩٣ وأيوب اذ نادى ربه الآية ٨٣ - ٩١
- ٢٩٦ أمة واحدة الآية ٩٢ - ١٠٠
- ٣٠٠ الأرض يرثها عبادي الصالحون الآية ١٠١ - ١٠٧
- ٣٠٢ أيضاً المهدي المنتظر
- ٣٠٣ انما الحكم لله واحد الآية ١٠٨ - ١١٢

سورة الحج

- ٣٠٦ البعث الآية ١ - ٧
- ٣٠٨ جدال الجهل والضلال
- ٣١٢ أسباب المعرفة في آية واحدة الآية ٨ - ١٤
- ٣١٦ فليمدد بسبب الى السماء الآية ١٥ - ١٨
- ٣١٨ هذان خصمان اختصموا في ربهم الآية ١٩ - ٢٥
- ٣٢١ وطهر بيتي للطائفين والقائمين الآية ٢٦ - ٢٩
- ٣٢٤ حرمت الله وشعائره الآية ٣٠ - ٣٥
- ٣٢٨ والبدن جعلناها لكم الآية ٣٦ - ٣٧
- ٣٣٠ ان الله يدافع عن الذين آمنوا الآية ٣٨ - ٤١
- ٣٣٥ وان يكذبوك الآية ٤٢ - ٥١
- ٣٣٩ تمني النبي وإلقاء الشيطان في أميته الآية ٥٢ - ٥٧
- ٣٤٢ والذين هاجروا الآية ٥٨ - ٦٤
- ٣٤٤ يمسك السماء أن تقع الآية ٦٥ - ٧٠
- ٣٤٧ ويعبدون من دون الله الآية ٧١ - ٧٦
- ٣٤٨ صفحات الوجه ونظرات العينين
- ٣٤٩ حول عقيدة التوحيد
- ٣٥١ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون الآية ٧٧ - ٧٨

سورة المؤمنون

٣٥٧	صفات المؤمنين الآية ١ - ١١
٣٥٩	خلق الانسان والسماوات الآية ١٢ - ١٧
٣٦٠	الله والانسان
٣٦٢	معنى السماوات السبع
٣٦٣	وأنزّلنا من السماء ماء الآية ١٨ - ٢٢
٣٦٤	نوح الآية ٢٣ - ٣٠
٣٦٧	هود الآية ٣١ - ٤١
٣٧٠	كلما جاء أمة رسوها كذبوه الآية ٤٢ - ٥٠
٣٧٢	رب واحد ودين واحد الآية ٥١ - ٥٥
٣٧٥	أيضاً صفات المؤمنين الآية ٥٧ - ٦٢
٣٧٧	بل قلوبهم في غمرة الآية ٦٣ - ٧٢
٣٧٩	نور الشمس وأهواء المترفين
٣٨٠	تدعوهم الى صراط مستقيم الآية ٧٣ - ٨٠
٣٨٢	قالوا مثل ما قال الأولون الآية ٨١ - ٩٠
٣٨٥	عالم الغيب والشهادة الآية ٩١ - ١٠٠
٣٨٧	الدفاع بالأحسن
٣٨٨	فلا انساب بينهم يومئذ الآية ١٠١ - ١١١
٣٩١	كم لبثتم في الأرض الآية ١١٢ - ١١٨

سورة النور

٣٩٤	حكم الزنا والقذف الآية ١ - ٥
٣٩٩	اللعان بين الزوجين الآية ٦ - ١٠
٤٠١	جاءوا بالإفك الآية ١١ - ٢٠
٤٠٣	ملخص قصة الإفك
٤٠٧	لا تتبعوا خطوات الشيطان الآية ٢١ - ٢٥

٤١٠	الحبيثات للخبيثين الآية ٢٦ - ٢٩
٤١٣	الحجاب وغطى النظر الآية ٣٠ - ٣١
٤١٥	سفور أم متجر لبيع اللحوم
٤١٨	وأنكحوا الأيامى منكم الآية ٣٣ - ٣٤
٤٢٢	المنطوق والمفهوم
٤٢٣	الله نور السموات والأرض الآية ٣٥ - ٣٨
٤٢٦	أعمالهم كسراب الآية ٣٩ - ٤٢
٤٢٩	الماء الآية ٤٣ - ٤٦
٤٣١	المنافقون الآية ٤٧ - ٥٤
٤٣٣	امتحن دينك وإيمانك
٤٣٥	استخلاف المؤمنين في الأرض الآية ٥٥ - ٥٧
٤٣٧	وجه آخر لإعجاز القرآن
٤٣٨	الطفل والمملوك والاستئذان الآية ٥٨ - ٦٠
٤٤١	ليس على الأعمى حرج الآية ٦١
٤٤٣	لم يذهبوا حتى يستأذنوا الآية ٦٢ - ٦٤

سورة الفرقان

٤٤٧	نزل الفرقان على عبده الآية ١ - ٦
٤٥٠	يأكل الطعام ويمشي في الأسواق الآية ٧ - ١٦
٤٥٣	منطق أرباب المال : بنك وعقار
٤٥٣	شأن الجاهل المغرور
٤٥٥	ويوم يحشرهم وما يعبدون الآية ١٧ - ٢٠
٤٦١	لا بشرى يومئذ للمجرمين الآية ٢١ - ٢٩
٤٦٤	اتخذوا هذا القرآن الآية ٣٠ - ٤٠
٤٦٩	أهدا الذي بعث الله رسولا الآية ٤١ - ٤٤
٤٦٩	بين موقنين لعيسى ومحمد

٤٧١	أضل من الأنعام
٤٧٢	وراء الظواهر الطبيعية الآية ٤٥ - ٥٤
٤٧٥	القرآن والاذاعة
٤٧٧	وكان الكافر على ربه ظهيراً الآية ٥٥ - ٦٢
٤٨٠	عباد الرحمن الآية ٦٣ - ٧٧
	سورة الشعراء
٤٨٦	لعلك بانح نفسك الآية ١ - ٩
٤٨٨	موسى الآية ١٠ - ٢٢
٤٩٢	قال فرعون وما رب العالمين الآية ٢٣ - ٣٧
٤٩٥	جاء السحرة الآية ٣٨ - ٥١
٤٩٧	إغراق فرعون وقومه الآية ٥٢ - ٦٨
٥٠٠	ابراهيم الآية ٦٩ - ٨٩
٥٠٣	الجنة للمتقين والجحيم للغاوين الآية ٩٠ - ١٠٤
٥٠٥	نوح الآية ١٠٥ - ١٢٢
٥٠٧	هود الآية ١٣٣ - ١٤٠
٥١٠	صالح الآية ١٤١ - ١٥٩
٥١٢	لوط الآية ١٦٠ - ١٧٥
٥١٤	شعيب الآية ١٧٦ - ١٩١
٥١٦	نزل به الروح الأمين الآية ١٩٢ - ٢١٢
٥٢٠	وأندر عشيرتك الأقربين الآية ٢١٣ - ٢٢٠
٥٢٣	الشعراء يتبعهم الغاؤون الآية ٢٢١ - ٢٢٧
٥٢٦	فهرست

مكتبة العواديين

مؤسسة السيد شهاب الدين الحسيني

الشمستان

تأسست سنة ١٣٦٠ - ١٩٤١

عصا السكاخرية - العراق

